مكتبة الطفل

الأكثـــر مبيـــعًا

د.جوردون نيوفيلد

د.جابـور ماتيـه

GABOR MATÉ

GORDON NEUFELD

تمسك بأطفالك

لماذا ينبغي أن يكون الآباء أقرب من الأصدقاء؟

HOLD ON TO YOUR KIDS

WHY PARENTS NEED TO MATTER MORE THAN PEERS



كتاب يجب أن يقرأه كلُّ مَن يرعى أطفالًا. - صحيفة Ottawa Citizen

ترجمة: نورهان عبد السلام

تمسك بأطفالك



الأكثـــــر مبيـــعًا

د.جوردون نيوفيلد

د.جابـور مـاتيـــه

GABOR MATÉ

GORDON NEUFELD

تمسك بأطفالك

لماذا ينبغي أن يكون الآباء أقرب من الأصدقاء؟

HOLD ON TO YOUR KIDS

WHY PARENTS NEED TO MATTER MORE THAN PEERS

كتاب يجب أن يقرأه كلُّ مَن يرعى أطفالًا. - صحيفة Ottawa Citizen

عصير الكتب

ترجمة: نورهان عبدالسلام



إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي:
Hold on to Your Kids: Why Parents Need to Matter More Than Peers
- العنوان العربي:
تمسك بأطفالك: لماذا ينبغي أن يكون الآباء أهم من الأصدقاء؟
- طُبِع بواسطة: Vintage Canada

- ترجمة: نورهان عبد السلام
- تدقيق لغوي: د. محمد حماده جاد
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: يناير/ 2023م
- رقم الإيداع: 2023/5521م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-254-6

نهدي هذا الكتاب إلى أبنائنا.

وكذلك إلى أبناء أبنائنا، في الحاضر والمستقبل.

لقد ألهمونا هذه الأفكار،

ومنحونا سببًا وجيهًا لصياغتها.

تمارا، وناتاشا، وبريا، وشاي، وبرادن،

ودانيال، وآرون، وهانا،

وكيارا، وجوليان، وسينيد.

لا معنى للأفعال إلا في إطار العلاقات، ومن دون فهم العلاقات، لن تُوَلِّدَ الأفعالُ على كافة المستويات إلا صراعًا. إن فهم العلاقات أهم بكثير من البحث عن أي خطة عمل.

- ***جِدُّو كريشنامورتي***

المحتويات

رسالة إلى القارئ

أعرف جوردن نيوفيلد منذ سنوات عديدة، حيث التقينا أول مرة عندما لجأتُ إليه أنا وزوجتي راي طلبًا للمشورة بخصوص ابننا الأكبر. وكان عمر ابننا حينها ثمانية أعوام. لقد ظننا أن بين أيدينا طفلًا مضطربًا. وأوضح لنا جوردون في وقت قصير أن المشكلة لم تكن في الطفل، أو فينا، وإنما في النهج الذي نتبعه في علاقتنا معه. وبعد بضع سنوات، انتابنا القلق عندما لم يعد ابننا الثاني –وهو في سن المراهقة– يتقبل سلطتنا، أو حتى يرغب في صحبتنا. لقد استشرنا جوردون مجددًا، وكان رَدُّه أنه ينبغي لنا أن نجتذب هذا الابن مرة أخرى ليعود إلى علاقته معنا، بعيدًا عن أقرانه. كانت هذه المرة الأولى التي أتعرف فيها على مفهوم التوجه نحو الأقران للدكتور نيوفيلد، وعلى الأقران الذين حلوا محل الأبَوَين، باعتبارهما صاحبي التأثير الأساسي على الأبناء، وعلى الآثار السلبية العديدة المترتبة على هذا التحول، والمتفشية في المجتمع المعاصر. لقد كانت لدي أسبابٌ كثيرة تجعلني ممتنًا منذ ذلك الحين للأفكار التي اكتسبتها أنا وراي بعد ذلك.

لقد ألَّفنا أنا وجوردون كتاب «تمسك بأطفالك» لهدف أساسي، يتمثل في إعادة إيقاظ غرائز الأبوة الطبيعية التي يتمتع بها الناس. وإذا نجح كتابنا في تحقيق هذه الغاية، قَلَبَ موازين كثيرٍ مما يُعَدُّ حاليًا تصرفات حكيمة فيما يتعلق بكيفية تربية الأطفال، وتعليمهم. ولا ينصَبُّ تركيزنا على ما يجب على الآباء فعله، وإنما على الشخصية التي ينبغي أن يمثلوها من أجل أبنائهم. إننا

نقدم في هذا الكتاب فهمًا للطفل، ونموه، وكذلك العقبات التي تشكل اليوم عائقًا أمام التطور الصحي لأطفالنا. ومن خلال هذا الفهم، ومن خلال الالتزام الصادق الذي يبديه الآباء تجاه مهمة تربية الأطفال، ستظهر الحكمة العفوية والرحيمة، التي تمثل أصل التربية الناجحة.

إن الهوس الحديث بالتربية باعتبارها مجموعة من المهارات التي ينبغي اتباعها وفقًا للمبادئ التي يوصي بها الخبراء هو في الواقع نتيجة لغياب البديهيات، وغياب العلاقة مع الأطفال، التي استطاعت الأجيال السابقة أن تعتبرها أمرًا مسلمًا به. إن هذا هو جوهر الوالدية، العلاقة. قد تختارنا طبيعتنا البيولوجية، أو الزواج، أو التبني للاضطلاع بهذه العلاقة، ولكن لا يمكن توطيدها إلا من خلال تواصل متبادل مع طفلنا. وعندما تتوطد علاقة الأبوة، تنشط الغرائز الطبيعية التي تُملي علينا بحصافة تفوق أي خبير كيفية تربية وتعليم الصغار الذين نتولى رعايتهم. إن السر يكمن في احترام علاقتنا بأطفالنا في جميع تفاعلاتنا معهم.

في عالم اليوم، ولأسباب سنوضحها، يجري تقويض دور الأبوة. إننا نواجه منافسةً خبيثةً للغاية، من شأنها اجتذاب أطفالنا بعيدًا عنا، بينما نُجتَذَبُ نحن بعيدًا عن أدوارنا الوالدية في الوقت نفسه، فلم يعد لدينا الأساس الاقتصادي والاجتماعي لثقافة تدعم الأبوة وتحافظ على قدسية رسالتها. ولَإِنْ استطاعت الثقافات السابقة أن تفترض أن ارتباط الأطفال بآبائهم كان راسخًا ودائمًا، فإنها رفاهية لا نملكها نحن. وبصفتنا آباء معاصرين، علينا أن ندرك ما الذي نفتقر إليه، ولماذا وكيف لا تسير الأمور كما ينبغي في تربية أطفالنا ومراهقينا وتعليمهم. إن هذا الوعي سيؤهلنا لمواجهة التحدي المتمثل في إقامة علاقة مع أطفالنا نعود فيها –نحن البالغون القائمون بالرعاية– إلى القيادة، بعيدًا عن الاعتماد على الإكراه، والعواقب المُفتَعَلَة لكسب تعاون أطفالنا، وامتثالهم، واحترامهم. وفي ظل العلاقة القائمة بيننا وبين أطفالنا، سيصلون إلى قدر من النمو يتمثل في تحولهم إلى أناس ناضجين، ومستقلين، ومُحَفَّزين ذاتيًا، يقدرون قيمة أنفسهم، ويراعون مشاعر الآخرين، وحقوقهم، وكرامتهم الإنسانية.

ينقسم كتاب «تمسك بأطفالك» إلى خمسة أجزاء. يشرح الجزء الأول ماهية التوجه نحو الأقران، وكيف تطوَّر إلى دينامية متفشية في ثقافتنا. ويوضح

الجزءان الثاني والثالث بالتفصيل الآثار السلبية العديدة للتوجه نحو الأقران على قدرتنا على التربية، وعلى نمو أطفالنا، على التوالي. كما إن في هذه الأجزاء الثلاثة الأولى، تُحَدَّدُ الخطوط العريضة لنمو الطفل الصحي، في مقابل التطور المنحرف، الذي تعززه ثقافة الأقران. ويطرح الجزء الرابع برنامجًا لبناء علاقة راسخة مع أطفالنا، تكون مثل شرنقةٍ آمنةٍ لينضجوا بداخلها. الجزء الخامس والأخير يشرح كيفية منع استدراج عالم الأقران أطفالَنا.

إن خلفية الدكتور نيوفيلد وخبرته كونه طبيبًا نفسانيًّا، وعمله الأصيل البارع، يمثلون مصدر الأطروحة الرئيسية التي نقدمها، والنصائح التي ننصح بها. ومن هذا المنطلق، يُعتَبَر هو المؤلف الوحيد لهذا الكتاب. لقد سأله العديد من الآلاف من الآباء والمعلمين الذين حضروا ندواته على مدار عقود بشيء من نفاد الصبر: «متى سيصدر كتابك؟». أما مساهمتي، فقد تمثَّلت في إعداد ونشر كتاب «تمسك بأطفالك»، حيث لم يعد في حاجة إلى تأجيله لوقت لاحق في المستقبل. وكان التخطيط للكتاب، وكتابته، وصياغته مثل عملٍ مشتركٍ بيننا.

إنني أشعر بالفخر للمساعدة في إيصال أفكار جوردون نيوفيلد الباعثة على التغيير إلى قاعدة أوسع من الجماهير. لطالما انتظرنا ذلك منذ وقت طويل، وكلانا يشعر بالامتنان لبناء صداقة، وشراكة عمل جعلت تأليف هذا الكتاب أمرًا ممكنًا. ونحن على أمل –بل ونؤمن بثقة– أن القارئ سيرى أيضًا أن تعاوننا كان مُوَفَّقًا.

نود أيضًا أن نعرب عن تقديرنا لكلٍّ من مُحَرِّرَتَينا: دايان مارتن في تورونتو، وسوزانا بورتر في نيويورك. لقد أبصرت دايان ما بهذا العمل من إمكانات منذ بدايته، ودعمته بقوة طوالِ الوقت. وشقت سوزانا طريقها بصبرٍ واحترافيةٍ عبر مسودة ثقيلة، وصعبة الفهم إلى حد ما، وساعدت بفضل اقتراحاتها الذكية في تمهيد الطريق أمامنا لإعداد نسخة أسهل، وأفضل تنظيمًا، حيث تصل رسالتنا بقدر أكبر من الوضوح. وقد أثمر ذلك عن كتابٍ سيجده القُرَّاء أكثر تجانسًا، وسيكون المؤلفان بالتأكيد أكثر رضًا عنه.

د. جابور ماتيه

الجزء الأول

ظاهرة التوجه نحو الأقران

1

لماذا أصبح الآباء أهمَّ من ذي قبل

يجلس جيرمي البالغ من العمر اثني عشر عامًا منكفـئـًا على لوحة المفاتيح، وعيناه تحدقان إلى شاشة الحاسوب. إنها الثامنة مساءً، وما زال أمامه شوط طويل لإنجاز واجبات الغد المدرسية، إلا إن نصائح والده المتكررة بمواصلة العمل تقع على أذنين صَمَّاوَين. يتبادل جيرمي الرسائل مع أصدقائه على تطبيق «ماسنجر»، تدور أحاديثهم حول من يحب من، ومن هم أصدقاؤهم، ومن هم أعداؤهم، ويتنازعون حول من قال ماذا لمن في المدرسة في ذلك اليوم، وآخر الأخبار عمَّن هو جذاب، ومن هو ليس كذلك. يصيح جيرمي بأبيه غاضبًا: «كُفَّ عن إزعاجي!»، إذ أتى مجددًا ليُذَكِّرَه بالواجبات المدرسية. يرد الأب بنبرة صوت ترتعد في إحباط: «ما كنتُ لأزعجكَ لو كنتَ مُشتَغِلًا بما ينبغي لك فعله». تشتعل المشادة اللفظية، وتزداد حدة الأصوات، وبعد لحظات قليلة يصرخ جيرمي قائلًا: «أنت لا تفهم أي شيء»، وهو يصفق الباب بقوة.

تنتاب الأب مشاعر الاستياء والغضب من جيرمي، ولكنه غاضب من نفسه في المقام الأول. يحدث نفسه قائلًا: «لقد أفسدتُ الأمر مرة أخرى. إنني لا أعرف كيف أتواصل مع ابني». ويشعر هو وزوجته بالقلق تجاه جيرمي. لقد

كان طفلًا متعاونًا، والآن أصبح من المستحيل السيطرة عليه، أو حتى نصحه. من الواضح أن اهتمامه يَنصَبُّ فقط على التواصل مع أصدقائه. وتتكرر هذه المواجهة نفسها في المنزل عدة مرات في الأسبوع، ولا يستطيع الطفل ولا الأبوان التجاوب بأي أفكار أو أفعال جديدة للخروج من هذا المأزق. تنتاب كلا الأبوين مشاعر العجز وقلة الحيلة، فهما لم يعتمدا على العقاب كثيرًا قط، ولكنهما أصبحا الآن أكثر ميلًا نحو «فرض العقوبات». وحينما يفعلان ذلك، يصبح ابنهما أكثر سخطًا وعنادًا.

هل يُفتَرَضُ أن تكون التربية بهذه الصعوبة؟ أكان الأمر دائمًا كذلك؟ لطالما اشتكت الأجيال السابقة فيما مضى أن الشباب قد أصبحوا أقل احترامًا وانضباطًا عن ذي قبل. ولكن اليوم يعرف العديد من الآباء بحدسهم أنه ثمَّة خطب ما، فالأطفال ليسوا كما نتذكرهم تمامًا. إنهم لا يحبذون الاقتداء بالكبار، ولا يكادون يخافون التورط في المشكلات. ومن الواضح أيضًا أنهم أقل براءة وسذاجة، فهم على ما يبدو يفتقرون إلى الدهشة المُفعَمَة بالبراءة، التي تدفع الطفل نحو الإقبال على العالم لاستكشاف عجائب الطبيعة، أو الإبداع الإنساني. ويبدو أن العديد من الأطفال أصبحوا متحاذقين بشكل غير لائق، بل ومتَّخِمين بطريقة ما، وقد بلغوا نضجًا زائفًا قبل أوانهم. من الواضح أنهم يشعرون بالملل بسهولة عندما يبتعدون بعضهم عن بعض، أو عندما لا ينشغلون بوسائل التكنولوجيا. أما اللعب الانفرادي الإبداعي، فيبدو وكأنه من بقايا الزمن الماضي. تتذكر أم تبلغ من العمر أربعة وأربعين عامًا قائلة: «لقد كنت مفتونة أبدًا في طفولتي بالطين الذي كنت أستخرجه من حفرة بالقرب من منزلنا. لقد أحببتُ ملمسه، وأحببت تشكيله في قوالب، أو مجرد عجنه بين يديَّ. ومع ذلك، لا يمكنني أن أجعل ابني ذا السنوات الست يلعب بمفرده، إلا إذا كان بصحبة الحاسوب، أو ألعاب الفيديو».

يبدو أن التربية قد تغيرت هي الأخرى. لقد كان آباؤنا أكثر ثقةً واعتدادًا بأنفسهم، وتأثيرًا علينا، سواء للأفضل أو للأسوأ. أما في الوقت الحاضر، فالتربية لا تبدو أمرًا فطريًّا بالنسبة إلى الكثير من الناس. إن آباء اليوم يحبون أطفالهم بقدر ما أحب الآباء أطفالهم في أي وقت مضى، ولكن الحب وحده لا يكفي دائمًا. ونحن نتمتع بالقدر نفسه من الخبرات لنُعَلِّمَهم إياها، ولكن

قدرتنا على نقل خبراتنا قد تضاءلت بطريقة ما. إننا لا نشعر بأننا مُخَوَّلين بتوجيه أطفالنا نحو تحقيق إمكاناتهم. إنهم يعيشون ويتصرفون أحيانًا كما لو أنه قد تم استدراجهم بعيدًا عنا من قِبَلِ «نَدَّاهة» ساحرة لا نسمعها. ونخشى -ولو بشكل غامض- أن يكون العالم قد صار أقل أمانًا بالنسبة إليهم، وأننا عاجزون عن حمايتهم. وقد تبدو الفجوة التي تتسع بين الأطفال والكبار مستعصية الرأب في بعض الأحيان.

نحن نكافح لنرتقي إلى الصورة المرسومة في أذهاننا حول ما ينبغي أن تكون عليه التربية. وعندما لا نبلغ النتائج التي نرجوها، نتوسَّل إلى أطفالنا، أو نتملقهم، أو نرشوهم، أو نكافئهم، أو نعاقبهم. ونسمع أنفسنا نخاطبهم بنبرات تبدو قاسية حتى بالنسبة إلينا، ودخيلة على فطرتنا الحقيقية. ونشعر أننا نزداد برودًا في لحظات الأزمات، تمامًا في الوقت الذي نرغب فيه استحضار حبنا غير المشروط. وتنتابنا مشاعر الألم والخذلان كآباء. ونلوم أنفسنا على الفشل في مهمة التربية، أو نلوم أطفالنا على عنادهم، أو نلوم التلفاز على تشتيت انتباههم، أو نلوم النظام المدرسي على كونه غير صارم بما فيه الكفاية. وعندما يصبح عجزنا غير مُحتَمَل، نلجأ إلى أساليبٍ توجيهيةٍ مُبَسَّطَة، بما يتماشى مع روح «افعلها بنفسك - الحلول السريعة» التي يتسم بها عصرنا.

إن أهمية التربية في تطوير الصغار ونضوجهم باتت موضع تساؤل. تَصَدَّر عنوان مقالة «هل يشكل الآباء فارقًا؟» غلاف «مجلة نيوزويك» (Newsweek) في عام 1998. وقد ورد في كتاب حَظِيَ باهتمامٍ دوليٍّ في ذلك العام ما يلي: «لقد تمت المبالغة في طرح مسألة التربية. وتم إيهامك بأن لديك تأثيرًا على شخصية طفلك أكثر مما هو لديك في الواقع».

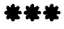
قد لا تكون مسألة تأثير الأبوين مهمة للغاية إذا كانت الأمور تسير على ما يُرام مع صغارنا. فكون أطفالنا لا يصغون إلينا ولا يعتنقون قِيَمَنا كما لو كانت نابعة منهم ربما يكون مقبولًا في حد ذاته إذا كانوا يتمتعون حقًّا بالاكتفاء والتوجيه والأصالة الذاتيين، وإذا كانوا يتمتعون بالشعور الإيجابي تجاه الذات، وإذا كان لديهم إدراك واضح للتوجهات والأهداف في الحياة. ولكننا نرى أن العديد من الأطفال والشباب يفتقرون إلى هذه الصفات. وفي كل من

البيوت، والمدارس، والمجتمع تلو الآخر، فقد الصغار استقرارهم النفسي. إن الكثيرين منهم يفتقرون إلى ضبط النفس، ويميلون بشكل متزايد إلى العزلة، أو تعاطي المخدرات، أو العنف، أو مجرد انعدام الهدف بشكل عام. إنهم أقل قابلية للتَّعَلُّم، وأكثر صعوبة في توجيههم مقارنة بنُظَرَائهم منذ عقود قليلة مضت. وقد فقد الكثيرون منهم قدرتهم على التَّكَيُّف والتعلم من التجارب السلبية والنضج. والآن، تُوصَفُ أدوية للاكتئاب، أو القلق، أو مجموعة من التشخيصات الأخرى، لأعداد غير مسبوقة من الأطفال والمراهقين.

لقد تَجَلَّت أزمة صغار السن في تنامي مشكلة التنمر في المدارس بشكل ينذر بالخطر، كما تتضح بصورة متطرفة للغاية في جرائم قتل الأطفال على يد الأطفال. ومثل هذه الفواجع، على الرغم من ندرتها، ليست سوى التفشي الأوضح لآفة واسعة الانتشار، وهي النزعة العدوانية المنتشرة في ثقافة الشباب اليوم.

يشعر الآباء الملتزمون والمسؤولون بالإحباط. وعلى الرغم من رعايتنا الحانية، فإن الأطفال يبدو عليهم التوتر الشديد. لم يعد الآباء وغيرهم من كبار السن هم المرشدون للشباب بالفطرة، كما كانت الحال دائمًا مع البشر، وهي ما تزال كذلك مع جميع الكائنات الأخرى التي تعيش في بيئاتها الطبيعية. إن الأجيال الأكبر سناً، والآباء والأجداد من مجموعة أبناء جيل الطفرة ينظرون إلينا نظرةً يشوبها عدم الفهم. يقولون بنبرة تجمع بين الحقيقة وسوء الفهم: «نحن لم نكن في حاجة إلى أدلة إرشادية عن التربية في أيامنا، لقد فعلنا ذلك فحسب».

إن هذا الوضع يعتبر من دواعي السخرية، إذ إن المعرفة عن نمو الأطفال أصبحت متوفرةً أكثر من أي وقت مضى، وباتت إمكانية وصولنا إلى الدورات والكتب المتعلقة بتربية الأطفال متاحةً أكثر من أي جيل سابق من الآباء.



السياق المفقود للتربية

إذن ما الذي تغير؟ المشكلة باختصار هي السياق. بغض النظر عن مدى حسن نياتنا، أو مهاراتنا، أو تعاطفنا، فإن التربية ليست أمرًا يمكننا ممارسته مع أي طفل ببساطة. إن التربية تتطلب سياقًا حتى تؤتي ثمارها. ويجب أن يكون الطفل منفتحًا حتى يتسنى لنا أن ننجح في رعايته، وطمأنته، وإرشاده، وتوجيهه، فالأطفال لا يمنحوننا تلقائيًّا صلاحية تربيتهم لمجرد أننا بالغون، أو لمجرد أننا نحبهم، أو نعتقد أننا نعرف ما فيه الخير لهم، أو أننا نريد مصلحتهم. وغالبًا ما يواجه الآباء هذه الحقيقة، كما يواجهها الآخرون الذين تتعين عليهم رعاية أطفال غير أطفالهم، سواء كانوا الآباء الحاضنين، أو جليسات الأطفال، أو المربيات، أو مقدمي الرعاية النهارية، أو المعلمين. وحتى في حالة تعامل المرء مع أطفاله، يمكن أن يخسر سلطة التربية الطبيعية إذا تلاشى سياقها.

إذا كانت المهارات التربوية، أو حتى محبة الأطفال غير كافية، فما المطلوب إذن؟ هناك نوع خاص لا غنى عنه من العلاقات، التي من دونها تفتقر التربية إلى أساس راسخ. ويطلق عليها علماء التطور –علماء النفس، أو غيرهم من العلماء الذين يدرسون التطور الإنساني– علاقة الارتباط. لكي يكون الطفل متقبلًا تربيته من قِبَلِ شخصٍ بالغ، يجب أن يكون مرتبطًا للغاية بذلك الشخص، ويرغب في التواصل معه والقرب منه. وفي أول حياة الطفل، يكون هذا الدافع للترابط جسديًّا تمامًا، إذ يتمسك الرضيع حرفيًّا بأمه، ويحتاج إلى حمله. وإذا سار كل شيء كما خُطِّطَ له، تَطَوَّرَ هذا الارتباط إلى قُربٍ عاطفي، ومن ثَمَّ شعور بالحميمية النفسية. إن الأطفال الذين يفتقرون إلى هذا النوع من التواصل مع أولئك المسؤولين عنهم يكون من الصعب للغاية تربيتهم، أو حتى تعليمهم في أغلب الأحيان. ولا يمكن لأي شيء غير علاقة الارتباط أن يوفر السياق المناسب لتربية الأطفال.

إن سر التربية لا يكمن فيما يفعله الوالد، وإنما فيمن يمثله الوالد بالنسبة إلى الطفل. عندما يسعى الطفل إلى التواصل والقرب منا، فإننا نحظى بمكانة كمربين، أو مقدمي دعم، أو مرشدين، أو قدوات، أو معلمين، أو مدربين. إننا

نمثل الموطن الأصلي الذي ينطلق منه الطفل المرتبط بنا بقوة ليخوض مغامراته في العالم، وملاذه الذي يعود إليه، ومنبع إلهامه. ولا يمكن لجميع المهارات التربوية في العالم أن تعوض عن غياب علاقة الارتباط. ولا يمكن لكل مشاعر الحب في العالم أن تصل من دون الحبل السُّرِّيِّ النفسي الذي يخلقه ارتباط الطفل بنا.

إن علاقة الارتباط بين الطفل والوالد يجب أن تستمر على الأقل ما دام الطفل يحتاج إلى التربية. وهو ما يزداد صعوبة في عالم اليوم. إن الآباء لم يتغيروا، لم يصبحوا أقل كفاءةً أو أقل تفانيًا. كما إن طبيعة الأطفال الأساسية لم تتغير، فهم لم يصبحوا أقل اعتماديةً أو أكثر عنادًا. الأمر الذي تغير هو الثقافة التي نربي أطفالنا في إطارها، فلم يعد ارتباط الأطفال بالآباء يحصل على الدعم المطلوب من الثقافة والمجتمع. وحتى العلاقات بين الآباء والأطفال، التي تتسم بالقوة والرعاية الكاملة في أول الأمر، يمكن أن تضعف مع انتقال أطفالنا إلى عالم لم يعد يُقَدِّر علاقة الترابط أو يدعمها. ويتزايد معدل تكوين الأطفال للارتباطات التي تتنافس مع ارتباطهم بآبائهم، الأمر الذي يؤدي إلى تلاشي السياق المناسب للتربية شيئًا فشيئًا. وليس الافتقار إلى الحب أو المعرفة التربوية هو ما يجعل ممارساتنا التربوية عديمة التأثير، وإنما يعود ذلك إلى تلاشي سياق الارتباط.

***

تأثير ثقافة الأقران

إن الارتباط الأول والأكثر ضررًا من بين الارتباطات المتنافسة التي تُضعِفُ المكانة الأبوية وحب الوالدين هو ارتباط أطفالنا المتزايد بأقرانهم. تتمثل الأطروحة التي يقدمها هذا الكتاب في كون الاضطراب الذي يؤثر على أجيال الأطفال والمراهقين الصغار الذين يتجهون الآن نحو مرحلة البلوغ ينبع من غياب توجُّه الأطفال نحو البالغين الذين يتولون رعايتهم في حياتهم. نحن بعيدون كل البعد هنا عن محاولة إنشاء اضطراب طبي نفسي جديد، فهذا آخر ما يحتاج إليه الآباء الحائرون اليوم. وإنما نستخدم كلمة «اضطراب»

بمعناها البسيط للغاية: اختلال النظام الطبيعي للأمور. أول مرة في التاريخ، يلجأ الصغار إلى التعلم والاقتداء والتوجيه، ليس من خلال الأمهات، والآباء، والمعلمين، وغيرهم من الكبار المسؤولين، ولكن من خلال الأشخاص الذين لم تكن طبيعتهم تصلح قط لوضعهم في دور المربين، وهؤلاء الأشخاص هم أقرانهم. إنهم غير قابلين للانقياد، أو التعلم، أو النضوج، لأنهم لم يعودوا يقتدون بالكبار. وعوضًا عن ذلك، يتولى تربية الأطفال أشخاص غير ناضجين، لا يستطيعون توجيههم إلى مرحلة النضوج. إنهم يتولون تربية بعضهم.

يبدو أن المصطلح الأنسب لهذه الظاهرة هو «التوجه نحو الأقران». وهذا التوجه نحو الأقران هو المسؤول عن كبت غرائزنا الوالدية، وتلاشي مكانتنا الطبيعية، كما إنه تسبب في كون ممارساتنا التربوية تنبع من عقلنا، وليس من قلبنا، من الكتب، ونصائح «الخبراء»، وتوقعات المجتمع المُشَوَّشة.

ما هو التوجه نحو الأقران؟

التوجه، تلك الرغبة في أن يتبين المرء سبيله، وأن يتعرف على محيطه، هو غريزة وحاجة إنسانية جوهرية. ويعتبر فقدان التوجه إحدى أصعب التجارب النفسية التي يمكن تَحَمُّلُها. إن الارتباط والتوجه مترابطان ترابطًا وثيقًا، فالبشر والمخلوقات الأخرى يوجهون أنفسهم تلقائيًّا من خلال محاولة الاقتداء بأولئك الذين يرتبطون بهم.

إن الأطفال -شأنهم شأن صغار جميع الكائنات ذات الدم الحار- يتمتعون بغريزة توجه فطرية: إنهم يحتاجون إلى اكتساب إحساسهم بالاتجاه من شخص ما. تمامًا كما يتحول المغناطيس تلقائيًّا نحو القطب الشمالي، فالأطفال يحتاجون إلى اكتشاف طريقهم من خلال التحول نحو مصدر الثقة، والاتصال، والدفء. ولا يمكن للأطفال أن يتحملوا عدم وجود مثل هذه الشخصية في حياتهم. إنهم يضلون طريقهم. ولا يمكنهم تحمل ما أسميه «فقدان التوجه».[1]* إن الوالد، أو أي شخص بالغ يُحِلُّه محله، هو القطب المَعنِي بتوجيه الطفل كما تقتضي الفطرة، تمامًا كما يكون البالغون هم أصحاب التأثيرات التوجيهية في حياة جميع الحيوانات التي تربي صغارها.

---

(1) تشير صيغة المتكلم في هذا الكتاب إلى جوردون نيوفيلد، ما لم يُذكَر خلاف ذلك.

يُصادِف أن تتشابه غريزة التوجه هذه عند البشر إلى حَدٍّ كبير مع غريزة «التعلم بالطبع» عند صغار البط. يفقس صغير البط من البيضة، ويتعلق بأمه مباشرة. سيتبعها أينما ذهبت، ويفطن إلى خطاها وإرشاداتها حتى يكبر، ويتمتع باستقلالية تامة. وبالتأكيد هذه هي الكيفية التي تدعمها الفطرة. ومع ذلك، في حالة غياب البطة الأم، سيبدأ صغير البط في اتباع أقرب جسم متحرك، سواء كان ذلك إنسانًا، أو كلبًا، أو حتى لعبة متحركة. ولا داعي لذكر أنه لا الإنسان، ولا الكلب، ولا اللعبة مؤهلون لممارسة هذا الدور مثل البطة الأم للارتقاء بصغير البط هذا إلى ذكر بَطٍّ بالغ ماهر. وبالمثل، إذا لم يكن هناك شخص كبير مسؤول عن تربية الأطفال، تَوَجَّه الطفل إلى أي شخص قريب. لقد أدت الاتجاهات الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية في العقود الخمسة أو الستة الماضية إلى صرف الوالد عن مكانته المنشودة كصاحب التأثير التوجيهي على الطفل. لقد شغلت جماعة الأقران فجوة التوجه هذه، وقد أدى ذلك إلى نتائج مؤسفة.

كما سنبين لاحقًا، لا يمكن أن يتوجه الأطفال إلى كلٍّ من الكبار والأطفال الآخرين في الوقت نفسه. ولا يمكن للمرء أن يتبع مجموعتين من التوجيهات المتناقضة في آنٍ واحد. يجب أن يختار دماغ الطفل تلقائيًّا بين القيم الأبوية وقيم الأقران، والتوجيه الأبوي وتوجيه الأقران، والثقافة الأبوية وثقافة الأقران، إذا تبيَّنَ وجود تعارض بين أيٍّ منهم.

هل نقول إنه لا ينبغي أن يكون للأطفال أصدقاء في مثل عمرهم، أو ألا يقيموا علاقات مع الأطفال الآخرين؟ بل على العكس من ذلك، فإن هذه الروابط طبيعية، ويمكن لها أن تخدم غايةً طيبة. في الثقافات المرتكزة على الكبار، حيث تكون المبادئ التوجيهية والقيم هي تلك التي يعتنقها الأجيال الأكثر نضجًا، يرتبط الأطفال بعضهم ببعض دون أن يضلوا طريقهم، أو يرفضوا توجيهات آبائهم. أما في مجتمعنا، فلم تعد هذه هي الحال. أصبحت روابط الأقران تحل محل العلاقات مع الكبار، كمصادر أساسية لتوجيه الأطفال. إن الترابط بين الأقران ليس هو الأمر غير الطبيعي، وإنما أن يجب أن يصبح الأطفال هم أصحاب التأثير المهيمن على تطور بعضهم.

***

أمرٌ عادي، ولكنه ليس طبيعيًّا أو صِحِّيًّا

لقد صار التوجه نحو الأقران هو الأمر السائد في أيامنا هذه، حتى أصبح هو القاعدة. وبات العديد من علماء النفس والتربويين، وحتى عامة الناس، يرونه أمرًا طبيعيًا، أو في أكثر الأحيان لا يعترفون به كظاهرة خاصة يجب تمييزها. إنه ببساطة أمر مُسَلَّمٌ به، وكأنه الطريقة التي تجري بها الأمور. ولكن الأمر «العادي» وفقًا لقاعدة من القواعد لا يكون بالضرورة هو «الطبيعي» أو «الصحي». فلا يوجد شيء صحي أو طبيعي في التوجه نحو الأقران. لقد انتصرت هذه الثورة المضادة ضد النظام الطبيعي في الآونة الأخيرة فقط في أكثر البلدان تقدمًا من الناحية الصناعية، ويرجع ذلك إلى أسباب سنستكشفها لاحقًا. (انظر الفصل الثالث). ولا يزال التوجه نحو الأقران غريبًا على مجتمعات الشعوب الأصلية، وحتى في العديد من المناطق في العالم الغربي خارج المراكز الحضرية «المُعَولَمَة». وعلى مدى التطور البشري، وحتى وقتٍ قريب من الحرب العالمية الثانية، كان التوجه نحو الكبار هو الوضع الطبيعي في النمو الإنساني. أما نحن، الكبار، الذين يجب أن يكونوا في موضع المسؤولية (الآباء والمعلمون)، فلم نفقد تأثيرنا إلا مؤخرًا، دون أن ندرك حتى أننا قد انتهت بنا الحال إلى ذلك.

يظهر التوجه نحو الأقران في صورة طبيعية أو لا يُلتَفَتُ إليه لأننا أصبحنا بمعزلٍ عن فطرتنا، ولأننا أصبحنا نحن أيضًا متوجهين نحو الأقران دون وعي. وبالنسبة إلى المنتمين إلى أجيال ما بعد الحرب الذين وُلِدوا في إنجلترا، وأمريكا الشمالية، وأجزاء أخرى كثيرة من العالم الصناعي، فقد أعمانا انشغالنا بالأقران عن خطورة المشكلة.

لطالما كانت الثقافة تنتقل رأسيًا من جيل إلى جيل حتى وقت قريب. وعلى مدار آلاف من السنين، كما كتب جوزيف كامبل: «تَعَلَّمَ الشباب، وأصبح الكبار حكماء، من خلال تأمُّل الأنماط الثقافية التقليدية ومعايشتها وفهمها». إن الكبار يقومون بدورٍ بالغ الأهمية في انتقال الثقافة، وذلك بأخذ ما يتلقونه من آبائهم، ونقله إلى أطفالهم. ومع ذلك، فمن المُرَجَّحِ أن تكون الثقافة التي يتعرف عليها أطفالنا هي ثقافة أقرانهم أكثر من ثقافة آبائهم. يبتكر الأطفال

ثقافتهم الخاصة بهم، التي تكون مختلفةً جدًّا عن ثقافة آبائهم، وغريبةً أيضًا جدًّا في بعض الأحيان. وبدلًا من أن تنتقل الثقافة رأسيًّا، فإنها تنتقل أفقيًّا بين الجيل الأصغر سنًّا.

من الأمور الأساسية في أي ثقافة عاداتها، وموسيقاها، ولباسها، واحتفالاتها، وقصصها. إن الموسيقى التي يستمع إليها الأطفال لا تشبه موسيقى أجدادهم. أما مظهرهم، فيُمليه عليهم مظهر الأطفال الآخرين، وليس تراث الآباء الثقافي. وتتأثر حفلات أعياد الميلاد، وطقوس العبور الخاصة بهم بممارسات الأطفال الآخرين من حولهم، وليس بعادات آبائهم من قبلهم. إذا كان كل ذلك يبدو عاديًّا في نظرنا، فهذا فقط بسبب توجهنا نحن نحو أقراننا. ويعود وجود ثقافة شبابية مستقلة ومختلفة عن ثقافة الكبار إلى خمسين سنة فقط، أو نحو ذلك. ورغم أن نصف قرن يُعتَبَر وقتًا قصيرًا نسبيًّا في تاريخ البشرية، فإنه يمثل حقبةً كاملةً بالنسبة إلى حياة الفرد. وسيكون معظم قُرَّاء هذا الكتاب قد نشؤوا بالفعل في مجتمع تنتقل فيه الثقافة انتقالًا أفقيًّا وليس رأسيًّا. وفي كل جيل جديد، تكتسب هذه العملية -التي يُحتَمَلُ أن تؤدي إلى تآكل المجتمع المتحضر- قوةً وسرعةً جديدتين. ويبدو حتى في السنوات الاثنتين والعشرين التي تفصل بين طفلي الأول والخامس أن الآباء قد فقدوا مكانتهم.

وفقًا لدراسة دولية كبيرة برئاسة طبيب الأطفال النفسي البريطاني السير مايكل راتر، وعالم الإجرام ديفيد سميث، ظهرت ثقافة الأطفال أول مرة بعد الحرب العالمية الثانية، وهي واحدة من أكثر الظواهر الاجتماعية مأساوية وشؤمًا في القرن العشرين.[2] وقد ربطت هذه الدراسة، التي ضمت علماء بارزين من ست عشرة دولة، بين تصاعد حدة السلوك المعادي للمجتمع، وانهيار الانتقال الرأسي للثقافة السائدة. وتصاحب انتشار ثقافة الأطفال -المختلفة والمستقلة عن الثقافة السائدة- زيادة في جرائم الشباب، والعنف، والتنمر، والانحراف.

تصحب هذه الاتجاهات الثقافية العريضة أنماط مماثلة في نماء أطفالنا كأفراد. إن من نريد أن نكونه وما نطمح إليه يتحددان من خلال توجهنا، ومن قِبَلِ من نتخذهم قدوة لنا في كيفية تحقيق ذواتنا، وشكل تصرفاتنا،

من قِبَلِ أولئك الذين نتشابه معهم. وتؤكد الأبحاث النفسية الحالية على دور الأقران في خلق إحساس الطفل بهويته.[3] فعندما يُطلَبُ من الأطفال تعريف أنفسهم، غالبًا لا يشيرون حتى إلى آبائهم، ولكن بدلًا من ذلك يشيرون إلى قيم وتوقعات الأطفال الآخرين، ومجموعات الأقران التي ينتمون إليها. لقد تغير أمرٌ نظاميٌّ مهم. فبالنسبة إلى العديد من الأطفال اليوم، حل الأقران محل الآباء في خلق جوهر شخصياتهم.

لقد كانت جميع المؤشرات قبل بضعة أجيال تشير إلى أن الآباء هم الأهم. وأشار كارل يونج إلى أنه ليس حتى معظم ما يحدث في العلاقة بين الأبوين والطفل هو ما يكون له التأثير الأكبر على الطفل. ولكن كل ما يُفتَقد في تلك العلاقة يترك أكبر ندبة في شخصية الطفل، أو على حد تعبير طبيب الأطفال وعالم النفس الإنجليزي العظيم دونالد وودز وينيكوت: «لم يحدث أي شيء، في حين أنه كان من الممكن أن يحدث شيء مفيد». إنها فكرة مخيفة. والفكرة الأكثر إخافةً هي أنه إذا كان الأقران قد حَلُّوا محل الكبار كأكثر الأفراد أهمية، فإن ما يُفتَقَد في هذه العلاقات مع الأقران سيكون له التأثير الأعمق. ومن الأمور المُفتَقَدَة تمامًا في العلاقات مع الأقران: الحب والقبول غير المشروطين، والرغبة في الرعاية، والقدرة على بذل النفس من أجل الآخر، والاستعداد للتضحية من أجل نماء الآخر وازدهاره. وعندما نقارن العلاقات مع الأقران بالعلاقات مع الأبوين من ناحية ما تفتقده هذه العلاقات، يظهر الآباء في صورة الأولياء الصالحين. وتنبئ النتائج بحدوث كارثة للعديد من الأطفال.

بالتوازي مع زيادة التوجه نحو الأقران في مجتمعنا، هناك زيادة صادمة ومأساوية في معدلات الانتحار بين الأطفال، تصل إلى أربعة أضعاف في الأعوام الخمسين الماضية، للفئة العمرية بين 10 و14 عامًا في أمريكا الشمالية. وتعتبر معدلات الانتحار بين تلك المجموعة هي الأسرع تفاقمًا، مع زيادةٍ قدرها 120% في الفترة من 1980 إلى 1992 وحدها. لقد ارتفعت معدلات الانتحار هذه بشكل أكبر في المدن الداخلية، حيث يُرَجَّح أن يحل الأقران محل الوالدين.[4] ويتسم ما يقبع خلف حالات الانتحار هذه بدلالة بالغة. لقد افترضتُ دائمًا –مثل العديد من دارسي التنمية البشرية– أن التعرض

للرفض الأبوي سيكون هو العامل المُعَجِّل الأهم. ولكن لم يعد الأمر كذلك. لقد عَمِلتُ بعض الوقت مع المجرمين الشبان. وكان جزء من عملي هو دراسة الديناميات النفسية لدى الأطفال والمراهقين الذين حاولوا الانتحار، سواء نجحت هذه المحاولات أو لا. إن ما أصابني بصدمة تامة ودهشة محيرة، هو أن الدافع الرئيسي للغالبية العظمى كان الطريقة التي عاملهم بها أقرانهم، لا آباؤهم. لم تكن تجربتي فردية، وهو الأمر الذي تؤكده الأعداد المتزايدة من التقارير عن حالات الانتحار في مرحلة الطفولة بسبب التعرض للرفض من الأقران، والتنمر. وكلما حظي الأقران بأهمية أكبر، ازداد الضرر الواقع على الأطفال بسبب قسوة أقرانهم، أو الفشل في الاندماج، أو الرفض الملموس، أو النبذ الاجتماعي.

لا يسلم من ذلك أي مجتمع أو ثقافة، ففي اليابان على سبيل المثال، استسلمت القيم التقليدية التي يُوَرِّثها الكبار للتغريب، وصعود موجة الثقافة الشبابية. لقد كان هذا البلد خاليًا تقريبًا من الانحراف والمشكلات المدرسية بين أطفاله حتى وقت قريب جدًا، ولكنه يعاني الآن أكثر النتائج غير المرغوب فيها للتوجه نحو الأقران، بما في ذلك الخروج على القانون، والانتحار في سن الطفولة، وتزايد معدلات التسرب المدرسي. وقد نشرت مجلة «هاربر» مؤخرًا مجموعة مختارة من رسائل الانتحار التي تركها الأطفال اليابانيون. ذكر معظمهم التعرض لتنمر لا يُطاق من قبل أقرانهم، الذي كان سببًا في قرارهم التخلص من حياتهم.[5]

تظهر آثار التوجه نحو الأقران بصورة أكثر وضوحًا في المراهقين، ولكن تظهر علاماته المبكرة في الصف الثاني، أو الثالث. إن بداياته تعود إلى ما قبل مرحلة رياض الأطفال، ويجب أن يستوعبه جميع الآباء، وخصوصًا آباء الأطفال الذين يرغبون في تجنب المشكلة، أو تداركها بمجرد ظهورها.

***

صيحة إنذار

جاء الإنذار الأول منذ أربعة عقود. وردت إحالات مرجعية في الكتب الدراسية التي استخدمتُها لتدريس مقرراتي في علم نفس النمو والعلاقات بين الأبوين والطفل إلى باحث أمريكي في أوائل الستينيات، كان قد دقَّ ناقوس الخطر بأن الأقران قد حَلُّوا محل الآباء، كمصدر أساسي لتوجيه إرشادات السلوك والقيم. وفي دراسة على سبعة آلاف طفل من فئة صغار السن، اكتشف الدكتور جيمس كولمان أن العلاقات مع الأصدقاء تحظى بأولوية على العلاقات مع الآباء. وأعرَبَ عن قلقه من حدوث تحول جذري في المجتمع الأمريكي.[6] ومع ذلك، ظل العلماء متشككين، مشيرين إلى أن هذه كانت شيكاغو، وليست أمريكا الشمالية. وأبدوا تفاؤلًا بأن هذا الاكتشاف ربما كان بسبب اضطراب المجتمع الناجم عن الحرب العالمية الثانية، وسيختفي بمجرد عودة الأمور إلى طبيعتها. إن الاعتقاد الذي يقول بأن الأقران أصبحوا هم ذوو التأثير المهيمن على الطفل جاء من خلال حالات غير نموذجية على هامش المجتمع، وهو ما أكد أقوال منتقديه. وتم تجاهل مخاوف جيمس كولمان باعتبارها تهويلية.

إنني أيضًا كنت قد دفنت رأسي في الرمال، حتى كسر أطفالي حالة إنكاري فجأة. لم أتوقع قط أن أخسر أطفالي لصالح أقرانهم. ومما أثار استيائي، أنني لاحظتُ أنه عند وصول ابنتَيِّ الأكبر سنًّا إلى مرحلة المراهقة، بَدَأتَا تتمحوران حول صديقاتهما، وتتبعان خطاهن، وتقلدان لغتهن، وتتبنيان قيمهن. وأصبح من الصعب أكثر فأكثر إخضاعهما. وكل شيء فعلتُه لأُملِيَ عليهما أمنياتي وتوقعاتي زاد الأمور سوءًا. كان الأمر كما لو أن التأثير الأبوي الذي نظرتُ إليه أنا وزوجتي على أنه أمرٌ مُسَلَّمٌ به قد تلاشى فجأة. فأن يشاركنا أحدهم أطفالنا شيء، وأن يتم استبدالنا شيء آخر تمامًا. لقد اعتقدتُ أن طِفلتَيَّ منيعتان: إنهما لم تُظهِرَا أي اهتمام بشِلَلِ الأصدقاء، أو الانحراف، وقد تَرَبَّتا في ظل استقرارٍ نسبيٍّ مع عائلة كبيرة، أحبتهما حبًّا جمًّا، وعاشَتَا في مجتمع أسري متماسك، ولم تضطرب طفولتهما بسبب حرب عالمية كبرى. لا تبدو نتائج كولمان ذات صلة بحياة أسرتي. ومع ذلك، عندما بدأت في ربط

الأمور ببعضها، وجدت أن ما كان يحدث مع طِفلتَيَّ كان أمرًا نمطيًا أكثر منه استثنائيًا.

يتساءل كثير من الآباء: «أليس من المفترض أن نطلق لهم العنان؟ أليس من المفترض أن يصبح أطفالنا مستقلين عنا؟». نعم، بالتأكيد، ولكن فقط عندما ينتهي دورنا، وهذا فقط من أجل أن يتمتعوا بالذاتية. إن التكيف مع التوقعات غير الناضجة لجماعة الأقران ليس هو الكيفية التي يكبر بها الصغار ليصبحوا بالغين مستقلين يحترمون ذواتهم. إن التوجه نحو الأقران يعوق التطور السليم، من خلال إضعاف الحدود الطبيعية للارتباط والمسؤولية.

قد يعرف الأطفال ما يريدونه، ولكنه من الخطر افتراض أنهم يعرفون ما يحتاجون إليه. بالنسبة إلى الأطفال المتوجهين نحو الأقران، يبدو أنه من الطبيعي تفضيل التواصل مع الأصدقاء على القرب من العائلة، والوجود معهم قدر الإمكان، والتشبه بهم قدر الإمكان، فالطفل لا يعرف الأصلح. والتربية التي يكون مرجعها تفضيلات الطفل يمكن لها أن تُنَحِّيك عن مهامك قبل فترة طويلة من انتهاء دورك. ولكي نربي أطفالنا، يجب أن نستعيدهم، وأن نتولى مسؤولية تلبية احتياجاتهم من الارتباط.

تجذب المظاهر المتطرفة للتوجه نحو الأقران انتباه وسائل الإعلام: التنمر العنيف، وجرائم قتل الأقران، وانتحار الأطفال. وعلى الرغم من أننا جميعًا نشعر بالصدمة إزاء هذه الأحداث المروعة، فإن معظمنا لا يشعر بأنها تعنيه بشكل مباشر. وهي ليست محور هذا الكتاب. ولكن مثل هذه المآسي في مرحلة الطفولة ليست سوى العلامات الأكثر مأساوية على التوجه نحو الأقران، وهي ظاهرة لم تعد تقتصر على الغابات الخرسانية، والفوضى الثقافية في المراكز الحضرية الكبيرة، مثل شيكاغو، ونيويورك، وتورنتو، ولوس أنجلوس. لقد عصفت بالأحياء الأهلية، تلك المجتمعات التي تتميز بمنازل الطبقة المتوسطة، والمدارس الجيدة. ولا ينصَبُّ تركيز هذا الكتاب على ما يحدث هناك، على بعد خطوة واحدة منا، ولكنه ينصب على ما يحدث في عقر دارنا.

بالنسبة إلى كلٍّ منا نحن مؤلِّفَي هذا الكتاب، أتتنا صيحة الإنذار الخاصة بنا مع زيادة توجه أطفالنا نحو الأقران. ونأمل أن يكون كتاب «تمسك بأطفالك» مثل صيحة إنذار للآباء في كل مكان، وللمجتمع ككل.

***

الأخبار السارة

ربما لا نكون قادرين على تغيير القوى الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي تدفع إلى التوجه نحو الأقران، ولكن هناك الكثير مما يمكننا فعله في منازلنا وفصولنا الدراسية كي لا يتم استبدالنا قبل الأوان. ولأن الثقافة لم تعد تقود أطفالنا في الاتجاه الصحيح، نحو الاستقلال والنضج الحقيقيين، فإن الآباء، وغيرهم من الكبار المسؤولين عن تربية الأطفال، باتوا يحظون بالأهمية أكثر من أي وقت مضى.

لا شيء سيجدي نفعًا سوى إعادة العلاقة بين الأبوين والطفل (وبين الكبار والطفل) إلى أساسها الطبيعي. وتمامًا كما أن هذه العلاقة تقع في صميم صعوباتنا الحالية في التربية والتدريس، فهي أيضًا تقع في صميم الحل. إن الكبار الذين يؤسسون لمهاراتهم التربوية في إطار علاقة قوية يربون أطفالهم بالفطرة، فهم لا يضطرون إلى اللجوء إلى الأساليب، أو الإرشادات، ولكنهم يتصرفون بدافع من التفهم والتعاطف. فإذا كنا نعرف كيف نتعامل مع أطفالنا، ومن نحن بالنسبة إليهم، فإننا سنكون في حاجة إلى قدر أقل بكثير من النصح حول ما يجب فعله. إن الأساليب العملية تظهر بشكل عفوي من واقع تجربتنا الشخصية بمجرد استعادة العلاقة.

الخبر السار هنا هو أن الطبيعة تقف في صفنا. يريد أطفالنا أن ينتموا إلينا، حتى لو لم يشعروا بذلك، وحتى لو كانت كلماتهم أو أفعالهم تشير إلى عكس ذلك. ويمكننا استعادة دورنا المناسب بصفتنا مربين وموجهين لهم. في الجزء الرابع من هذا الكتاب، نقدم برنامجًا مفصلًا لإبقاء أطفالنا بالقرب منا حتى ينضجوا، ولإعادة تأسيس العلاقة، إذا كانت قد ضعفت أو تلاشت.

هناك دائمًا أمور يمكننا فعلها. وعلى الرغم من أنه لا يمكن ضمان نجاح أي نهجٍ في جميع الظروف، ففي تجربتي، يوجد العديد والعديد من النجاحات مقارنة بالإخفاقات، وذلك بمجرد أن يفهم الآباء أين يركزون جهودهم. ولكن كما هي الحال دائمًا، فإن العلاج يعتمد على التشخيص. لننظر أولًا إلى ما افتقدناه، وكيف انحرفت الأمور.



2

ارتباطات منحرفة وغرائز مُحَطّمة

كان والدا سينثيا البالغة من العمر أربعة عشر عامًا يشعران بالحيرة والذهول. لقد تغير سلوك ابنتهما خلال السنة الأخيرة لأسباب لم يتمكنا من فهمها. لقد أصبحت فَظَّة، وكتومة، وعدوانية في بعض الأحيان. كانت تبدو متجهمة الوجه برفقتهما، وفي الوقت نفسه تبدو سعيدة ولطيفة عندما تتواصل مع أصدقائها. كانت مهووسة بخصوصيتها، وتُصِرُّ على أنه لا دخل لوالديها بحياتها. لقد وجد كل من والدتها ووالدها صعوبةً في التحدث معها دون أن تجعلهما يشعران بالتطفل عليها. وبدت ابنتهما التي كانت رقيقة الطبع سابقًا أقل ارتياحًا في صحبتهما. لم يعد يبدو أن سينثيا تستمتع بالوجبات العائلية، وربما انسحبت من المائدة في أقرب فرصة ممكنة. لقد كان من المستحيل استكمال أي حديث معها. وكانت الحالة الوحيدة التي تتمكن فيها الأم من إقناع ابنتها بالانضمام إليها في بعض الأنشطة المشتركة هي إذا ما عرضت عليها الذهاب للتسوق لشراء الملابس. إن الفتاة التي ظَنّا أنهما يعرفانها أصبحت لغزًا الآن.

في نظر والدها، كان وضع سينثيا المزعج الجديد يمثل مشكلة سلوكية بحتة. لقد أراد بعض النصائح حول كيفية جعلها مطيعة، بعد أن فشل

في الأساليب المعتادة في التربية: كالعقوبات، والمنع من الخروج، والوقت التأديبي المستقطع. لم تؤدِّ هذه الأساليب إلا إلى صعوبات أكبر. أما الأم، فقد شعرت من جانبها باستغلال ابنتها لها، بل حتى إساءة معاملتها. لقد كانت في حيرة من أمرها لتفهم سلوك سينثيا. هل كان الأمر يمثل التمرد الطبيعي في سن المراهقة؟ هل كانت هرمونات فترة المراهقة هي السبب؟ هل ينبغي أن يشعر الوالدان بالقلق؟ كيف يجب أن تكون ردة فعلهما؟

يصبح سبب سلوك سينثيا المحير منطقيًّا فقط إذا تصورنا السيناريو نفسه في عالم الكبار. تخيل أن زوجك أو حبيبك بدأ فجأةً في التصرف بغرابة: يتحاشى النظر إلى عينيك، ويرفض التواصل الجسدي، ويتحدث إليك بكلمات مقتضبة في انزعاج، ويتهرب من محاولاتك للتقرب منه، ويتجنب صحبتك. ثم تخيل أنك ذهبت إلى أصدقائك طلبًا للنصيحة. هل سيقولون لك: هل حاولت استخدام عقوبة الوقت التأديبي المستقطع معه؟ هل فرضت حدودًا وأوضحت توقعاتك؟ سيكون من الواضح للجميع أنه في سياق التفاعل بين الكبار أنت لا تتعامل مع مشكلة في السلوك، وإنما هي مشكلة في العلاقة. على الأرجح سيكون أول شك يراودك هو أن شريكك يحظى بعلاقة غرامية.

ما يبدو واضحًا جدًّا لنا في عالم الكبار يصبح أمرًا محيرًا لنا عندما يحدث بين الطفل والوالدين. كانت سينثيا منشغلة تمامًا بأقرانها. وقد تعارض سعيها الحثيث إلى التواصل معهم مع ارتباطها بعائلتها. كان الأمر كما لو كانت في علاقة غرامية.

يُعَدُّ تشبيه العلاقة الغرامية ملائمًا من نواحٍ كثيرة، وليست أقلها قدرًا مشاعر الإحباط، والألم، والرفض، والخيانة، التي عاناها والدا سينثيا. يمكن أن يحظى البشر بالعديد من الارتباطات: العمل، والعائلة، والأصدقاء، والارتباط بفريق رياضي، ورمز ثقافي، ودين ما، ولكننا لا نستطيع التمسك بالارتباطات المتعارضة. في حالة الزواج، عندما يتعارض الارتباط –أي ارتباط– مع تقارب المرء وتواصله مع زوجه، ويهدده، فسوف يفسر الزوج هذا على أنه علاقة غرامية، بالمعنى العاطفي لتلك الكلمة. فالرجل الذي يتجنب زوجته ويقضي وقته بهَوَسٍ على الإنترنت سيثير فيها مشاعر الهجر والغيرة. وفي ثقافتنا، أصبحت العلاقات مع الأقران تتنافس مع ارتباطات الأطفال بالكبار.

إن الأطفال ينخرطون في علاقات ارتباط غرامية بعضهم مع بعض ببراءة تامة، ولكن بما يتسبب في آثار مدمرة.

***

لماذا يجب أن نكون على وعي بالارتباط

ما هو الارتباط؟ بكل بساطة، هو قوة جاذبية تجذب جسمين بعضهما تجاه بعض. إنه أعظم قوة في الكون، سواء كان في شكل فيزيائي، أو كهربائي، أو كيميائي. ونحن نعتبره من الأمور المُسَلَّم بها في كل يوم من حياتنا. إنه ما يبقينا على الأرض، ويحفظ أجسادنا في كتلة واحدة. وهو يمسك جزيئات الذرة معًا، ويربط الكواكب في مدار حول الشمس. إنه هو ما يمنح الكون شكله.

في المجال النفسي، يعتبر الارتباط هو جوهر العلاقات، والأداء الاجتماعي. وعلى الصعيد الإنساني، يتمثل الارتباط في السعي إلى القرب، والحميمية، والتواصل، والمحافظة عليهم: جسديًا، وسلوكيًا، وعاطفيًا، ونفسيًا. وكما هي الحال في العالم المادي، فهو أمر غير مرئي، ولكنه مع ذلك أساسي لوجودنا. فالعائلة لا يمكن أن تكون عائلةً من دونه. وعندما نتجاهل قوانينه الحتمية، فهذا يعني أننا نبحث عن المشكلات.

نحن مخلوقات يحكمها الارتباط، سواء كنا مدركين لذلك أو لا. ومن الناحية المثالية، لا ينبغي أن نكون على وعي بالارتباط. يجب أن نكون قادرين على التعامل مع قوته كأمر بديهي، مثل الجاذبية التي تثبت أقدامنا على الأرض، والكواكب المستقرة في مداراتها، وبوصلاتنا التي تشير إلى القطب الشمالي المغناطيسي. لا يتعين على المرء أن يفهم الارتباط، أو حتى أن يعرف بوجوده للاستفادة من مفعوله وقوته، تمامًا كما لا يتعين على المرء أن يفهم أجهزة الحاسوب لاستخدامها، أو أن يعرف عن المحركات لقيادة السيارة. وتكون هذه المعرفة ضرورية فقط عندما يختل عمل الأشياء. إن الارتباط في المقام الأول هو الذي ينظم غرائز الطفل، وكذلك الأبوين. وما دامت الارتباطات تؤدي

دورها، فإننا يمكننا ببساطة اتباع غرائزنا تلقائيًّا، ودون تفكير. وعندما يختل نظام هذه الارتباطات، فإن غرائزنا ستختل هي الأخرى. ولحسن الحظ، يمكننا نحن البشر إصلاح الغرائز المنحرفة من خلال زيادة وعينا بالأمور التي خرجت عن مسارها.

لماذا يجب أن نكون على وعي بالارتباط الآن؟ لأننا لم نعد نعيش في عالم يمكننا فيه اعتبار فعالية الارتباط أمرًا مفروغًا منه. فالاقتصاد والثقافة اليوم لم يعودا يهيئان السياق اللازم لارتباط الأطفال بشكل طبيعي بالكبار الذين يتولون رعايتهم. ومن منظور الارتباط، قد نقول حقًّا إننا كمجتمع نعيش في أوقات لم يسبق لها مثيل عبر التاريخ. وفي الفصل التالي، سنناقش كيف تدهورت الأسس الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للارتباطات الصحية بين الأطفال والآباء. ولكي نجد طريقنا نحو العودة إلى التربية الطبيعية التي تعزز نمو الطفل الصحي على أفضل وجه، نحتاج إلى أن نكون على دراية كاملة بديناميية الارتباط. وفي عالم تتزايد فيه التقلبات الثقافية، ربما يكون الوعي بالارتباط هو أهم معرفة يمكن أن يتمتع بها الآباء. ولكن لا يكفي أن نفهم الارتباط بشكل سطحي. لا بد أن نتعرف عليه بشكل عميق. ويجب أن يتحد طريقا العلم: المعرفة، والتجربة من كثب. ويجب أن نشعر بالارتباط في قرارة أنفسنا.

إن الارتباط هو جوهر وجودنا، غير أنه أيضًا بعيد كل البعد عن الوعي. ومن هذا المنطلق، فهو مثل الدماغ بحد ذاته: كلما تعمق فيه المرء، وجد وعيًا أقل. نحن نحب أن نرى أنفسنا كمخلوقات ذكية؛ نطلق على جنسنا البشري كلمة «هوموسابين»، أي «الإنسان العاقل». ومع ذلك، يشكل الجزء المسؤول عن التفكير في دماغنا مجرد طبقة رقيقة، في حين أن جزءًا أكبر بكثير من داراتنا الدماغية مخصص للديناميات النفسية التي تخدم الارتباط. هذا الجهاز، الذي أُطلِقَ عليه بحصافة مسمى «دماغ الارتباط»، هو المكان الذي تستقر فيه عواطفنا وغرائزنا اللاواعية. نحن البشر نشترك في هذا الجزء من دماغنا مع العديد من المخلوقات الأخرى، ولكننا وحدنا نتميز بالقدرة على إدراك عملية الارتباط.

يُعَدُّ الارتباط هو الأمر الأهم في الحياة النفسية للطفل النامي. ولنكون صرحاء، فهو يُعَدُّ كذلك أيضًا بالنسبة إلى العديد من الكبار. إنه يمثل ضرورة حتمية بالنسبة إلى الأطفال. ولكونهم غير قادرين على التصرف بمفردهم، يجب أن يرتبطوا بشخص بالغ. يُعتَبَر الارتباط الجسدي في الرحم أمرًا ضروريًّا، إلى أن يكون أطفالنا صالحين للحياة بما يكفي ليُولَدوا. وبالمثل، يجب أن يرتبط أطفالنا بنا عاطفيًّا حتى يكونوا قادرين على الاعتماد على أنفسهم، وقادرين على التفكير بأنفسهم، وتحديد اتجاههم.

***

الارتباط والتوجه

يتصل الارتباط على نحوٍ وثيقٍ بغريزة التوجه التي تم طرحها في الفصل السابق، وهو أمر بالغ الأهمية في التربية، والتعليم، ونقل الثقافة. وكما هي الحال في الارتباط، فإن غريزة التوجه أساسية في طبيعتنا، حتى لو كنا نادرًا ما نفطن إليها. ويتطلب التوجه في أكثر أشكاله الملموسة والمادية تحديد موقع المرء من المكان والزمان. وعندما نواجه صعوبة في القيام بذلك، نشعر بالقلق. فإذا كنا غير متأكدين من مكاننا حال استيقاظنا، أو ما إذا كنا ما نزال نحلم، أصبحت الأولوية القصوى هي تحديد موقعنا من المكان والزمان. وإذا ضللنا الطريق في أثناء التنزه، فإننا لن نتوقف لنتأمل النباتات والحيوانات بإعجاب، أو لنقَيِّمَ أهداف حياتنا، أو حتى لنفكر في العشاء. سوف يستحوذ تحديد وجهتنا على كل اهتمامنا، ويستهلك جُلَّ طاقتنا.

إن احتياجاتنا إلى التوجه ليست جسدية فقط. ويكتسي التوجه النفسي بالقدر نفسه من الأهمية في النمو البشري، فبينما ينمو الأطفال، تتكون لديهم حاجة متزايدة إلى التوجه: أن يكون لديهم إحساس بذاتهم، وما هو حقيقي، ولماذا تحدث الأشياء، وما هو صحيح، وما تعنيه الأشياء. إن الفشل في التوجه يعني أن يعاني المرء التيهان، أن يضيع نفسيًّا، وهي حالة يتم برمجة أدمغتنا لفعل أي شيء تقريبًا لتفاديها. ويعجز الأطفال تمامًا عن ممارسة التوجه من تلقاء أنفسهم. إنهم يحتاجون إلى المساعدة.

يقدم الارتباط هذه المساعدة. إن أول مهمة للارتباط تتمثل في تعيين وجهة للبوصلة من خلال الشخص الـمُرتبَط به. وما دام الطفل قادرًا على أن يجد نفسه حول وجهة البوصلة هذه، فلن يشعر بالضياع. إن الغرائز النشطة في الطفل تدفعه للحفاظ على تلك الوجهة الأساسية للبوصلة قريبة جدًّا. ويتيح الارتباط للأطفال مرافقة الكبار الذين يُفتَرَض –على الأقل في ذهن الطفل– أنهم أكثر قدرةً على توجيه أنفسهم وإيجاد طريقهم.

إن أكثر الأمور التي يخشاها الأطفال، بما فيها الأذى الجسدي، هو التيهان، فالتيهان بالنسبة إليهم يعني الانفصال عن وجهة بوصلتهم. إن فقدان التوجه، تلك الحالات التي لا نجد فيها شيئًا أو أحدًا لنتوجه إليه، هو أمر لا يحتمله الدماغ البشري على الإطلاق. حتى الكبار الذين يتمتعون بتوجهٍ ذاتيٍّ نسبيًا يمكن أن يشعروا بالتيهان قليلًا عندما لا يكونون على اتصال بالشخص الذي يمثل وجهة البوصلة الأساسية في حياتهم.

إذا كنا ككبار يمكن أن نشعر بالتيهان عندما نبتعد عن أولئك الذين نرتبط بهم، فكيف بما سيشعر به الأطفال؟ ما زلت أتذكر كم شعرت بالحزن عند غياب السيدة أكربرج، معلمة الصف الأول التي كنت مرتبطًا بها للغاية: كنت كروح تائهة، هائمًا، بلا هدف.

يُعتَبَر الوالدان هما أفضل وجهة بوصلة للطفل دون منازع، أو غيرهما من الكبار، كالمعلم الذي يقوم مقام الوالدين. ولكن تحديد من يصبح وجهة البوصلة هو مهمة تتعلق بالارتباط. والارتباط –كما نعلم جميعًا– يمكن أن يكون متغيرًا. يمكن منح وظيفة التوجيه شديدة الأهمية شخصًا لا يليق بالمهمة، كأقران الطفل على سبيل المثال. وعندما يصبح الطفل مرتبطًا بأقرانه لدرجة أن يفضل أن يكون معهم، وأن يصبح مثلهم، يصبح هؤلاء الأقران، سواء كأفراد أو كمجموعة، وجهة البوصلة الأساسية لذلك الطفل. سيكون أقرانه هم الذين سيسعى إلى القرب منهم. وسوف يتطلع إلى أقرانه ليرشدوه إلى كيفية التصرف، وما يجب أن يرتديه، وكيف يكون مظهره، وما يجب أن يقول، وما يجب أن يفعل. سيصبح أقرانه هم أصحاب الكلمة فيما هو جيد، وما يحدث، وما هو مهم، وحتى كيف يُعَرِّفُ نفسه. هذا هو بالضبط ما حدث في حالة سينثيا: في عالمها العاطفي، حل أقرانها محل والديها كمركز

الجاذبية. لقد كانت تتمحور حولهم. كان الأمر مثل تخريبٍ كامل لسُنَّة الحياة الطبيعية في تسيير الأمور.

لم تتضح أنماط الارتباط النفسي للأطفال ويتم استيعابها بشكل جيد سوى في الآونة الأخيرة. من الواضح تمامًا أنه كان من المفترض أن يتمحور الأطفال حول والديهم، والكبار الآخرين المسؤولين عنهم، تمامًا كما تدور الكواكب حول الشمس. ومع ذلك، يتمحور كثيرٌ من الأطفال الآن بعضهم حول بعض.

بعيدًا عن كون الأطفال غير مؤهلين لتوجيه أي شخص آخر، فإنهم لا يقدرون حتى على ممارسة التوجيه الذاتي بكل ما تحمله الكلمة من معنى واقعي. فأقران أطفالنا ليسوا بالذين نريدهم أن يعتمدوا عليهم. ليسوا هم الذين يمنحون أطفالنا إحساسًا بذواتهم، أو يميزون بين الصواب والخطأ، أو يفرقون بين الحقيقة والخيال، أو يعرفون ما يصلح وما لا يصلح، أو يوجهونهم إلى أين يذهبون، وكيف يصلون إلى هذه الوجهة.

ما الذي يجنيه الأطفال من التوجه بعضهم نحو بعض؟ مجددًا، دعونا نتخيل أنفسنا في طريقٍ بَرِّيٍّ مُظلِمٍ ووَعِرٍ وغير مألوف تمامًا بالنسبة إلينا. في حالة كنا بمفردنا، قد ينتابنا شعور بالخوف الشديد، أو حتى بالذعر. أما إذا كان يقودنا مرشد يبدو أنه يعرف الطريق، أو إذا كنا نعتقد أنه يعرفه، مضينا قدمًا بكل ثقة. لا شيء سيثير الحذر، وهذا طبعًا ما لم يُبدِ مُرشِدُنا شعوره بالقلق.

بالطريقة نفسها، من خلال اعتماد الأطفال بعضهم على بعض كوجهات للبوصلة، فإنهم يحمون أنفسهم من القلق المُفزِع تجاه الشعور بفقدان التوجه. إنهم يتمكنون على المستوى الشعوري من تفادي الشعور بالضياع، أو التشوش، أو الارتباك. ويخلو الأطفال المتوجهون نحو الأقران من هذه المشاعر بشكل ملحوظ. وهنا تكمن المفارقة: إنهم يبدون كالمكفوفين الذين يقودون مكفوفين آخرين، أو كسربٍ من الأسماك يدورون بعضهم حول بعض، ولكنهم يشعرون بأنهم بخير. ولا يشغلهم -فيما يبدو- أن وجهات بوصلتهم الأساسية غير مناسبة، وغير متسقة، وغير جديرة بالثقة. هؤلاء

الأطفال ضائعون ومُشَوَّشون حقًّا، ولكن دون أن يدركوا مشاعر الحيرة بصورة واعية.

بالنسبة إلى الأطفال الذين استعاضوا عن الكبار بأقرانهم، يكفي أن يكونوا فقط مع بعضهم، حتى لو كانوا بَعيدين عن الوجهة الصحيحة تمامًا. إنهم لا يقبلون التوجيه من الكبار، ولا يطلبونه. ويحبطوننا بيقينهم الواضح بأنهم على حق، بغض النظر عن مدى كوننا نرى بوضوح أنهم يسيرون في الاتجاه الخاطئ، أو بلا اتجاه على الإطلاق. لقد مر العديد من الآباء بتجربة مرهقة في محاولة توضيح الواقع لمراهق قد يكون عالمه في حالة فوضى، ولكنه يصر برعونة وعناد على أنه ليست هنالك مشكلة أبدًا.

ظاهريًّا، يمكن القول بأن ارتباطهم بالأقران سينعكس عليهم بشكل جيد إذا كان يحميهم من الضياع والحيرة. وفي واقع الحال، إنه لا ينقذهم من الضياع، بل من الشعور بالضياع.

***

طرائق الارتباط الست

إذا أردنا تربية أطفالنا بنجاح، أو إذا أردنا إعادة توجيههم إلينا بمجرد أن تستدرجهم ثقافة الأقران، وَجَبَ أن نفهم الارتباط. يهدف التناول التالي إلى مساعدة الآباء على اكتساب معرفة عملية بهذه الدينامية المهمة. قالت إحدى الأمهات التي أجرت مقابلة من أجل هذا الكتاب: «إذا كنت لا تفهم طفلك، لم يمكنك أن تتحمله». إن فهم الارتباط هو العامل الوحيد الأهم في فهم الأطفال قلبًا وقالبًا. كما إنه يُمَكِّنُنا من ملاحظة بوادر توجه الطفل نحو الأقران.

يمكننا تحديد ست طرائق للارتباط، كل واحدة منها تعطي لمحة عن سلوك أطفالنا، وغالبًا عن سلوكنا أيضًا. هذه الطرائق الست تتنقل من الأبسط إلى الأكثر تعقيدًا. لاحظ أن الأطفال المتوجهين نحو الأقران يميلون إلى توظيف الأنماط الأساسية فقط عند الارتباط بعضهم ببعض.

الحواس

يعتبر القرب الجسدي هو الهدف من الطريقة الأولى للارتباط. يحتاج الطفل إلى الإحساس بالشخص الذي يرتبط به، سواء من خلال الشم، أو البصر، أو السمع، أو اللمس. وسيفعل ما بوسعه ليبقى على اتصال مع ذلك الشخص. كما سيُعرِبُ عن انزعاجه واحتجاجه المرير عند تهديد هذا القرب، أو منعه.

وعلى الرغم من أن التعطش إلى القرب الجسدي يبدأ في مرحلة الرضاعة، فهو لا يزول أبدًا. وكلما كان الشخص أقل نضجًا، زاد اعتماده على هذا النمط الأساسي من الارتباط. ينشغل الأطفال المتوجهون نحو الأقران مثل سينثيا بكونهم معًا، والوجود في المكان نفسه، والتسكع، ودوام التواصل بينهم. وعندما يكون الارتباط بهذه البدائية، يمكن أن يبدو الكلام مُبهَمًا، وغير منطقي. يقول بيتر، البالغ من العمر خمسة عشر عامًا: «أنا وأصدقائي نتحدث ساعات دون أن نتفوه بأي شيء، فكل الحديث يدور حول «ماذا يحدث؟» و «كيف حالك يا صاح؟» و «هل معك سيجارة؟» و «إلى أين نحن ذاهبون؟» أو «أين فلان؟»». لا يتعلق الحديث بالتواصل، بل هي طقوس الارتباط لغرض بسيط، يتمثل في التواصل السمعي. ليست لدى الأطفال المتوجهين نحو الأقران أي فكرة عما يدفعهم بشدة، فبالنسبة إليهم، يبدو من الطبيعي تمامًا، بل ومن الضروري، أن يرغبوا دائمًا في أن يكونوا قريبين من بعضهم. إنهم فقط يتبعون غرائزهم المنحرفة.

التشابه

الطريقة الثانية للارتباط عادة ما تتضح في مرحلة الحبو. تسعى الطفلة إلى أن تكون مثل أولئك الذين تشعر أنهم الأقرب إليها. تحاول أن تأخذ نفس نمط أسلوب الحياة، أو التعبير، من خلال التقليد والمحاكاة. ويظهر هذا النوع من الارتباط بشكل واضح في تعلم اللغة، وانتقال الثقافة. وقد لُوحِظَ أن مفردات الطفل العادي قد تناقصت تناقصًا كبيرًا منذ الحرب العالمية الثانية. لماذا؟ لأن الأطفال الآن يكتسبون اللغة بعضهم من بعض، فالأطفال المتوجهون نحو الأقران يقتدي بعضهم ببعض في المشي، والتحدث، وفي التفضيلات، والإيماءات، وفي المظهر، والسلوك.

هناك وسيلة أخرى للتواصل من خلال التشابه، وهي التماهي. يعني التماهي مع شخص أو شيء ما أن تكون جزءًا من هذا الشخص، أو الشيء. ويندمج إحساس المرء بالذات مع الهدف الذي يتم التماهي معه. قد يكون هذا الكيان والدًا، أو بطلًا، أو جماعةً، أو دورًا، أو بلدًا، أو فريقًا رياضيًّا، أو نجم روك، أو فكرةً، أو حتى عَمَلَ المرء. وتستند النزعة القومية المتطرفة والعنصرية إلى تماهي إحساس المرء بنفسه مع بلده، أو جماعته العرقية.

وكلما زاد اعتماد الطفل أو الشخص على الآخرين، زادت حدة هذه التماهيات على الأرجح. وفي مجتمعنا، أصبح الأقران –أو الرموز المشهورة في عالم الأقران– محور التماهي بدلًا من الآباء، أو الشخصيات البارزة في التاريخ، والثقافة.

الانتماء والولاء

الطريقة الثالثة للارتباط تظهر هي الأخرى أول مرة في مرحلة الحبو إذا كان كل شيء يتطور كما ينبغي. أن تكون قريبًا من شخص ما، يعني أن تعتبر هذا الشخص ملكًا لك. سوف يَدَّعي الطفل المرتبط أحقيته فيمن هو مرتبط به، سواء كان الأم، أو الأب، أو الدمية، أو الأخت الرضيعة. وبالطريقة نفسها، يسعى الأطفال المتوجهون نحو الأقران بغيرة إلى تملك بعضهم بعضًا، والحماية من الخسارة. إن الصراعات الناجمة عن إحساس التملك يمكن أن تصبح شرسة وعنيفة. ويصبح سؤال: «من هو أفضل صديق للآخر؟» سؤالًا مصيريًّا بالنسبة إلى العديد من المراهقين. ويهيمن هذا النمط غير الناضج من الارتباط على قدر كبير من التفاعل بين الأطفال المتوجهين نحو الأقران، ولا سيما بين الفتيات المتوجهات نحو الأقران.

يأتي الولاء في أعقاب الانتماء، وهو يعني الوفاء، وامتثال الشخصيات المختارة التي يتم الارتباط بها. يتبع الأطفال المتوجهون نحو الأقران غرائز الارتباط الطبيعية فقط عندما يحتفظون بعضهم بأسرار بعض، وينحازون أحدهم إلى جانب الآخر، ويطيعون أوامر الطرف الآخر. يمكن أن يكون الولاء شديدًا، ولكنه يأتي بعد الارتباط فحسب. وإذا تغير ارتباط الطفل، تغير الشعور بالانتماء والولاء أيضًا.

إن الأطفال المتوجهين نحو الأقران معروفون بالولاء أحدهم للآخر، ولجماعتهم. لقد كان مقتل رينا فيرك -وهي مراهقة في فيكتوريا بكولومبيا البريطانية، التي قُتِلَت على يد أقرانها- معلومًا لدى العديد من المراهقين، ولكن لم يتم إخبار أي شخص بالغ عنه عدة أيام، وهي حادثة باتت شهيرة على المستوى الدولي.

الأهمية

الطريقة الرابعة للسعي نحو القرب والتواصل هي البحث عن الأهمية، مما يعني أننا نشعر بأننا مهمون لشخص ما. إنه من طبيعة البشر أن نتمسك بما نُقَدِّره. أن تكون عزيزًا على شخص ما، يعني ضمان القرب والتواصل. ويسعى الطفل الذي يتمتع بالارتباط في سن الحضانة بحماس إلى الإرضاء، ونيل الاستحسان. إنه يكون حساسًا للغاية تجاه نظرات الاستياء والرفض. ويعيش هؤلاء الأطفال من أجل رؤية السعادة على وجوه أولئك الذين يرتبطون بهم. إن الأطفال المتوجهين نحو الأقران يفعلون الشيء نفسه، ولكن الوجه الذي يرغبون في رؤية إشراقته هو وجه أقرانهم. عادةً ما يكون أولئك الذين يدعونهم «لطفاء» هم الذين يحبونهم وينالون استحسانهم، حتى لو كان هذا الشخص «اللطيف» نفسه يسيء معاملة الآخرين.

المشكلة في طريقة الارتباط هذه هي أنها تجعل الطفل عرضة للأذى. إن الرغبة في أن نكون مهمين لشخص ما تعني أن نعاني عندما نشعر أن ذلك الشخص المميز لا يهتم لأمرنا، فالبحث عن استحسان شخص ما يؤدي إلى الشعور بالجرح إثر أمارات عدم الرضا. ويمكن تحطيم الطفل الحساس بسهولة عندما لا تلمع الأعين التي ينظر إليها بحثًا عن علامات الدفء والسرور في حضوره، سواء كانت أعين الوالدين، أو الأقران. إن أغلب الآباء، على الرغم من كونهم غير مثاليين، يكونون أقل ميلًا إلى مواصلة إيذاء الأطفال بهذه الطريقة مقارنة بالأقران.

المشاعر

الطريقة الخامسة للشعور بالقرب تكون من خلال المشاعر: المشاعر الدافئة، والمشاعر العطوفة، والمشاعر الحنونة. تشارك العاطفة دائمًا في

الارتباط، ولكن بالنسبة إلى الطفل دون سن المدرسة، الذي تتسم مشاعره بالعمق والهشاشة، يصبح السعي وراء الحميمية العاطفية مُلِحًّا بقوة. وغالبًا ما يقع الأطفال الذين يسعون إلى التواصل بهذه الطريقة في حب أولئك الذين يرتبطون بهم، فالطفل الذي يشعر بالحميمية العاطفية مع الوالد يستطيع أن يتحمل قدرًا أكبر من الفراق الجسدي، ومع ذلك يبقى قريبًا من والده. وإذا كان الارتباط عبر الحواس –الطريقة الأولى والأكثر بدائية– له أثر محدود على الارتباط، فإن الحب سيكون له الأثر الأقوى، إذ يحمل الطفل صورة الوالد المحب والمحبوب في ذهنه، ويجد فيها الدعم والسكينة.

ولكننا الآن نتقدم نحو منطقة خطرة، فتخلي المرء عن قلبه يعني أن يخاطر بكسره. ولا يكتسب بعض الناس أبدًا القدرة على الانفتاح والتأثر العاطفيين، ويرجع ذلك عادةً إلى التصورات المبكرة المتعلقة بالرفض، أو التخلي. وقد يلجأ أولئك الذين أحبوا وعانوا الأذى إلى أنماط ارتباط أقل عرضةً للضعف. وكما سنوضح لاحقًا، يسعى الأطفال المتوجهون نحو الأقران إلى تجنب الضعف. فعندما تبدو صور الارتباط الأعمق محفوفة بالمخاطر، تسود الأنماط الأقل عرضةً للضعف، ويقل شيوع الحميمية العاطفية جدًّا بين الأطفال المتوجهين نحو الأقران مقارنةً بالأطفال المتوجهين نحو الوالدين.

المعرفة

الطريقة السادسة للارتباط تتمثل في أن يشعر الطفل بأنه معروف. عادةً ما تكون بوادر هذه الطريقة الأخيرة للارتباط ملحوظة في الوقت الذي يدخل فيه الطفل المدرسة. إن شعور المرء بالقرب من شخص ما يعني أن يكون معروفًا عنده. من بعض النواحي، يُعَدُّ هذا تلخيصًا للارتباط عن طريق الحواس، باستثناء أن حاسَّتَي البصر والسمع يتم الآن استشعارهما من الناحية النفسية بدلًا من حصرهما في الخبرة الجسدية. سيفصح الطفل عن أسراره سعيًا منه إلى بلوغ القرب. وفي الواقع، غالبًا ما يظهر القرب في الأسرار المتبادلة. لا يحب الأطفال المتوجهون نحو الوالدين إخفاء الأسرار عن والديهم، لما يسببه ذلك من فقدان للقرب. وبالنسبة إلى الطفل المتوجه نحو الأقران، يكون صديقه المفضل هو الشخص الذي لا يخفي أسراره عنه. ولا يمكن لشيء أن يجعل المرء أكثر عرضةً للهشاشة من أن يتعرى نفسيًّا. إن

مشاركة الذات مع شخص آخر ليتم إساءة فهمها أو رفضها تُعَدُّ مخاطرةً لا تستحق خوضها في نظر الكثيرين. ونتيجةً لذلك، فإن هذه هي أندر العلاقات الوثيقة، والسبب في كون الكثيرين منا يترددون في مشاركة أعمق مخاوفهم ومشاعر عدم الثقة في النفس حتى مع أحبائهم. ومع ذلك، لا يوجد قرب يمكن أن يتفوق على شعور المرء بأنه معروف ولا يزال محبوبًا، ومقبولًا، ومُرَحَّبًا به وبحضوره.

بينما نراقب أطفالنا وهم منشغلون بتبادل الأسرار خلسةً، من السهل أن نفترض أنهم يشاركون أنفسهم أحدهم مع الآخر بشكل يعرضهم للخطر. في الواقع، الأسرار التي يتشاركونها في الغالب تكون في صورة نميمة عن الآخرين. وتكون العلاقة الوثيقة الحقيقية من الناحية النفسية أمرًا استثنائيًّا بين الأطفال المتوجهين نحو الأقران، وذلك على الأرجح بسبب شدة المخاطر. وغالبًا ما يُنظَرُ إلى الأطفال الذين يشاركون أسرارهم مع والديهم على أنهم غريبون بعض الشيء من قِبَلِ أصدقائهم الأكثر توجهًا نحو الأقران. قالت فتاة تبلغ من العمر أربعة عشر عامًا لوالدها في إحدى نزهاتهما معًا: «إن أصدقائي لا يصدقون أنني أخبركما بالكثير من الأمور. يقولون إن هذا أمر جنوني».

هناك ست طرائق للارتباط، ولكن ثمة دافع أساسي واحد فقط للتواصل. إذا كان النمو يتم بصورة سليمة، أصبحت هذه الخيوط الستة منسوجة في حبل تواصل متين، يمكن أن يحافظ على القرب، حتى في ظل أكثر الظروف سلبية. إن الطفل الذي يتمتع بارتباط قوي، يمتلك العديد من الطرائق للبقاء بالقرب والتمسك، حتى عندما يكون منفصلًا جسديًّا. وكلما كان الطفل أقل نضجًا، كان أسلوبه في الارتباط أكثر بدائيةً، مثل الطفل الرضيع، أو الطفل حديث المشي. ولا يدرك جميع الأطفال قدرتهم على الارتباط، خصوصًا الأطفال المتوجهين نحو الأقران. ولأسباب سنوضحها فيما بعد، من المُرَجَّحِ أن يظل الأطفال المتوجهون نحو الأقران غير ناضجين، وأن يتم تصميم علاقاتهم العاطفية حيث تتجنب أيَّ شعورٍ واعٍ بضعفهم. (نتناول هذا الموضوع باستفاضة في الفصلين الثامن والتاسع). ويعيش الأطفال المتوجهون نحو الأقران في عالم من الارتباطات المحدودة، والسطحية للغاية. ويكون السعي من أجل التشابه هو الطريقة الأقل عرضةً للضعف في الارتباط، وهي الطريقة التي عادةً ما

يختارها الأطفال الذين يضطرون إلى التماس التواصل مع أقرانهم. ومن هنا ظهر دافعهم إلى أن يكونوا متشابهين قدر الإمكان: أن يشبهوا بعضهم بعضًا في المظهر، والسلوك، والفكر، والأذواق، والقيم.

مقارنةً بالأطفال الذين تكون ارتباطاتهم بأولياء الأمور صحية، غالبًا ما يقتصر الأطفال المتوجهون نحو الأقران على طريقتين أو ثلاث طرائق فقط لتحقيق التواصل والتعلق. يعتمد الأطفال المحدودون في طرائقهم في الارتباط بشكل كبير على هذه الأنماط، تمامًا كما يعتمد الأشخاص الفاقدون حاسة البصر بشكل أكبر على الحواس الأخرى للاستعانة بها في عالمهم. وإذا كانت هناك طريقة واحدة فقط للتعلق، فمن المرجح أن يكون التشبث قويًا ومُلِحًّا. وهذه هي الكيفية التي يتواصل بها الأطفال المتوجهون نحو الأقران بعضهم مع بعض، بقوة وإلحاح.

***

عندما تتنافس الارتباطات المهمة

بالنظر إلى الأهمية المحورية للارتباط في نفسية الطفل، فإن أكثر شخص يرتبط به الطفل سيكون له التأثير الأكبر على حياته.

ألا ينبغي أن يكون بإمكان الأطفال الارتباط بوالديهم ومعلميهم وبأقرانهم في الوقت نفسه؟ إن ذلك ليس ممكنًا فحسب، بل مستحسنًا أيضًا، ما دامت تلك الارتباطات العديدة لا تتنافس فيما بينها. أما الأمر الذي لا ينجح، ولا يمكن أن ينجح، فهو وجود الارتباطات الأساسية المتنافسة، والعلاقات التوجيهية المتنافسة في آنٍ واحد. وبعبارة أخرى: العلاقات التوجيهية ذات القيم والرسائل المتضاربة. عندما تتنافس الارتباطات الأساسية، يخسر أحدها. ومن السهل إدراك السبب. إن البَحَّار الذي يعتمد على البوصلة لا يمكن أن يعرف طريقه إذا كان هناك قطبان مغناطيسيان شماليان. وكذلك لا يمكن للطفل الاستعانة بكل من الأقران والبالغين كوجهة أساسية للبوصلة في الوقت نفسه. سيتوجه الطفل إما من خلال قيم عالم الأقران، وإما من

خلال قيم الوالدين، ولكنه لا يستطيع الجمع بينهما. فإما أن تسود ثقافة الأقران، وإما أن تأخذ ثقافة الوالدين زمام المبادرة. ولا يمكن لدماغ الارتباط لدى الشخصيات غير الناضجة أن يتحمل مؤثِّرَين توجيهيين يتمتعان بالقوة نفسها، أو مجموعتين من الرسائل المتعارضة بعضها مع بعض. ينبغي له أن يختار إحداهما على الأخرى، وإلا فستضطرب المشاعر، وتتعطل الدوافع، ويختل السلوك. لن يعرف الطفل الطريق الذي يجب أن يتجه إليه. وبالطريقة نفسها، عندما تنحرف عينا الرضيع إلى الخارج بما يسبب له رؤية مزدوجة، يقوم الدماغ تلقائيًا بحجب المعلومات البصرية من إحدى العينين. وستصاب العين التي تم تجاهلها بالعمى.

بالمقارنة مع البالغين (البالغين الناضجين)، يُعتَبَر الأطفال مدفوعين باحتياجاتهم من الارتباط بشكل أكبر. قد تكون لدى البالغين أيضًا احتياجات ارتباط قوية، كما شَهِد ذلك الكثيرون منا، ولكن النضج الحقيقي تصحبه بعض القدرة على وضع تلك الاحتياجات في إطارها الصحيح. أما الأطفال، فلا يمتلكون هذه القدرة. وعندما تُستَثمَرُ طاقات الطفل في علاقة تتنافس مع ارتباطه بوالديه، فإن التأثيرات التي تلحق بشخصيته وسلوكه تكون درامية. لقد كانت الجاذبية القوية التي تتمتع بها علاقات الأقران هي ما كان والدا سينثيا يشهدانه مع ابنتهما، الأمر الذي أثار استياءهما.

يكمن خلف الغضب والإحباط الذي ينتاب العديد من الآباء إحساسٌ بالأذى يتوافق مع الشعور بالخيانة. ومع ذلك، فإننا عادةً ما نتجاهل هذا الإنذار الداخلي أو نغفل عنه. نحن نحاول تهدئة قلقنا من خلال اختزال الأمر في المشكلات السلوكية، أو الهرمونات، أو «تمرد المراهقين العادي». إن مثل هذه التفسيرات البيولوجية الزائفة أو الافتراضات النفسية تصرف انتباهنا عن المشكلة الحقيقية، المتمثلة في الارتباطات المتضاربة والمتنافسة. لطالما كانت الهرمونات جزءًا من التركيبة الفسيولوجية الطبيعية للبشر، ولكنها لم تؤدِّ دائمًا إلى الإقصاء الشديد للآباء الذي نشهده اليوم. إن السلوكيات المزعجة والوقحة دائمًا ما تكون مجرد مظاهر سطحية لمشكلات أعمق. ومحاولة معاقبة السلوكيات أو السيطرة عليها دون معالجة الديناميات الكامنة، يشبه وصف الطبيب دواءً ما لعلاج الأعراض مع تجاهل أسبابها. إن فهم الآباء أطفالَهم

بصورة أعمق سيُمَكِّنُهم من التعامل مع «السلوك السيئ» بأساليب فعالة حقًّا، كما سنُبَيِّن في هذا الكتاب. أما بالنسبة إلى تمرد المراهقين «العادي»، فإن اندفاع أطفالنا القهري نحو الانتماء إلى جماعة الأقران، والاندماج والامتثال على حساب شخصياتهم الحقيقية، لا علاقة له بالنضج والنمو الصحيين، كما سنرى في الفصول اللاحقة.

إن المشكلة الأساسية التي نحتاج إلى مواجهتها كآباء هي تلك الارتباطات المتنافسة التي استدرجت أطفالنا بعيدًا عن رعايتنا الحنونة.

***

عندما ينقلب الارتباط علينا

الآن، وبعد أن فهمنا كيف حَلَّ أقران سينثيا محل والِدَيها، لا يزال لدينا سؤال مؤرق: كيف يمكننا تفسير سلوكها العدائي تجاه والدها ووالدتها؟ يعاني العديد من آباء المراهقين، وحتى الأطفال الأصغر سنًّا في هذه الأيام صدمة مماثلة إزاء اللغة الفظة والعدوانية التي يحدثهم أطفالهم بها. لماذا تؤدي هيمنة علاقات الأقران إلى إبعاد الطفل عن والديه؟

تكمن الإجابة في الطبيعة ثنائية القطب التي يتسم بها الارتباط. إن الارتباط البشري يشبه نُظَرَاءه الفيزيائيين في العالم المادي، مثل المغناطيسية. فالمغناطيسية تتسم بالاستقطاب، يجذب أحد القطبين إبرة البوصلة، ويتنافر الآخر معها. لذا فإن مصطلح «ثنائي القطب» يعني الوجود في صورة اثنين من الأقطاب، أي وجود قطبين في آنٍ واحد. ولا يوجد شيء غير طبيعي في هذه القطبية الثنائية، فهذا هو الطابع الأصيل للارتباط.

كلما اقتربتَ من القطب الشمالي للأرض، كنت أبعد عن القطب الجنوبي. يصدق هذا على شخصية الإنسان، ولا سيما الأطفال، والشخصيات غير الناضجة الأخرى، التي يحكمها الارتباط. من المُرَجَّح أن يقوم الطفل الذي يسعى إلى القرب من شخصٍ مُحَدَّد برفض أي شخص يرى أنه يتنافس مع ذلك الذي يسعى إلى القرب منه، تمامًا كما قد تجد امرأةٌ بالغة واقعة في

حب شخص جديد فجأةً أن حبيبها السابق لا يُطاق. ومع ذلك، فإن حبيبها القديم لم يتغير، ولكن ارتباطاتها هي التي تغيَّرت. يمكن أن يكون الأشخاص أنفسهم مرغوبين أو مرفوضين، اعتمادًا على الوجهة التي تشير إليها بوصلة الارتباط. وعندما تتغير وجهة الارتباط الأساسي، يمكن للأشخاص القريبين منا حتى الآن أن يصبحوا فجأة مَحَطَّ ازدراء، وأن يكونوا مرفوضين. ويمكن لهذه التغيُّرات أن تحدث بسرعة مذهلة، كما شهد العديد من الآباء عند عودة طفلهم إلى المنزل باكيًا، ساخطًا، ومُحبَطًا بسبب تعرضه لرفض غير مُتوقَّع من قبل «صديقه المفضل».

إن معظمنا يمتلك إحساسًا بديهيًّا بالطبيعة ثنائية القطب التي يتسم بها الارتباط. نحن نعرف مدى السرعة التي يمكن أن يتحول بها التقارب إلى التباعد، والإعجاب إلى الاشمئزاز، والمودة إلى الاحتقار، والمحبة إلى الكراهية. ولكن قِلَّةً من الناس يدركون أن مثل هذه المشاعر والدوافع القوية تشكل الوجه الآخر للعملة نفسها.

إن فهم الآباء للقطبية الثنائية التي يتسم بها الارتباط يُعَدُّ أمرًا بالغ الأهمية. ومع تزايد التوجه نحو الأقران، يزداد كذلك ما يقابله من عزلة عن الآباء، وجميع المشكلات التي تصاحبه. إن أطفال اليوم لا يتحولون إلى أقرانهم فحسب، بل إنهم –مثل سينثيا– يتحولون بنشاطٍ وهِمَّة بعيدًا عن والديهم. ليست هناك حيادية في الارتباط. وبقدر ما يسيطر الارتباط على الطفل، ستكون العلاقات مشحونة للغاية. إن الارتباط يقسم عالم الطفل إلى: أولئك الذين يحبهم الطفل، وأولئك الذين لا يبالي بهم، وأولئك الذين يجذبونه، وأولئك الذين يُنَفِّرونه، وأولئك الذين يجب الاقتراب منهم، وأولئك الذين يجب تَجَنُّبُهم. وبصورة شائعة جدًّا في عالم اليوم، أصبح الآباء والأقران مثل ارتباطات متنافسة، كالعُشَّاق الذين يتنافسون على المحبوب نفسه. وكما شهد العديد من الآباء ببالغ الأسى، فإن الأطفال لا يستطيعون أن يتوجهوا نحو الأقران والآباء في الوقت نفسه.

إن موقف الطفل الغريب تجاه والديه لا يمثل عيبًا في الشخصية، أو وقاحة متأصلة، أو مشكلات سلوكية، فهذا هو ما يحدث عندما يُساءُ توجيه غرائز الارتباط.

في ظل الظروف العادية، طبيعة الارتباط ثنائية القطب تخدم الغرض الحميد، المتمثل في إبقاء الطفل قريبًا من الكبار الذين يرعونه. يحدث التعبير الأول في مرحلة الرضاعة، وغالبًا ما يُسَمَّى رفض الغرباء. كلما زاد ارتباط الطفل الرضيع بأشخاص معينين من الكبار، زادت مقاومته للتواصل مع من لا يرتبط بهم، فعندما يرغب الرضيع في الاقتراب منك، ويأتي شخص لا علاقة له به ليقترب منه، سيبتعد عن ذلك الشخص الدخيل ويميل إليك. إنها فطرة بحتة. لا شيء يمكن أن يكون طبيعيًّا أكثر من الابتعاد عن الغرباء الذين يقتربون جدًّا من أجل الشعور بالطمأنينة. ومع ذلك، فقد شهدنا جميعًا أن الآباء يوبخون أطفالهم بالفعل على هذه الإيماءة المُنَفِّرة، ويعتذرون لغيرهم من الكبار عن «وقاحة» أطفالهم.

يجد الكبار أن ردود الفعل هذه غير مُستساغة في الأطفال حديثي المشي، وغير مقبولة تمامًا في الأطفال الأكبر سنًّا. إن التوجه نحو الأقران يعكس الاستجابات الطبيعية والفطرية لرفض الغرباء لتكون ضد والِدَي الطفل. قد لا يكون تعبير المراهق عن الارتباط المنتكس صريحًا مثل إخراج الطفل لِسانَه، ولكن هناك إيماءات أخرى تعبر عن الإعراض بالقدر نفسه من الفعالية، كالأعين التي تطيل النظر إليك من بعيد، والنظرة الجامدة، والامتناع عن الابتسام، ونظرات الامتعاض، وتحاشي النظر إليك، وإفشال الاتصال، ومقاومة التواصل.

في بعض الأحيان، يمكننا بالفعل أن نشعر بتحول القطبية. تخيل أنك محل والدة رايتشل، فتاة في الصف الثالث. لقد حظيتما بتجربة رائعة معًا في اصطحابها إلى المدرسة، تسيران متشابِكَي الأيدي، منذ أن كانت في روضة الأطفال. وقبل أن تغادرها، كنت دائمًا تعانقها وتقبلها، وتهمس لها بكلمةٍ أو كلمتين من كلمات المحبة. ولكن رايتشل أصبحت منشغلة بأقرانها مؤخرًا، وترغب في البقاء معهم بلا انقطاع. وعندما تعود إلى المنزل، تجلب معها أشياء تخصهم، مثل إيماءاتهم، ولغتهم، وتفضيلاتهم في الملابس، وحتى ضحكاتهم. في يوم ما، انطلقتما كالمعتاد، تسيران جنبًا إلى جنب، مع رغبة متبادلة في القرب والتواصل. وفي الطريق، يمر بكما بعض زملائها. يتغير شيء ما. إنك ما زِلتَ ممسكًا بيدها، ولكن قبضتها ليست بالقوة نفسها. يبدو

أنها تتقدم أو تتأخر عنك بنصف خطوة، وليست بمحاذاتك. وكلما ظهر المزيد من الأطفال، اتسعت الفجوة. وفجأة، تترك يدك وتركض إلى الأمام. وعندما تصلان إلى وجهتكما، تنحني لها لتعانقها كما المعتاد، فتبتعد عنك كما لو كانت مُحرَجَة. وبدلًا من أن تعانقك برقة، تبقيك على مسافة ذراع منها، وبالكاد تنظر إليك وهي تودعك، كما لو كنت قد انتَهَكتَ بعض البديهيات الأساسية. إن ما واجَهتَه بالفعل هو الجانب المظلم المنتكس من الارتباط، وهو ترك ما كان في السابق عزيزًا عليك عند ظهور علاقة جديدة ذات قيمة أكبر. وبصريح العبارة: أطفالنا يهجروننا بوقاحة من أجل أقرانهم.

يتجلى هذا القطب السلبي من الارتباط بعدة طرائق. يُعَدُّ رفض التشابه واحدًا منها. إن السعي إلى التشابه يؤدي دورًا كبيرًا في تشكيل شخصية الطفل وسلوكه. يتوق الأطفال المرتبطون بصدق بآبائهم لأن يكونوا مثلهم، وتغمرهم سعادة بالغة حتى سن المراهقة على الأقل عندما يلاحظ الآخرون أوجه التشابه والتطابق بينهم، سواء كان التمتع بحس الفكاهة نفسه، أو التفضيلات نفسها في الطعام، أو الأفكار نفسها حول موضوع ما، أو ردود الفعل نفسها على فيلم ما، أو الذوق الموسيقي نفسه. (قد يستقبل بعض القراء هذا الكلام بشيء من عدم التصديق، باعتباره مثاليًا إلى حَدٍّ بعيد وقد عفا عليه الزمن. إذا كان الأمر كذلك، فهذا ليس سوى علامة على مدى توجه الأجيال الكبيرة نحو الأقران على مدى العقود العديدة الماضية، وإلى أي مدى أصبح التوجه نحو الأقران مقبولًا كما لو كان هو الطبيعي).

ينفر الأطفال المتوجهون نحو الأقران من التشابه مع والديهم، ويرغبون في أن يكونوا مختلفين عنهم قدر الإمكان. وبما أن التشابه يعني القرب، فإن السعي وراء الاختلاف يُعَدُّ وسيلةً للتباعد. غالبًا ما يبذل هؤلاء الأطفال قصارى جهدهم لتبني وجهة النظر المعاكسة، وخلق أنواع مختلفة من التفضيلات. إنهم مشحونون بالآراء والأحكام المناقضة.

قد نخلط بين هذه الحاجة المُلِحَّة إلى الاختلاف عن الوالِدَين وبين سعي الطفل إلى التفرد. وسيكون ذلك سوء تفسير للموقف. إن التفرد الحقيقي سيتجلى في جميع علاقات الطفل، وليس فقط في علاقاته مع الكبار. إن الطفلة التي تسعى حقًّا إلى أن تكون شخصية ذات كيان مستقل تدافع عن

شخصيتها المتفردة في مواجهة جميع الضغوط لإخضاعها. وعلى العكس تمامًا، فإن العديد من هؤلاء الأطفال «المتفردين بشدة» ينشغلون تمامًا بالاندماج مع مجموعة أقرانهم، ويرعبهم أي شيء قد يجعلهم يبدون مختلفين. إن الأمر الذي يعتبره الكبار نزعةً فرديةً في الطفل يُخفي دافعًا قويًّا للتوافق مع أقرانه.

إن أحد أكثر سلوكياتنا المُنَفِّرة كبشر هو السخرية من أولئك الذين نرغب في إبعاد أنفسنا عنهم، وتقليدهم باستهزاء. يبدو هذا السلوك مُشتَرَكًا بين الثقافات، مما يدل على جذوره الغريزية العميقة، فغريزة السخرية هي نقيض محاولتنا لتحقيق القرب من خلال التقليد والمحاكاة. قد يكون التقليد أفضل إطراء، ولكن الاستهزاء، والتقليد الساخر يُعتَبَران من أشد الانتقادات إهانة.

كلما سعى الطفل إلى القرب من أقرانه من خلال التشابه، زادت احتمالية توجيه سلوكه التَّهَكُّمِيِّ نحو الكبار. إنه لأمرٌ مؤلمٌ للغاية أن يتعرض المرء للسخرية من تلاميذه، أو طفله، فهذا الأمر يُفقِدُه صوابه. وعندما يكون هذا السلوك المُنَفِّر موجهًا نحو المسؤولين عن الطفل، يكون علامةً قويةً على التوجه نحو الأقران. وبالطريقة نفسها، يكون طرفا النقيض لإثارة الإعجاب ونيل الاستحسان هما الازدراء والاحتقار. عندما يصبح الأطفال متوجهين نحو الأقران، غالبًا ما يصبح الآباء موضوعًا للتهكم، والسخرية، والإهانات، والانتقادات. يبدأ الانتقاد أولًا من وراء ظهر الوالدين، وغالبًا ما يكون مثل طريقةٍ لكسب نقاط مع أقرانهم. ولكن مع ازدياد التوجه نحو الأقران، قد تزداد المُجاهَرَة بالهجوم. إن مثل هذا الموقف العدائي يجب أن يكون مقتصرًا على الأعداء، حيث يكون حرق الجسور هو المطلوب تمامًا. ولا تبدو معاملة أطفالنا لنا كأعداء أمرًا منطقيًّا على الإطلاق بالنسبة إلينا، أو إليهم، أو إلى علاقتنا، فليس هناك خير يعود على الأطفال أبدًا من عَضِّ اليد التي تطعمهم. ومع ذلك، فإن الطفل المتوجه نحو الأقران يفعل فقط ما يبدو له طبيعيًّا تمامًا، ويتماشى مع غرائزه. أقول مرةً أخرى: الغرائز هي التي أصبحت مشوَّشة، والسلوك يحذو حذوها فحسب. هذا هو ما يحدث عندما تتعارض الارتباطات وتصبح مُستَقطَبَة.

أحيانًا يكون الجحود سلبيًّا، فغالبًا ما يتصرف الأطفال المتوجهون نحو الأقران –خصوصًا حينما يكونون معًا– كما لو كانوا بلا آباء، فلا يتم الاعتراف بالوالدين، ولا مناقشتهما. وكثيرًا ما يتم تجاهل الوالدين في النشاطات المدرسية.

لقد عَبَّرَ المسيح عن تنافر الارتباطات المتعارضة، وكذلك عن الطبيعة ثنائية القطب التي يتسم بها الارتباط عندما قال: «**لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْدِمَ سَيِّدَيْنِ، لأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يُبْغِضَ الْوَاحِدَ وَيُحِبَّ الآخَرَ، وَإِمَّا أنْ يُلاَزِمَ الْوَاحِدَ وَيَحْتَقِرَ الآخَرَ**». (متى 6:24). عندما يتجه الولاء إلى الأقران، لن يشعر الطفل أنه من الصواب أن ينحاز إلى جانبنا، أو أن يطيع أمرنا. إن الأطفال لا يَعُقُّوننا عن قصد؛ إنهم فقط يتبعون غرائزهم، تلك الغرائز التي صارت منحرفةً لأسباب خارجة عن إرادتهم.

***

3

لماذا فشلنا

كيف يتسنى للأطفال –في عالمنا اليوم– نقل ارتباطاتهم من الكبار الذين يرعونهم إلى بعضهم بكل سهولة؟ لا يرجع السبب في ذلك إلى فشل الوالدين كأفراد، ولكنه الانهيار الثقافي غير المسبوق، الذي لا يمكن لغرائزنا موازنته بالقدر الكافي.

إن مجتمعنا لا يلبي احتياجات أطفالنا النمائية. ولما كان الباحثون في القرن العشرين يكتشفون الدور الرئيسي للارتباطات في النمو النفسي الصحي، كانت التغيرات الطفيفة في المجتمع تترك توجه الأطفال نحو الكبار بلا حماية. لقد أدت القوى الاقتصادية والاتجاهات الثقافية السائدة في العقود العديدة الماضية إلى تفكيك السياق الاجتماعي للأداء الطبيعي لكل من: غرائز الوالدية لدى الكبار، ودوافع الارتباط عند الأطفال.

على الرغم من أن الطفل يحركه دافعٌ جينيٌّ قوي للارتباط، فإنه لا يوجد نموذجٌ أصليٌّ للوالد أو المعلم راسخ في مكان ما في دماغ الطفل. إن هذا الدماغ مبرمج فقط لممارسة التوجه، والارتباط، وأخيرًا، للحفاظ على التواصل مع أيما شخص يمثل وجهة البوصلة الأساسية. لا شيء يحث الطفل على البحث

فقط عن شخص يشبه الأم، أو الأب، أو شخص يبدو حانيًا، وصالحًا، وناضجًا. ليس هنالك تفضيلٌ فطريٌّ لانتقاء الشخص البالغ المسؤول، ولا يوجد في دماغ الارتباط الفطري تقديرٌ لشخص مُعتَمَد من قبل الحكومة، أو مُدَرَّب على تربية الأطفال. ولا تعترف أيٌّ من الدوائر الدماغية الفطرية بالأدوار المحددة اجتماعيًّا، أو تهتم بأنه «من المفترض» الاستجابة للمعلم، أو مقدم الرعاية النهارية، أو حتى الوالد في نهاية المطاف، واحترامهم، وملازمتهم.

من الناحية التاريخية، لم تكن هناك حاجة إلى مثل هذه البرمجة، فكما هي الحال مع جميع الثدييات، والعديد من الحيوانات الأخرى، كان الترتيب الطبيعي للأمور ببساطة هو أن يقوم دافع الارتباط الفطري بدوره، بربط الصغار بمقدمي الرعاية -الكبار من الفصيلة نفسها- حتى مرحلة النضج. وهذه هي الطريقة التي تكفل بها الطبيعة بقاء الصغار على قيد الحياة حتى يبلغوا مرحلة النضج السليم. إنه السياق الذي يتم فيه تمكين الصغار بشكل كامل من تحقيق إمكاناتهم الجينية، الذي يتم فيه أفضل تعبير عن غرائزهم بشكلٍ تامٍّ وقوي.

لقد تم إفساد هذا النظام الطبيعي في مجتمعنا. منذ الصغر، ندفع أطفالنا إلى العديد من المواقف والتفاعلات التي تشجع على التوجه نحو الأقران. ونحن دون قصد نشجع الظاهرة نفسها التي تؤدي -على المدى الطويل- إلى تَآكُل الأساس السليم الوحيد للنمو الصحي، ألا وهو ارتباط الأطفال بالكبار، المسؤولين عن تنشئتهم. إن وضع أطفالنا في موقف يتم فيه توجيه كل من ارتباطهم وغرائزهم التوجُّهية نحو الأقران يُعَدُّ انحرافًا عن الطريق السوي. نحن لسنا مستعدين لذلك، فأدمغتنا ليست مُهَيَّأَةً للتَكَيُّف بنجاح مع ما يجري من تحريف للمخطط الطبيعي.

كتب جون بولبي، الطبيب النفسي البريطاني، والرائد الكبير في أبحاث الارتباط: «إن القدرات السلوكية لنوع ما قد تكون مناسبة للحياة بشكل رائع داخل بيئة ما، وتُفضي إلى الجدب والموت فقط في بيئة أخرى». إن كل نوع من الأنواع يحظى بما أسماه بولبي: «بيئة التكيف»، وهي الظروف الأنسب لصفاته التشريحية، والفسيولوجية، والنفسية. وفي أي بيئة أخرى، لا يمكن توقع أن يُبلِيَ هذا الكائن الحي أو النوع بلاءً حسنًا، وقد يُظهِرُ سلوكًا «غير

عادي في أحسن الأحوال، وحتمًا غير مُوَاتٍ للبقاء على قيد الحياة في أسوأ الأحوال».[1] إن البيئة لم تعد تشجع أطفالنا على التطور وفقًا للحدود الطبيعية للارتباط في مجتمع ما بعد الصناعة.

***

ثقافة من الارتباطات الغائبة

إن التناقضات بين الثقافات التقليدية متعددة الأجيال ومجتمع أمريكا الشمالية اليوم لافتة للنظر. في أمريكا الشمالية الحديثة المتحضرة –وفي البلدان الصناعية الأخرى، حيث أصبح أسلوب الحياة الأمريكية هو القاعدة– يجد الأطفال أنفسهم في حالة من فقدان الارتباط أينما كانوا، تلك المواقف التي يفتقرون فيها إلى تواصل مستمر وعميق مع الكبار الذين يرعونهم. وهناك العديد من العوامل التي تعزز هذا الاتجاه.

إحدى نتائج التغيرات الاقتصادية التي حدثت منذ الحرب العالمية الثانية هي أن الأطفال يُوضَعون في وقت مبكر –وأحيانًا بعد الولادة بفترة وجيزة– في مواقف يقضون فيها معظم اليوم بعضهم بصحبة بعض. ويكون أغلب احتكاكهم مع أطفال آخرين، وليس مع الكبار، المهمين في حياتهم. فهم يقضون وقتًا أقل بكثير في توطيد علاقاتهم مع الآباء والكبار. وكلما كَبُرت سنهم، لا تزداد هذه العملية إلا تسارعًا.

لقد وَلَّد المجتمع ضغطًا اقتصاديًّا على كل من الوالدين للعمل خارج المنزل عندما يكون الأطفال في سِنٍّ صغيرةٍ جدًّا، ولكنه لم يُعِر تلبية احتياجات الأطفال من التغذية العاطفية إلا القليل من الاهتمام. وبقدر ما قد يبدو الأمر مفاجئًا، فإن المربين، والمعلمين، وعلماء النفس المتخصصين في مرحلة الطفولة المبكرة –ناهيك بالأطباء البشريين والنفسيين– نادرًا ما يتعلمون عن الارتباط. ولا يوجد في مؤسساتنا المختصة برعاية الأطفال وتعليمهم وعيٌ جمعي بالأهمية المحورية لعلاقات الارتباط. وعلى الرغم من أن العديد من مقدمي الرعاية والمعلمين الأفراد يدركون بحدسهم الحاجة إلى

خلق تواصل مع الأطفال، فليس من الغريب أن يجد هؤلاء الأشخاص أنفسهم على خلاف مع نظام لا يدعم نهجهم.

ونظرًا إلى أن رعاية الصغار لا تحظى بالتقدير الكافي في مجتمعنا، فإن الرعاية النهارية لا تحظى بتمويل جيد. إنه لمن الصعب على غير الأقارب تلبية احتياجات الارتباط والتوجيه الخاصة بالطفل بشكل كامل، خصوصًا إذا كان العديد من الرضع والأطفال الصغار الآخرين يتنافسون على نيل اهتمام مقدم الرعاية هذا. وعلى الرغم من أن العديد من مرافق الرعاية النهارية تُدارُ إدارة جيدة، ويعمل بها موظفون متفانون، وإن كانوا يتقاضون أجورًا زهيدة، فإن المعايير أبعد ما تكون عن كونها مُرضية بشكل موحد. فعلى سبيل المثال، تطالب ولاية نيويورك بألا يكون هناك أكثر من سبعة أطفال تحت رعاية موظف واحد، وهي نسبة غير عملية إلى حد بعيد. ولا يتم تقدير أهمية التواصل مع الكبار. وليس أمام الأطفال في مثل هذه الحالات من خيار سوى بناء علاقات ارتباط فيما بينهم.

إن عمل كلا الوالدين ليس هو سبب الضرر البالغ هنا. المشكلة الرئيسية هي عدم مراعاتنا للارتباط عند وضع ترتيباتنا المتعلقة برعاية الأطفال. فلا توجد عادات ثقافية في صلب المجتمع تجعل العنصر الأول الذي ينال اهتمام موظفي الرعاية النهارية ومعلمي رياض الأطفال هو تشكيل روابط مع الوالدين، ومن ثم تعزيز ارتباط ناجح مع الطفل من خلال التعارفات الودية. ويُترَك كل من الوالدين والمختصين إلى حدسهم، أو إلى غيابه في كثير من الأحيان. ونظرًا إلى انعدام الوعي الجمعي، يتبع معظم الكبار بكل بساطة الممارسات الحالية، التي لم يتم تصميمها على نحو يراعي الارتباط. وقد أُهمِلَت إحدى العادات المتعلقة بالارتباط التي كانت تُتَّبَع في العديد من الأماكن –وهي زيارة معلمي مرحلتي ما قبل المدرسة ورياض الأطفال منازِلَ الطلاب المستقبليين– وتُستثنى من ذلك المدارس الخاصة، الممولة تمويلًا جيدًا. وفي مواجهة الاستقطاع المالي، لا يستطيع أحد أن يشرح بشكلٍ كافٍ المهمة الحيوية التي كانت تخدمها هذه العادة، فالاقتصاد أسهل بكثير في فهمه من الارتباط.

إن جوهر الأزمة ليس التغيير المجتمعي في حد ذاته، بل عدم موازنة ذلك التغيير. فإذا أردنا أن نتقاسم مهمة تربية أطفالنا مع الآخرين، فإننا في حاجة إلى بناء السياق لهذا الأمر، من خلال إنشاء ما أسميه قرية الارتباط، وهي تمثل مجموعة علاقات مع الكبار تتسم بالرعاية، لتحل محل ما فقدناه. وهناك العديد من الطرائق للقيام بذلك، كما سأوضح في الفصل الثامن عشر.

بعد مرحلة الرعاية النهارية ورياض الأطفال، يلتحق أطفالنا بالمدرسة. الآن، سيقضون جُلَّ يومهم برفقة أقرانهم، في بيئة يحظى فيها الكبار بأولوية متناقصة. وإذا كانت هناك نية مُبَيَّتة لخلق توجه نحو الأقران، فإن المدارس بشكل إدارتها الحالي ستكون أفضل وسيلة لدينا بالتأكيد. إن الأطفال الملتحقين بفصول كبيرة يتولى أمرها مدرسون مُرهَقون يخلقون روابط بعضهم مع بعض. وتميل القواعد واللوائح إلى إبقائهم خارج الفصل الدراسي قبل بدء الدروس، مما يضمن أنهم بمفردهم، دون احتكاك طويل مع الكبار، فهم يقضون فترة الاستراحة ووقت الغداء أحدهم برفقة الآخر. ويتجاهل تدريب المعلمين مسألة الارتباط تمامًا، وبالتالي يتعلم المعلمون عن المواد التعليمية، ولكن لا يتعلمون عن الأهمية الجوهرية للعلاقات المترابطة في عملية التعلم لدى الصغار. وعلى عكس ما كان سائدًا قبل بضعة عقود، لا يختلط معلمو اليوم مع طلابهم في القاعات، أو في الملعب، ويتم صَدُّهم عن التفاعل معهم بشكلٍ شخصيٍّ أكثر. وعلى النقيض من المجتمعات التي يغلب عليها الطابع التقليدي، فإن الغالبية العظمى من الطلاب في أمريكا الشمالية لا يذهبون إلى منازلهم لقضاء وقت الغداء مع والديهم.

تقول كريستينا، وهي أم لطفلين في الصفين الثالث والسابع على التوالي: «هناك خمسمئة طالب في المدرسة التي يذهب إليها طفلاي. إنني أحضرهما لتناول الغداء كل يوم، ولكنهما اثنان من أصل عشرة طلاب فقط، الذين يذهبون إلى المنزل لتناول الغداء من بين الخمسمئة. بل إن هناك ضغطًا من جانب المعلمين لأسمح لهما بالبقاء هناك. يبدو أنهم يعتقدون أنني غريبة الأطوار نوعًا ما، أنني أم حريصة، ومزعجة أكثر مما ينبغي. ومع ذلك، أجد أنه لا غنى عن ذلك الوقت، فطفلاي لديهما الكثير ليخبراني به، والكثير ليسترجعاه حول ما حدث في المدرسة، وما وجدا فيه صعوبة، وما هما متحمسان له». تقول أمٌّ

أخرى اعتادت إحضار طفلتها إلى المنزل لتناول الغداء: «كانت ابنتي تركض نحو سيارتي. وكانت تمطر وابلًا من المعلومات: أي شيء حدث، وكيف شعرت حياله، وما شعرت به عندما ارتكبت شيئًا «خاطئًا»، أو فعلت شيئًا جيدًا». يتعجب المرء وهو يسمع هاتين الأمّين من كَمٍّ التجارب والمشاعر التي لم يتم الإفصاح عنها ولا معالجتها لدى العديد من الأطفال الآخرين.

إننا نركز بوجه عام على إطعام أطفالنا أكثر من التركيز على طقوس تناول الطعام التي تهدف إلى الحفاظ على ترابطنا. يصف الشاعر الأمريكي روبرت بلاي في كتابه الرائد «مجتمع الأشقاء» (The Sibling Society) العديد من مظاهر التوجه نحو الأقران، ويُلَمِّح إلى أسبابه. وعلى الرغم من أن بلاي لا يحلل الظاهرة بشكل كامل، فإن رؤيته المتعمقة كان يجب أن تحظى بمزيد من الاهتمام. كتب بلاي: «لم يعد هناك مجال للوجبات العائلية، والمحادثات، والقراءة الجماعية. إن ما يحتاج إليه الصغار –الاستقرار، والحضور، والاهتمام، والنصح، والغذاء الروحي النافع، والقصص غير الملوثة– هو بالضبط ما لن يقدمه لهم مجتمع الأشقاء».[2]

في المجتمع الحالي، تتسع فجوات الارتباط. وقد أفضى فقدان الأسرة الممتدة إلى نشوء فجوة ارتباط. غالبًا ما يفتقر الأطفال إلى علاقات وثيقة مع الأجيال الأكبر سنًّا، الأشخاص الذين كانوا في كثير من الأحيان، طوال تاريخ البشرية، أكثر قدرةً من الآباء أنفسهم على منح القبول غير المشروط الناشئ عن الحب، الذي يمثل حجر الأساس للأمان العاطفي. إن الوجود المُطَمئن والمستمر للأجداد، والخالات، والأخوال، والعَمّات، والأعمام، والحضن الحامي للعائلة متعددة الأجيال هو أمرٌ لا يتمتع به سوى عدد قليل من الأطفال في الوقت الحاضر.

أحد التأثيرات القوية التي تخدم مصلحة التوجه نحو الأقران هو زيادة قدرتنا على التنقل، لأن هذا يقطع الطريق أمام الاستمرارية الثقافية. تتطور الثقافة عبر الأجيال التي تعيش في المجتمع نفسه. ونحن لم نعد نعيش في قرى، وبالتالي لم نعد مرتبطين بمن نعيش بجوارهم. لقد جعلنا الترحال المستمر مجهولين، خالقًا بذلك نقيض قرية الارتباط. ولا يمكن أن يشترك في تربية أطفالنا أشخاص بالكاد نعرف أسماءهم.

ونظرًا إلى التقلقل الجغرافي، والتنقلات المستمرة، وكذلك التوجه المتزايد نحو الأقران لدى البالغين أنفسهم، يقل كثيرًا احتمال تمتع أطفال اليوم بصحبة الكبار، المتعهدين برفاههم وتنميتهم. يتخطى هذا الحرمان نطاق الأسرة، وتتسم به جميع العلاقات الاجتماعية تقريبًا. وعادةً ما يفتقر إلى الارتباطات مع الكبار، الذين يتحملون بعض المسؤولية عن الطفل. أحد الأمثلة على الصور المُهَدَّدَة بالانقراض هو طبيب العائلة، وهو الشخص الذي يعرف أجيالًا من الأسرة، الذي كان يمثل شخصيةً ذات حضور مستقر وعاطفي في حياة أفرادها، سواء في السراء أو الضراء. أما الطبيب المجهول، وغير الموجود باستمرار في عيادة الاستقبال، فمن الصعب أن يمثل بديلًا. وعلى المنوال نفسه، تم استبدال شركات عامة ليست لها روابط محلية ولا صلات شخصية مع المجتمعات التي تعمل فيها بصاحب محل البقالة والتاجر والحرفي في الحي منذ فترة طويلة. اليوم، أصبحت شخصية العم جرجس المحبوبة في برنامج «عالم سمسم» التلفزيوني مجرد خيال عذب. هذه الأمور تتعدى كونها مجرد مسائل اقتصادية، فهي تقع في صميم ما تدور حوله قرية الارتباط. أين الأجداد البديلون؟ والأعمام والعمات والأخوال والخالات البديلون الذين سدوا نقص العائلة الصغيرة والممتدة وحلوا محلهما في الماضي؟ أين هي شبكة أمان الارتباط بالكبار عندما يتعذر الوصول إلى الآباء؟ أين المرشدون الكبار الذين يساعدون في توجيه المراهقين؟ إن أطفالنا يكبرون وهم متخمون بالأقران، ومحرومون من الكبار.

لقد خلقت عَلمَنَة المجتمع فجوة ارتباط أخرى، فبصرف النظر عن الدين، كان مجتمع الكنيسة، أو المعبد، أو المسجد بمكانة فريق دعم مهم للآباء، وقرية ارتباط للأطفال. لقد كان للعلمانية معنى أكبر من مجرد فقدان الإيمان، أو الجذور الروحية، فقد تسببت في فقدان منظومة الارتباط هذه. وفضلًا عن ذلك، أصبح التفاعل بين الأقران يحظى بالأولوية عند الكثير من الكنائس. فعلى سبيل المثال، تقسم العديد من الكنائس الأسرة عند دخولها من الباب، وتضم الأفراد في مجموعات حسب السن، وليس حسب الأسرة، فهناك مجموعات رياض الأطفال، ومجموعات المراهقين، وكنائس الصغار، وحتى الصفوف العليا. وفي نظر أولئك الذين لا يدركون أهمية الارتباط، والمخاطر التي يشكلها التوجه نحو الأقران، يبدو من البديهي تمامًا أن الناس ينتمون

إلى أولئك الذين هم في مثل سنهم. وقد تطورت المنظمات الدينية الكبيرة للتعامل مع الشباب أو اليافعين فقط، مما ساعد على فقدان الروابط بين الأجيال المتعددة عن غير قصد.

***

الروابط العائلية الممزقة

يُقالُ إن الأسرة الصغيرة هي الوحدة الأساسية للمجتمع، إلا إنها في حد ذاتها تتعرض لضغط هائل. لقد ارتفعت معدلات الطلاق إلى عنان السماء. إن الطلاق يعتبر ضربة مزدوجة للأطفال، حيث إنه يخلق ارتباطات متنافسة، وكذلك فجوات في الارتباط. يحب الأطفال بطبيعة الحال أن تكون جميع ارتباطاتهم الحالية تحت سقف واحد. ويُمَكِّنُهم اجتماع الوالدين من إشباع رغبتهم في القرب والتواصل مع كل منهما في آن واحد. علاوة على ذلك، يرتبط العديد من الأطفال بوالديهم كزوجين. وعندما يقع الطلاق بين الوالدين، يصبح من المستحيل أن يكون الطفل قريبًا من كليهما في آنٍ واحد، على الأقل جسديًّا. إن الأطفال الأكثر نضجًا، والذين يتمتعون بارتباطات أكثر تطورًا مع والديهم هم الأقدر على البقاء بالقرب من كليهما، حتى عندما ينفصل الوالدان عن بعضهما، أي أنْ ينتموا إلى كليهما في آنٍ واحد، وأن يحبوا كليهما في آنٍ واحد، وأن يكونوا معروفين لديهما في آنٍ واحد. ولكن العديد من الأطفال، وحتى الأكبر سنًّا منهم، لا يمكنهم التعامل مع ذلك. إن الوالد الذي يتنافس مع الوالد الآخر، أو يعامل الوالد الآخر كشخص غير مرغوب فيه، يضع الطفل (أو دماغ الارتباط لدى الطفل، بشكل أدق) في موقف بالغ الصعوبة، فمن أجل أن يكون الطفل قريبًا من أحدهما، يجب عليه أن ينفصل عن الآخر جسديًّا ونفسيًّا.

قد تتفاقم مشكلة الارتباطات المتنافسة عندما يرتبط الآباء بشركاء جدد. مجددًا، غالبًا ما يتجنب الأطفال بالفطرة الاحتكاك بزوج الأم، أو زوجة الأب، من أجل الحفاظ على القرب مع الوالد الأصلي. إن التحدي الماثل أمام كل من الوالدين الحقيقيين، وزوج الأم، أو زوجة الأب هو التمهيد لارتباط جديد غير متنافس، بل والأفضل من ذلك، أن يكون داعمًا للعلاقة القائمة. ولا يمكن لدماغ

الارتباط لدى الطفل أن يتخلى عن حذره وأن يصبح منفتحًا على مبادرات التواصل من كلا الجانبين إلا عندما تكون العلاقات تكاملية.

ونظرًا إلى الخلافات الزوجية التي تسبق الطلاق، قد تتسع فجوات الارتباط قبل وقت طويل من وقوع الطلاق. فعندما يخسر الوالدان الدعم العاطفي الذي يمنحه كل منهما الآخر، أو يصبحان منشغلين بالعلاقة التي تربطهما، يصبح من الصعب أن يتعامل أطفالهما معهما. ويلجأ الأطفال المحرومون من الاتصال العاطفي مع الكبار إلى أقرانهم. كما إنه في ظل الظروف العصيبة، يطمع الآباء أنفسهم في التماس بعض الراحة من مسؤولية تقديم الرعاية. وأحد أسهل الطرق للقيام بذلك هو تشجيع التفاعل بين الأقران، فعندما يكون الأطفال بعضهم برفقة بعض، تقل احتياجاتهم التي يطالبوننا بها.

وتبين الدراسات المتعلقة بالأطفال ضحايا الطلاق أنهم -كمجموعة- أكثر عرضة للمشكلات المدرسية والعدوانية. كما إنهم أكثر عرضة لإظهار المشكلات السلوكية.[3] ورغم هذا، لم تتمكن الدراسات من تحديد سبب حدوث ذلك. ومن خلال فهم الارتباط، نرى أن هذه الأعراض يتضح أنها نتيجة مباشرة لفقدان الترابط العاطفي الأسري، والاعتماد المفرط على علاقات الأقران.

ولا يعني أيٌّ من هذا أن بقاء الوالدين في زيجات تمزقها الصراعات سيكون أفضل حالًا بالنسبة إلى الأطفال المعنيين.[4] ولكن مجددًا، نحتاج إلى أن نكون أكثر وعيًا بتأثير النزاع الأسري على ارتباطات أطفالنا. وسواء كان التعامل معنا أصعب بسبب أعباء الزواج أو الطلاق، فيجدر بنا أن نُشرِكَ غيرنا من الكبار لتولي دور تقديم الرعاية، فبدلًا من الاستعانة بأقران أطفالنا لتخفيف عبء الواجبات الأسرية، يجب أن ندعو أقاربنا وأصدقاءنا إلى سد هذه الفجوة، وخلق شبكة أمان للارتباط.

حتى الأسر الصغيرة التي لا تزال متماسكة تكون مُعَرَّضَة لفجوات الارتباط. في الوقت الحاضر، غالبًا ما يتطلب الأمر عمل كلا الوالدين بدوامٍ كامل لتأمين نفس مستوى المعيشة الذي كان من الممكن أن يوفره عائلٌ واحدٌ فقط قبل ثلاثين أو أربعين عامًا. ولقد تضافرت الضغوط الاجتماعية المتزايدة، والشعور المتنامي بانعدام الأمن الاقتصادي، حتى في خضم الثراء النسبي، لخلق بيئة تزداد فيها صعوبة التربية القائمة على الهدوء والترابط. وتحديدًا عندما أصبحت

هناك حاجة عند الآباء وغيرهم من البالغين إلى تكوين روابط ارتباط أقوى مع أطفالهم أكثر من ذي قبل، بات لديهم وقت وطاقة أقل لفعل ذلك.

لاحظ روبرت بلاي ما يلي: «في عام 1935، كان الفرد العامل المتوسط يحظى بأربعين ساعة فراغ أسبوعيًّا، متضمنةً يوم السبت. وبحلول عام 1990، انخفض عدد الساعات إلى سبع عشرة ساعة. تلك الساعات الثلاث والعشرون الضائعة من وقت الفراغ في الأسبوع منذ عام 1935 هي الساعات نفسها التي كان يمكن أن يكون فيها الأب أبًا راعيًا، ويستعيد فيها توازنه، وهي الساعات التي يمكن أن تشعر فيها الأم بأن لديها زوجًا بالفعل».[5] ولا تميز هذه الأنماط فقط السنوات الأولى من التربية، ولكن مرحلة الطفولة بأكملها. وعلى الرغم من أن العديد من الآباء اليوم أكثر وعيًا بأهمية تحمل قدر من مسؤولية التربية، فإن ضغوط الحياة المعاصرة، وضيق الوقت الدائم يقفان أمام نياتهم الحسنة.

يضفي مجتمعنا قيمة أعلى على النزعة الاستهلاكية أكثر مما يفعل تجاه النمو الصحي للأطفال. ولأسباب اقتصادية، يتم تثبيط الارتباطات الطبيعية للأطفال بوالديهم بقوة. غالبًا ما وجد الكاتب المشارك لي نفسه في موقف سخيف، بصفته طبيبًا عائليًّا، وهو الاضطرار إلى كتابة خطابات إلى أصحاب العمل تبرر لأسباب «صحية» قرار المرأة البقاء في المنزل عدة أشهر قليلة إضافية بعد ولادة طفلها، حتى تتمكن من الرضاعة الطبيعية. وهي حاجة فسيولوجية ضرورية للرضيع، ولكنها أيضًا خاصية ارتباط طبيعية وقوية في جميع أنواع الثدييات، خصوصًا في البشر. ولأسباب اقتصادية، لا تحظى التربية بالتقدير الجديرة به. إن وجودنا في المكان الذي نعيش فيه بدلًا من المكان الذي يوجد فيه فريقنا الداعم الطبيعي –الأصدقاء، والعائلة الممتدة، ومجتمعاتنا الأصلية– قد نتج عن أسباب اقتصادية، وكثيرًا ما تكون خارجةً عن سيطرة الآباء كأفراد، كما يجري مثلًا عندما يتم إغلاق صناعات بأكملها، أو نقلها. ولأسباب اقتصادية، نبني مدارس أكبر من أن يحدث فيها ترابط، ونمتلك فصولًا دراسيةً أكبر من أن يتلَقَّى الأطفال فيها اهتمامًا فرديًا.

وكما سنرى في الجزء الثالث، يفرض التوجه نحو الأقران تكاليف باهظة على المجتمع، من خلال تأجيج العدوانية، والانحراف، ومن خلال جعل الطلاب

أقل قابلية للتعلم، ومن خلال الحث على خيارات أنماط الحياة غير الصحية. وإذا كنا بصدد تقييم الخسارة الاقتصادية الحقيقية التي تكبدها المجتمع نتيجة للتوجه نحو الأقران في مجالات نظام العدالة، والتعليم، والصحة، فإنها لن تكون هناك ذرة شك في قصر نظرنا الحالي. وقد اعترفت بعض البلدان بذلك، حيث تقدم إعفاءً ضريبيًّا، بل ودعمًا مباشرًا للوالدين للبقاء في المنزل فترةً أطول بعد الولادة، أو التبني، وذلك قبل العودة إلى العمل.

***

التغير السريع والجنون التكنولوجي

لقد فقدنا بالدرجة الأولى العادات والتقاليد الثقافية التي تجمع بين العائلات الممتدة، وتربط بين الكبار والأطفال في علاقات تقوم على تقديم الرعاية، التي تمنح أصدقاء الآباء الكبار مكانًا في حياة أطفالهم. إن دور الثقافة هو تنمية الروابط بين العائل والمعول، ومنع حدوث فجوات الارتباط. ومن بين الأسباب العديدة الكامنة وراء خذلان الثقافة إيانا، ثمة سببان جديران بالذكر.

السبب الأول هو معدل التغير السريع بشكل صادم في المجتمعات الصناعية في القرن العشرين. يستغرق الأمر وقتًا لبناء العادات والتقاليد التي تخدم احتياجات الارتباط، ومئات السنين لخلق ثقافة عملية تخدم بيئة اجتماعية وجغرافية معينة. لقد أخذ مجتمعنا في التغير بسرعة كبيرة، حيث لا يمكن للثقافة أن تتطور تبعًا له. وقد خصص المحلل النفسي إريك إريكسون فصلًا في كتابه «الطفولة والمجتمع» (Childhood and Society)، الحائز جائزة بوليتزر، لتأمُّلاته حول الهوية الأمريكية. وكتب: «هذه الدولة الديناميكية تُعَرِّضُ سكانها لتناقضات أكثر تطرفًا، وتغيرات مفاجئة خلال جيلٍ واحد أكثر مما هي الحال عادةً مع الدول العظمى الأخرى».[6] ولم تزدد هذه الاتجاهات إلا تسارعًا منذ أن أدلى إريكسون بهذه الملاحظة في عام 1950. والآن، تفوق التغيرات التي تحدث خلال عقد من الزمان ما كان يحدث سابقًا خلال قرن من الزمان. وعندما تتغير الظروف بوتيرةٍ أسرع مما يمكن

لثقافتنا مواكبتها، يحدث أن تتفكك العادات والتقاليد. ولا عجب أن تفشل ثقافة اليوم في وظيفتها التقليدية، المتمثلة في دعم الارتباط بين الكبار والأطفال.

ويتمثل جانب من التغير السريع في الانتقال الإلكتروني للثقافة، مما يسمح ببث الثقافة المختلطة، والمُعَبَّأة تجاريًّا في منازلنا، وفي عقول أطفالنا. وقد حلت الثقافة السريعة محل ما كان ينتقل عبر العادات والتقاليد، وما كان ينتقل من جيلٍ إلى آخر. قال أحد الآباء المُحبَطين الذين أُجرِيَت معهم مقابلة من أجل هذا الكتاب: «في كل يوم تقريبًا أجد نفسي أحارب ثقافة المراهقين التي يتعرض لها أطفالي». لا يقتصر الأمر على أن مضمون هذه الثقافة غالبًا ما يكون غريبًا عن ثقافة الوالدين فحسب، بل إن عملية الانتقال أدت إلى إقصاء الأجداد، وجعلتهم يبدون غير عصريين للأسف. الألعاب أيضًا أصبحت إلكترونية. لقد كانت دائمًا وسيلة من وسائل الثقافة لربط الناس ببعضهم، وخصوصًا الأطفال بالكبار. والآن، تحولت الألعاب إلى نشاط فردي، حيث تتم مشاهدتها في آنٍ واحد في البرامج الرياضية التلفزيونية، أو لعبها في عزلة على الحاسوب.

لقد كان التغير الأهم في الآونة الأخيرة هو تكنولوجيا التواصل، بدءًا بالهاتف، ثم الإنترنت، من خلال البريد الإلكتروني، والرسائل الفورية. إننا مولعون بتكنولوجيا التواصل دون أن ندرك أن إحدى وظائفها الرئيسية هي تسهيل الارتباطات. وقد وضعناها دون قصد بين أيدي الأطفال، الذين يستخدمونها بالطبع للتواصل مع أقرانهم. ونظرًا إلى احتياجاتهم الملحة إلى الارتباط، يصبح التواصل ذا مفعول إدماني شديد، وغالبًا ما يصبح شغلهم الشاغل. إن ثقافتنا لم تتمكن من بلورة العادات والتقاليد لاحتواء هذا التطور. لذا، مرة أخرى، لم يبقَ لنا جميعًا سوى أجهزتنا الخاصة. ستكون هذه التكنولوجيا الجديدة الرائعة أداةً إيجابية قوية إذا استُخدِمَت لتسهيل التواصل بين الأطفال والكبار، كما هي الحال –على سبيل المثال– عندما تتيح التواصل السهل بين الطلاب الذين يعيشون بعيدًا عن المنزل وأولياء أمورهم. وإذا تركناها دون ضوابط، عززت التوجه نحو الأقران.

***

ثقافة الارتباط على أرض الواقع

إن عِلَّة ثقافتنا في أمريكا الشمالية تتضح لنا بسهولة عندما نشاهد مجتمعًا لا يزال يحترم الارتباطات التقليدية. لقد أُتِيحَت لي الفرصة لفعل ذلك عندما قضيتُ أنا وزوجتي جوي وأطفالنا بعض الوقت مؤخرًا في قرية رونيه بمدينة بروفنس.

إن بروفنس تستدعي إلى الذهن على الفور صور الثقافة الخالدة، فالمناخ المشمس، والعنب، وسحر العالم القديم، والطعام، كل ذلك يثير شعورًا بالحنين إلى الماضي. من المفيد أن ننظر إلى المجتمع البروفنسي من وجهة نظر أخرى، لما يمكنه أن يعلمنا عن الارتباط. وكما سنرى في فصلنا الأخير، فإنه حتى في البيئة المختلفة اختلافًا شاسعًا في أمريكا الشمالية في مرحلة ما بعد الصناعة، ليس من المستحيل أن نطبق بعض الدروس بينما نعيد خلق قرية الارتباط الخاصة بنا، كما أحب أن أسميها.

عندما ذهبنا إلى بروفنس أول مرة، ظننتُ أنني سأشاهد ثقافة مختلفة. ومع أخذ الارتباط بعين الاعتبار، اتضح لي أن الأمر أكثر بكثير من مجرد ثقافة مختلفة. لقد كنت أشهد ثقافة على أرض الواقع، ثقافة ناجحة. كان الأطفال يرحبون بالكبار، والكبار يرحبون بالأطفال. ويشمل التواصل الاجتماعي عائلات بأكملها، ولا يقتصر على تواصل الكبار مع الكبار، والأطفال مع الأطفال. وكان هناك نشاطٌ قرويٌّ واحد فقط في كل مرة، لذلك لم تتشتت العائلات في عدة اتجاهات. كان وقت الظهيرة في يوم الأحد مُخَصَّصًا للتمشيات العائلية في الريف. وحتى عند نافورة القرية، وأماكن الاستراحة المجاورة، كان المراهقون يختلطون بكبار السن. وكانت المهرجانات والاحتفالات –التي كان هناك العديد منها– كلها تجمعات عائلية. وكانت الموسيقى والرقص يجمعان شمل الأجيال بدلًا من تفريقهم. لقد كانت الثقافة تسمو على النزعة المادية، فلا يمكن للمرء حتى شراء رغيف خبز دون الشروع أولًا في طقوس التحية اللائقة. وكانت متاجر القرية تُغلَق مدة ثلاث ساعات في منتصف النهار، بينما يخرج الطلاب من المدارس وتجتمع الأسر مجددًا. وكان يتم تناول الغداء في

وئام، حيث كانت التجمعات متعددة الأجيال تجلس حول الموائد، وتتشارك الطعام والحديث.

كانت عادات الارتباط في محيط المدرسة الابتدائية في القرية لا تقل روعة، حيث كان يتم اصطحاب الأطفال بشكل شخصي إلى المدرسة، ويجلبهم آباؤهم، أو أجدادهم. وكانت للمدرسة بوابات، ولا يمكن دخولها إلا من مدخل واحد. كان المعلمون يقفون عند البوابة وهم ينتظرون تسليم طلابهم إليهم. ومجددًا، أمْلَت الثقافة توطيد هذه الصلة من خلال التحية اللائقة بين المرافقين الكبار والمعلمين، والمعلمين والطلاب. في بعض الأحيان، عندما كان يجتمع الفصل الدراسي قبل أن يُقرَع جرس المدرسة، كان المعلم يقود طلبة الصف عبر الملعب، مثل الإوزة الأم المتبوعة بصغار الإوز. وفي حين أن هذا قد يبدو في نظر الأمريكيين الشماليين طقوس ما قبل المدرسة، بل وحتى يرونه عبثية، ففي بروفنس، كان هذا جزءًا بديهيًا من المسار الطبيعي للأمور. وعند خروج الأطفال من المدرسة، لطالما كان يخرج فصلٌ واحد في كل مرة، ويكون المعلم في المقدمة. وكان المعلم ينتظر مع الطلاب عند البوابة، حتى يتم استلامهم جميعًا من قِبَلِ مرافقيهم البالغين. كان معلموهم يحظون بالمكانة نفسها، سواء في الملعب، أو في سوق القرية، أو في مهرجان القرية. لم يكن هناك مجال للإهمال. لقد كانت الثقافة البروفنسية تقلل فجوات الارتباط إلى أدنى حد ممكن.

لقد غامَرتُ بطرح أسئلة حول سبب فعلهم هذا، أو ذاك، ولم أتلَقَّ إجابة قط. الشعور الذي انتابني هو أن أسئلتي كانت غير مقبولة، كما لو كان هناك نوع من التحريم حول تحليل العادات والتقاليد. كان المقرر هو اتباع الثقافة، وليس وضعها موضع تساؤل. من الواضح أن فلسفة الارتباط كانت تكمن في الثقافة نفسها، وليست في وعي الناس. كيف احتفظ المجتمع البروفنسي بالقوة المعتادة للأجيال الأكبر سنًا لنقل ثقافتهم وقيمهم إلى أطفالهم؟ ولماذا كان الصغار في الريف الفرنسي قادرين على تكوين ارتباطات بالأقران لا يبدو أنها تنافس ارتباطاتهم بالكبار؟ تدور الإجابة حول كيفية تكوين الارتباط بالأقران.

***

الطريقة الطبيعية لتكوين الارتباطات

تنشأ الارتباطات عمومًا بإحدى طريقتين: فهي إما النتيجة الطبيعية للارتباطات القائمة، وإما تنشأ عندما تصبح فجوة الارتباط غير مُحتَمَلة. وتتجلى أولى هاتين الطريقتين بالفعل في مرحلة الرضاعة. وعند سن ستة أشهر، يُظهِر معظم الأطفال مقاومةً للتواصل والقرب من أولئك الذين لا يرتبطون بهم. ويتطلب التغلب على ذلك نوعًا معينًا من التفاعل بين جهة ارتباط الطفل الحالية و«الشخص الغريب». على سبيل المثال، إذا انخرطت الأم فترةً في التواصل الوِدِّيِّ مع الشخص الغريب، مع الحرص على عدم دفع الرضيع إلى التواصل، وإنما تكتفي بالسماح له بالملاحظة، فعادةً ما تلين المقاومة، ويصبح الطفل متقبلًا التواصل مع الوافد الجديد. ولا بد أن يكون هناك تعارفٌ وِدِّي، أو «تشجيع»، إن جاز التعبير. فبمجرد أن تنشط غرائز الارتباط لدى الرضيع، وتصبح أوقات القرب ممتعة، يتجه الطفل عادةً إلى التواصل مع الشخص الجديد، ويسمح له برعايته. وسيحصل الشخص البالغ «الغريب» سابقًا -كصديق الأسرة، أو جليسة الأطفال- الآن على «إذن» الطفل ليصبح مقدم رعاية.

إنه تصميم باهر، فعندما يولد ارتباطٌ جديد من رحم علاقات الطفل الناجحة الحالية، تقل كثيرًا احتمالية أن يتحول هذا الارتباط إلى قوة منافسة. ومن المُرَجَّحِ أن يزداد الاحتفاء بالارتباط مع الوالد. ويتم التمسك بالوالد باعتباره الاتجاه الأساسي للبوصلة، وستظل العلاقة معه تحظى بالأولوية. ولا يُحتَمَلُ أن تسلب العلاقات مع الأشقاء، والأجداد، والعائلة الممتدة، وأصدقاء الأسرة الطفل من والديه، حتى في حالة وجود الأقران.

تسمح قدرة الارتباطات الناجحة على خلق علاقات جديدة ببناء ما أسميته قرية الارتباط الطبيعية، التي يكون مصدرها الوالدين بالأساس. وتصبح ارتباطات الوالدين هي نفسها ارتباطات الطفل في نهاية المطاف، وتهيئ سياقًا يمكن فيه تربية الطفل. وهذا ما جعل ارتباطات الأطفال بالأقران في قرية رونيه لا تبدو وكأنها تتنافس مع ارتباطاتهم بوالديهم، وهو ما جعل الأطفال في رونيه متقبلين لتلقي التربية من قِبَلِ أيِّ شخصٍ كبير تقريبًا في القرية.

***

في المجتمع الأمريكي -وفي المجتمعات الأخرى التي تسير وفقًا للنموذج الأمريكي- لا تنشأ معظم الارتباطات بالأقران بشكل طبيعي، فهي تنبع من عدم قدرة الطفل على تحمل فجوة الارتباط، تلك الفجوات التي تحدث عندما تتلاشى الروابط التقليدية، ويجد الطفل نفسه محرومًا من وجهة البوصلة الطبيعية. في مثل هذه الحالة، تتم برمجة الدماغ للبحث عن بديل، شخص ما ليمثل ارتباطًا أساسيًا. وبالنسبة إلى طفل محروم، تحظى هذه الخطة بأولوية قصوى.

كما تخبرنا القصة والأسطورة، فإن الارتباطات التي تَشَكَّلت بدافع الحاجة تكون في الأساس عشوائية وعارضة، أي وليدة الصدفة، والتخبط. لقد أُلقِيَ التوأمان رومولوس وريموس، المؤسسان الأسطوريان لمدينة روما، في غياهب الارتباط البشري، ثم تربيا على يد ذئبة. وعانى طرزان المصير نفسه، ولكن تَبَنَّته جماعة من القرود. وفي رواية الأطفال الكلاسيكية «الرضيع» (The Yearling)، لمؤلفتها مارجوري كينان رولينجز، تَرَبَّى صغير الغزال اليتيم على يد صبيٍّ صغير. يمكن للغزال أن يتعلق بالأسد، ويمكن للقط أن يتعلق بالكلب. وقد تَعَلَّق ديكي الصغير الأليف بدراجة «هارلي ديفيدسون» النارية الخاصة بأخي.

تعتبر فجوات الارتباط -تلك الحالات التي تغيب فيها ارتباطات الطفل الطبيعية- خطيرة، وذلك تحديدًا لأن نتائجها عشوائية للغاية. وكما أشرنا سابقًا، إذا لم تكن البطة الأم حاضرةً عندما يفقس صغير البط، ارتَبَطَ المخلوق الصغير بأقرب جسم متحرك. بالنسبة إلى الأطفال، تُعَدُّ عملية التعلم بالطبع أعقد بكثير، ولكن من المُرَجَّحِ أن يصبح اتجاه البوصلة هو أول شخص يبدو أنه يستنقذهم من فجوة الارتباط. إن برمجة الارتباط الإنساني تغفل عن جوانب مثل الموثوقية، والمسؤولية، والأمان، والنضج، والرعاية. لا توجد أي استخبارات تسري على مسألة الاستبدال. والعديد من ارتباطاتنا -حتى كبالغين- هو دليلٌ مؤسف على هذه الحقيقة. بالنسبة إلى الطفل، لا

يتم إجراء أي مقابلات شخصية، ولا تَرِدُ حتى أي تساؤلات داخلية. ولا تخطر على بال الطفل أبدًا المسائل المهمة المتعلقة بالارتباط: هل تتوافق وجهة البوصلة مع والِدَيَّ؟ هل سأكون قادرًا على أن أكون قريبًا منهم جميعًا في آنٍ واحد؟ هل يمكنني الاعتماد على هذا الشخص؟ هل يمكن لهذه العلاقة أن تقدم لي قبولًا غير مشروط ناشئًا عن المحبة؟ هل يمكنني الوثوق في توجيهات هذا الشخص وإرشاداته؟ هل أنا مرحب بوجودي كما أنا ويمكنني التعبير عن نفسي دون تكلف؟ في أحيانٍ كثيرة، يتم تنحية البالغين الراعين لصالح جماعة الأقران. وما يبدأ كبديل مؤقت في حالات خاصة، حيث تكون هناك فجوة في التوجيه، يتحول في نهاية المطاف إلى بديلٍ دائم.

تزداد كثيرًا احتمالية أن يتحول الارتباط إلى «علاقة» تتنافس مع الارتباط بالوالدين عندما يُولَدُ من فراغٍ بدلًا من أن يكون وليد علاقة ناجحة قائمة. وتكون العلاقات مع الأقران أكثر أمانًا عندما تكون الامتداد الطبيعي للارتباطات بالوالدين. ولسوء الحظ، بدلًا من أن تكون هذه العلاقات نتيجة للترابط، فهي في أغلب الأحيان تكون وليدة التفكك.

كلما كَوَّن الأطفال ارتباطات بأقران لا تربطنا صلة بهم، زادت احتمالية عدم التوافق. وتترتب على ذلك دوامة لا تنتهي من التوجه نحو الأقران. لقد كان آباؤنا أقل توجهًا نحو الأقران مما أصبحنا عليه الآن، ومن المرجح أن يكون أطفالنا أكثر توجهًا نحو الأقران مما نحن عليه ما لم نتمكن من فعل شيء حيال ذلك.

تقدم تجربة الهجرة الحالية في أمريكا الشمالية مثالًا شديد الوضوح على التوجه نحو الأقران الذي يهدم الروابط الثقافية العريقة. إن فجوات الارتباط التي يعانيها الأطفال المهاجرون تتسم بالعمق الشديد. يركز الآباء الكادحون على دعم أسرهم اقتصاديًّا، ولا يستطيعون توجيه أطفالهم بشيء من المعرفة أو الثقة وهم غير مُلِمِّين بلغة وعادات مجتمعهم الجديد. وغالبًا ما يكون الأقران هم الأشخاص الوحيدون المتاحون أمام هؤلاء الأطفال ليلجؤوا إليهم. وقد

تتفكك العائلات المهاجرة بسرعة بعد أن تصطدم بثقافة متجهة نحو الأقران. وقد تتسع الفجوة بين الطفل والوالد إلى درجة تصبح عندها مستعصية الرأب. إن آباء هؤلاء الأطفال يفقدون مكانتهم، وسلطتهم، وقيادتهم. وفي نهاية المطاف، يحل الأقران محل الوالدين، وتحل شِلَلُ الأصدقاء محل الأسر أكثر فأكثر. مجددًا، لا تكمن المشكلة في الهجرة، أو الترحيل الاضطراري للسكان المشردين بسبب الحرب، أو المعاناة الاقتصادية. إن الثقافات التقليدية تخضع لمجتمع أمريكا الشمالية الذي يحركه الأقران. ونحن نخذل المهاجرين إلينا بحكم فشلنا المجتمعي في الحفاظ على العلاقة بين الطفل والوالدين.

في بعض الأنحاء من البلد، لا يزال المرء يرى العائلات -التي غالبًا ما تكون من قارة آسيا- تلتقي معًا في مجموعات متعددة الأجيال في نزهات. ويخالط الآباء، والأجداد، بل وحتى آباء الأجداد الهزيلون، أطفالهم وأحفادهم، ويضاحكونهم، ويتواصلون معهم. من المؤسف ألا يرى المرء هذا إلا بين المهاجرين الجُدُدِ نسبيًا. ومع اندماج الشباب في مجتمع أمريكا الشمالية، تتلاشى صلاتهم بكبار السن. إنهم ينعزلون عن عائلاتهم. وقد أصبحت رموزهم هي الشخصيات المُصطَنَعة، والمُتَّسِمَة بطابع جنسي مبالغ فيه، التي تم تسويقها على نطاق واسع من قبل هوليوود، وصناع الموسيقى الأمريكية. إنهم سرعان ما أصبحوا غرباء عن الثقافات التي حافظت على أسلافهم جيلًا بعد جيل. وبينما نلاحظ التفسخ السريع للأسر المهاجرة تحت تأثير المجتمع المتوجه نحو الأقران، فإننا نشهد -كما لو كان ذلك في فيديو سريع الحركة- الانهيار الثقافي الذي عانيناه نحن أنفسنا في نصف القرن الماضي.

سوف يكون من المشجع الاعتقاد بأن أنحاء أخرى من العالم ستنجح في مقاومة نزعة التوجه نحو الأقران. ومن المرجح أن يكون العكس هو الصحيح، لأن الاقتصاد العالمي يمارس تأثيراته المدمرة على الثقافات التقليدية في قارات أخرى. والآن، باتت المشكلات المتعلقة باغتراب المراهقين تُواجَه على نطاق واسع في البلدان التي اتبعت النموذج الأميركي من كثب، كبريطانيا، وأستراليا، واليابان. وقد نتوقع أنماطًا مماثلة في أماكن أخرى،

نتيجة للتغيرات الاقتصادية، والتحولات السكانية الهائلة. على سبيل المثال، تنتشر الاضطرابات المتعلقة بالقلق بين الأطفال الروس. وطبقًا لتقرير نشرته صحيفة «النيويورك تايمز» (The New York Times)، فمنذ انهيار الاتحاد السوفييتي، قبل ما يزيد قليلًا على عقدٍ من الزمان، غَيَّرَ ما يقترب من ثلث سكان روسيا، الذين يُقَدَّرُ عددهم بنحو 143 مليون نسمة –نحو 45 مليون نسمة– محل إقامتهم. وينذر التوجه نحو الأقران بأن يصبح واحدًا من أقل الصادرات الثقافية الأمريكية المرحب بها.

***

الجزء الثاني

مُحَطَّمون:
كيف ينال التوجه نحو الأقران من التربية

4

القدرة على التربية تَنسَلُّ من بين أيدينا

كانت كرستين في السابعة من عمرها عندما استشارني والداها أول مرة، وقد كانا مُستاءين وقلقين بشأن تَغَيُّرٍ مفاجئ في ابنتهما. لقد كانت تميل إلى القيام بعكس ما كان مُتَوَقَّعًا، ويمكنها أن تكون شديدة الوقاحة مع والديها، خصوصًا في حضور أصدقائها. كان الوالدان في حيرة من أمرهما. لقد كانت كرستين -كبرى الأخوات الثلاث- مُحِبَّة، وعطوفة، وحريصة على إرضاء الآخرين، وذلك قبل أن تلتحق بالصف الثاني. استرجعت الأم قائلةً: «لقد كانت تربية كرستين تجربةً رائعة». والآن أصبحت طفلة متمردة، ويصعب جدًّا التعامل معها. كانت تشيح بنظرها في ضجر من أكثر الطلبات العادية، وينتهي بها كل أمر إلى صراع. اكتشفت الأم جانبًا من نفسها لم تكن تعرف بوجوده قط، لقد وجدت نفسها غاضبة، بل وحانقة. لقد سمعت نفسها وهي تصرخ، وصُدِمَت لسماع كلمات تخرج من فمها أصابتها بالذعر. وجد الأب أن الجو العام يسوده التوتر الشديد، وأن النزاع مزعج للغاية، لدرجة أنه التهى بعمله أكثر فأكثر. وكما يفعل العديد من الآباء في وضعهما، لجأ بصورة أكبر إلى التوبيخ، والتهديدات، والعقوبات، كل ذلك دون جدوى.

قد يكون من المُستَغرَب أن نسمع أنه ينبغي أن تكون التربية أمرًا سهلًا نسبيًّا. يجب ألا يتطلب حَملُ طفلنا على الاقتداء بنا، أو اتباع توجيهاتنا، أو احترام قيمنا الانفعال والخلاف، أو الإكراه، ولا حتى الاستغلال المفرط للمكافآت. إذا كانت هناك حاجة إلى أساليب الضغط، فثمة خطب ما. لقد أصبح والِدَا كرستين يعتمدان على الضغط لأنهما فقدا القدرة على التربية دون سابق إنذار.

لقد صُمِّمَت التربية لتكون معززةً بالقوة. وبهذه الطريقة، فإنها تشبه إلى حد كبير السيارات الفاخرة اليوم، التي تأتي بنظام توجيه، وفرامل، ونوافذ معززين بالطاقة. فإذا انقطعت الطاقة، كان من الصعب قيادة العديد من السيارات. وكذلك، فإن توجيه الأطفال عندما تنفد قوتنا التربوية هو أمر مستحيل أيضًا. ومع ذلك، يحاول الملايين من الآباء القيام بذلك بالضبط. ولكن في حين أنه من السهل نسبيًّا العثور على فَنِّيٍّ جيدٍ ليساعدك في إصلاح سيارتك، فنادرًا ما يقوم الخبراء الذين يذهب إليهم الآباء بصعوبات في تربية الأطفال بتقييم المشكلة بشكل صحيح. وكثيرًا ما يُلام الأطفال على عنادهم، أو يُلام الآباء على عدم كفاءتهم، أو على أساليبهم التربوية غير الملائمة. لا يعترف الآباء والخبراء عمومًا بأن جذور المشكلة لا تكمن في عدم كفاءة الوالدين، وإنما في عجز الوالدين بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة: الافتقار إلى القوة الكافية.

إن السمة المفقودة هي القوة، وليست الحب، أو المعرفة، أو الالتزام، أو المهارة. لقد كان أسلافنا يتمتعون بقوة أكثر بكثير من الآباء اليوم. ولحَمْل الأطفال على الطاعة، كان أجدادنا يتعاملون بقوة أكبر من القوة التي يعاملنا بها آباؤنا، أو يبدو أننا نعامل بها أطفالنا. وإن استمر هذا التوجه، فسوف يواجه أطفالنا أزمة كبيرة عندما يأتي دورهم في التربية. إن القدرة على التربية تَنسَلُّ من بين أيدينا.

***

سلطة الوالدين الطبيعية

من الصعب إدراك عجز الوالدين، ومن المؤلم الاعتراف به. تتشبث عقولنا بتفسيرات أكثر قبولًا: أطفالنا ليسوا في حاجة إلينا بعد الآن، أو أطفالنا عنيدون للغاية، أو مهارتنا التربوية ضعيفة.

يقاوم الكثير من الناس في هذه الآونة مفهوم القوة. عندما كنا أطفالًا، كان بعضنا يعلم جيدًا قوة الوالدين، وأصبح يدرك بألم احتمالية سوء استخدامها. نحن ندرك أن القوة تفضي إلى الاندفاع، وقد شاهدنا أنه لا يمكن الوثوق بأولئك الذين يسعون إلى القوة للسيطرة على الآخرين. بطريقة ما، صارت القوة كلمة سليطة، كما هي الحال في كلمات مثل: البحث عن القوة، والتعطش للقوة. ليس من المفاجئ أن يتجه الكثيرون إلى تجنبها، وهو سلوك أواجهه بشكل متكرر بين الآباء والمعلمين.

يخلط الكثيرون أيضًا بين القوة والتسلُّط. وليس هذا هو المعنى الذي نوظف فيه كلمة القوة في هذا الكتاب. في حديثنا الحالي عن التربية والارتباط، نعني بالقوة سلطة الوالدين الطبيعية. ولا تنبع هذه السلطة الطبيعية من الإكراه، أو التسلُّط، بل من علاقة متوائمة مع الطفل بحق. وتظهر القوة في التربية عندما تكون الأمور في حالتها الطبيعية، وتظهر دون مجهود، ودون تظاهر، ودون إلحاح. وعندما نفتقر إلى تلك القوة، يُحتَمَلُ أن نلجأ إلى التسلُّط. وكلما حظي الوالد بقوة أكبر، قلت الحاجة إلى التسلُّط في مهام التربية اليومية. على الجانب الآخر، كلما تناقصت القوة التي نتمتع بها، اضطررنا أكثر إلى رفع أصواتنا، والتعامل بقسوة، وإطلاق التهديدات، والسعي إلى اكتساب بعض النفوذ لحمل أطفالنا على الانصياع لمطالبنا. لقد أدى فقدان القوة الذي يعانيه آباء اليوم إلى الانشغال بالكتابات التربوية المعنية بالأساليب التي يمكن أن يُنظر إليها على أنها رشاوي وتهديدات في أي موقف آخر تقريبًا. لقد عملنا على تمويه مثل هذه الدلالات على العجز بالتعبيرات المستساغة، مثل: المكافآت، و «العواقب الطبيعية».

تعتبر القوة ضرورة حتمية لأداء مهمة التربية. لماذا نحتاج إلى القوة؟ لأن لدينا مسؤوليات. ولم يكن من المُقَدَّر قط للتربية أن تنجح في الوفاء بما

يصاحبها من مسؤوليات من دون القوة. ولا يمكن فهم ديناميات التربية دون تناول مسألة القوة.

إن القوة التي فقدناها هي القوة المطلوبة لجذب انتباه أطفالنا، والتماس نياتهم الحسنة، ونيل احترامهم، وكسب تعاونهم. من دون هذه القدرات الأربع، لا يتبقى لدينا إلا الإكراه، أو الرشوة. كانت هذه هي المشكلة التي واجهها والدا كرستين عندما استشاراني، شعورهما بالقلق حيال تمرد ابنتهما الذي جَدَّ مؤخرًا. سأستخدم علاقة كرستين بوالديها كمثال على فقدان سلطة الوالدين الطبيعية، جنبًا إلى جنب مع حالتين أخريين تُسهِمان أيضًا في توضيح معنى القوة الوالدية. هناك تسعة أفراد في هذه المجموعة من الشخصيات: ستة آباء، وثلاثة أطفال. وتمثل قصصهم الأزمة التي يواجهها العديد من العائلات اليوم.

كان والدا شون البالغ من العمر تسع سنوات مُطَلَّقَين. لم يتزوج أيٌّ منهما مرة أخرى، وكانت العلاقة القائمة بينهما جيدة بما يكفي لالتماس المساعدة معًا. وقد أسهمت الصعوبات التي واجهاها في تربية شون في انفصالهما. كانت السنوات الأولى مع شون سهلة نسبيًا، ولكن السنتين الماضيتين كانتا مُرَوِّعَتَين. لقد كان يتعدى لفظيًا على والديه، ويُعَنِّفُ أخته الأصغر جسديًا. وعلى الرغم من أنه كان ذكيًا جدًا، فإنه لا يمكن لأي قدر من النقاش المنطقي أن يقنعه بفعل ما يُؤمر به. وقد استشار الوالدان عدة خبراء، وقرآ العديد من الكتب التي توصي بمختلف النُّهُج والأساليب. لم يكن هناك شيء يُفلِح مع شون، فالعقوبات المعتادة كانت تُعَقِّد الأمور فحسب، وإرساله إلى غرفته لم يكن له تأثير واضح. ورغم أن الأم لم تؤمن بالضرب، فقد وجدت نفسها تستخدم العقاب الجسدي بدافع من اليأس. توقف الوالدان عن محاولة حمل شون على الطاعة في أمور بسيطة، مثل الجلوس على مائدة الأسرة في أثناء تناول العشاء. ولم يحالفهما التوفيق في حمله على إنجاز واجباته المدرسية. وقبل أن ينفسخ الزواج، أفسدت مقاومة شون العنيدة رونق المنزل. لقد أصبح الوالدان مُرهَقَين نفسيًا، حتى بات كل منهما غير قادر بعد الآن على استحضار مشاعر الدفء أو المودة تجاه ابنهما.

كانت ميلاني تبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا. لقد استطاع والدها بالكاد احتواء غضبه في أثناء حديثه عن ابنته. تغيرت الحياة مع ميلاني بعد وفاة

جدتها، عندما كانت الطفلة في الصف السادس. وحتى ذلك الوقت، كانت ميلاني متعاونة في المنزل، وطالبة مجتهدة في المدرسة، وأختًا مُحِبَّةً لأخيها، الذي كان يكبُرُها بثلاث سنوات. الآن أصبحت تتغيب عن الفصول الدراسية، ولا تبالي تمامًا بالواجبات المدرسية. كانت تتسلل خلسة إلى خارج المنزل بصفة دورية. وكانت ترفض التحدث إلى والِدَيها، مُعلِنَةً أنها تكرههما، وأنها تريد فقط أن تبقى بمفردها. رَفَضَت أيضًا تناول الطعام مع والديها، وكانت تتناول وجباتها بمفردها في غرفتها. شعرت الأم بالصدمة. لقد أمضت معظم وقتها في التوسل إلى ابنتها لكي تكون «لطيفة»، ولكي تعود إلى المنزل في الوقت المحدد، وتتوقف عن التسلل إلى الخارج. لم يستطع الأب أن يتساهل مع سلوك ميلاني الوقح. كان يعتقد أن الحل يكمن بشكل ما في فرض القوانين الصارمة، لتعليم ابنته المراهقة «درسًا لن تنساه أبدًا». وبقدر ما كان قلقًا، فإن أي شيء أقل من النهج الصارم كان مجرد تساهل مع سلوك ميلاني غير المقبول، ويزيد الطين بلة. لقد كان غضبه هو الأشد بالنظر إلى أن ميلاني -حتى هذا التغير المفاجئ في شخصيتها- كانت «حبيبة أبيها» اللطيفة والمطيعة.

ثلاثة سيناريوهات فردية، وثلاث مجموعات متفرقة من الظروف، وثلاثة أطفال مختلفين تمامًا، إلا إنه لا شيء منهم يُعَدُّ استثنائيًا. ينال العديد من الآباء والأمهات نصيبهم من مشاعر الإحباط التي عانوها في تربية الأطفال. وتختلف مظاهر الصعوبة من طفل إلى آخر، ولكن الموقف الجامع متشابه بشكل لافت للنظر: التربية أصعب بكثير مما هو متوقع. لقد باتت ترنيمة حسرة الآباء شائعة حاليًا: «يبدو أن أطفال اليوم لا يكنون الاحترام للسلطة كما كنا نفعل ونحن أطفال؛ لا أستطيع أن أحمل طفلي على إنجاز واجباته المدرسية، أو ترتيب سريره، أو القيام بأعماله المنزلية، أو تنظيف غرفته». أو الشكوى الساخرة التي كثيرًا ما نسمعها: «إذا كانت التربية بهذه الأهمية، فإنه يجب أن يأتي مع الأطفال دليلٌ إرشادي!».

***

لقد خَلُصَ العديد من الناس إلى أنه لا يمكن توقع أن يعرف الآباء ما يجب عليهم فعله دون تدريب منهجي. هناك جميع أنواع دورات التربية الآن، وحتى الدروس التي تعلم الآباء كيفية غناء أناشيد الأطفال لصغارهم. ومع ذلك، لا يمكن للخبراء تعليم أكثر الأمور أهمية في التربية الناجحة. إن القوة الوالدية لا تنبع من الأساليب، بغض النظر عن مدى حسن نياتها، ولكنها تنبع من علاقة الارتباط. وفي الأمثلة الثلاثة التي عرضناها، كانت تلك القوة غائبة.

يكمن سر قوة الوالد في اعتمادية الطفل. يولد الأطفال اعتماديين تمامًا، لا يقدرون على شق طريقهم في هذا العالم. إن افتقارهم إلى القدرة على البقاء ككائنات مستقلة يجعلهم يعتمدون تمامًا على الآخرين لرعايتهم، وإرشادهم، وتوجيههم، ودعمهم، وتقبلهم، وإشعارهم بالأمان والانتماء. إن حالة الاعتمادية عند الطفل هي التي تجعل تربية الأطفال ضرورية في المقام الأول. وإذا لم يكن أطفالنا في حاجة إلينا، فإننا لن نحتاج إلى القدرة على التربية.

في الوهلة الأولى، تبدو اعتمادية الأطفال بسيطة بما فيه الكفاية. ولكن هنا يكمن الخلل، فحالة الاعتمادية لا تضمن الاعتماد على مقدمي الرعاية المناسبين. يولد كل طفل وهو في أمس الحاجة إلى الرعاية، ولكن بعد مرحلة الرضاعة والحبو، لا يتطلع جميع الأطفال بالضرورة إلى الوالدين لتقديم هذه الرعاية. ولا تكمن قدرتنا على التربية في مدى اعتمادية طفلنا، ولكن في مدى اعتماد طفلنا علينا نحن بصفة خاصة. إن القدرة على القيام بمسؤولياتنا الوالدية لا تكمن في تبعية أطفالنا، وإنما في تطلعهم إلينا لتلبية احتياجاتهم.

لا يمكننا حقًّا رعاية طفل لا يعتمد علينا في رعايته، أو يعتمد علينا فقط في المأكل، والملبس، والمأوى، وغيرها من الاهتمامات المادية. ولا يمكننا أن نقدم الدعم العاطفي لطفل لا يعتمد علينا في تلبية احتياجاته النفسية. إنه لأمر محبط أن نوجِّه طفلًا لا يرحب بتوجيهاتنا، كما إنه من المزعج والمدمر للذات أن نساعد طفلًا لا يلتمس مساعدتنا.

كان هذا هو المأزق الذي واجهه والدو كرستين، وشون، وميلاني. لم تعد كرستين تعتمد على والديها في تلبية احتياجاتها من الارتباط، أو تتخذهما

قدوة في كيفية التصرف، وما يجب فعله. وفي سن السابعة، لم تعد تلجأ إليهم طلبًا للطمأنينة والرعاية. تخطى موقف شون إلى ما هو أبعد من ذلك: لقد أظهر مقاومة عميقة للاعتماد على أبيه وأمه. وصلت مقاومة شون وميلاني حتى إلى حصولهما على الطعام، أو بشكل أدق: إلى طقوس تناول الطعام التي تُقام على مائدة الأسرة. عندما دخلت ميلاني سن المراهقة، لم تعد تتطلع إلى والديها ليمنحاها الشعور بالأمان، أو الارتباط. لم تكن ترغب في أن يفهماها، أو أن يعرفاها من قرب. ولم يشعر أيٌّ من هؤلاء الأطفال الثلاثة بالاعتماد على والديهم، وكان ذلك هو السبب الجذري في الإحباطات، والصعوبات، والإخفاقات التي عاناها كل هؤلاء الآباء والأمهات.

بطبيعة الحال، يبدأ جميع الأطفال حياتهم معتمدين على والديهم. لقد تغير شيء ما في هؤلاء الأطفال الثلاثة خلال مسيرتهم، كما هي الحال بالنسبة إلى العديد من الأطفال اليوم. ليس الأمر أنهم لم يعودوا في حاجة إلى الاعتناء بهم. ما دام الطفل لا يقدر على التصرف باستقلالية، فإنه سيحتاج إلى الاعتماد على شخص ما. وبغض النظر عما قد يعتقده هؤلاء الأطفال أو يشعرون به، فإنهم لم يوشكوا على أن يكونوا مستعدين للاعتماد على أنفسهم. كانوا لا يزالون اعتماديين، إلا إنهم لم يعودوا يشعرون بأنهم يعتمدون على والديهم. ولم تختفِ احتياجاتهم الاعتمادية، ما تغير هو فقط من يعتمدون عليه. وستنتقل سلطة الوالدين إلى أي شخص يعتمد عليه الطفل، سواء كان هذا الشخص موثوقًا به، أو مناسبًا، أو مسؤولًا، أو عطوفًا بحق أو لا - وفي الواقع، سواء كان ذلك الشخص بالغًا أم لا.

في حياة هؤلاء الأطفال الثلاثة، حل الأقران محل الآباء كمحور الاعتمادية العاطفية. كانت لدى كرستين مجموعة متماسكة من ثلاثة أصدقاء، وقد كانوا مثل وجهة بوصلتها وموطنها. بالنسبة إلى شون، باتت مجموعة الأقران بوجه عام هي محل ارتباطه الأساسي، ذلك الكيان الذي أصبح مرتبطًا به بدلًا من والديه. لقد بذل قِيَمَه، واهتماماته، ودوافعه من أجل أقرانه، وثقافة الأقران. بالنسبة إلى ميلاني، شغلت صديقة لها فجوة الارتباط الناتجة عن وفاة جدتها. وفي الحالات الثلاث، تنافست علاقات الأقران مع الارتباطات بالوالدين، وأصبحت رابطة الأقران هي المهيمنة.

إن مثل هذا التحول في القوة يتسبب لنا نحن الآباء في مشكلات مضاعفة. إننا لا نفتقر إلى القدرة على التعامل مع طفلنا فحسب، بل إن منتزعي السلطة السُذَّج وغير الأكفاء يكتسبون القدرة على تضليل أطفالنا. لم يسعَ أقران أطفالنا بنشاط وراء هذه القوة، فهذا هو ديدن الحال في إطار الاعتمادية. وغالبًا ما يحدث هذا التقويض المخيف لقوة الوالدين عندما لا نتوقعه، وفي الوقت الذي نكون فيه في أمس الحاجة إلى السلطة الطبيعية. عادةً ما تترسخ جذور الاعتمادية على الأقران في الصفوف الابتدائية. ولكن في المرحلة المتوسطة، يعمل التعارض المتزايد بين الارتباطات بالأقران والوالدين على تدمير قدرتنا على التربية. وتحديدًا عندما يمر أطفالنا بسن المراهقة، وحينما تكون هناك أمور ينبغي التعامل معها أكثر من أي وقت مضى، وبمجرد أن يبدأ تفوقنا الجسدي عليهم في الخفوت، تَنْسَلُّ القدرة على التربية من بين أيدينا.

إن ما يبدو لنا على أنه استقلالية هو في الحقيقة مجرد اعتمادية منقولة. نحن نتعجَّل كي يتمكن أطفالنا من فعل الأشياء بأنفسهم، لدرجة أننا لا نرى مدى اعتماديتهم في الواقع. ومثل القوة، صارت الاعتمادية كلمة مسيئة. نحن نريد لأطفالنا أن يكونوا موجَّهين، ومحفَّزين، ومنضبطين ذاتيًّا، ومستقلين، وواثقين من أنفسهم. لقد علقنا أهمية كبيرة على الاستقلالية، لدرجة أننا نغض الطرف عما تدور حوله الطفولة. سيشتكي الآباء سلوكيات أطفالهم المتمردة والمشاغبة، ولكن نادرًا ما يلاحظون أن أطفالهم توقفوا عن التطلع إليهم من أجل الحصول على الرعاية، والطمأنينة، والمساعدة. إنهم يشعرون بالانزعاج من فشل طفلهم في امتثال توقعاتهم المعقولة، ولكن يبدو أنهم يجهلون أن الطفل لم يعد يسعى لنيل تعاطفهم، أو قبولهم، أو تقديرهم. ولا يلاحظون أن الطفل يلجأ إلى أقرانه أملًا في الدعم، والحب، والتواصل، والانتماء. وإذا انتفى الارتباط، انتفت الاعتمادية، وكذلك انتفت معهما القدرة على التربية.

لم يكن التحدي الأكبر أمام والدي كرستين وشون وميلاني هو فرض القواعد، أو الحث على الطاعة، أو وضع حد لهذا السلوك أو ذاك. كان التحدي هو استعادة أطفالهم، وإعادة توجيه قوى الارتباط في صالح الوالدية. كان

عليهم أن يعززوا الاعتمادية في أطفالهم، التي هي منبع القدرة على التربية. ولكي يستعيد الآباء سلطتهم الطبيعية، عليهم تنحية الولاية غير المشروعة لمنتزعي سلطتهم غير الواعين، وغير المتعمِّدين (أصدقاء أطفالهم)، وسلبهم إياها. وفي حين أن إعادة الارتباط بأطفالنا قد تكون أسهل في تصورها من تنفيذها على أرض الواقع، فإنها هي الطريقة الوحيدة لاستعادة السلطة الوالدية. إن جُلَّ عملي مع الأسر، والكثير من النصائح التي سأقدمها في هذا الكتاب، تهدف إلى مساعدة الآباء على استعادة مكانتهم الطبيعية من السلطة.

ما الذي يُمَكِّن الأقران من تنحية الوالدين في المقام الأول، بالنظر إلى أن هذه التنحية تبدو متنافية مع ما هو مطلوب؟ كما هي الحال دائمًا، ثمة منطق وراء النظام الطبيعي للأمور. إن قدرة الطفل على الارتباط بأشخاص ليسوا هم والديه الحقيقيين تخدم غايةً مهمة، لأن وجود الوالدين الحقيقيين ليس مضمونًا بأي حال من الأحوال في الحياة. إنهما قد يموتان، أو يختفيان. وقد اقتضت برمجة الارتباط لدينا مراعاة المرونة، للعثور على بدائل للارتباط بها والاعتماد عليها. لا ينفرد البشر بهذه القدرة على إحالة الارتباطات. إن ما يجعل من بعض المخلوقات حيوانات أليفة رائعة هو أنها يمكننا إعادة توجيه ارتباطها من والديها إلى البشر، مما يمكِّننا من الاعتناء بها وترويضها.

نظرًا إلى أن البشر يمرون بفترات طويلة من الاعتمادية، ينبغي أن تكون الارتباطات قابلة للإحالة من شخص إلى آخر: من الوالدين إلى الأقارب، والجيران، وشيوخ القبائل، أو القرى. كل هذه الأمور في المقابل تهدف إلى أداء دورها في الوصول بالطفل إلى مرحلة النضج الكامل. إن هذه القدرة الرائعة على التكيف، التي خدمت الآباء والأطفال آلاف السنين، أصبحت تؤرقنا في الآونة الأخيرة. وفي ظل الظروف الراهنة، فإن هذه القدرة على التكيف تُمَكِّن الأقران الآن من الحلول محل الوالدين.

يستطيع أغلب الآباء الشعور بفقدان القوة عندما يصبح طفلهم متوجهًا نحو الأقران، حتى لو لم يروا الأمر على حقيقته. يكون من الصعب جذب انتباه مثل هذا الطفل، ويقل رضوخه، وتتلاشى سلطة الوالد. وعندما سُئل آباء كل من الأطفال الثلاثة في أمثلة الحالات التي ذكرناها بصفة خاصة، كانوا قادرين على تحديد الوقت الذي بدأت فيه قدرتهم على التربية في التراجع. إن

هذا التلاشي للسلطة الطبيعية يلاحظه الآباء في البداية على أنه مجرد شعور غامض بأن شيئًا ما قد انحرف عن مساره.

***

ما الذي يُمَكِّننا من التربية؟

يتطلب الأمر ثلاثة مقومات لإنجاح التربية: معول يحتاج إلى الرعاية، وشخص بالغ مستعد لتحمل المسؤولية، وارتباط قائم حقيقي من الطفل بالشخص البالغ. ويُعَدُّ الأمر الأهم من بين هذه المقومات هو أيضًا أكثر ما يتم تجاهله وإهماله: ارتباط الطفل بالشخص البالغ. لا يزال العديد من الآباء الحاليين والمُحتَمَلين يتصرفون وفقًا لمفهوم خاطئ، مفاده أنه يمكن للمرء ببساطة أن يتقدم إلى دور المربي، سواء كوالد بالتبني، أو والد مُحتَضِن، أو زوج الأم، وزوجة الأب، أو والد حقيقي. نحن نتوقع أن حاجة الطفل إلى الرعاية واستعدادنا للتربية سيفيان بالغرض. وتصيبنا الدهشة ونشعر بالاستياء عندما يبدو الأطفال معارضين لتربيتنا.

مع اعتراف الكثير من الخبراء بأن المسؤولية الوالدية غير كافية لإنجاح تربية الأطفال، فهم ما زالوا لا يدركون دور الارتباط، فإنهم يفترضون أن المشكلة يجب أن تكون في المعرفة التربوية. إذا كانت التربية لا تسير على ما يُرام، فذلك لأن الوالدين لا يفعلان الأشياء على الوجه الصحيح. ووفقًا لهذه الطريقة في التفكير، لا يكفي تَمَثُّل الدور الأبوي، يحتاج الوالد إلى بعض المهارات ليكون ناجحًا. يجب تعزيز دور الوالدين بمختلف أساليب التربية - أو كما يعتقد العديد من الخبراء في الظاهر.

يفكر العديد من الآباء أيضًا في شيء من هذا القبيل: إذا تمكن الآخرون من حمل أطفالهم على القيام بما يريدونه منهم، ولكنني لا أستطيع ذلك، فلا بد أن يكون ذلك بسبب افتقاري إلى المهارات اللازمة. تفترض جميع أسئلتهم مجرد نقصٍ في المعرفة، على أن يتم تداركه من خلال نصائح من نوعية «كيف يمكن أن...» لكل مشكلة يمكن تصورها: كيف يمكن أن أجعل طفلي

يصغي إليَّ؟ كيف يمكنني أن أجعل طفلي ينجز واجباته المدرسية؟ ماذا يجب أن أفعل لأحمل طفلي على تنظيف غرفته؟ ما السر لإقناع طفلة بأن تقوم بمهامها المنزلية؟ كيف أجعل طفلي يجلس على المائدة؟ ربما شعر أسلافنا بالحرج من طرح مثل هذه الأسئلة، أو حضور دورة في التربية من أجل تلك الأمور. يبدو أنه من الأسهل بكثير على الآباء اليوم الاعتراف بعدم الكفاءة بدلًا من الاعتراف بالعجز، خصوصًا عندما يمكن أن نعزو افتقارنا إلى المهارات بأريحية إلى قلة التدريب، أو غياب النماذج الصالحة في طفولتنا. لقد نتجت عن ذلك صناعة بمليارات الدولارات لتقديم النصائح التربوية: بدءًا من الخبراء الذين يحبذون عقوبة الوقت التأديبي المستقطع، أو نقاط المكافأة المعلقة على الثلاجة، إلى جميع الكتب الإرشادية حول التربية الناجحة.

يمنح خبراء تربية الأطفال وصناعة النشر الآباء ما يطلبونه بدلًا من منحهم البصيرة التي يحتاجون إليها بشدة. ويميل الحجم الهائل للنصائح المقدمة إلى تعزيز مشاعر عدم الكفاءة، والشعور بعدم الاستعداد للمهمة. إن فشل هذه المنهجيات لم يحدَّ من سيل تعليم المهارات.

إننا بمجرد أن نتصور التربية كمجموعة من المهارات التي يجب تعلمها، ستتعذر علينا رؤية العملية بأي طريقة أخرى. وفي حال مواجهة مشكلة، يكون الظن هو أنه يجب أن يكون هناك كتاب آخر تتعين قراءته، ودورة أخرى ينبغي حضورها، ومهارة أخرى يجب إتقانها. وفي الوقت نفسه، لا يزال فريقنا الداعم يتخيل أننا نمتلك القدرة على القيام بهذه المهمة. يتصرف المعلمون كأننا لا نزال نستطيع حمل أطفالنا على إنجاز الواجبات المدرسية، ويتوقع الجيران منا أن نُبقي أطفالنا تحت السيطرة، ويؤنبنا والدونا لنتخذ موقفًا أكثر حزمًا. ويفترض الخبراء أن نيل الطاعة لا يتطلب سوى اكتساب مهارة أخرى. وتُحَمِّلُنا المحاكمُ المسؤولية عن سلوك أطفالنا. يبدو أنه لا أحد يفهم حقيقة أننا نفقد سيطرتنا على أطفالنا.

بدا استنتاج التربية على أنها مجموعة من المهارات منطقيًّا بما فيه الكفاية، ولكن تبيَّن فيما بعد أن ذلك كان خطأً فادحًا. لقد أدى ذلك إلى الاعتماد المتكلِّف على الخبراء، وسلب الوالدين ثقتهم الفطرية في أنفسهم، وغالبًا ما يتركهم وهم يشعرون بالغباء، وعدم الكفاءة. نحن سريعًا ما نفترض

أن أطفالنا لا يصغون لأننا لا نعرف كيف نجعلهم يصغون، وأن أطفالنا غير مطيعين لأننا لم نتعلم بعدُ الحيل الصحيحة، وأن الأطفال لا يحترمون السلطة بما فيه الكفاية لأننا نحن الآباء لم نعلمهم إظهار الاحترام. نحن نغفل عن الفكرة الجوهرية هنا، وهي أن ما يهم ليس هو مهارة الوالدين، وإنما علاقة الطفل بالشخص البالغ الذي يتولى المسؤولية.

عندما نركز بدقة على ما يجب أن نفعله، نغفل عن علاقة الارتباط بأطفالنا، وأوجه القصور فيها. إن التربية ما هي إلا علاقة في المقام الأول، وليست مهارة يتعين اكتسابها. والارتباط ليس سلوكًا يتم تعلمه، ولكنه رابطة ينبغي السعي إلى تحقيقها.

من الصعب إدراك عجز الوالدين، لأن القوة التي اعتاد الآباء امتلاكها لم تكن واعية بذاتها. لقد كانت تلقائية، وخفية، ومثل جزءٍ أصيلٍ من الحياة الأسرية، والثقافات القائمة على التقاليد. وعلى العموم، كان من الممكن لآباء الأمس أن يعتبروا سلطتهم أمرًا مسلمًا به، لأنها عادةً ما تكون كافية للمهمة التي بين أيديهم. ولأسبابٍ بدأنا في استكشافها، لم تعد هذه هي الحال. وإذا كان المرء لا يعلم منبع راحته، فإنه لا يمكنه أن يدرك سبب شقائه. ونظرًا إلى جهلنا الجماعي بالارتباط، وصعوبة الاعتراف بعجز الوالدين، ونفورنا من القوة في حد ذاتها، تظل المأساة الأكثر شيوعًا في التربية تحتاج إلى تفسير.

***

البحث عن المسميات

البديل البديهي لإلقاء اللوم على الوالد هو استنتاج أن الطفل به خطبٌ ما، أو أنه يفتقر إلى شيء ما. وإذا كنا لا نميل إلى الشك في التربية، فإننا نظن أن مصدر مشكلتنا يجب أن يكون الطفل. نحن نرتاح لفكرة إلقاء اللوم على الأطفال، لأن هذا يعني أننا لم نفشل، ولكن أطفالنا فشلوا في الارتقاء إلى المعايير المتوقعة. نعبر عن موقفنا بأسئلة أو مطالب مثل: لماذا لا تنتبه؟ توقف عن عنادك! أو: لماذا لا يمكنك أن تفعل ما تؤمر به؟

غالبًا ما تؤدي صعوبات التربية إلى البحث لمعرفة ما هو خطب الطفل. قد نشهد اليوم بحثًا محمومًا عن مسميات تفسر مشكلات أطفالنا. ويسعى الآباء إلى التشخيص الرسمي من قبل خبير، أو التمسك بالمسميات العامية. هناك على سبيل المثال كتب حول تربية الطفل «العنيد»، أو «النشيط». وكلما أصبحت التربية أكثر إحباطًا، زادت احتمالية أن يُنظَرَ إلى الأطفال على أنهم عنيدون، وجرى البحث عن المزيد من المسميات لإثبات ذلك. وليس من قبيل الصدفة أن تقابل الاهتمام بالتشخيص زيادةٌ في التوجه نحو الأقران في مجتمعنا. تُعزى المشكلات السلوكية عند الأطفال بشكل متزايد إلى العديد من المتلازمات الطبية، مثل اضطراب السلوك المعارض المتحدي، أو اضطراب نقص الانتباه. وتفيد هذه التشخيصات على الأقل في تبرئة الطفل، وإزالة عبء اللوم عن الوالدين، ولكنها تخفي الديناميات المعكوسة التي تتسبب في سوء سلوك الأطفال في المقام الأول. تتمثل فائدة التفسيرات الطبية في استبعاد الشعور بالذنب، ولكنها تصبح عائقًا، من خلال اختزال المشكلات في مفاهيم مبسطة بشكل مبالغ فيه. إنها تفترض أن مشكلات السلوك المعقدة عند العديد من الأطفال يمكن تفسيرها من خلال علم الوراثة، أو من خلال التوصيلات الخاطئة للدوائر الدماغية. وهي تتجاهل الأدلة العلمية التي تفيد بأن الدماغ البشري يتشكل من خلال البيئة منذ الولادة، وعلى مدى العمر، وأن علاقات الارتباط تمثل أهم جانب من جوانب بيئة الطفل. كما إنها تُملي حلولًا محدودة –مثل العقاقير– دون اعتبار لعلاقات الطفل مع أقرانه، ومع عالم الكبار. ومن الناحية العملية، فهي تعمل على زيادة تجريد الوالدين من سلطتهما. نحن لا نقول إنه لا دخل لفسيولوجيا الدماغ في بعض اضطرابات الطفولة، أو إن الأدوية لا قيمة لها على الإطلاق، فمثلًا، يرى المؤلف المشارك لي العديد من الأطفال والبالغين يعانون اضطراب نقص الانتباه، وهي حالة يختلف فيها أداء الدماغ فسيولوجيًا عن المعتاد، ويصف الأدوية عندما تبدو ضرورية حقًا. ما نعترض عليه هو اختزال مشكلات الطفولة في التشخيصات والعلاجات الطبية، مع استبعاد العديد من العوامل النفسية، والعاطفية، والاجتماعية، التي تساهم في الكيفية التي تحدث بها هذه المشكلات. وحتى في اضطراب نقص الانتباه وغيره من اضطرابات الطفولة، حيث يمكن أن

تكون التشخيصات والعلاجات الطبية ذات فائدة، يجب أن تظل علاقة الارتباط بالوالدين هي الشاغل الأول، وأفضل سبيل نحو الشفاء.[1]*

كان والدا شون قد لجآ بالفعل إلى طريق البحث عن المسميات، وجمعا ثلاثة تشخيصات مختلفة من ثلاثة خبراء مختلفين: اختصاصيين نفسيين، وطبيب نفسي. قَيَّم حالته أحد الخبراء على أنه مصاب بالوسواس القهري، وآخر على أنه يعاني اضطراب السلوك المتحدي المعارض، وآخر على أنه يعاني اضطراب نقص الانتباه. وكان اكتشاف أن هناك خطبًا ما بـــشون يمثل مصدر ارتياح كبير لوالديه، فما واجهاه من صعوبة في التربية لم يكن خطأهما. يُضافُ إلى ذلك أن تشخيص الأطباء أنقذ شون أيضًا من مأزقه، حيث كان الأمر خارجًا عن إرادته. لقد وضعت المسميات حدًّا لإلقاء اللوم، وهو أمر حسن.

لم يكن لديَّ أي خلاف مع أيٍّ من هذه المسميات؛ لقد وَصَفَتْ سلوكه فعلًا بشكل جيد. لقد كان جامحًا، وعنيدًا، وشارد الذهن للغاية. فضلًا عن ذلك، فإن العامل المشترك بين هذه المتلازمات الثلاث هو أن الأطفال المصنفين على هذا النحو يكونون أيضًا مندفعين، ولا يقدرون على التكيف. لا يستطيع الأطفال (أو البالغون) المندفعون فصل الدوافع عن الأفعال. إنهم يتصرفون وفقًا للدافع الذي يطرأ في عقولهم، أيًّا كان. إن عدم القدرة على التكيف تعني الفشل في التكيف عندما تسوء الأمور، وعدم الاستفادة من المِحَن، وعدم التعلم من العواقب السلبية. تُزَوِّد هذه الإخفاقات الآباء بالمزيد من السلوكيات غير اللائقة ليتعاملوا معها، بينما تحد في الوقت نفسه من أدواتهم اللازمة لضبط سلوك الطفل. على سبيل المثال، لا تجدي الأساليب السلبية –مثل التحذير، والتوبيخ، والجزاءات، والعواقب السيئة، والعقوبات– مع طفل لا يستطيع التعلم منها. لذلك، فمن ناحية ما، يمكن للمرء أن يقول بثقة إن والِدَي شون قد واجها صعوبةً كبيرة بسبب ما عاناه شون. وفي هذا قدر من الحقيقة، ولكن

(1) للاطلاع على استعراض كامل لهذه المشكلات، يُرجى مراجعة: Spattered Minds: A New Look at the Origins of Attention Deficit Disorder, by Gabor Maté (Toronto: Vintage Canada, 1999).

في بعض الأحيان يمكن لحقيقة واحدة أن تخفي حقيقةً أكبر، وهي مشكلة في العلاقة في هذه الحالة.

لقد دفعت المسميات الطبية واِلِدَي شون إلى الاعتماد على الخبراء. وبدلًا من الثقة في حدسهما، والتعلم من أخطائهما، واكتشاف طريقهما المناسب، فقد بدآ في التطلع إلى الآخرين بحثًا عن توجيهات حول كيفية التربية. لقد اتبعا نصائح الآخرين دون تفكير، واستخدما طرائق متكلفة للتحكم في السلوك، التي تضرب بعلاقة الارتباط عرض الحائط. لقد شعرا في بعض الأحيان –على حد قولهما– وكأنهما على علاقةٍ بمتلازمة، وليس بشخص. وبدلًا من أن يجدا أجوبة، فقد وجدا العديد من الآراء، بقدر عدد الخبراء الذين يقدمونها.

هناك مشكلة أكثر إثارة للقلق في المسميات، حتى غير الرسمية منها، مثل «الطفل العنيد»، أو المألوفة، مثل «الطفل الحساس»، وهي أنها تخلق انطباعًا بأنه تم اكتشاف جذور المشكلة، فهي تغطي على المصدر الحقيقي للمشكلة. وعندما يتجاهل تقييمُ مشكلة ما العوامل المحركة للعلاقة، فإن ذلك يعوق البحث عن حلول حقيقية.

لم يكن هناك شك في كون شون صعب المراس. إن اندفاعه جعل من السيطرة عليه أمرًا أصعب بالتأكيد. ومع ذلك، فمعظم الدوافع يحركها الارتباط. لقد كانت ارتباطات شون هي التي انحرفت عن مسارها. لم تكن اندفاعيته هي ما جعلت الأمور معقدة للغاية، ولكن حقيقة أن هذه الدوافع كانت تعمل في غير صالح الآباء. لقد خالفت هذه الدوافع غرائز شون الطبيعية التي تدفعه إلى الاعتماد على والديه، أو أن يكون قريبًا منهما، أو أن يتأثر بهما. ويُعزى هذا إلى توجهه نحو أقرانه، وليس إلى بعض الاضطرابات الطبية. كما عملت غرائز الارتباط المنحرفة عنده على تفسير سلوكه المعارض، ودَلَّت على سبيل العلاج. إن مشكلة التوجه نحو الأقران لم تفسر جميع مشكلاته المتعلقة بالانتباه، ولكن استعادة الارتباط الصحي مع والديه كانت بمكانة الحل الأمثل لوضع أساس للتعامل مع هذه المشكلات. إن المسألة الأبرز التي احتاج الوالدان إلى التصالح معها لم تكن المشكلة التي عاناها شون، ولكن ما افتقدته علاقة شون بهما.

على الرغم من أن والدي كرستين وميلاني لم يسلكوا طريق البحث عن تشخيص رسمي، فقد أرادوا أيضًا معرفة ما إذا كانت طفلتاهم طبيعيتين، أو ما إذا كانت المشكلة تكمن في أساليبهم. عند إمعان النظر، وجدتُ أن ميلاني كانت غير ناضجة بشكل كبير مقارنة بعمرها، ولكن هذا أيضًا لم يعلل الصعوبة في التربية. إن المشكلة الجوهرية هي أنها كانت معتمدة على الأقران، وهو ما وجه ضربة مدمرة للتربية، نظرًا إلى عدم نضجها النفسي.

لحسن الحظ، لا يمكن تجنب التوجه نحو الأقران فحسب، بل يمكن التراجع عنه أيضًا في معظم الحالات - الجزآن الرابع والخامس من هذا الكتاب مخصصان لهذه المساعي. ومع ذلك، يجب أن نفهم جيدًا جوهر المشكلة. كان يُفتَرَضُ بالتربية أن تكون فطرية وسهلة، ولكنها لا تصبح كذلك إلا إذا ارتبط الطفل بنا. ولنستعيد القدرة على التربية، يجب أن نعيد أطفالنا إلى الاعتماد التام علينا - ليس فقط الاعتماد الجسدي، ولكن أيضًا النفسي، والعاطفي، كما اقتضت الطبيعة دائمًا.

***

5

من الإعانة إلى الإعاقة: عندما ينقلب الارتباط علينا

علق الممثل الكوميدي جيري ساينفيلد، وهو أب جديد في سن السابعة والأربعين، على مدى إثارة الأعصاب في أن ينظر أحد بني البشر إلى عينيك بلا مبالاة وهو يتغوط في سرواله في الوقت نفسه. قال ساينفيلد: «تخيل، إنه يفعل ذلك وهو يحدق إليك مباشرة». إن الارتباط هو ما يُبقي الآباء على الساحة. يمكن للالتزام والقيم أن يقطعا شوطًا طويلًا، ولكن إذا اقتصر الأمر على ذلك فقط، أصبحت التربية عملًا محضًا. ولولا الارتباط، لما استطاع العديد من الآباء تحمل تغيير الحفاضات، والتغاضي عن النوم المتقطع، والصبر على الضوضاء، والبكاء، ومباشرة جميع المهام التي لا تُقابَل بالتقدير. كما إنهم لن يستطيعوا لاحقًا أن يتحملوا صعوبات التعامل مع السلوكيات المزعجة، بل والبغيضة، التي تصدر عن أبنائهم.

لقد لاحظنا أن الارتباط يقوم بعمله في الخفاء. سيصبح الأشخاص الذين أقاموا علاقة ارتباط طيبة مع أطفالهم بدافع فطرتهم النقية آباء ناجحين وأكفاء، حتى لو لم يتعلموا رسميًا «مهارة» واحدة في التربية.

هناك سبع طرائق مهمة يدعم الارتباط من خلالها التربية الناجحة. وهو يفعل ذلك عن طريق ضمان اعتماد الطفل على الوالد، وهذا هو المصدر الحقيقي للسلطة الوالدية. ولسوء الحظ، عندما تحيد ارتباطات الطفل عن طريق الصواب، فإن هذه الطرائق السبع نفسها تعمل على تقويض السلطة الوالدية. سيجد القراء أنه من المفيد الرجوع إلى هذه القائمة عندما يشرعون في مهمة إعادة توطيد علاقتهم بأطفالهم.

مرة أخرى، أقول للآباء المتلهفين لتلقي نصائح بشأن ما يجب عليهم فعله: إن الفهم المتأني والعميق للارتباط هو الشرط الأول. لقد تيقنتُ من خلال خبرتي في مساعدة الآلاف من الآباء والأطفال أنه ما لم نفهم تمامًا كيف ولماذا لا تنجح الأمور –وأيضًا كيف يمكن أن تنجح الأمور– فإن الحلول التي نسعى إليها لن تؤدي إلا إلى تفاقم المشكلة، مهما حَسُنَت النيات.

***

الارتباط يضع الوالد والطفل في ترتيب هرمي

تتمثل أولى مهام الارتباط في وضع البالغين والأطفال في ترتيب هرمي. عندما ينخرط البشر في علاقة ما، يقوم دماغ الارتباط لديهم بتصنيف المشاركين تلقائيًّا حسب الهيمنة. وتتضمن أجهزتنا الدماغية الفطرية مواقع نموذجية، تنقسم بشكل عام إلى: الهيمنة، والاعتمادية، وتقديم الرعاية، والتماس الرعاية، والشخص المعطي، والشخص المتلقي. ويسري هذا حتى على الارتباطات بين الكبار، كما هي الحال في الزواج، رغم أنه في العلاقات الصحية والمتبادلة سيكون هناك قدر كبير من التنقل المستمر بين مقامات العطاء والرعاية تبعًا للظروف، وتبعًا أيضًا لكيفية اختيار الأزواج توزيع مسؤولياتهم. وفي العلاقة مع الكبار، من المفترض أن يكون الأطفال في مقام الاعتمادية، والبحث عن الرعاية.

يتقبل الطفل رعايته وتوجيهه ما دام يرى نفسه في مقام الاعتمادية. إن الأطفال الذين يحتلون المكانة المناسبة في الترتيب الهرمي للارتباط يريدون

بشكل غريزي أن يتم الاعتناء بهم. إنهم يحترمون آباءهم من تلقاء أنفسهم، ويلجؤون إليهم للحصول على إجابات، ويبذلون الطاعة لهم. هذه الدينامية تكمن في صميم طبيعة الارتباط. إنها هي التي تمكننا من أداء مهمتنا. ومن دون هذا الشعور بالاعتمادية، يكون من الصعب التحكم في السلوك.

يعمل التوجه نحو الأقران على تنشيط هذه البرمجة نفسها، ولكنه يسفر الآن عن نتائج سلبية. إنه يُخِلُّ بالآليات الغريزية التابعة لدماغ الارتباط، والمخصصة من أجل الارتباطات بين الأطفال والكبار. وبدلًا من إبقاء الطفل في علاقة صحية مع مقدمي الرعاية له، فإن دينامية الهيمنة / الاعتمادية ترسخ لحالات غير صحية من الهيمنة والخضوع بين الأقران غير الناضجين.

إن الطفل الذي يختار دماغ الارتباط لديه وضعًا أكثر هيمنةً سيقود أقرانه ويتحكم فيهم. وإذا كان هذا الطفل المسيطر عطوفًا، ويتحمل المسؤولية عن الآخرين، كان أيضًا داعمًا، ومقدمًا للرعاية. أما إذا كان الطفل مُحبَطًا، وعدوانيًّا، وأنانيًّا، أصبحت لدينا مقومات شخص متنمر، كما سنستكشف في فصول لاحقة عن العدوانية والتنمر. ولكن الدمار الكبير الذي يسببه التوجه نحو الأقران يتمثل في أنه يُسَطِّح التسلسل الهرمي الطبيعي بين الوالدين والطفل. يفقد الوالدان الاحترام والسلطة، اللذين ينتميان –في النظام الطبيعي للأمور– إلى دورهما المهيمن.

لا يتمتع الطفل المتوجه نحو الأقران بإحساس داخلي بالمكانة أو الترتيب، ولا يرغب في أن يكون الوالد أكبر أو أعلى منه. بل على العكس من ذلك، فإن أي تصرف للوالد من هذا القبيل يبدو للطفل المتوجه نحو الأقران وكأنه متكلف، وغير طبيعي، وكأن الوالد يحاول فرض سيطرته على الطفل، أو يحاول قمعه.

لقد تم اجتذاب جميع الأطفال الثلاثة في الفصل السابق بعيدًا عن ارتباطاتهم بوالديهم من خلال التوجه نحو الأقران. وعلى الرغم من أن كرستين كانت تبلغ من العمر سبع سنوات فقط، فإن والِدَيها خسرا مركزهما المهيمن في ترتيب الارتباط. وهذا ما يفسر سوء أدبها، وقلة احترامها، خصوصًا في وجود أقرانها. وكذلك شون وميلاني. ومع ضعف الارتباط بالوالدين، انهار الترتيب الهرمي الذي يهدف إلى تيسير التربية، وهو ما شعر به والد ميلاني

بشدة، وكان يتجاوب معه بشيء من العنف. كانت ميلاني تعامل والِدَيها كما لو كانوا متساوين، وأنه لا يحق لهما التحكم فيها، أو محاولة إدارة شؤون حياتها. وكان والد ميلاني يحاول أن يوقفها عند حَدِّها بشكل غريزي. ولسوء الحظ، فإن هذا أمر لا يستطيع الوالد القيام به دون مساعدة من الارتباط. إن أقصى ما ينجح فيه الوالد في غياب الارتباط هو إرغام الطفل على الطاعة على حساب الضرر البالغ الذي يلحق بالعلاقة، وبنمو الطفل على المدى الطويل.

لا يعتبر التوجه نحو الأقران هو الطريقة الوحيدة التي يمكن من خلالها عكس ترتيب الارتباط. قد يحدث ذلك –على سبيل المثال– لأن الوالدين لديهما احتياجات غير مُلَبَّاة يسقطانها على الطفل. وفي ممارسات كل منا كطبيب واختصاصي نفسي، رأينا آباء يعتمدون على أطفالهم كأصدقاء، ويشكون إليهم مشكلاتٍ مع أزواجهم. ويتحول الطفل إلى مركز استقبال لضيق الوالدين العاطفي. وبدلًا من أن يكون الطفل قادرًا على بَثِّ والديه مشكلاته، يتعلم كبت احتياجاته، وتلبية الاحتياجات العاطفية للآخرين. إن مثل هذا التحول في التسلسل الهرمي للارتباط يضر أيضًا بالنمو الصحي. في كتاب «الارتباط»، الجزء الأول من الثلاثية الكلاسيكية التي كتبها الطبيب النفسي جون بولبي، التي تبحث في تأثير العلاقات بين الوالدين والطفل على تطور الشخصية، كتب بولبي: «إن قلب الأدوار بين الطفل أو المراهق والوالد –ما لم يكن أمرًا عارضًا للغاية– لا يُعَدُّ دائمًا علامة على اضطراب لدى الوالد فحسب، ولكنه يُعَدُّ سببًا في اضطراب الطفل كذلك».[1] يؤدي قلب الأدوار مع أحد الوالدين إلى تشويه علاقة الطفل مع العالم بأسره. وهو مصدر قوي للإجهاد النفسي والجسدي فيما بعد.

وبإيجاز، فإن دماغ الارتباط لدى الطفل المتوجه نحو الكبار يجعله متقبلًا للوالد الذي يتولى زمام الأمور، ويتحمل عنه المسؤولية. وبالنسبة إلى مثل هذا الطفل، يبدو من الملائم أن يكون الوالد في المركز المهيمن. وإذا تم عكس الترتيب أو تسطيحه بسبب التوجه نحو الأقران، تعارضت التربية مع غرائز الطفل، بغض النظر عن مدى شدة الاحتياج.

***

الارتباط يثير الغرائز الوالدية، ويجعل الطفل محبوبًا أكثر، ويزيد من صبر الوالدين

كما توضح ملاحظة جيري ساينفيلد الطريفة، فإن الارتباط لا يهيئ الطفل لتلقي الرعاية فحسب، بل يحرك أيضًا غرائز تقديم الرعاية لدى الشخص البالغ. ليس بمقدور التدريب أو التعليم أن يفعل ما يمكن أن يفعله الارتباط: تحفيز غرائز تقديم الرعاية. كما إن الارتباط يجعل الأطفال محبوبين أكثر مما قد يكونون عليه بخلاف ذلك. إنه يزيد من صبرنا على الصعوبات التي تنطوي عليها التربية، والإساءة غير المقصودة التي قد نتعرض لها خلال هذه العملية.

لا شيء يتفوق في سحره على سلوك الارتباط لدى الرضيع: تلاقي الأعين، والابتسامة التي تسحر القلب، والذراعان الممدودتان، والذوبان في حضنك عندما تحمله. يجب أن يكون الشخص قاسي الفؤاد تمامًا حتى لا يثير ذلك فيه دوافع الارتباط. إن سلوك الارتباط يخدم هدف استنهاض الوالد الكامن بداخلنا. إنه ليس مصممًا من قِبَلِ الرضيع، ولكن من قِبَلِ ردود الأفعال الارتباطية التلقائية والعفوية. وإذا لامس هذا السلوكُ الوالدَ الكامن بداخلنا، وجدنا أنفسنا نقترب، ونرغب في الصمود، ومستعدين لتحمل المسؤولية. نحن نستشعر الارتباط في الواقع: سلوك الارتباط العفوي للرضيع، الذي يثير غرائز الارتباط لدى الوالد المرتقب.

قد تتلاشى هذه السلوكيات الساحرة والجذابة مع تقدم الأطفال في العمر، ولكن التأثير الذي يتركه سلوك ارتباط الطفل على الوالدين يبقى قويًا طوال فترة الطفولة. وعندما يعبر أطفالنا عن طريق الأفعال أو الكلمات عن رغبة في الارتباط بنا، فإن ذلك يجعلهم أكثر لطفًا، وسهولة في التعامل معهم. هناك المئات من الإيماءات والتعبيرات الصغيرة اللاإرادية التي تستعطف قلوبنا وتجذبنا إليهم. إن الطفل لا يتلاعب بنا، بل قوى الارتباط هي التي تؤثر فينا، وذلك لسبب وجيه للغاية، فالتربية تنطوي على صعوبات، ونحن في حاجة إلى شيء يسهل تحمل العبء قليلًا.

يغير التوجه نحو الأقران كل ذلك. إن لغة الجسد التي تعبر عن الارتباط، التي تخلق هذا التأثير الجذاب، لم تعد موجهة نحونا. لم تعد الأعين تجذبنا، والوجه غير محبب إلينا، والابتسامات التي اعتادت أن تسعد قلوبنا صارت باردة نوعًا ما، وهي الآن إما لا تثير مشاعرنا، وإما تشعرنا بالألم. لم يعد طفلنا يتجاوب مع لمساتنا، وأصبحت المعانقات متكلَّفة، وغير متبادلة، وبات من الصعب أن نحب طفلنا. إننا عندما لا يتم تحفيزنا من خلال ارتباط أطفالنا بنا، لا يتبقى لنا سوى أن نعتمد على حبنا والتزامنا فقط، وعلى إحساسنا بالمسؤولية كوالدين. يعتبر هذا كافيًا للبعض، ولكنه ليس كذلك بالنسبة إلى الكثيرين.

لم يكن هذا كافيًا بالنسبة إلى والد ميلاني. كانت ميلاني دائمًا قريبةً منه، ولكن عندما تحوَّل انتباهها ومشاعرها إلى أقرانها، أصبح قلب والدها باردًا. لقد كان من نوعية الأشخاص الذين يبذلون قصارى جهدهم، متخطيًا بذلك معظم الآباء، من أجل أن يحقق شيئًا لابنته، ولكن اتضح أن الأمر يتعلق بأثر الارتباط أكثر مما يتعلق بشخصيته المنفردة. لقد أظهر كلامه التغير في قلبه، كان ممتلئًا بعبارات مثل: «لقد طفح الكيل، لا يمكنني تحمل هذا بعد الآن». «لا يُفتَرَضُ بأحد أن يتحمل هذا النوع من الهراء». كما بدأت الإنذارات في التصاعد. لقد شعر والد ميلاني بالاستنزاف، وسوء المعاملة، وعدم التقدير، والاستغلال.

في الواقع، جميع الآباء يتم استنزافهم، وإساءة معاملتهم، وعدم تقديرهم، واستغلالهم. والسبب في كون ذلك لا يثير انزعاجنا عادةً هو أيضًا أثر الارتباط. لنأخذ على سبيل المثال القطة الأم مع القططة الرضيعة. تعاني الأم السير عليها، وعَضَّها، وخدشها، ودفعها، ووخزها، ولكنها في الغالب تظل صبورةً بشكل لافت للنظر. ولكن إذا أُقحِمَت قطة صغيرة ليست لها بين صغارها، افتقدنا هذا الصبر بشكل كبير ما لم ينشأ الارتباط. ستقوم القطة الأم بتأديب القطة بدنيًا من أجل أدنى مخالفة، مهما كان من غير الممكن تجنبها. إن نضجنا كآباء آدميين وشعورنا بالمسؤولية قد يساعداننا على تجاوز ردود الأفعال الغريزية هذه، ولكننا ما زلنا نحظى بالكثير من القواسم المشتركة مع المخلوقات الأخرى التي تتميز بالارتباط. نحن أيضًا ننفعل بسهولة أكبر

عندما يضعف الارتباط. وربما كان الافتقار إلى الارتباط العفوي المتبادل هو ما أكسب زوجة الأب وزوج الأم مثل هذه السمعة السيئة في قصص الأطفال الخيالية.

يحتاج معظمنا إلى مساعدة من الارتباط لتَحَمُّلِ المشقة والإرهاق في أثناء أداء مسؤولياتنا الوالدية. إن الأطفال في العموم لا يمتلكون أدنى فكرة عن تأثيرهم علينا، أو الأذى الذي ربما ألحقوه بنا، أو التضحيات التي قدمناها من أجلهم. ولا ينبغي لهم - على الأقل ليس قبل أن يدركوا من خلال تأملهم الناضج ما فعلناه من أجلهم. إنه جزء من مهمة التربية، الذي يجب اعتباره أمرًا بديهيًّا. وما يجعل الأمر يستحق العناء هو بوادر المحبة والترابط، والرغبة في القرب - ليس بالضرورة تقديرًا لتفانينا وجهدنا، وإنما من منطلق الارتباط بكل بساطة.

من جهة أخرى، عندما ينحرف هذا الارتباط، يمكن له أن يجعل من العبء أمرًا لا يُحتمل. وأمام الأطفال المتوجهين نحو الأقران، يجد الكثير منا أن غرائزه الوالدية متبلِّدة. ويتحول الدفء الطبيعي الذي نحب أن نشعر به تجاه أطفالنا إلى برود، وقد نشعر بالذنب لعدم «حب» أطفالنا بما فيه الكفاية.

في دائرة العلاقات المتوجهة نحو الأقران، المخالفة للطبيعة، تأتي قوة الارتباط هذه نفسها –التي تجعل المرء يتحمل الإساءة– بنتائج عكسية. وبعد أن كانت تهدف إلى تخفيف أعباء التربية، وإبقاء الوالدين على الساحة، باتت تعزز سوء المعاملة بين الأقران. قد يتسامح الأطفال مع الانتهاك الذي يتعرضون له على أيدي أقرانهم. وغالبًا ما يشعر الآباء بالقلق، لأن أطفالهم، المعارضين في المنزل حتى لأدنى تقويم أو توجيه، يتحملون مطالب أقرانهم غير المعقولة، بل ويتقبلون سوء معاملتهم. ولعدم قدرة الطفل على إدراك أن الصديق أو زميل الدراسة لا يهتم لأمره بما يكفي حتى يراعي مشاعره، فإن هذا الطفل المتوجه نحو الأقران سيغض الطرف، أو يجد عذرًا يحافظ على الارتباط.

***

الارتباط يجذب اهتمام الطفل

إنه لأمر محبط للغاية أن نتعامل مع طفل لا يعيرنا انتباهه. إن حث الطفل على الانتباه إلينا والإصغاء لنا هو أمر تقوم على أساسه التربية ككل. كان الآباء في مجموعتنا المكونة من تسعة أفراد يواجهون جميعًا صعوبات في جذب انتباه أطفالهم. اشتكت والدة ميلاني أنها شعرت أحيانًا وكأنها لم تكن موجودة حتى. وسَئِمَ والدا شون من تعرضهما للتجاهل. وكان والدا كرستين يواجهان صعوبة في جعل طفلتهما البالغة من العمر سبع سنوات تصغي لهما وتأخذهما على محمل الجد.

إن المشكلات التي واجهتها هذه المجموعة في جذب انتباه أطفالهم ليست استثنائية. في حقيقة الأمر، لا يمكن لأي شخص جذب انتباه شخص آخر. إن دماغ الطفل يحدد أولوياتٍ لما يجب الانتباه إليه من خلال ديناميات لا شعورية في أغلب الأحوال. فإذا كان الجوع هو المتصدر، جذب الطعام انتباه الطفل، وإذا كانت الحاجة إلى التوجيه هي الأكثر إلحاحًا، لجأ الطفل إلى اتباع التصرف الشائع. وإذا شعر الطفل بالخوف، تحول انتباهه إلى البحث عما قد يمثل ضررًا. ومع ذلك، فالارتباط هو أكثر ما يهم في عالم الطفل، وبالتالي، سيكون في صميم توجيه انتباهه.

يخضع الانتباه في الأساس للارتباط. وكلما كان الارتباط أقوى، كان من الأسهل كسب انتباه الطفل. وإذا ضَعُف الارتباط، تَعَذَّرَ في المقابل لفت انتباه الطفل. إن إحدى العلامات الدالة على الطفل غير المنتبه هي الوالد الذي يضطر إلى رفع صوته، أو ترديد الكلام باستمرار. وتدور أكثر طلباتنا إلحاحًا كآباء حول انتباههم: «استمع لي». «انظر إليَّ عندما أتحدث». «الآن انظر هنا». «ماذا قلتُ للتو؟»، أو ببساطة: «انتبه!».

عندما يصبح الأطفال متوجهين نحو الأقران، يتحول انتباههم بالفطرة نحو أقرانهم. ويتعارض صرف الانتباه إلى الآباء والمعلمين مع الغرائز الطبيعية لدى الطفل المتوجه نحو الأقران. تنظر آليات الانتباه لدى الطفل إلى الأصوات الصادرة عن الكبار باعتبارها إزعاجًا وتدخلًا مبالغًا فيهما،

وأنها تفتقر إلى كل معنى وصلةٍ باحتياجات الارتباط التي تهيمن على حياته العاطفية.

يخلق التوجه نحو الأقران نقصًا في انتباه الطفل إلى الكبار، لأن الكبار ليسوا على رأس الأولويات في التسلسل الهرمي الخاص بانتباه الأطفال المتوجهين نحو الأقران. وليس من قبيل المصادفة أن اضطراب نقص الانتباه كان يعتبر في البداية مشكلة دراسية، حيث يعجز الطفل عن الانتباه إلى المعلم. كما إنه ليس من قبيل المصادفة أن الزيادة الهائلة في عدد الحالات المشخصة باضطراب نقص الانتباه قد تزامنت مع ظهور التوجه نحو الأقران في مجتمعنا. ويزداد الوضع سوءًا أينما يكون التوجه نحو الأقران هو السائد: في المراكز الحضرية، والمدارس العامة. هذا لا يعني أن جميع المشكلات في الانتباه تنبع من هذا المصدر، وأنها لا توجد عوامل أخرى ترتبط باضطراب نقص الانتباه. من جهة أخرى، فإن عدم الاعتراف بالدور الجوهري للارتباط في توجيه الانتباه يُعَدُّ تجاهلًا لواقع العديد من الأطفال المشخصين باضطراب نقص الانتباه. ويساهم غياب الارتباط بالكبار بشكل كبير في العجز عن الانتباه إليهم. إذا كان الارتباط مضطربًا، فكذلك سيكون الانتباه.

***

الارتباط يُبقي الطفل قريبًا من الوالد

ربما تكون المهمة الأوضح للارتباط هي إبقاء الطفل على مقربة منا. عندما يشعر الطفل بحاجته إلى القرب من الناحية الجسدية (كما يحدث مع الأطفال الأصغر سنًّا)، يكون الارتباط مثل رباط خفي. يشترك أولادنا في هذا مع العديد من المخلوقات الأخرى التي تتميز بالارتباط، التي يجب أن تُبقي الوالدين على مرمى البصر، أو السمع، أو الشم.

أحيانًا نجد أن الحاجة إلى القرب تبعث على الضيق نوعًا ما، خصوصًا عندما يفزع الطفل في سن الحبو، أو ما قبل المدرسة، عندما نوشك على غلق باب الحمام. ومع ذلك، فإن برمجة الارتباط هذه تمنحنا في أغلب الأحيان

حرية كبيرة. فبدلًا من أن نضطر إلى مراقبة الطفل باستمرار، يمكننا أن نبادر ونثق في غرائزه لتَحمِلَه على اتباعنا. ومثل الدبة الأم مع الدب الصغير، أو القطة الأم مع القطط الصغار، أو الإوزة الأم مع صغار الإوز، يمكننا أن ندع الارتباط يقوم بعمله في إبقاء صغارنا على مقربة منا، بدلًا من الاضطرار إلى مراقبتهم، أو تقييدهم.

إن غرائز الطفل التي تبقيه على مقربة منا يمكن أن تعترض طريقنا وتشعرنا بالاستياء. نحن لا نرحب بالدور الذي يؤديه الارتباط عندما يكون الانفصال هو ما نتوق إليه، سواء بقصد العمل، أو المدرسة، أو ممارسة الجنس، أو تصفية الذهن، أو النوم. إن مجتمعنا مضطرب للغاية، لدرجة أننا في الحقيقة قد نقدر استعداد الطفلة للانفصال أكثر مما نقدر غرائزها التي تدفعها إلى التقارب. ولسوء الحظ، لا يمكننا أن نجمع بين كلا الأمرين. يعاني الآباء الذين لا يرتبط بهم أطفالهم الصغار كما ينبغي سيناريو مؤرِّقًا لمجرد إبقاء الطفل تحت أعينهم. وينبغي أن نكون شاكرين للمساعدة التي يقدمها الارتباط في إبقاء أطفالنا بالقرب منا. إذا كان علينا إنجاز كل الأمور بمفردنا، لم نكن لنتمكن قط من متابعة المسؤوليات العديدة الأخرى المتعلقة بالتربية. نحن في حاجة إلى أن نتعلم كيف نربي وفقًا لهذا التصميم بدلًا من مقاومته.

إذا جرت الأمور على ما يرام، فإن دافع القرب الجسدي مع الوالد يتطور بالتدريج إلى حاجة إلى التواصل والترابط العاطفيين. وتتحول الرغبة في إبقاء الوالد على مرمى البصر إلى الحاجة إلى معرفة مكان الوالد. حتى المراهقين –إذا كانوا في حالة ارتباط جيدة– سيتساءلون: «أين أبي؟»، و «متى ستعود أمي إلى المنزل؟». وغالبًا ما يظهر عليهم بعض القلق عندما لا يتمكنون من التواصل معهم.

يعبث التوجه نحو الأقران بهذه الغرائز. هناك حاجة مماثلة إلى التواصل والترابط لدى الأطفال المتوجهين نحو الأقران، ولكنها حاليًا يُعاد توجيهها نحو بعضهم. الآن، ما يصبح الطفل قلقًا بشأنه هو أين يوجد البديلون لنا. لقد عَمِلنا كمجتمع على تطوير تكنولوجيا قوية لنبقى على اتصال، بدءًا من الهواتف المحمولة، إلى البريد الإلكتروني، إلى رسائل الدردشة عبر الإنترنت. كانت ميلاني البالغة من العمر ثلاثة عشر عامًا، المهووسة بالتواصل مع

الأقران، متفرغة تمامًا من أجل هذه الغاية. إن هذه الحاجة الملحة إلى البقاء على اتصال لا تتداخل مع الوقت العائلي فحسب، ولكن مع دراسة الطفل، وتنمية مواهبه، وبالتأكيد مع العزلة الإبداعية الضرورية لتحقيق النضج. (لمزيد من المعلومات حول النضج، والعزلة الإبداعية، انظر الفصل التاسع).

***

الارتباط يجعل من الوالد قدوة

غالبًا ما يُفاجأ البالغون، بل ويستاؤون عندما لا يتبع الأطفال الموجودون تحت رعايتهم خطاهم في كيفية تصرفهم، وطريقة معيشتهم. وتنبع خيبة الأمل هذه من الاعتقاد المغلوط بأن الآباء والمعلمين يمثلون قدوات تلقائية لأطفالهم وطلابهم. في الواقع، لا يقبل الطفل قدوةً له إلا أولئك الذين يرتبط بهم بشدة.

ليست حياتنا هي التي تجعل منا قدوات، مهما كانت مثالية، ولا إحساسنا بالمسؤولية تجاه الطفل، أو دورنا التربوي في حياته. إن الارتباط هو الذي يجعل الطفل يريد أن يكون مثل شخص آخر، وأن يتطبع بصفاته. إن النمذجة باختصار هي إحدى ديناميات الارتباط. ومن خلال محاكاة الطفل الشخص الذي يرتبط به، فإنه يحافظ بذلك على القرب النفسي مع ذلك الشخص.

تفضي الرغبة في التوافق مع الشخصيات المهمة المُرتَبَط بها إلى بعض خبرات التعلم الأكثر أهمية وتلقائية في حياة الطفل، على الرغم من كون القرب هو الدافع الأساسي، وليس التعلم. يحدث هذا التعلم دون أن تكون لدى الوالد أو الطفل نية متعمَّدة للتعليم أو التعلم. وفي غياب الارتباط، يكون التعليم بشق الأنفس، ويكون التعلم بالإكراه. فكِّر في الجهد الذي قد يستلزمه الأمر إذا كان يجب أن يتم تعليم كل كلمة يكتسبها الطفل من قبل الوالد عن عمد، وتشكيل كل سلوك عن وعي، وغرس كل توجه عن قصد. سيكون عبء التربية ثقيلًا. إن الارتباط يؤدي هذه المهام تلقائيًّا، إلى جانب ما يتطلبه الأمر من جهدٍ قليلٍ نسبيًّا من الوالدين أو الطفل. ويوفر الارتباط تعلمًا معززًا

بالقوة. كم هو ممتع! كما وجد العديد من الناس، تعلم لغة جديدة حين تقع في حب المعلم اللطيف! وسواء أدركنا ذلك أو لا، فإننا نعتمد آباء ومعلمين بشكل كبير على الارتباط ليجعل منا قدوات.

عندما يحل الأقران محل الوالدين باعتبارهم الشخصيات المهيمنة المُرتَبَط بها، يصبحون قدوات لطفلنا، دون أن يتحملوا بالطبع أي مسؤولية عن العواقب النهائية. يقلد أطفالنا أحدهم لغة الآخر، وإيماءاته، وأفعاله، ومواقفه، وتفضيلاته. ويحظى أمر التعلم بالقدر نفسه من الإبهار، ولكن مضمونه لم يعد تحت سيطرتنا. غالبًا ما يكون فناء المدرسة هو المكان الذي يحدث فيه هذا التعلم المعزز بالقوة. وقد تكون الأمور التي يتم تعلمها بهذه الطريقة مقبولةً عندما يكون القدوات هم الأطفال الذين نحبهم، ولكنها تصبح مثيرة للقلق بعض الشيء عندما يصبح القدوات هم الأطفال الذين نجد سلوكهم أو قيمهم مضطربة. والأسوأ من ذلك أن أي تعليم نريد أن نقدمه لأطفالنا يصبح الآن صعبًا، ومتعمدًا، ومملًّا إلى حد كبير. إن مهمة التربية تصبح أكثر تعقيدًا عندما لا نكون القدوة التي يحاكيها طفلنا.

***

الارتباط يجعل من الوالد المصدر الأول للتوجيه

تتمثل إحدى مهام التربية الأساسية في توفير التوجيه والإرشاد لأطفالنا. كل يوم نشير إلى ما يصلح وما لا يصلح، وما هو جيد وما هو سيئ، وما هو مأمول وما هو خطأ، وما الذي ينبغي أن نسعى إليه، وما الذي يجب تجنبه. وإلى أن يصبح الطفل قادرًا على توجيه نفسه واتباع الإشارات التي تنبع من داخله، فإنه يحتاج إلى شخص ما لينير له الطريق. إن الأطفال يبحثون باستمرار عن إشارات لما ينبغي أن يكونوا عليه، وما يجب عليهم فعله.

إن المسألة الحاسمة هنا لا تكمن في مدى ذكائنا في التعليم، ولكن فيمن تختاره برمجة الارتباط عند الطفل ليكون المرشد المُتَّبع. من المهم أن نكون بارعين في التوجيه، ولكن لا يهم مدى حكمتنا أو وضوحنا إذا لم نكن نحن

الذين يلتمسهم الطفل لتلقي الإشارات. هذا هو موطن علة الكتب التربوية. تلك الفرضية الغامضة، التي لم يعد لها ما يبررها، بأن الأطفال متوجهون نحو الكبار، وأنهم يسترشدون بالآباء، أو المعلمين. ولذلك ينصب تركيز الكتب على كيفية توفير الإرشاد والتوجيه - على سبيل المثال: الوضوح بشأن التوقعات، ووضع حدود واضحة ومنطقية، وشرح القواعد، واتخاذ موقفٍ ثابتٍ حيال العواقب، وتجنب الرسائل المتناقضة. وعندما لا يتبع الأطفال تعليماتنا، يسهل افتراض أن المشكلة تكمن إما في الطريقة التي نعبر بها عن توقعاتنا، وإما في قدرة الأطفال على تلقي رسائلنا. قد يكون الأمر كذلك في بعض الحالات، ولكن على الأرجح تكون المشكلة أعمق بكثير: لم يعد الطفل يتبع تعليماتنا نظرًا إلى غياب الارتباط.

لا ينبغي أن يكون توفير التوجيه والإرشاد مهمةً شاقةً، مشحونةً بالاستياء. من الممكن، بل وينبغي أن تحدث بشكل عفوي. إن الشخص الذي يمثل وجهة بوصلة الطفل يصبح هو مصدر التوجيه أيضًا. كل ذلك يمثل جزءًا من الاستجابة التوجُّهية. سيقوم دماغ الطفل تلقائيًا بالبحث عن التوجيهات الصادرة عن أي شخص يرتبط به الطفل بالدرجة الأولى. وإذا تم توجيه دماغ الارتباط لدى الطفل نحو الوالد، كان مصدر هذه التوجيهات هو وجه الوالد، وردود فعله، وقيمه، وتعاملاته، وإيماءاته، وتَمَّ استقراء الوالد وتأمله بعناية، بحثًا عن إيماءات تشير إلى ما قد يكون مطلوبًا، أو مُتَوَقَّعًا. إن الارتباط يجعل من التوجيه أمرًا سهلًا، وسهلًا للغاية في بعض الأحيان.

إننا عندما لا نكون في أفضل حالاتنا، ونتصرف أو نتحدث بطرائق لا نفخر بها، قد نتمنى ألا يتبع أطفالنا تعليماتنا بهذا القدر من التلقائية والدقة. قد تبدو القوة مصدر إرهاق في بعض الأحيان، ولكن شخصًا ما سيكون هو مصدر التوجيه المختار. وإن لم يكن نحن، فمن إذن؟ على الأقل نحن -باعتبارنا بالغين وآباء مسؤولين- نتمتع بالقدرة والشعور بالمسؤولية لإعادة التفكير في أفعالنا، وإصلاح أي ضرر قد نكون قد تسببنا فيه إذا لزم الأمر. ولكن عندما يستأثر الأقران بالقوة، فإنهم لا يتحملون أي مسؤولية، ولا يشعرون أبدًا بالذنب تجاه أي تأثير سلبي يتسببون فيه. وعلى عكس الآباء، فإنهم لا يبذلون أي جهد ليصبحوا على قدر الدور الذي منحهم إياه الارتباط.

وحتى لو كنا لا نتسم بالنضج، أو الكفاءة، فإن وضعنا في تلك المسؤولية الرهيبة لنكون قدوةً ومصدرًا للتوجيه يعتبر حافزًا قويًّا يدفعنا إلى أن نبذل جهدًا أكبر، ونصل إلى النضج.

إذا حَلَّ الأقران محل أحد الوالدين كمصدر للتوجيه، تَبِعَ الطفل توقعات أقرانه كما يراها. وسيخضع هذا الطفل لمطالب أقرانه بالسهولة نفسها التي كان سيطيع بها أوامر الوالدين إذا كان متوجهًا نحو الكبار.

قد يتجنب بعض الآباء إعطاء التوجيهات، انطلاقًا من الاعتقاد الساذج بأنه يتعين عليهم ترك مساحة للطفل لتطوير توجهاته الداخلية. ولا تسير الأمور على هذا النحو، فالنضج النفسي وحده هو الذي يمكن له أن يحقق حرية الإرادة الحقيقية. وفي حين أنه من المهم لتطور الأطفال أن يتم إعطاؤهم خيارات مناسبة لأعمارهم، ومستوى نضجهم، فإن الآباء الذين يتجنبون إعطاء التوجيهات من حيث المبدأ ينتهي بهم الأمر إلى التنازل عن دورهم التربوي. وفي غياب التوجيه الأبوي، سيلتمس معظم الأطفال التوجيه من مصدر بديل، وغالبًا ما يكون أقرانهم.

إن التعامل مع طفل لا يتبع أوامرنا يعتبر أمرًا صعبًا بما فيه الكفاية، ولكن محاولة السيطرة على طفل يقع تحت إمرة شخص آخر هو أمر شبه مستحيل. إن ما كان من المفترض أن يحل محلنا ليس شخصًا آخر يعطي الأوامر، وإنما النضج - أي قدرة الشخص البالغ على اتخاذ القرارات، وأن يختار لنفسه أفضل اتجاه ليتبعه.

***

الارتباط يجعل الطفل يرغب في أن يبدو صالحًا في نظر الوالد

إن الطريقة المهمة الأخيرة التي يساعدنا بها ارتباط طفلنا بنا تُعَدُّ هي الأهم على الإطلاق: رغبة الطفل في أن يبدو صالحًا في نظر الوالد. يستحق الأمر إمعان النظر.

إن رغبة الطفل في الطاعة تمنح الوالد قوة هائلة. وتكون الصعوبات الناتجة عن غياب هذه الرغبة هائلة أيضًا. يمكننا أن نرى الدافع لأن يكونوا صالحين في حرص الكلاب الأليفة على حسن التصرف مع أسيادها، رغم أنها لا تبالي بأوامر الغرباء. إن محاولة ترويض كلب غير مكترث بأن يبدو صالحًا في نظرنا تعطي لمحةً بسيطةً عما نواجهه عندما يغيب هذا الدافع في كائنات أكثر تعقيدًا وتأثرًا من الناحية العاطفية مثل الأطفال.

هذه الرغبة في الصلاح هي إحدى الأشياء الأولى التي أبحث عنها في الطفل الذي يواجه والداه مشكلة في تربيته. هناك عدة أسباب تجعل الطفل غير مهذب، ولكن السبب الأهم دون منازع هو غياب الرغبة نفسها. ومن المؤسف أن نقول إن بعض الأطفال لا يمكنهم أبدًا تلبية توقعات والديهم، لأن المعايير التي يطالب بها الوالدان غير واقعية إلى حد بعيد.

ولكن إذا كانت رغبة الطفل نفسها منعدمة، فلا يهم كثيرًا ما إذا كانت التوقعات واقعية أم لا. وعندما سألت والدي شون وميلاني وكرستين، ذكروا جميعًا أن أطفالهم كان ينقصهم هذا الدافع. ومع ذلك، يمكن لوالِدَي كل طفلٍ منهم أن يتذكرا وقتًا في الماضي القريب كان فيه الدافع إلى الصلاح أكثر وضوحًا.

ولتحقيق غاية تربية الأطفال، يعتبر الإنجاز الذي يتوج الارتباط الناجح هو غرس الرغبة في الطفل في أن يكون صالحًا. عندما نقول عن طفل معين إنه «صالح»، نعتقد أننا نتحدث عن سمة فطرية في الطفل. وما لا نراه هو أن ارتباط الطفل بالشخص البالغ هو الذي يعزز هذا الصلاح. إننا بهذه الطريقة نغفل عن قوة الارتباط. ويكمن خطر الاعتقاد بأن شخصية الطفل الفطرية هي التي تخلق رغبته في أن يكون صالحًا في أننا سنلومه ونُعَيِّره –سنراه «مشاغبًا»– إذا وجدنا أن هذه الرغبة منعدمة. إن دافع الطفل ليكون صالحًا لا ينبع من شخصيته بقدر ما ينبع من طبيعة علاقات هذا الطفل. إذا كان الطفل «مشاغبًا»، كانت العلاقة هي التي نحتاج إلى إصلاحها، وليس الطفل.

يستدعي الارتباط الرغبة في الصلاح بعدة طرائق، كل منها مؤثرة بحد ذاتها. وهي مجتمعةً تجعل من الممكن نقل معايير السلوك والقيم المقبولة من جيلٍ إلى آخر. يتمثل أحد مصادر رغبة الطفل في أن يكون صالحًا فيما

أسميه «ضمير الارتباط»، وهو نوع من التنبيه الفطري داخل الطفل، فهو يحذره من السلوك الذي من شأنه أن يثير استياء الوالدين. ويعود أصل كلمة الضمير (Conscience) إلى الفعل اللاتيني الذي يعني «أن تعرف». أنا أستخدمها هنا بمعناها الأبسط، ليس كقاعدة أخلاقية، ولكن كمعرفة داخلية، تحمي من الخلاف مع الوالدين.

إن جوهر ضمير الارتباط يكمن في القلق من الانفصال. ونظرًا إلى الأهمية الكبيرة التي يتمتع بها الارتباط، فإن المراكز العصبية المهمة في دماغ الارتباط تعمل مثل أجهزة الإنذار، مما يخلق إحساسًا بالقلق غير المريح عندما نتعرض للانفصال عن أولئك الذين نرتبط بهم. في البداية، يكون توقع الانفصال الجسدي هو الذي يستدعي هذه الاستجابة في الطفل. وعندما يصبح الارتباط نفسيًا أكثر، تصبح تجربة الانفصال العاطفي أكثر إثارةً للقلق. سيشعر الطفل بالحزن عند توقع أو استشعار الرفض أو خيبة الأمل من قبل الوالد. وأي شيء يفعله الطفل من شأنه أن يزعج الوالد، أو يدفعه بعيدًا، أو ينفره، سيثير لديه القلق. إن ضمير الارتباط سيحافظ على سلوك الطفل في إطار الحدود التي ترسمها توقعات الوالدين.

قد يتطور ضمير الارتباط في النهاية إلى الضمير الأخلاقي للطفل، ولكن تتمثل وظيفته الأصلية في الحفاظ على العلاقة مع الشخص الذي يمثل جهة الارتباط الأساسية. وعندما تتغير جهة الارتباط الأساسية عند الطفل، يُرَجَّح أن تتم إعادة تقويم ضمير الارتباط، لتجنب ما قد يسبب استياءً أو تباعدًا في العلاقة الجديدة. ولا يتطور ضميرٌ يتسم بنضج واستقلالية أكبر، واتساق في جميع المواقف والعلاقات، إلا بعد أن يطور الطفل شخصيةً قويةً بما يكفي لصياغة قيم وأحكام مستقلة.

في حين أنه من المفيد للطفل أن يشعر بالسوء عند توقع فقدان العلاقة مع أولئك الذين يكرسون أنفسهم له، ولرفاهه ونموه، فمن المهم للغاية أن يدرك الآباء أنه ليس من الحكمة استغلال هذا الضمير. يجب ألا نتعمد أبدًا أن نجعل الطفل يشعر بالسوء، أو الذنب، أو الخزي، من أجل أن يكون صالحًا. إن سوء استغلال ضمير الارتباط يثير شكوكًا عميقة لدى الطفل، وقد يدفعه

إلى تعطيل هذا الضمير، خوفًا من التعرض للأذى. ولا تستحق العواقب أي مكاسب قصيرة الأجل في الأهداف السلوكية.

قد يضطرب ضمير الارتباط لأسباب أخرى غير التوجه نحو الأقران، ولكن السبب الأكثر شيوعًا في كونه يخدم الهدف الخطأ هو أنه ينحرف تجاه الأقران ويبعد عن الوالدين. لا يزال الضمير يؤدي عمله في ظل هذه الظروف، ولكن هدفه الطبيعي قد فَسُد. وتترتب على ذلك نتيجتان غير محمودتين: يفقد الآباء مساعدة هذا الضمير في التأثير على سلوك أطفالهم، وفي الوقت نفسه، تتم إعادة تهيئة ضمير الارتباط لخدمة علاقات الأقران. وإذا شعرنا بالصدمة حيال التغيرات السلوكية التي تأتي في أعقاب التوجه نحو الأقران، فهذا لأن ما هو مقبول لدى الأقران يختلف اختلافًا كبيرًا عما هو مقبول لدى الآباء. وعلى غرار ذلك، فإن ما يكرهه الأقران بعيد كل البعد عما يكرهه الآباء. لقد أصبح ضمير الارتباط يخدم سيدًا جديدًا.

عندما يحاول الطفل نيل الاستحسان من أقرانه بدلًا من الوالدين، يتلاشى الدافع إلى أن يكون صالحًا في نظر الوالدين بشكل كبير. وإذا اختلفت قيم الأقران عن قيم الوالدين، تغير سلوك الطفل أيضًا وفقًا لذلك. يدل هذا التغير في السلوك على أنه لم يتم استيعاب قيم الوالدين حقًّا لتصبح نابعةً من الطفل بصدق. لقد كانت في الغالب أشبه بوسائل لنيل الاستحسان.

لا يستوعب الأطفال القيم -أي يتبنونها- حتى سن المراهقة. وبالتالي، فإن التغيرات في سلوك الطفل المتوجه نحو الأقران لا تعني أن قيمه قد تغيرت، بل تعني فقط أن اتجاه غريزة الارتباط لديه قد انحرف عن مساره. غالبًا ما يتم استبدال قيم الأقران، التي تتسم أكثر بكونها حدسية وقصيرة الأجل، بقيم الوالدين، مثل: الدراسة، والعمل لبلوغ الأهداف، والسعي إلى التميز، واحترام المجتمع، وتفعيل الإمكانات، وتنمية المواهب، والبحث عن الشغف، واحترام الثقافة. إن المظهر، والترفيه، والولاء بين الأقران، وقضاء الوقت معًا، والاندماج في الثقافة الفرعية، والانسجام معًا، كلها أمور سيتم تقديرها أكثر من التعليم، وتفعيل الإمكانات الشخصية. وغالبًا ما يجد الآباء أنفسهم في جدال حول القيم، ولا يدركون أن القيم بالنسبة إلى أطفالهم

المتوجهين نحو الأقران ليست سوى معايير يجب أن يستوفوها من أجل أن يحظوا بقبول جماعة الأقران.

لذا، يحدث أننا نفقد تأثيرنا تمامًا في ذلك الوقت من حياة أطفالنا، حيث يكون من الملائم والضروري بالنسبة إلينا أن نعبر لهم عن قيمنا، وأن نشجعهم على تبني ما نؤمن به. إن تعزيز القيم يتطلب وقتًا وحوارًا، ويأتي التوجه نحو الأقران ليسلب الآباء تلك الفرصة. وبهذه الطريقة، يعوق التوجه نحو الأقران التطور الأخلاقي.

إن الدافع لإساءة الأدب هو الوجه الآخر للرغبة في الصلاح. فالإشارة إلى أن فعل كذا وكذا من شأنه أن يرضينا، أو أن الأمر الذي فعله طفلنا جعلنا فخورين أو سعداء، يمكن أن تأتي في الواقع بنتائج عكسية. إن طبيعة الارتباط ثنائية القطب، التي ناقشناها في الفصل الثاني، هي أنه عندما يكون الجانب السلبي هو القائم بالعمل، يمكن له أن يثير سلوكًا مخالفًا لما هو مرغوب فيه. كان هذا ينطبق بالتأكيد على ميلاني ووالدتها. عندما يقاوم الطفل التواصل معنا بدلًا من أن يرغب في إرضائنا، تكون غرائزه هي التمرد والإزعاج. لقد بذلت ميلاني كل ما في وسعها لإزعاج والدتها. وقد يبدو أن الطفل المتوجه نحو الأقران يحاول استفزازنا، وهذا صحيح تمامًا من ناحية، إلا إنه فعل غريزي، وغير متعمد. إن المخلوقات التي تتميز بالارتباط تتميز أيضًا بالغريزة والاندفاع. ولا يبدو من الجيد، أو الصواب، أو الملائم أن يسعى المرء لنيل الاستحسان من أولئك الذين يسعى للابتعاد عنهم. فعندما يتطلع الطفل إلى نيل القبول من أقرانه، يكون من غير المُحتَمَل تقريبًا نيل استحسان الكبار.

إليكم إنذارًا أخيرًا. إن رغبة الطفل في أن يكون صالحًا في نظر الوالد تعتبر دافعًا قويًّا، يجعل التربية أسهل بكثير. وهذه الرغبة تتطلب رعاية، وعناية واعية. إن عدم تصديق رغبة الطفل في حالة وجود هذه الرغبة بالفعل يعد انتهاكًا للعلاقة، كاتهام الطفل بسوء نيته عندما نستنكر سلوكه. ويمكن لمثل هذه الاتهامات أن تستفز دفاعات الطفل بسهولة، وأن تضر بالعلاقة، وأن تُشعِرَه بأنه سيئ. كما إنه من الخطورة بمكان أن يستمر الطفل في رغبته في أن يكون صالحًا في نظر الوالد أو المعلم الذي لا يصدق نيته هذه، وبالتالي يعتقد أنه يجب إغراؤه بالرشاوى، أو تهديده بالعقوبات. إنها حلقة مفرغة.

وقد تفضي محفزات السلوك الخارجية، مثل المكافآت والعقوبات، إلى تدمير الحافز الداخلي النفيس لحسن التصرف، مما يجعل التأثير بهذه الوسائل المتكلَّفة ضروريًّا بحكم العادة. ومن باب الاستثمار في التربية السهلة، تعد الثقة في رغبة الطفل في أن يكون صالحًا في نظرنا أحد أفضل الأمور.

إن العديد من الأساليب الحالية لتوجيه السلوك تضرب بهذا الدافع المعقَّد عرض الحائط، وذلك من خلال الاعتماد على المحفزات المفروضة من الخارج. ويعد مبدأ ما يسمى بالعواقب الطبيعية مثالًا على ذلك. تهدف هذه الطريقة في التهذيب إلى تنبيه الطفل إلى أن هناك تصرفات سيئة محددة ستترتب عليها عقوبات محددة يختارها الوالد، ويبدو هذا مفهومًا من الناحية المنطقية في ذهن الوالد، ولكنه نادرًا ما يكون كذلك بالنسبة إلى الطفل، فما يراه الوالد على أنه أمر طبيعي، يراه الطفل على أنه تعسفي. وإذا كانت العواقب طبيعية فعلًا، فلماذا يجب فرضها على الطفل؟

يرى بعض الآباء أن الثقة تتعلق بالنتيجة النهائية، وليس بالمحفز الأساسي، فالثقة في نظرهم هي أمر يجب اكتسَابه، وليست استثمارًا يجب القيام به. قد يقولون: «كيف يمكنني أن أثق بك إن لم تفعل ما قُلتَ إنك ستفعله؟ أو إن كنت قد كذبت عليَّ؟». وحتى لو لم يكن الطفل قادرًا على تلبية توقعاتنا، أو تنفيذ نياته، فإنه سيظل من المهم الوثوق برغبته في أن يكون صالحًا في نظرنا. إن سحب تلك الثقة يعني هز ثقته بنفسه، وجرحه بعمق. وإذا لم يتم تقدير رغبة الطفل في أن يكون صالحًا في نظرنا وتعزيزها، فقد دافعه للاستمرار في محاولة الارتقاء بمستواه. إن رغبة الأطفال في أن يكونوا صالحين في نظرنا هي التي تستحق ثقتنا، وليس قدرتهم على الوفاء بتوقعاتنا.

***

6

الإرادة المضادة: لماذا يتمرد الأطفال

«أنت لست رئيسي». هكذا كانت كرستين، البالغة من العمر سبع سنوات، تقول لوالديها الحائرين فجأةً كلما طلبا منها التعاون. وضع شون، البالغ من العمر تسع سنوات، والعنيد بشكل متزايد، لافتةً كبيرةً على بابه تقول: «ممنوع الدخول». اقتصر تواصل المراهقة ميلاني مع والديها على ما هو أكثر بقليل من إيماءات التحدي: الوجه المتجهم، أو هز الكتفين، أو الابتسامة المتكلَّفة، التي أصبحت أكثر ازدراءً عندما أصدر والدها أوامر محملة بالغضب، ولكنها غير مجدية، قائلًا: «دعي عن وجهك هذه الابتسامة».

كما أوضحت في الفصل السابق، بمجرد أن يصبح أطفالنا متوجهين نحو الأقران، ينقلب الارتباط علينا، ونفقد القدرة على التربية. ومع توجيه هاتين الضربتين ضدهم، كان والدو كرستين وميلاني وشون يمرون بوقت عصيب بالفعل، ولكن القصة لا تنتهي عند هذا الحد. هناك غريزة أخرى، التي عندما تنحرف عن مسارها نتيجة التوجه نحو الأقران، تبذر بذور الخراب في العلاقة بين الوالدين والطفل، وتجعل الحياة جحيمًا لأي شخص بالغ في موقع المسؤولية. وقد أطلق عالم نفس نمساوي ثاقب البصيرة يدعى أوتو رانك على هذه الغريزة بحصافة اسم «الإرادة المضادة».

الإرادة المضادة هي مقاومة تلقائية غريزية لأي شعور بالإجبار. ويتم تحفيزها عندما يشعر الشخص بالتحكم فيه، أو الضغط عليه لتنفيذ أوامر شخص آخر. وتظهر بأكثر صورة درامية لها في السنة الثانية من العمر. نعم، ما يسمى بعمر السنتين الرهيب. (إذا كان بإمكان الأطفال الذين يبلغون من العمر عامين تأليف مثل هذه المسميات، فلربما وصفوا والديهم بأنهم يمرون بـ «عمر الثلاثينيات الرهيب»). تظهر الإرادة المضادة بقوة مرة أخرى خلال فترة المراهقة، ولكن يمكن تحفيزها في أي عمر - ويمر بها العديد من البالغين.

في النصف الأول من القرن العشرين، كان رانك قد أشار بالفعل إلى أن التعامل مع الإرادة المضادة هو التحدي الأصعب بالنسبة إلى الوالدين. كان يكتب في وقت كانت فيه ارتباطات الأطفال لا تزال موجهة نحو الكبار إلى حد كبير. لذلك، ليس هناك أمر غريب في وجود الإرادة المضادة لدى الطفل، ولكن كما سأوضح بعد قليل، فقد أصبحت مُبالغًا فيها بصورة غير عادية تحت تأثير التوجه نحو الأقران.

لا أحد يحب أن يتم التحكم فيه، بما في ذلك الأطفال - أو بشكل أكثر دقة، خصوصًا الأطفال. وعلى الرغم من أننا جميعًا ندرك تمامًا هذه الاستجابة الفطرية في أنفسنا، فإننا نتغاضى عنها بطريقة ما عند التعامل مع صغارنا. إن استيعاب الإرادة المضادة يمكن أن يوفر على الوالد الكثير من الحيرة، والصراع غير الضروري، خصوصًا عندما يتعلق الأمر بفهم مواقف الطفل المتوجه نحو الأقران وسلوكه.

تتجلى الإرادة المضادة في نواحٍ لا حصر لها. يمكن أن تتجلى في الرد بـ «لا» من الطفل في مرحلة الحبو، و «أنت لست رئيسي» من الطفل الصغير، وفي العناد عند استعجاله، وفي العصيان، أو التحدي. وهي تظهر أيضًا في لغة جسد المراهق. كما يتم التعبير عن الإرادة المضادة كذلك من خلال الخمول، أو التسويف، أو القيام بعكس ما هو متوقع. ويمكن أن تظهر في صورة الكسل، أو انعدام الدوافع. وقد يُعَبَّرُ عنها من خلال السلبية، أو العدوانية، أو الجدال، وغالبًا ما يترجمها الكبار على أنها وقاحة. قد نلاحظ في العديد من الأطفال المدفوعين بالإرادة المضادة افتتانًا بتخطي الممنوعات،

وتبني مواقف لا اجتماعية. وبغض النظر عما يبدو عليه الأمر، فإن الدينامية الأساسية واضحة. إنها مقاومة غريزية للإجبار.

إن بساطة هذه الدينامية تتناقض تناقضًا حادًّا مع تعدد وصعوبة ما ينتج عنها من مشكلات للآباء والمعلمين، وأي شخص يتعامل مع الأطفال. إن مجرد كون أمر ما يمثل أهمية بالنسبة إلينا، يمكن أن يجعل أطفالنا أقل رغبة في فعله. فكلما ضغطنا على أطفالنا لتناول الخضراوات، أو تنظيف غرفهم، أو تنظيف أسنانهم، أو القيام بواجباتهم المدرسية، أو الانتباه إلى تصرفاتهم، أو التفاهم مع أشقائهم، قل ميلهم إلى الطاعة. وكلما أمرناهم مرارًا بعدم تناول الوجبات السريعة، كانوا أكثر ميلًا إلى تناولها. قال صبي ذو بصيرة بنفسه يبلغ من العمر أربعة عشر عامًا لوالده: «في كل مرة تخبرني فيها بتناول الخضراوات، أشعر برغبة أقل في القيام بذلك». وكلما كنا أكثر وضوحًا بشأن توقعاتنا، أصبحوا أشد استغراقًا في جموحهم. يمكن أن ينطبق كل هذا حتى في ظل الظروف الأكثر طبيعية وعادية، أي عندما يكون الأطفال مرتبطين تمامًا بالكبار المكلفين برعايتهم. وعندما لا يرتبط الأطفال بشكل فعال بالأفراد المسؤولين عنهم، فسوف يدركون جهود الكبار في الحفاظ على السلطة كأنها «تسلط» عليهم. ومن خلال تنحية ارتباطات الطفل الطبيعية، يزيد التوجه نحو الأقران من المقاومة إلى أبعد الحدود. ويمكن لغريزة الإرادة المضادة أن تخرج تمامًا عن السيطرة.

***

الارتباط الضعيف يزيد من حدة الإرادة المضادة

عادةً ما يحد الارتباط من المقاومة البشرية البحتة للإجبار، إن لم يَحُل دونها. هذا أيضًا نعرفه من واقع تجربتنا الشخصية: عندما نقع في الحب، نادرًا ما يبدو أي توقع يتوقعه محبوبنا غير منطقي. والأرجح هو أن نرفض تلبية مطالب شخص لا نشعر بالترابط معه. من المحتمل للطفل الذي يريد أن يكون قريبًا منا أن يرى توقعاتنا كفرصة ليكون عند حسن الظن. وتساعد

الإشارات بشأن كيفية التصرف وما يجب فعله هذا الطفل على أن يرى الاستحسان في أعين الوالدين.

هذه قصة أخرى بالطبع، بعيدًا عن دينامية الارتباط، خصوصًا بالنسبة إلى أولئك الذين لا يتمتعون بالنضج الكافي لمعرفة ما يريدون. لقد باتت التوقعات الآن مصدر ضغط. أن تُؤمَرَ بما يجب عليك فعله، يعني أن تشعر بالتحكم فيك. وأن تُظهر الطاعة يعني أن تشعر وكأنك قد استسلمت. حتى الكبار الناضجون نسبيًّا قد يتفاعلون بهذه الطريقة، فما بالنا بالطفل النامي؟ إن إعطاء طفل في مرحلة ما قبل المدرسة أمرًا من قبل مرء لا تربطه علاقة به يعتبر ترحيبًا بأن تكون في موضع تَحَدٍّ، أو تجاهلٍ في أحسن الأحوال. لا يميل الطفل الصغير إلى طاعة شخص لا يشعر بأنه مرتبط به. وببساطة، لا يبدو من الصواب طاعة أوامر الغرباء الذين هم خارج دائرة ارتباط الطفل.

تظل الدينامية هي نفسها تمامًا في حالة المراهقين غير الناضجين، حتى لو لم تكن طرائقهم في التعبير عنها بريئة بطريقة محببة. وفي المواقف التي يُملى عليهم فيها عادةً ما يجب فعله من قبل أشخاص لا يرتبطون بهم، يمكن للإرادة المضادة أن تترسخ بسهولة كاستجابة أساسية لعالم الكبار. هناك فتاة تبلغ من العمر أربعة عشر عامًا، شديدة التوجه نحو الأقران، كانت قد أُرسِلَت إلى مدرسة داخلية بسبب الإرادة المضادة، التي جعلت من غير الممكن السيطرة عليها، وانتهى الأمر بطردها من المدرسة للسبب نفسه. وقد سألتها عن سبب ارتكابها بعض التصرفات الفظيعة المنسوبة إليها. أجابت بهزة كتف ورد لا مُبالٍ: «لأنه لم يكن من المفترض أن نفعل ذلك». بدت هذه الحتمية بديهية جدًّا بالنسبة إليها، لدرجة أن سؤالي كان بالكاد يستحق الإجابة في نظرها.

عندما سُئل الأطفال المتوجهون نحو الأقران والمدفوعون بالإرادة المضادة عن أكثر ما يهمهم، كانت إجابتهم في أغلب الأحيان: «ألا ندع أي شخص يتحكم بنا». إن الإرادة المضادة لهؤلاء الأطفال متفشية، وحادة للغاية، لدرجة أن الكبار يعتقدون أنه لا سبيل إلى تقويمهم، ويستحيل التعامل معهم. يشخص الأطباء هؤلاء الأطفال بأنهم يعانون اضطراب الشخصية المتحدية المعارضة. ومع ذلك، ليست المعارضة –الإرادة المضادة– هي التي تخرج

عن طورها، بل ارتباطات الطفل. إن هؤلاء الأطفال متسقون مع غريزتهم في تحدي الأشخاص الذين لا يشعرون بأنهم مرتبطون بهم. فكلما زاد توجه الطفل نحو الأقران، زادت مقاومته للكبار المسؤولين. وما نسميه اضطرابات سلوكية لدى فرادى الأطفال، هو في الواقع دلالات على خلل مجتمعي.

إن غريزة الإرادة المضادة تتنافى مع أفكارنا حول ما ينبغي أن يكون عليه الأطفال. ونحن نتصرف تحت تأثير اعتقاد أن الأطفال عمومًا ينبغي أن يكونوا متقبلين للتوجيه من قبل الكبار المسؤولين. الأطفال مطيعون بطبيعة الحال، حسنًا، ولكن فقط في سياق الترابط، وفقط عندما تكون قوة الارتباط كافية.

من خلال تقويض التوجه نحو الأقران ارتباطَ الطفل بالوالدين، فإنه يقلب غريزة الإرادة المضادة ضد الأشخاص الذين يجب أن يتطلع إليهم الطفل للحصول على التوجيه والإرشاد. يقاوم الأطفال المتوجهون نحو الأقران حتى توقعات الوالدين الأكثر منطقية بشكل غريزي. فهم إما يعترضون، وإما يتباطؤون في العمل، وإما يقاومون، وإما يخالفون، وإما يفعلون عكس ما هو مطلوب.

لا يحتاج الآباء حتى إلى أن يقولوا أي شيء لاستفزاز الإرادة المضادة في طفل ذي توجه نحو الأقران. إذا كان هناك أي شخص يستطيع قراءة أفكارنا فيما يتعلق بما نود منه القيام به، كانوا أطفالنا. وعندما يتم استبدال الأقران بنا نحن الآباء، فإن هذه المعرفة برغباتنا لا تختفي. ما يختفي هو الارتباط بنا، الذي من شأنه أن يجعل رغباتنا مستساغة. ويُستَبدَل بالرغبة في الطاعة نقيضها. ودون أن يتفوه الوالد بكلمة واحدة، سيشعر الطفل المتوجه نحو الأقران بأنه يتعرض للإجبار، أو الضغط عليه، أو التلاعب به.

تكمن الصعوبات التي تواجه والدي كرستين وشون وميلاني في ديناميةالإرادة المضادة هذه، المنحرفة، والمبالغ فيها بسبب التوجه نحو الأقران. لقد كانت الطلبات البسيطة تفضي إلى غضب هؤلاء الأطفال. وساءت الأمور. وجاءت التوقعات بنتائج عكسية. وكلما زادت أهمية أمر ما بالنسبة إلى الوالدين، قلت رغبة الأطفال في القيام به. وكلما حاول والد ميلاني أن يكون أكثر سيطرةً، أصبحت ابنته أكثر تمردًا. لم يكن الأمر أن الآباء كانوا يرتكبون

أي خطأ بقدر ما كانت غريزة الإرادة المضادة لدى أطفالهم قد استشرت –بل وانحرفت– بسبب التوجه نحو الأقران.

***

الغرض الطبيعي من الإرادة المضادة

بقدر ما يمكن أن يكون التعامل مع طفل معارض مزعجًا للكبار، فإن الإرادة المضادة في سياقها السليم، مثلها مثل جميع الغرائز الطبيعية في إطارها الطبيعي، توجد لغرض إيجابي، بل وحتى ضروري. إنها تؤدي دورًا نمائيًّا ذا شقين. ويتمثل دورها الأساسي في الدفاعية، التي تقاوم أوامر من هم خارج دائرة ارتباط الطفل وتأثيرهم. فهي تحمي الطفل من التعرض للتضليل والإكراه على يد الغرباء.

كما تعزز الإرادة المضادة نمو الإرادة الداخلية لدى الطفل واستقلاليته. إننا جميعًا نبدأ الحياة ضعفاء، واعتماديين تمامًا، ولكن تتمثل نتيجة النمو الطبيعي في نضج فردٍ يتمتع بالدافعية والتنظيم الذاتيين، مع وجود إرادة حقيقية من جانبه. يبدأ الانتقال الطويل من مرحلة الطفولة المبكرة إلى مرحلة البلوغ بخطوات الطفل الصغير المبدئية نحو الانفصال عن الوالدين. تظهر الإرادة المضادة أول مرة في الطفل الصغير من أجل المساعدة في مهمة التميز الفردي هذه. في جوهر الأمر، يُشَيِّدُ الطفل جدارًا من «اللاءات» الرافضة. وخلف هذا الجدار، يستطيع الطفل أن يتعلم تدريجيًّا ما يحبه وما يكرهه، وما ينفره وما يُفَضِّله، دون أن تغمره إرادة الوالد المؤثرة للغاية. يمكن تشبيه الإرادة المضادة بالسياج الصغير، الذي يضعه المرء حول حديقة مزروعة حديثًا لحمايتها من الدهس. وبسبب هشاشة وارتباك النمو الناشئ الجديد، يجب أن يكون هناك حاجز وقائي، حتى تكون أفكار الطفل، ومفاهيمه، وأنشطته، ووجهات نظره، مترسخة وقوية بما يكفي لتتحمل أن يتم الاقتراب منها دون أن تتشوه. ودون ذلك السياج الواقي، لن تنجو إرادة الطفل الوليدة. في مرحلة المراهقة، تخدم الإرادة المضادة الهدف نفسه، مما يساعد الطفل على تقليل اعتماده النفسي على الأسرة. إنها تظهر في وقت

يضطر فيه الشعور بالذات إلى الخروج من شرنقة الأسرة. إن معرفة ما نريد يجب أن تبدأ من التمتع بحرية رفض ما لا نريد. وتساعد الإرادة المضادة على إفساح المجال لنمو دوافع الطفل وميوله الذاتية، وذلك من خلال استبعاد توقعات الوالدين ومطالبهما. وبالتالي، تعد الإرادة المضادة دينامية بشرية طبيعية، موجودة في جميع الأطفال، حتى أولئك الذين يتمتعون بارتباط جيد.

وبالنسبة إلى معظم الأطفال الذين يحظون بارتباطات قوية، تظل الإرادة المضادة تجربة متكررة وعابرة في الوقت نفسه. وسوف تقتصر على الحالات التي تكون فيها السيطرة التي يفرضها الشخص البالغ لحمل الطفل على الطاعة أكبر من قوة الارتباط التي يحظى بها هذا الشخص البالغ في تلك الحالة. لا مفر من بعض هذه اللحظات في التربية. وسيقلل الوالد الذي يتمتع بالحكمة وسرعة البديهة هذه اللحظات إلى الحد الأدنى الاضطراري، إلى تلك الأوقات التي تتطلب فيها الظروف أو سلامة الطفل أن يفرض الوالد إرادته بكل وضوح. إذا كنا لا نعي كلًّا من دينامية الارتباط ودينامية الإرادة المضادة، فقد لا نميز أين يكمن الحد الفاصل بينهما. إننا نتجاوزه سهوًا، حتى عندما لا يكون هناك داعٍ للقيام بذلك.

قد نعتقد مثلًا أن طفلنا عنيد، أو متعنت، وأن علينا أن نغير من أساليبه المتحدية. ومع ذلك، فمن الصعب القول إن الأطفال الصغار يمتلكون إرادة أصلًا، إذا كان ذلك يعني قدرة الشخص على معرفة ما يريد، والتمسك بذلك الهدف على الرغم من العقبات، أو المشتتات. يقول العديد من الآباء بإصرار: «طفلي قوي الإرادة، فعندما يقرر أنه يريد شيئًا ما، فإنه يتمسك به، حتى لا يسعني الرفض، أو حتى أغضب بشدة». إن ما يتم وصفه حقًّا هنا ليس الإرادة، وإنما هو تشبث شديد وهوسي بهذه الرغبة أو تلك. ربما يشبه الهوس الإرادة في ثباتها، ولكنه لا يشترك معها في أي شيء. إن قوته تأتي من اللاوعي، وتسيطر على الفرد، في حين أن الشخص ذا الإرادة الحقيقية يكون هو المتحكم في نياته. إن معارضة الطفل لا تعبر عن إرادته. ما تشير إليه هذه المعارضة هو غياب الإرادة، مما يسمح للشخص فقط بالمقاومة، ولكن ليس التصرف بناءً على عملية اختيار حرة وواعية.

من الشائع أن يُساء فهم الإرادة المضادة على أنها قوة يتحلى بها الطفل، بوصفها محاولة هادفة منه للحصول على مراده. إن الذي يتسم بالقوة هنا هو رد الفعل الدفاعي، وليس الطفل. فكلما ضعفت الإرادة، زادت قوة الإرادة المضادة. وإذا كان الطفل قويًا فعلًا بحد ذاته، فلن يشعر بالتهديد من قبل الوالد. وبدلًا من أن يكون الطفل هو الذي يمارس الضغط، فإنه هو الذي يشعر بالضغط عليه. وهو لا يكتسب وقاحته من استقلالية حقيقية، بل من الافتقار إليها.

تحدث الإرادة المضادة للطفل بدلًا من أن يحفزها بنفسه، فهي قد تفاجئ الطفل بقدر ما تفاجئ الوالد. كما إنها تعد في الواقع تجسيدًا لمبدأ عام، وهو أن لكل قوةٍ قوةً مضادة. نرى القانون نفسه في الفيزياء على سبيل المثال، حيث لكل قوة جذب مركزية يجب أن تكون هناك قوة طرد مركزية. ونظرًا إلى أن الإرادة المضادة هي قوة مضادة، فإننا نستدعيها في كل مرة تتجاوز فيها رغبتنا في فرض شيء على طفلنا رغبته في التواصل معنا.

إن أفضل مبرر لممارسة الأطفال للإرادة المضادة هو عندما تنشأ، ليس كمعارضة تلقائية، ولكن كدافع صحي للاستقلال. سيقاوم الطفل تلقي المساعدة ليتسنى له فعل الأمور بنفسه، وسيقاوم أن يقال له ما يجب عليه فعله من أجل أن يجد دوافعه الخاصة لفعل الأشياء. وسيقاوم التوجيه من أجل أن يتبين طريقه بنفسه، وأن يكتشف عقله، وأن يعثر على قوته الدافعة، وروح المبادرة في ذاته. سوف يقاوم الطفل أوامر والده من أجل اكتشاف تفضيلاته الشخصية. ولكن، كما سأوضح، فإن هذا التحول نحو الاستقلال الحقيقي لا يمكن أن يحدث إلا عندما يكون الطفل مطمئنًا تمامًا في ارتباطه بالبالغين في حياته. (انظر الفصل التاسع).

قد يقوم طفل يبلغ من العمر خمس سنوات، يتمتع باستقرار جيد في علاقته مع والديه، بالتفاعل مع عبارة مثل «السماء زرقاء» من خلال الرد بعناد بأنها ليست كذلك. قد يبدو للوالد أن الطفل متمرد بشكل سافر، أو يحاول أن يكون عنيدًا. في الواقع، يقوم دماغ الطفل ببساطة بحجب أي أفكار أو مفاهيم لم تنبع من داخله، فهو يقاوم أي شيء غريب عنه من أجل إفساح المجال له ليأتي بأفكاره الخاصة. من المرجح أن تكون القناعة النهائية

هي نفسها (السماء زرقاء)، ولكن عندما يتعلق الأمر باستقلالية الفرد، فإن الأصالة هي ما يهم.

عندما تعزز الإرادة المضادة السعي من أجل الاستقلالية، فإنها تعمل إلى حد كبير مثل جهاز المناعة النفسية، وتتفاعل بشكل دفاعي مع أي شيء لا ينبع من داخل الطفل. وما دام الوالد يفسح المجال للطفل ليصبح فردًا مستقلًّا، ويغذي حاجته إلى الاستقلالية، وكذلك الارتباط، فسوف يتحقق المزيد من النمو. حتى هذه الإرادة المضادة قد لا يكون من السهل التعامل معها، كما أشار أوتو رانك، ولكنها ليست متغلغلة (لا تشوه معظم تفاعلات طفلنا معنا). وهي بالتأكيد توجد من أجل غاية حسنة. إنها تخدم الخطة التطورية الأساسية للاستقلال الناضج.

إذا تطور النمو بشكل مثالي، وأحرز الطفل تقدمًا في أن يصبح شخصًا مستقلًّا، تراجعت الحاجة إلى الارتباط. وبينما يحدث ذلك، سيكون الطفل الذي لا يزال في طور النضج أكثر حساسية للإكراه، وأقل قابلية للتحكم فيه. سيشعر هذا الطفل بالإهانة عندما يُعامَل وكأنه ليست لديه أفكاره وآراؤه، وحدوده، وقيمه، وأهدافه، وقراراته، وتطلعاته. وسيظهر مقاومة شديدة عندما لا يتم تقديره كشخص مستقل. مجددًا، هذا أمر حسن. تخدم الإرادة المضادة الهدف المتمثل في حماية الطفل من أن يصبح امتدادًا لأي شخص آخر، حتى الوالد. وتساعد على خلق كائن مستقل، وصاعد، وحر، ومفعم بالحيوية، وقادر على تسيير أموره بعيدًا عن الارتباطات.

ومع تطور الاستقلالية الحقيقية واكتمال النضج، تتلاشى الإرادة المضادة. ومع النضج، يكتسب البشر القدرة على تحمل المشاعر المختلطة. يمكن أن يكونوا في حالات ذهنية متضاربة في الوقت نفسه: يرغبون في أن يكونوا مستقلين، لكن ملتزمون أيضًا بالحفاظ على علاقة الارتباط.

في نهاية المطاف، لا يحتاج الشخص الناضج حقًّا، الذي يتمتع بإرادة حقيقية من جانبه إلى تبني معارضة تلقائية لإرادة الآخر: يمكنه أن يصغي إلى الآخر عندما يبدو من المنطقي فعل ذلك، أو أن يمضي على هواه عندما لا يبدو الأمر منطقيًّا بالنسبة إليه.

***

الاستقلالية الزائفة للطفل المتوجه نحو الأقران

كما هي الحال دائمًا، التوجه نحو الأقران يعرقل الطابع التطوري الطبيعي. وبدلًا من أن تعزز الإرادة المضادة من الاستقلالية، فإنها تدعم فقط الهدف البدائي، المتمثل في حماية الطفل من التحكم فيه على يد أولئك الأشخاص الذين لا يرغب في أن يكون على مقربة منهم. وفي نظر الأطفال المتوجهين نحو الأقران، هؤلاء الأشخاص هم نحن: آباؤهم، ومعلموهم. وبدلًا من أن تمهد الإرادة المضادة الطريق نحو الاستقلالية الحقيقية، فإنها تنافح عن الاعتماد على الأقران. وهنا تكمن المفارقة الكبرى: إن الدينامية التي كانت تعمل في الأصل من أجل توفير مساحة للتصرف باستقلالية باتت تفضي –تحت تأثير التوجه نحو الأقران– إلى تدمير الأساس الحقيقي للاستقلال: علاقة الطفل الصحية مع الوالد.

في مجتمعنا، عادةً ما نحسب أن هذه الإرادة المضادة التي أفسدها الأقران هي الأمر الحقيقي المُراد، أي الإنسان السوي الذي يسعى إلى الاستقلال. نحن نفترض أن ردود الأفعال المعارضة للمراهقين المتوجهين نحو الأقران تمثل تمردًا طبيعيًّا في سن المراهقة. من السهل أن نخلط بين الأمرين، فهناك علامات المقاومة المعتادة: الرد بوقاحة، ورفض التعاون، والجدال المستمر، وعدم الطاعة، والصراعات على الحدود الشخصية، والحواجز المقامة لإبعاد الوالدين، والسلوكيات المعادية للمجتمع، والرسائل التي فحواها «لا يمكنك التحكم بي». ومع ذلك، تختلف الإرادة المضادة التي تخدم الارتباط بالأقران اختلافًا كبيرًا عن الإرادة المضادة الطبيعية التي تدعم الاستقلالية الحقيقية. ففي حالة الطفل الذي يكون في طور النضج، يختلط كل من الرغبة في الارتباط والسعي إلى الاستقلالية معًا، مما يثير مجموعة من المشاعر المختلطة. إن أوقات تجلي الإرادة المضادة الأشد مقاومة تقابلها أوقات من السعي إلى القرب. وعندما تكون الإرادة المضادة نتيجة للتوجه نحو الأقران، تكون المقاومة أكثر تماديًا، ولا تخفف من حدتها أي خطوات للتقرب من الوالدين. ونادرًا ما يدرك الطفل الدوافع المتضاربة، إذ يكون الجذب كله في اتجاه واحد، نحو الأقران.

هناك طريقة بسيطة لتمييز الإرادة المضادة التي أفسدها الأقران عن الدافع الحقيقي للاستقلال: يقاوم الطفل الذي يكون في طور النضج والتفرد الإكراه مهما كان مصدره، بما في ذلك الضغط من جانب الأقران. وفي حالة التمرد الصحي، تكون الاستقلالية الحقيقية هي الهدف. إن المرء لا يسعى إلى التحرر من شخص ما لمجرد الخضوع لسلطة وإرادة شخص آخر. وعندما تكون الإرادة المضادة ناتجة عن ارتباطات منحرفة، لا تكون الحرية التي يسعى إليها الطفل هي الحرية في أن يكون على طبيعته حقًّا، وإنما هي فرصة لمجاراة أقرانه. ولكي يتسنى له فعل ذلك، سيكبت مشاعره، ويخفي آراءه إذا اختلفت عن آراء أقرانه.

هل نقول إنه قد لا يكون من الطبيعي –على سبيل المثال– أن يرغب مراهق في أن يبقى في الخارج مع رفاقه حتى وقت متأخر؟ لا، قد يرغب المراهق في التسكع مع رفاقه، ليس لأنه مدفوع بالتوجه نحو الأقران، ولكن ببساطة لأن هذا هو ما يحلو له في بعض الأحيان. السؤال المهم: هل هو مستعد لمناقشة الأمر مع والديه؟ هل يحترم وجهة نظرهما؟ هل هو قادر على قول لا لأصدقائه عندما تكون لديه مسؤوليات أخرى؟ أو مناسبات عائلية؟ أو عندما يفضل ببساطة أن يكون بمفرده؟

لن يتحمل المراهق المتوجه نحو الأقران أي عقبة، وسيشعر بإحباط شديد عند معارضة حاجته إلى التواصل مع الأقران. إنه غير قادر على توكيد ذاته في مواجهة توقعات الأقران، وسيستاء تبعًا لذلك من رغبات والديه، ويعارضها.

إن البالغين الذين يسيئون فهم هذه الصورة البدائية والمنحرفة للإرادة المضادة على أنها توكيد صحي للذات في سن المراهقة قد يتنحون عن دورهم التربوي قبل الأوان. وفي حين أنه من الحكمة إفساح المجال للمراهقين ليكونوا على سجيتهم، والسماح لهم بالتعلم من أخطائهم، فإن العديد من الآباء يستسلمون ببساطة. ومن شدة الغضب، أو الإحباط، الذي عادةً ما يكون غير متوقع، ودون مبرر، فإنهم يقررون الانسحاب. ومع ذلك، فإن التراجع قبل الأوان يعني التخلي دون قصد عن طفل لا يزال في حاجة ماسة إلينا، ولكنه لا يعي ذلك. وإذا نظرنا إلى هؤلاء المراهقين المتوجهين نحو الأقران على أنهم المُعالون كما هم في حقيقة الأمر، وأدركنا مدى حاجتهم إلى التربية، فإننا

سنعقد العزم على استعادة قوتنا التربوية. ينبغي لنا أن نجتذب هؤلاء الأطفال من أقرانهم.

***

أسطورة الطفل ذي القدرة المطلقة

من الخطأ أيضًا تفسير معارضة الطفل على أنها فرض قوة، أو سعي من أجل تحصيل القدرة المطلقة.[1]* من المفهوم أن نُظهِرَ رغبة في السيطرة على الطفل عندما نشعر بالافتقار إلى القوة. فإذا لم أكن مسيطرًا، فلا بد أن يكون الطفل هو المسيطر، وإذا لم أتمتع أنا بالقوة، فلا بد أن يتمتع بها الطفل، وإذا لم أكن في موقع القيادة، فلا بد أن يحل الطفل محلي. وبدلًا من أن أتحمل المسؤولية عن إحساسي بالضعف، فإنني أرى الطفل يسعى جاهدًا إلى السيطرة. وعلى نحو استثنائي، يمكن أن يُنظَرَ حتى إلى الأطفال على أنهم يتمتعون بكل القوة: التحكم في مَواعِد المرء، وإفساد خططه، وسرقة النوم من عينيه، والسيطرة على زمام الأمور.

إن المشكلة في رؤية أطفالنا على أنهم يتمتعون بالقوة تكمن في إغفالنا مدى حاجتهم إلينا حقًّا. حتى لو كان الطفل يحاول التحكم بنا، فهو يفعل ذلك بدافع الحاجة إلينا، والاعتماد علينا من أجل إنجاح الأمور. فإذا كان قويًّا حقًّا، لما كان في حاجة إلى حملنا على تنفيذ رغباته. إن بعض الآباء عندما يواجهون طفلًا يرونه متطلبًا يتخذون موقفًا دفاعيًّا، ويبادرون إلى حماية أنفسهم. ونحن كبالغين نتفاعل مع مشاعر الإكراه تمامًا كما يفعل الأطفال: نرفض، ونقاوم، ونعارض، ونحتج، وتُستَفَزُّ إرادتنا المضادة، مما يؤدي إلى صراع على السلطة مع أطفالنا، الذي يتحول في واقع الأمر إلى معركة إرادات مضادة أكثر من كونها معركة إرادات. الأمر المحزن من بين كل ذلك هو أن

(1) ذهب أحد الأطباء النفسيين للأطفال إلى حد تأليف كتاب بعنوان «الطفل ذو القدرة المطلقة» (The Omnipotent Child). وقد كان يشير إلى الأطفال حديثي المشي.

الطفل يفقد والده الذي يحتاج إليه بشدة. إن مقاومتنا لا تفضي إلا إلى زيادة مطالب الطفل، وتلاشي علاقة الارتباط التي تمثل أملنا الأفضل والوحيد.

إن تصور الإرادة المضادة على أنها استعراض للقوة يؤدي إلى استخدام الضغط النفسي، وتبريره أيضًا. إننا نسعى جاهدين إلى أن نقابل القوة المُتَوَهَّمة بالقوة. نبالغ في تصرفاتنا، وترتفع أصواتنا، ونرفع سقف مطالبنا بأي استفادة يمكن أن نحظى بها. وكلما زاد الضغط الذي نفرضه، زادت الإرادة المضادة التي سيستفزها رد فعلنا. فإذا أثار رد فعلنا شعور القلق، الذي يعمل مثل إنذارٍ نفسيٍّ للطفل بأن ثمة ارتباطًا يتعرض للتهديد، فإن الحفاظ على القرب سيصبح هدفه الأول. سيسرع الطفل الخائف ليصالحنا، وليكون عند حسن ظننا مجددًا. قد نعتقد أننا حققنا هدفنا المتمثل في «حسن السلوك»، ولكن مثل هذا الاستسلام لا يتأتى بلا مقابل. ستضعف العلاقة بسبب انعدام الأمان، الناتج عن غضبنا وتهديداتنا. وكلما مارسنا المزيد من الضغط، تضررت العلاقة بقدر أكبر. وكلما ضعفت العلاقة، أصبحنا أكثر عرضةً للاستبدال - غالبًا يُستَبدَلُ بنا الأقران في وقتنا الحاضر. ولا يعد التوجه نحو الأقران سببًا رئيسيًّا من أسباب الإرادة المضادة فحسب، ولكن يمكن لردود أفعالنا إزاء الإرادة المضادة أن تعزز التوجه نحو الأقران.

***

لماذا يأتي الضغط والتلاعب بنتائج عكسية

إنه لمن البديهي البحث عن بعض النفوذ عند الافتقار إلى القوة الكافية اللازمة للمهمة الماثلة أمامنا، سواء كانت دفع صخرة، أو دفع طفل. وتكون جهود الوالدين لكسب النفوذ عادةً على أحد وجهين: الرشوة، أو الإكراه. إذا لم يَفِ أمرٌ بسيط مثل «أود منك إعداد المائدة» بالغرض، فإننا قد نضيف حافزًا، على سبيل المثال: «إذا قُمتَ بإعداد المائدة من أجلي، سمحتُ لك بتناول حلواك المفضلة». أو إذا لم يكن هذا الأمر البسيط كافيًا لتذكير الطفل بأنه قد حان وقت القيام بالواجبات المدرسية، فقد نهدد بسحب بعض الامتيازات، أو قد نضفي نبرة عنيفة على صوتنا، أو نتخذ سلوكًا أكثر تسلطًا. إن البحث عن

النفوذ لا ينتهي أبدًا: العقوبات، والمكافآت، وإلغاء الامتيازات، والحرمان من وقت استخدام الحاسوب، أو الألعاب، أو السماح بهما، والفصل عن الوالد، أو الفصل عن الأصدقاء، وتقييد أو إلغاء وقت مشاهدة التلفاز، أو أخذ السيارة، وما إلى ذلك. وليس من النادر أن نسمع شخصًا يشكو نفاد الأفكار حول ما تبقى من أمور لحرمان الطفل منها.

مع تناقص قدرتنا على التربية، يزداد اهتمامنا بالنفوذ. وتكثر التعبيرات المنمقة: الرشاوى يطلق عليها مسميات مختلفة: كالمكافآت، والحوافز، والتعزيز الإيجابي. والتهديدات والعقوبات، تُعادُ صياغتها لتصبح: التحذيرات، والعواقب الطبيعية، والتعزيزات السلبية. وغالبًا ما يُشارُ إلى ممارسة الضغط النفسي على أنه تعديل للسلوك، أو تلقين درس وعبرة. تحاول هذه التعبيرات المنمقة تحفيز الطفل بفعل الضغوط الخارجية، لأن دوافعه الذاتية تعتبر غير كافية. إن الارتباط طبيعي، وينشأ من الداخل، أما النفوذ، فهو متكلف، ويُفرَضُ من الخارج. في أي سياق آخر، سنرى استخدام النفوذ تلاعبًا. وفي مجال التربية، أصبحت هذه الوسائل لحمل الطفل على اتباع رغباتنا مقبولة من قبل الكثيرين، بوصفها طبيعية ومناسبة.

تنطوي جميع محاولات استخدام النفوذ لتحفيز الطفل على استخدام الضغط النفسي، سواء استخدمنا الضغط «الإيجابي»، كما في المكافآت، أو الضغط «السلبي»، كما في العقوبات. نحن نمارس الضغط في كل مرة ننتهز الأشياء التي يحبها الطفل، أو عندما نستغل الأشياء التي يكرهها ومخاوفه من أجل حمله على تنفيذ رغباتنا. نلجأ إلى النفوذ عندما لا يكون لدينا أي شيء آخر لنعتمد عليه، فلا يوجد دافع ذاتي لنستفيد منه، ولا يوجد ارتباط بنا لنعول عليه. إن هذه التكتيكات –إذا كان سيتم اللجوء إليها في أي وقت– يجب أن تكون الملاذ الأخير، لا أول رد فعل لنا. وبالتأكيد لا يجب أن تكون أسلوبنا في التعامل. لسوء الحظ، عندما يصبح الأطفال متوجهين نحو الأقران، فإننا كآباء نتجه إلى السعي وراء النفوذ من شدة اليأس.

قد ينجح التلاعب، سواء في شكل مكافآت أو عقوبات، في حمل الطفل على الطاعة بصورة مؤقتة، ولكننا لا نستطيع بهذه الطريقة أن نجعل السلوك المرغوب جزءًا من شخصية الفرد الأصيلة. وسواء كان الأمر يتعلق بالتعبير

عن الشكر، أو الأسف، أو المشاركة مع الغير، أو صنع هدية، أو بطاقة، أو تنظيف الغرفة، أو الإعراب عن الامتنان، أو القيام بالواجبات المدرسية، أو عزف البيانو، فكلما زاد الإكراه على فعل السلوك، قل احتمال حدوثه طواعيةً. وكلما قل حدوث السلوك بشكل عفوي، كان الآباء والمعلمون أكثر ميلًا إلى اختلاق بعض النفوذ. وهكذا تبدأ دورة متصاعدة من الضغط والإرادة المضادة، التي تتطلب استخدام المزيد والمزيد من النفوذ. لقد تلاشت قاعدة القوة الحقيقية للتربية.

تشهد الكثير من الأدلة، في كل من المختبر والحياة الواقعية، على قوة الإرادة المضادة على تحطيم الأهداف السلوكية السطحية التي يتم السعي إليها عن طريق الضغط النفسي أو التلاعب. شملت إحدى التجارب أطفالًا دون سن الدراسة، الذين أحبوا اللعب بالأقلام السحرية. وقُسِّم هؤلاء الأطفال إلى مجموعات مختلفة: وُعِدَت المجموعة الأولى بشهادة رائعة إذا استخدمت الأقلام، ولم تُوعَد المجموعة الثانية بأي شيء، بل كوفئت على استخدام الأقلام بالشهادة نفسها. ولم تُوعد المجموعة الثالثة بمكافأة، ولم تُمنح إياها. عندما تم اختبارهم بعد عدة أسابيع، ولكن دون ذكر أي مكافآت، كانت المجموعتان اللتان تم فيهما استخدام الإكراه الإيجابي أقل ميلًا إلى اللعب بالأقلام السحرية.[1] تؤكد غريزة الإرادة المضادة أن استخدام الضغط سيأتي بنتائج عكسية. وفي تجربة مماثلة، لاحظ عالم النفس إدوارد ديسي سلوك مجموعتين من طلاب الكلية أمام لعبة ألغاز كانوا جميعًا متحمسين لها بالقدر نفسه. كان من المفترض أن تتلقى إحدى المجموعتين مكافأة نقدية في كل مرة يتم فيها حل اللغز، ولم يتم إعطاء المجموعة الأخرى أي حافز خارجي. وبمجرد توقف المدفوعات، ثبت أن المجموعة مدفوعة الأجر أكثر عرضة لترك اللعبة من نظيرتها غير مدفوعة الأجر. وقد كتب الدكتور ديسي: «قد تزيد المكافآت من احتمالية حدوث السلوكيات، ولكن فقط في حالة استمرار تلقي المكافآت. توقف عن المكافأة، وسيتوقف السلوك».[2]

من السهل تفسير إرادة الطفل المضادة خَطَأً على أنها سعي إلى القوة. ربما لا يمكننا أبدًا التحكم في ظروفنا بشكل كامل، ولكن تربية الأطفال ومواجهة إرادتهم المضادة بشكل يومي يعني إبراز عجزنا لنا باستمرار،

ففي مجتمعنا المعاصر، ليس من المستغرب أو غير المعتاد أن يشعر الآباء بالاضطهاد والعجز. ومع الشعور بالضعف الذي نعانيه عندما لا تكون الارتباطات بين الأطفال والكبار قوية بما فيه الكفاية، نبدأ في رؤية أطفالنا على أنهم متلاعبون، ومتسلطون، بل وحتى أقوياء.

نحتاج إلى أن نتجاوز الأعراض. إذا كان كل ما نلاحظه هو المقاومة أو الوقاحة، فإننا سنرد بغضب، وإحباط، وشدة. يجب أن نرى أن الطفل يتصرف بشكل عفوي فحسب عندما يشعر أنه يتعرض للشد والجذب. وبصرف النظر عن الإرادة المضادة، نحتاج إلى أن نعترف بضعف الارتباط. لا يتمثل جوهر المشكلة في التمرد؛ إن السبب الجذري يكمن في التوجه نحو الأقران، الذي يجعل الإرادة المضادة تعود بالسلب على الكبار، ويجردها من غرضها الطبيعي.

وكما سنناقش في الجزء الرابع، فإن أفضل استجابة لإرادة الطفل المضادة تتمثل في وجود علاقة أبوية أقوى، وتقليل الاعتماد على الضغط.

***

7

انهيار الثقافة

ترد فيما يلي نسخة حرفية من رسائل متبادلة عبر تطبيق «ماسنجر» بين شابين مراهقين. (هوية الحسابات على التطبيق مكتوبة بالخط المائل).

ثم قالت ريكتم!! هذا اسم ابني يقول: «مرحبًا».

كرونتاسوروس وريبيتار ينضمان إلى نادي بارنيارد تاي تشي يقول: «ما الجديد؟».

ثم قالت ريكتم!! هذا اسم ابني يقول: «؟؟».

كرونتاسوروس وريبيتار ينضمان إلى نادي بارنيارد تاي تشي يقول: «مرحبًا».

ثم قالت ريكتم!! هذا اسم ابني يقول: «ما الجديد؟».

هناك ثلاث سمات لافتة للنظر في هذا الحوار الإلكتروني، وهو مماثل تمامًا لما يتم تبادله كمراسلات بين المراهقين في هذه الأيام. أولًا: الصياغة الدقيقة

لأسماء مستعارة طويلة وعديمة المعنى، مشوبة بالسخرية والاستخفاف. الشكل هو ما يهم، وليس المعنى. ثانيًا: على النقيض التام، اختصار الحديث في كلمات أحادية المقطع غير مفهومة تقريبًا. وأخيرًا: خلو الكلام تمامًا من المعنى: اتصال دون تواصل حقيقي. «مرحبًا» هي التحية الشائعة. «ما الجديد؟» هي بديل لـ «كيف حالك؟» أو «كيف تسير الأمور؟» - دون دعوة لمشاركة معلومات ذات أهمية حقيقية لأيٍّ من المشاركين. مثل هذه «المحادثات» يمكن أن تستمر مدةً طويلة دون أن يُقال أي شيء أكثر أهمية. إنها لغة قَبَلية، غريبة عن الكبار، ولها هدف ضمني، يتمثل في خلق تواصل دون البوح بأي شيء مفيد عن الذات.

كتبت الصحفية باتريشيا هيرش في كتابها عام 1999 عن المراهقة في أمريكا: «إن مراهقي اليوم يمثلون قبيلة منفصلة». وكما هي الحال مع القبيلة، فالمراهقون لديهم لغتهم، وقيمهم، وأهدافهم، وموسيقاهم، ولباسهم، وعلاماتهم المميزة، مثل ثَقبِ الجسم، والوشوم. قد يكون الآباء قد شعروا في أوقات سابقة وكأن أبناءهم المراهقين قد خرجوا عن السيطرة، ولكن السلوك القَبَلي للمراهقين في هذه الأيام لم يسبق له مثيل. قد نرى –على سبيل المثال– حرب الشوارع، والنزاع بين شباب عائلتي كابيولت ومونتاغيو في مسرحية «روميو وجولييت» حربًا قبلية. وقد كان الأمر كذلك، مع وجود فارق جوهري واحد بين أبطال شكسبير الشبان ومراهقي اليوم: ارتبطت الشخصيات الشكسبيرية بقبائل –التكتلات العائلية– والديهم، وقاموا بأعمالهم العدائية بما يتماشى مع مبادئ العائلة. كما لم يكن الصراع الرئيسي في المسرحية صراعًا بين الأجيال، فقد عصى العاشقان الصغيران والديهما، ولكنهما لم ينبذاهم، وقد رغبا فقط في الجمع بينهم من أجل الحب الذي يتبادلانه. وقد ساعدهما كبار داعمون، مثل الراهب الذي أقام مراسم زواجهما السري. إن قبائل المراهقين اليوم لا تربطها علاقة بمجتمع الكبار، ففي «قصة الحي الغربي» لليونارد برنستاين، النسخة الأمريكية الحديثة لرواية «روميو وجولييت»، تكون عصابات المراهقين المتناحرة منفصلةً تمامًا عن عالم الكبار، وتعاديه بشدة.

رغم أننا استسلمنا للاعتقاد بأن اتخاذ الشباب هذا الطابع القبلي هو عملية عادية، فإنه يُعَدُّ ظاهرة جديدة تاريخيًّا، ذات تأثير مدمر على الحياة

الاجتماعية. إنه يشكل أساس الإحباط الذي يصيب العديد من الآباء إزاء عدم قدرتهم على توريث أطفالهم تقاليدهم.

في هذه القبيلة المنفصلة التي انضم إليها العديد من أطفالنا، تنتقل القيم والثقافة بشكل أفقي، من شخص غير متعلم وغير ناضج إلى شخص آخر. وهذه العملية، التي يمكن اعتبارها تسطيحًا للثقافة، تؤدي إلى تقويض إحدى ركائز النشاط الاجتماعي المتحضر أمام أعيننا. إن وجود قدر معين من الخلاف بين الأجيال هو جزء طبيعي من التطور، ولكن عادةً ما تتم تسويته بطرائق تسمح للأطفال بالنضج في وئام مع ثقافة آبائهم. ويمكن للصغار أن يعبروا عن أنفسهم بحرية، دون أن ينسوا أو يحتقروا القيم العامة التي يتوارثونها رأسيًّا، من جيل إلى آخر. وليس هذا ما نشهده اليوم.

قال مذيع بشبكة «إم تي في» منذ وقت ليس ببعيد: «إن الأطفال في شتى أنحاء الحضارة الغربية يتجهون إلى التشبه ببعضهم في المظهر والسلوك أكثر مما يتشبهون بآبائهم أو أجدادهم». وفي حين أن هذه العبارة كانت من قبيل تفاخر الشبكة خلال بث مناسبة سنوية، فإنها تحوي جانبًا من الحقيقة ينذر بالخطر من حيث تداعياته.

إن انتقال الثقافة يضمن بقاء الأنماط المحددة التي يتخذها وجودنا وهيئتنا كبشر. إنه يتجاوز بكثير عاداتنا، وتقاليدنا، ورموزنا، ليشمل كيفية التعبير عن أنفسنا من خلال الإيماءات، واللغة، والطريقة التي نتجمل بها من خلال الملابس والزينة، وماهية احتفالاتنا، وكيفيتها، وتوقيتاتها. تحدد الثقافة أيضًا طقوسنا فيما يتعلق بالاتصال والتواصل، والتحية والوداع، والانتماء والولاء، والحب والحميمية. ويكتسي الطعام أهمية محورية في أي ثقافة - كيف يتم إعداد الطعام وتناوله، والسلوكيات المرتبطة بالطعام، والأغراض التي يؤديها الطعام. كما تشكل الموسيقى التي يعزفها الناس، والموسيقى التي يستمعون إليها جزءًا لا يتجزأ من أي ثقافة.

عادةً ما يكون انتقال الثقافة جانبًا تلقائيًّا في تربية الأطفال. وكما أن الارتباط يعمل على تسهيل الاعتمادية، والحماية من الضغط الخارجي، وخلق الاستقلالية، فإنه يُعَدُّ أيضًا وسيلة لنقل الثقافة. فما دام الطفل مرتبطًا بشكل جيد بالكبار المسؤولين عنه، فإن الثقافة ستنتقل إلى الطفل. وبعبارة أخرى:

يصبح الطفل المرتبط واعيًا من تلقاء نفسه. بمعنى أنه يتشرب الأنماط الثقافية التي يتمتع بها الكبار. وفقًا لهوارد غاردنر، العالم التطوري الأمريكي الشهير، يتم استيعاب المزيد من الأمور من الوالدين بشكل عفوي في السنوات الأربع الأولى من الحياة أكثر مما يستوعبه الفرد خلال جميع مراحل التعليم الرسمي.[1]

عندما يكون الارتباط ناجحًا، لا يتطلب نقل الثقافة توجيهًا، أو تلقينًا متعمدًا من جانب الكبار، أو حتى تعلمًا واعيًا من جانب الطفل. وتتكفل بذلك رغبة الطفل في التواصل، وميله إلى التماس التوجيهات من الكبار. وإذا تمت مساعدة الطفل على تحقيق التفرد الحقيقي والاستقلال الفكري الناضج، فإن انتقال الثقافة من جيلٍ إلى آخر لا يكون مثل عملية تقليد أهوج، أو طاعة عمياء. فالثقافة تُعَدُّ وسيلةً للتعبير الحقيقي عن الذات. ويزدهر الإبداع الفردي في إطار الثقافة.

عندما يصبح الطفل متوجهًا نحو الأقران، تتعطل مسارات انتقال الحضارة، ويصبح الأطفال الآخرون، أو جماعات الأقران، أو أحدث المشاهير هم القدوات الجديدة التي يُحتَذَى بها. ويتكيف المظهر، والتوجهات، والملابس، والسلوك وفقًا لذلك. حتى لغة الأطفال تتغير، تصبح أكثر فقرًا، وأقل وضوحًا في التعبير عن ملاحظاتهم وخبراتهم، وأقل تعبيرًا عن المعنى والتعبيرات المجازية.

إن الأطفال المتوجهين نحو الأقران ليسوا معدومي الثقافة، ولكن الثقافة التي ينخرطون فيها تتولد عن توجههم نحو الأقران. وعلى الرغم من أن هذه الثقافة تُبَثُّ من خلال وسائل الإعلام التي تخضع لسيطرة الكبار، فإنها يجب أن تُرضِيَ أذواق الأطفال والشباب، وتفضيلاتهم. إن هؤلاء الصغار يتمتعون بالقدرة الشرائية التي تحدد أرباح صناعة الثقافة - حتى لو كانت دخول الآباء هي التي يتم صرفها في هذه العملية. يعرف المعلنون جيدًا كيف يستغلون قوة تقليد الأقران وهم يقدمون عروضهم للعملاء من الفئات الأصغر سنًّا عبر وسائل الإعلام الإلكترونية الجماهيرية. وبهذه الطريقة، فإن شبابنا هم الذين يقررون تسريحات الشعر، والموضة، والشباب هم الذين يجب أن تعجبهم الموسيقى، والشباب هم الذين يحددون إيرادات شباك التذاكر في المقام الأول. ويحدد الشباب الرموز الثقافية في عصرنا. ربما يتحكم الكبار الذين

يلبون توقعات الشباب المتوجه نحو الأقران في السوق ويتربحون منها، ولكن بصفتهم أطرافًا فاعلة في الانتقال الثقافي، فإنهم ببساطة يروجون للأذواق الثقافية المنحطة للأطفال المنفصلين عن الاتصال السليم مع الكبار. وتنبع ثقافة الأقران من الأطفال، وتتطور معهم مع تقدمهم في العمر. ولأسباب سأشرحها في الجزء الثالث، فإن التوجه نحو الأقران يولد عدوانية. والنتيجة هي ثقافة الشباب شديدة العدائية، المتسمة بطابعٍ جنسيٍّ مبالغ فيه، تلك التي تروجها وسائط الإعلام، ويتعرض لها الأطفال بالفعل منذ بداية المراهقة. لقد صدمت فيديوهات الروك الحالية حتى الكبار الذين نشؤوا تحت تأثير «الثورة الجنسية». وعندما تظهر بداية التوجه نحو الأقران في وقت مبكر، تظهر أيضًا الثقافة التي تنتج عن هذا التوجه. إن ظاهرة فريق «سبايس جيرلز» الفجائية لفتيات يتمايلن بأردافهن ويظهرن عاريات البطن في أواخر التسعينيات، وهي ذاكرة سريعة التلاشي مقارنةً بوقت كتابة هذا الكتاب، تبدو في وقت لاحق تعبيرًا ثقافيًا بريئًا حالمًا مقارنة بمشاهير البوب المثيرين بشكل إباحي، الذين يتم تقديمهم حتى للأطفال في مرحلة ما قبل المراهقة.

وعلى الرغم من أن ثقافة الشباب كانت واضحة في الخمسينيات من القرن الماضي، فإن أول مظهر واضح ومفاجئ لثقافة ناتجة عن التوجه نحو الأقران كان ثقافة الهيبيز المضادة، في فترتي الستينيات والسبعينيات. وقد وصفها المُنَظِّر الإعلامي الكندي مارشال ماكلوهان بأنها «القَبَلِيَّة الجديدة في العصر الكهربائي». وقد كان للشعر والملابس والموسيقى دورٌ مهم في تشكيل هذه الثقافة، ولكن الذي ميزها أكثر من أي شيء آخر هو تمجيدها للارتباط بالأقران، الذي تسبب في ظهورها. لقد حظي الأصدقاء بالأسبقية على العائلة، وتم السعي إلى الاتصال المادي، والتواصل مع الأقران، وتم الإعلان عن أخوية قبيلة البوب، كما هي الحال في «أمة وودستوك» التي تُقامُ على أساس الجيل. لقد كانت مجموعة الأقران هي الموطن الحقيقي. وأصبحت عبارة «لا تثق في أي شخص يتجاوز الثلاثين» هي شعار الشباب، الذين تجاوزوا بكثير النقد الصحي لمن يكبرونهم سنًا إلى الرفض المتطرف للتقاليد. وقد كان من المتوقع تقريبًا أن تتحول تلك الثقافة إلى إحساس بالعزلة وتعاطي المخدرات

من ناحية، وأن يتم استغلالها لأغراض تجارية على يد المؤسسات الرئيسية ذاتها التي كانت تتمرد عليها.

وقد تراكمت حكمة الثقافات المحنكة على مدى المئات، وأحيانًا الآلاف من السنين. وتشتمل الثقافات الصحيحة أيضًا على طقوس وعادات وطرائق للقيام بأمور تحمينا من أنفسنا، وتحمي القيم المهمة لحياة الإنسان، حتى إذا كنا لا ندرك ماهية هذه القيم. تحتاج الثقافة المتطورة إلى بعض من الفنون والموسيقى التي يمكن للمرء أن يبرع فيها، والرموز التي تضفي معاني أعمق على الوجود، والقدوات التي توحي بالسمو. والأهم من ذلك كله، يجب أن تحمي الثقافة جوهرها، وقدرتها على استنساخ نفسها، أي ارتباط الأطفال بوالديهم. إن الثقافة التي يولدها التوجه نحو الأقران تفتقر إلى الحكمة، ولا تحمي المنتمين إليها من أنفسهم، ولا تنتج عنها إلا بِدَعٌ عابرة، وتقدس أفكارًا عديمة القيمة والمعنى. إنها تجسد فقط الأنا غير الناضجة للشباب السذج، وتدمر الارتباطات بين الوالدين والطفل. وقد نلاحظ انحطاط القيم الثقافية مع كل جيل جديد متوجه نحو الأقران. وعلى الرغم من كل ما تمثله «قبيلة» وودستوك من خداع للذات، وعزلة متعجرفة عن عالم الكبار، فهي لا تزال تتبنى القيم العالمية، المتمثلة في السلام، والحرية، والأخوة. إن التجمعات الموسيقية الحاشدة اليوم تدور حول ما هو أهم بقليل من الموضة، والأنا، والكثرة القبلية، والدولارات.

إن الثقافة التي تتولد عن التوجه نحو الأقران هي ثقافة عقيمة بالمعنى الحرفي للكلمة، فهي غير قادرة على استنساخ نفسها، أو نقل القيم التي يمكن أن تنفع الأجيال المقبلة. ويوجد عدد قليل جدًّا من الهيبيز في الجيل الثالث. ومهما بلغ نداء الحنين إلى تلك الثقافة، فإنها لم تمتلك قدرة كبيرة على الصمود. إن ثقافة الأقران تتسم بكونها مؤقتة، وعابرة، وتُستَحدَث بشكل يومي. إنها «ثقافة اليوم» إن جاز التعبير. ويتوافق جوهر ثقافة الأقران مع نفسية أطفالنا المتوجهين نحو الأقران، والبالغين الذين توقف بهم النمو. ومن ناحية أخرى، فمن حسن الحظ أنه لا يمكن لثقافة الأقران أن تنتقل إلى الأجيال القادمة، إذ إن سمتها الإيجابية الوحيدة هي أنها تتجدد في كل عقد.

إنها لا تُثري، ولا تدعم، ولا حتى تستدعي أفضل ما بداخلنا، أو بداخل أطفالنا، ولو من بعيد.

إن ثقافة الأقران، التي لا تهتم إلا بما هو عصري في هذه اللحظة، تفتقر إلى أدنى معرفة بالتقاليد، أو التاريخ. ومع تزايد التوجه نحو الأقران، يتضاءل تقدير الشباب للتاريخ، حتى التاريخ الحديث. وبالنسبة إليهم، يوجد الحاضر والمستقبل في فضاء لا علاقة له بالماضي. إن الآثار المترتبة على ذلك تبعث على القلق، وذلك فيما يتعلق بإمكانية اتخاذ أي قرار سياسي واجتماعي مستنير ينبع من هذا الجهل. ومن الأمثلة الحالية على ذلك جنوب إفريقيا اليوم، حيث لم يؤدِّ انتهاء التمييز العنصري إلى الحرية السياسية فحسب، بل أدى أيضًا –على الجانب السلبي– إلى إضفاء الطابع الغربي السريع والمتفشي، وظهور ثقافة الأقران المُعَولَمة. وتزداد بالفعل حدة الخلاف بين الأجيال. قال مراهق من جنوب إفريقيا لمراسل صحفي كندي: «يحاول آباؤنا تثقيفنا حول الماضي. نحن مُجبَرون على السماع عن العنصرية، والسياسة...». ومن جانبه، وصف الصحفيُّ المؤرخ ستيف موكوينا، البالغ من العمر ستة وثلاثين عامًا، والمتمرس في الكفاح ضد التمييز العنصري، بأنه: «من عالم مختلف عن الشباب الذين يعمل معهم الآن». وقد قال موكوينا، الذي كاد أن يكون زعيمًا وقورًا وهو في منتصف الثلاثينيات من عمره: «إنهم مجبرون على التغذي على تفاهات ثقافة البوب الأمريكية. إنه أمرٌ مُقلِقٌ للغاية».[2]

قد تزعمون أن التوجه نحو الأقران ربما يستطيع أن يقودنا إلى العولمة الحقيقية للثقافة، وللحضارة العالمية التي لم تعد تقسم العالم إلى «نحن وهم». ألم يتفاخر مذيع شبكة «إم تي في» بأن الأطفال في جميع أنحاء العالم التلفزيوني يشبهون بعضهم بعضًا أكثر مما يشبهون آباءهم وأجدادهم؟ ألا يمكن أن يكون هذا هو السبيل إلى المستقبل؟ ووسيلة لتجاوز الثقافات التي تفرقنا؟ ولإرساء ثقافة عالمية تقوم على الترابط والسلام؟ لا نعتقد ذلك.

على الرغم من أوجه التشابه السطحية التي أوجدتها التكنولوجيا العالمية، فمن المرجح أن تعمل ديناميات التوجه نحو الأقران على تعزيز الانقسام عوضًا عن تعزيز الشمل العالمي السليم. ولا يحتاج المرء إلا إلى أن ينظر إلى الطابع القَبَلي المتطرف لشِلَلِ الشباب، وهي الأشكال الاجتماعية التي ينضم إليها

أطفالنا الأكثر توجهًا نحو الأقران. إن السعي إلى التشبه بشخص ما يثير مباشرةً الحاجة إلى الاختلاف عن الآخرين. وبينما تقوى أوجه التشابه داخل المجموعة المختارة، تبرز الاختلافات عن أولئك الموجودين خارج هذه المجموعات إلى حد العداء. وتتوحد كل مجموعة وتقوى من خلال التقليد المتبادل، والاقتداء بعضهم ببعض. لقد تكوَّنت القبائل بهذه الطريقة تلقائيًّا منذ بدء الخليقة. الفرق الجوهري هو أن الثقافة القَبَلية التقليدية يمكن أن يتم توارثها، في حين أن هذه القبائل الحالية مُحَدَّدة ومحدودة بحواجز بين الأجيال.

تعج بيئة المدرسة بمثل هذه الديناميات. عندما يختلط الأطفال غير الناضجين المنسلخين من روابطهم مع الكبار بعضهم ببعض، سرعان ما تتشكل هذه المجموعات تلقائيًّا، غالبًا وفقًا للحدود الفاصلة الأكثر وضوحًا، والمبنية على الطبقة، والجنس، والعرق. وداخل هذه المجموعات الكبيرة، تظهر بعض الثقافات الفرعية: أحيانًا وفق اللباس، والمظهر، وأحيانًا وفق المصالح، أو الاتجاهات، أو المهارات المشتركة، كما هي الحال في مجموعات الرياضيين، والعباقرة، والمهووسين بالحاسوب. وفي بعض الأحيان تتشكل ضمن الثقافات الفرعية المتوجهة نحو الأقران، مثل المتزلجين، وراكبي الدراجات، وحليقي الرؤوس. ويتم تعزيز العديد من هذه الثقافات الفرعية وبلورتها من قبل وسائل الإعلام، وتدعمها الأزياء، والرموز، والأفلام، والموسيقى، واللغة الخاصة بالجماعة. إذا كانت قمة جبل التوجه نحو الأقران تتمثل في شِلَلِ الرفاق ومقلديهم، فإن الجماعات هي قاعدة الجبل. وعلى غرار المُتَراسِلَين على تطبيق «ماسنجر»، اللذين جاء ذكرهما في بداية هذا الفصل، يقوم أشخاص غير ناضجين ومتمحورين بعضهم حول بعض بابتكار لغتهم، وأساليب التعبير الخاصة بهم، التي تُضعِفُ تعبيرهم عن أنفسهم، وتعزلهم عن الآخرين. وربما تجلت هذه الظواهر من قبل، بالطبع، ولكن ليس بالقدر نفسه الذي نشهده اليوم.

النتيجة المترتبة على ذلك هي تلك القَبَلية التي أشارت إليها باتريشيا هيرش. الأطفال المنعزلون عن عائلاتهم، وغير المرتبطين بمعلميهم، والذين لم ينضجوا بعد بما يكفي للتواصل مع بعضهم كشخصيات مستقلة، يجتمعون تلقائيًّا لإشباع دافعهم الغريزي للارتباط. ويتم استحداث ثقافة المجموعة، أو

استقاؤها من ثقافة الأقران عمومًا. لا يستغرق الأطفال وقتًا طويلًا لمعرفة القبيلة التي ينتمون إليها، وما هي قواعدها، ومن الذين يمكنهم التحدث إليهم، ومن الذين ينبغي أن يبقوا على مسافة منهم. وعلى الرغم من محاولاتنا لتعليم أطفالنا احترام الاختلافات الفردية، وغرس الشعور بالانتماء إلى حضارة مترابطة في نفوسهم، فإننا نتفكك بوتيرة مخيفة إلى فوضى قَبَلية. أطفالنا هم الذين يقودون المسيرة. إن الوقت الذي نقضيه آباء ومعلمين في محاولة تعليم أطفالنا التسامح الاجتماعي، والتقبل، وقواعد الـ «إتيكيت»، سيكون من الأفضل كثيرًا لو استثمرناه في تعزيز علاقتنا بهم، فالأطفال الذين يترعرعون في إطار الترتيب الهرمي التقليدي للارتباط لا يتعرضون تقريبًا لضغوط القَبَلية التلقائية. ولا يمكن للقيم الاجتماعية التي نرغب في غرسها أن تنتقل إلا عبر مسارات الارتباط القائمة.

إن الثقافة التي يخلقها التوجه نحو الأقران لا تنسجم جيدًا مع الثقافات الأخرى. ولأن التوجه نحو الأقران قائم بحد ذاته، فكذلك تكون الثقافة التي يخلقها. إنها أشبه بمذهب طائفة أكثر من كونها ثقافة. إن الشخصيات غير الناضجة التي تتبنى الثقافة التي يولدها التوجه نحو الأقران تصبح منعزلة عن أصحاب الثقافات الأخرى. فالشباب المتوجهون نحو الأقران يمجدون في الواقع استبعاد القيم التقليدية، والروابط التاريخية. ويحتفظ الناس من مختلف الثقافات المنتقلة رأسيًّا بالقدرة على التواصل فيما بينهم باحترام، حتى وإن كانت تلك القدرة تطغى عليها غالبًا في أرض الواقع الصراعات التاريخية أو السياسية، التي يتورط فيها بنو البشر. وفي ظل أشكال التعبير الثقافي المميزة، يمكن أن يعترف كل منهم بعالمية القيم الإنسانية، وأن يقدر ثراء التنوع. ومع ذلك، يميل الأطفال المتوجهون نحو الأقران إلى قضاء الوقت مع بعضهم فحسب. إنهم يضعون أنفسهم بمعزل عن أولئك الذين لا يشبهونهم. وعندما يبلغ أطفالنا المتوجهون نحو الأقران سن المراهقة، ينتاب العديد من الآباء شعور وكأنه يمكن بالكاد التعرف على أطفالهم من خلال موسيقاهم، وملابسهم، ولغتهم، وطقوسهم، وزينة أجسادهم التي تتميز جميعًا بطابع قَبَلي. لقد أشار صحفي كندي في عام 2003 إلى أن «الوشم وثقب الجسد، اللذين كانا صادمين في يوم من الأيام، يُعتَبَران الآن مجرد

مظهر متعلق بالأجيال، في ثقافة تعيد باستمرار رسم الخط الفاصل بين السلوك المقبول والسلوك المرفوض».[3]

ينشأ العديد من أطفالنا محرومين من الثقافة العالمية التي أنتجت الإبداعات الخالدة للبشرية: الباغافاد غيتا، وكتابات الرومي، ودانتي، وشكسبير، وسيرفانتس، وفولكنر، أو أفضل المؤلفين المعاصرين وأكثرهم إبداعًا، وموسيقى بيتهوفن، ومالر، أو حتى الترجمات العظيمة للكتاب المقدس. فهم لا يعرفون إلا ما هو متداول وشائع، ولا يقدرون إلا ما يمكنهم مشاركته مع أقرانهم.

إن العالمية الحقيقية، بمعناها الإيجابي، المتمثل في الاحترام المتبادل، وحب المعرفة، والقيم الإنسانية المشتركة، لا تتطلب ثقافة مُعَولَمَة من صنع التوجه نحو الأقران. إنها تتطلب نضجًا نفسيًّا، نضجًا لا يمكن أن ينتج عن التعليم التلقيني، ولكنه ينبع فقط من النمو السليم. وكما سنناقش فيما بعد، يمكن للكبار فقط مساعدة الأطفال على النمو بهذه الطريقة. وفقط في العلاقات الصحية مع المرشدين البالغين -الآباء، والمعلمين، والشيوخ، والفنانين، والموسيقيين، والمفكرين المبدعين- يمكن للأطفال أن يحصلوا على حقهم الطبيعي، المتمثل في الإرث الثقافي العالمي والعريق للبشرية. ولن يتمكنوا من تنمية قدراتهم على التعبير الثقافي الحر والمستقل والمبتكر على أكمل وجه إلا في ظل هذه العلاقات.



الجزء الثالث

عاجزون عن النضج: كيف يعوقُ التوجه نحو الأقران النموَّ السليم

8

الهروب الخطير من المشاعر

بينما كنت أتجول في قاعات مدرسة ابني الثانوية خلال ساعة الغداء مؤخرًا، أدهشني مدى التشابه الذي شعرت به مقارنةً بوجودي في قاعات وغرف الغداء في سجون الأحداث التي عملت فيها. الأسلوب، والإيماءات، واللهجة، والكلمات، والتفاعل بين الأقران الذين شاهدتهم في هذا الحشد من المراهقين، كل ذلك دلَّ على مَنَعَةٍ عجيبة. لقد بدا هؤلاء الأطفال غير قابلين للتعرض للأذى. سلوكهم يوحي بالثقة، بل والتبجح، الذي بدا قويًّا، ولكنه سطحي في الوقت نفسه.

إن المبدأ الأساسي في ثقافة الأقران هو «اللامبالاة»، الغياب التام للانفتاح العاطفي. يتظاهر الأفراد الأكثر احترامًا بين مجموعة الأقران بمظهر هادئ مثير للدهشة، ويظهرون القليل من مشاعر الخوف، أو لا يظهرونها على الإطلاق. ويبدو أن مشاعر الخزي لا تؤثر فيهم، ويعتادون تمتمة عبارات مثل: «لا يهم»، و «لا أكترث»، و «أيًّا يكن».

ولكن الحقيقة مختلفة تمامًا، فالبشر هم الأكثر ضعفًا من بين كل المخلوقات، والضعف هنا مشتق من الكلمة اللاتينية (vulnerare)، التي

تعني الجرح. نحن لسنا ضعفاء جسديًا فحسب، ولكننا ضعفاء نفسيًا أيضًا. إذن ما الذي يفسر هذا التناقض؟ كيف يمكن لصغار البشر الذين هم في الحقيقة ضعفاء للغاية أن يظهروا عكس ذلك؟ هل تعد صلابتهم وسلوكهم «اللامبالي» مجرد تظاهر؟ أم حقيقة؟ هل هو قناع يمكن خلعه عند وصولهم إلى بر الأمان؟ أم إنه الوجه الحقيقي للتوجه نحو الأقران؟

عندما واجهت هذه الثقافة الفرعية المتمثلة في منعة المراهقين أول مرة، ظننت أنها كانت تظاهرًا. يمكن للنفس البشرية تطوير دفاعات قوية ضد الشعور الواعي بالضعف، تلك الدفاعات التي تترسخ في الدوائر العاطفية للدماغ. كنت أُفَضِّلُ أن أعتقد أن هؤلاء الأطفال –إذا أُتيحت لهم الفرصة– سوف يخلعون دروعهم ويكشفون عن جانبهم الإنساني، الأكثر عاطفية وصدقًا. لقد ثبتت صحة هذا التوقع في بعض الأحيان، ولكنني اكتشفتُ في كثير من الأحيان أن منعة المراهقين هذه لم تكن تظاهرًا أو ادعاءً. لم تتأذَّ مشاعر العديد من هؤلاء الأطفال، ولم يشعروا بأي ألم. هذا لا يعني أنه لم يكن من الممكن جرحهم، ولكن عندما نتحدث عن مشاعرهم التي عاشوها بوعي، لم يكن هناك أي قناع يمكن خلعه.

إن الأطفال القادرين على مواجهة مشاعر الحزن، والخوف، والخسارة، والرفض غالبًا ما يخفون مثل هذه المشاعر عن أقرانهم ليتجنبوا التعرض للسخرية والهجوم. إن هذه المنعة هي تمويه يعتمدون عليه ليندمجوا في المجموع، ولكن سرعان ما يتخلون عنها في صحبة أولئك الذين يطمئنون إليهم، ليكشفوا عن ذواتهم الحقيقية. هؤلاء ليسوا هم الأطفال الذين أشعر بقلق بالغ نحوهم، على الرغم من أنني بالتأكيد لدي قلق بشأن تأثير هذا الجو من المنعة على تعلمهم وتطورهم. ففي مثل هذه البيئة، لا يمكن أن يزدهر حب المعرفة الحقيقي، ولا يمكن طرح الأسئلة بحرية، ولا يمكن التعبير عن الحماس السانج للتعلم. لا تتسم هذه البيئة بروح المغامرة، ولا يمكن أن يجد فيها الشغف بالحياة والإبداع متنفسًا لهما.

إن الأطفال الأكثر تضررًا، والأكثر عرضةً للأذى النفسي، هم أولئك الذين يطمحون إلى أن يتمتعوا بالقوة والمنعة، ليس في إطار المدرسة فحسب، ولكن بشكل عام. لا يمكن لهؤلاء الأطفال ارتداء الدرع وخلعه عند الحاجة. ولا

تُعَدُّ هذه الدفاعية مجرد أمر يفعلونه، ولكنها أصبحت طبيعتهم. هذا الجمود العاطفي يتضح أكثر ما يتضح في الجانحين، وأعضاء العصابات، وأطفال الشوارع، ولكنه يُعَدُّ أيضًا ديناميةً مهمة في الشكل الاعتيادي الشائع للتوجه نحو الأقران الذي نراه في المنزل الأمريكي التقليدي.

***

الأطفال المتوجهون نحو الأقران أكثر ضعفًا

السبب الوحيد لعدم إدراك الطفل لضعفه هو أنه بات من الصعب عليه تحمل هذا الضعف، وأن جروحه مؤلمة للغاية، حيث لا يمكنه الشعور بها. وبعبارة أخرى: من المرجح أن يعتاد الأطفال الذين سحقهم الأذى العاطفي في الماضي تحمل مشقة هذه التجربة نفسها في المستقبل.

إن العلاقة بين الجروح النفسية والهروب من الضعف تتضح تمامًا في الأطفال الذين كانت لهم تجربة عميقة مع الألم العاطفي. من المرجح أن يظهر الأطفال من دور الأيتام أو دور الرعاية المتعددة هذا النوع المتطرف من الجمود العاطفي الدفاعي، والأطفال الذين عانوا خسائر كبيرة، أو عانوا سوء المعاملة والإهمال. وبالنظر إلى الصدمة التي عانوها، يصبح من السهل أن نفهم سبب تطوير هؤلاء الأطفال دفاعات لا واعية قوية.

الأمر المثير للدهشة هو أنه دون وجود أي صدمات مشابهة، يمكن للعديد من الأطفال الذين كانوا متوجهين نحو الأقران بعض الوقت إظهار المستوى نفسه من الدفاعية. يبدو أن الأطفال المتوجهين نحو الأقران في حاجة إلى حماية أنفسهم من الضعف بأكبر قدر ممكن، مثل الأطفال المصابين بصدمات نفسية. لماذا يحدث ذلك في غياب أي تجارب واضحة مماثلة؟

قبل مناقشة أسباب زيادة هشاشة الأطفال المتوجهين نحو الأقران وجمودهم العاطفي، نحتاج إلى توضيح معنى عبارة «التَّحَصُّن ضد الضعف»، ومرادفها القريب: «الهروب من الضعف». إننا نعني بهما ردود فعل الدماغ الدفاعية والغريزية حين يطغى عليه الشعور بالضعف. ويتم إثارة ردود

الفعل الدفاعية اللاواعية هذه تجاه الشعور الواعي بالضعف، وليس تجاه الضعف نفسه. لا يقدر الدماغ البشري على الحيلولة دون إصابة الطفل، ولكنه يقدر فقط على تجنب الشعور بالجرح. ويجسد مصطلحا «التَّحَصُّن ضد الضعف»، و «الهروب من الضعف» هذه المعاني. إنهما يعبران عن فقدان الطفل صلته بالأفكار والمشاعر التي تجعله يشعر بالضعف، وتضاؤل الوعي بقابلية تعرض الإنسان للإصابة بالجروح العاطفية. ويمكن لأي شخص أن يتعرض لمثل هذا الانغلاق العاطفي في بعض الأحيان. ويصبح الطفل مُحَصَّنا ضد الضعف عندما لا يكون هذا الانغلاق مجرد رد فعل مؤقت، ولكنه يصبح حالة مستمرة.

هناك أربعة أسباب تجعل الأطفال المتوجهين نحو الأقران أكثر عرضة للجروح العاطفية من الأطفال المتوجهين نحو الكبار. والمحصلة النهائية هي الهروب من الضعف المشابه على نحو مُقلِق إلى الجمود العاطفي، الذي يعانيه الأطفال المصابون بصدمات نفسية.

يفقد الأطفال المتوجهون نحو الأقران درعهم الطبيعي الواقي من الضغط. السبب الأول وراء لجوء الأطفال المتوجهين نحو الأقران إلى الجمود العاطفي هو أنهم فقدوا مصدرهم الطبيعي للتحلي بالقوة والثقة بالنفس، وفي الوقت نفسه، فقدوا درعهم الطبيعي الواقي من الأذى والألم غير المُحتَمَلَين.

بصرف النظر عن الحملة المستمرة للمآسي والصدمات التي تحدث في كل مكان، فإن عالم الطفل الشخصي هو عالم من التفاعلات والأحداث العميقة، التي يمكن أن تجرحه، مثل: تعرضه للتجاهل، وعدم الاهتمام به، واستبعاده، وعدم كونه عند حسن الظن، وشعوره بالرفض، وعدم الإعجاب به، وعدم تفضيله، وتعرضه للنقد، والسخرية منه. الأمر الذي يحمي الطفل من التعرض لوطأة كل هذا الضغط هو الارتباط بالوالدين. الارتباط هو ما يهم: ما دام الطفل غير مرتبط بأولئك الذين يستَخِفُّون به، فإن الضرر الواقع يكون بسيطًا نسبيًّا. يمكن لعبارات السخرية أن تكون مؤذية ومثيرة للبكاء في وقتها، ولكن أثرها لن يدوم طويلًا. وعندما يمثل الوالد أو الوالدة اتجاه البوصلة، فإن الرسائل التي يبعثانها تكون هي المهمة. عندما تقع المأساة والصدمة، ينظر الطفل إلى الوالدين، بحثًا عن علامات على ما إذا كان يجب

عليه أن يقلق أم لا. وما دامت ارتباطاتهم آمنة، فقد تسقط السماء، وينهار العالم، ولكن الأطفال سوف يكونون بمأمن نسبيًا من الشعور بالضعف الشديد. إن فيلم «الحياة جميلة» (Life Is Beautiful)، للممثل روبيرتو بينيني، الذي يدور حول الجهود التي يبذلها أبٌ يهودي لحماية ابنه من أهوال العنصرية والإبادة الجماعية، يوضح هذه النقطة بشكل مؤثر للغاية. يحمي الارتباط الطفل من العالم الخارجي.

أخبرني أحد الآباء كيف شهد قوة الارتباط في الحفاظ على سلامة الطفل عندما كان ابنه -الذي سنطلق عليه اسم برادن- يبلغ من العمر خمس سنوات تقريبًا. «أراد برادن أن يلعب كرة القدم في دوري المجتمع المحلي. وفي اليوم الأول من التمرين، أزعجه بعض الأطفال الأكبر سنًّا. وعندما سمعت أصواتهم يستفزونه ويسخرون منه، سرعان ما تحولتُ وكأني الدب الأب الحامي. كنت عازمًا بشدة على تهذيب سلوك هؤلاء المتنمرين الصغار عندما لاحظتُ أن برادن يواجههم، وهو يقف منتصب القامة، ويضع يديه على خصره، ويبرز صدره إلى أقصى حد ممكن. سمعته يقول شيئًا من قبيل: «أنا لست أحمق صغيرًا غبيًّا! أبي يقول إنني لاعب كرة قدم». ويبدو أن هذا كان كل شيء». إن فكرة برادن عن رأي والده فيه حَمَته بشكل أكثر فعالية مما كان سيفعل الأب عن طريق التدخل المباشر. كانت الغلبة لتصورات والده عنه. لقد تمكن من التصدي لإهانات أقرانه. وعلى النقيض من ذلك، فإن الطفل المتوجه نحو الأقران، الذي لم يعد يتطلع إلى الكبار ليمنحوه شعوره بالقيمة الذاتية، لا يتمتع بهذه الحماية.

هناك وجهٌ آخر لهذه الدينامية بالطبع، فبقدر ما يحمي ارتباط هذا الصبي بوالده من التفاعل المؤذي مع الآخرين، فإنه يزيد كذلك من الحساسية تجاه كلمات الوالد وإيماءاته. ولو كان الوالد قد استَخَفَّ بابنه، ووَبَّخه، وأمطَرَه بوابل من الإهانات، لأصبح برادن مُحَطَّمًا. إن ارتباطه بوالديه يجعله ضعيفًا للغاية في علاقته بهما، ولكنه يكون أقل ضعفًا في علاقته بالآخرين. هناك وجه داخلي وآخر خارجي للارتباط: حيث يوجد الضعف في الداخل، والمنعة في الخارج. ويعد الارتباط سلاحًا ذا حدين، فالارتباط يقسم العالم إلى أولئك

الذين يمكن أن يؤذوك، وأولئك الذين لا يمكنهم ذلك. ويسير كُلٌّ من الارتباط والضعف –هاتين السمتين الرئيسيتين للوجود البشري– جنبًا إلى جنب.

يتمثل أحد الجوانب البديهية من مهمتنا كآباء في حماية أطفالنا من التعرض للإصابات البدنية. ورغم أن الكدمات ليست ظاهرة للعيان دائمًا، فإن إمكانية التعرض للأذى تكون أكبر بكثير على الصعيد النفسي. حتى نحن الكبار، كأناس ناضجين نسبيًا، يمكن أن ننحرف بعيدًا عن مسارنا، أو أن يصيبنا العجز، بسبب الألم العاطفي الناجم عن الارتباطات المضطربة. وإذا كنا نحن البالغين يمكن أن نتأذى بهذه الطريقة، فما بالنا بالأطفال الذين هم أكثر اعتماديةً وأكثر حاجةً إلى ارتباطاتهم؟

يمثل الارتباط الحاجة الأشد إلحاحًا، والدافع الأقوى لدى الطفل، ومع ذلك، فإن الارتباط هو أيضًا ما يجعل الطفل عرضةً للأذى. إنه مثل وجهي العملة الواحدة؛ لا يمكننا أن نحظى بوجه دون الآخر. وكلما زاد ارتباط الطفل، زادت قابليته للإصابة بالجروح. إن الارتباط يعتبر مساحة حساسة. وهذا يقودنا إلى السبب الثاني وراء زيادة حدة الدفاعية العاطفية لدى الأطفال المتوجهين نحو الأقران.

***

تزداد حساسية الأطفال المتوجهين نحو الأقران تجاه التفاعلات عديمة الإحساس بين الأطفال

تمامًا كما يكون الطفل المتوجه نحو الكبار أكثر هشاشة في علاقته بوالديه ومعلميه، فإن الأطفال المتوجهين نحو الأقران يكونون أكثر هشاشة في علاقتهم المتبادلة. وبعد أن فقدوا دروع الارتباط بالوالدين، أصبحوا على درجة عالية من الحساسية تجاه أفعال الأطفال الآخرين، وتعاملاتهم. إن المشكلة هي أن التفاعل الطبيعي بين الأطفال لا يتسم بالتعقل، أو المراعاة، أو التحضر. وعندما يحل الأقران محل الوالدين، فإن هذا التفاعل الذي يتسم بالاستهتار واللامبالاة يكتسي قوةً لم يكن من المفترض أن يحظى بها قط.

إن الحساسيات والمشاعر المرهفة يتم سحقها بسهولة. نحتاج فقط إلى أن نتخيل كيف سيكون وضعنا كبالغين إذا تعرضنا على يد أصدقائنا لنوع التفاعل الاجتماعي الذي يتعين على الأطفال تحمُّله يوميًّا: الخيانات الخسيسة، والجفاء، والازدراء، والغياب التام للثقة. لا عجب أن الأطفال المتوجهين نحو الأقران ينغلقون على أنفسهم عند مواجهة الضعف.

تعد الدراسات حول تأثير رفض الأقران على الأطفال، بناءً على أبحاث مكثفة، واضحةً للغاية بشأن العواقب السلبية، حيث تستخدم كلماتٍ مثل: التحطيم، والإحباط، والعنف، والإهانة.[1] تتصاعد حالات الانتحار بين الأطفال، وتشير الدراسات إلى أن رفض الأقران يعد سببًا آخذًا في التفاقم. لقد لاحظت بنفسي حياة العديد من البالغين والأطفال الذين أصابهم الإحباط بسبب المعاملة التي عانوها على أيدي أقرانهم. لقد كان المريض الأول في ممارستي العلاج النفسي شخصًا بالغًا، وكان ضحيةً لسوء معاملة الأقران إياه عندما كان في المدرسة الابتدائية. ولأسباب لم يعرفها، أصبح كبش الفداء المختار لعدد من الأطفال المحبطين، الذين أساؤوا معاملته باستمرار. لقد تطورت لديه دوافع ووساوس قهرية خطيرة، لدرجة أنه لم يكن قادرًا على مواجهة الحياة الطبيعية.

على سبيل المثال، لم يستطع تحمل أي إشارة إلى الرقم 57، لأن عام 1957 كان أسوأ عام تعرض فيه لسوء المعاملة من جانب أقرانه. وإذا أصابه دَنَسُ هذا الرقم، احتاج إلى ممارسة طقوس تطهير معقدة، التي جعلت من الحياة الطبيعية أمرًا مستحيلًا. وقد أدى النبذ وسوء المعاملة من جانب الأقران إلى شل حياة العديد من كباش الفداء في مرحلة الطفولة. (تشهد الدراسات الحديثة على أن مثل هذه الظواهر تتفاقم بسرعة تحت تأثير التوجه نحو الأقران، وسوف نتناولها بدقة أكبر في الفصلين: العاشر، والحادي عشر، حول العدوانية والتنمر).

يفترض أن يكون سبب المشكلة الرئيسي هو الرفض من الأقران: الجفاء، والإقصاء، والاستهزاء، والتهكم، والسخرية، والتنمر. وقد خَلُص بعض الخبراء إلى أن القبول من الأقران يعد ضروريًّا للغاية لصحة الطفل ورفاهه العاطفيين، وأنه لا يوجد ما هو أسوأ من عدم نيل إعجاب الأقران. من المفترض أن يكون

الرفض من الأقران مثل حُكمٍ تلقائي بانعدام الثقة في النفس مدى الحياة. ويعيش العديد من الآباء اليوم في خوف من عدم وجود أصدقاء لأطفالهم، وعدم تقدير أقرانهم لهم. إن طريقة التفكير هذه لا تراعي النظر في سؤالين أساسيين: ما الذي يجعل الطفل ضعيفًا للغاية في المقام الأول؟ ولماذا يزداد هذا الضعف؟

مما لا شك فيه مطلقًا أن الأطفال يتعاملون بازدراء، وتجاهل، وجفاء، واستهزاء، وسخرية، وتهكم. ودائمًا ما يقوم الأطفال بهذه الأشياء عندما لا يخضعون لقدرٍ كافٍ من الرقابة من قبل الأفراد البالغين المسؤولين. ولكنه الارتباط، وليس سلوك الأقران، أو كلامهم غير المراعي للمشاعر، هو الذي يخلق هذا الضعف. إن التركيز الحالي على تأثير الرفض أو القبول من جانب الأقران قد أغفل تمامًا دور الارتباط. إذا كان الطفل مرتبطًا بالوالدين في المقام الأول، كان القبول من الوالدين بالغ الأهمية للصحة والرفاه العاطفيين، ويكون عدم إعجاب الوالدين مثل الضربة المدمرة لاحترام الذات. ربما لم تتغير قدرة الأطفال على التصرف بقسوة، ولكن كما تُظهر الأبحاث، يزداد جرح أطفالنا بعضهم بعضًا. وإذا تضرر العديد من الأطفال هذه الآونة بسبب عدم مراعاة أقرانهم لمشاعرهم، فهذا لا يعني بالضرورة أن الأطفال اليوم يتصرفون بقسوة أكثر مما كانوا عليه في الماضي، ولكنه يعني أن التوجه نحو الأقران جعلهم أكثر عرضة للسخرية والإيذاء العاطفي المتبادلين فيما بينهم. إن فشلنا في الحفاظ على ارتباط أطفالنا بنا وبالأفراد البالغين الآخرين المسؤولين عنهم، لم يَسلِب الأطفال دروعهم فحسب، بل وَضَعَ السيف في أيدي أقرانهم. عندما يحل الأقران محل الوالدين، يفقد الأطفال حمايتهم الأساسية ضد طيش الآخرين. ويمكن بسهولة سحق هشاشة الطفل في مثل هذه الظروف. ويكون الألم الناتج عن ذلك أكبر من طاقة تحمُّل العديد من الأطفال.

كانت الدراسات قاطعة وواضحة في نتائجها بأن الارتباط القوي بشخص بالغ يعد أفضل حماية يمكن توفيرها للطفل، حتى خلال فترة المراهقة. وشملت الدراسة الأكثر إدهاشًا من بين هذه الدراسات تسعين ألف مراهق، من ثمانين مجتمعًا مختلفًا، تم اختيارهم ليجعلوا العينة ممثلةً الولايات

المتحدة قدر الإمكان. كان الاستنتاج الرئيسي للدراسة هو أن المراهقين الذين تربطهم علاقات عاطفية قوية بوالديهم كانوا أقل عرضةً بكثير لإظهار مشكلات تعاطي المخدرات والكحول، أو محاولة الانتحار، أو الانخراط في سلوكٍ عنيف، ونشاطٍ جنسيٍّ مبكر.[2] وبعبارة أخرى، كان هؤلاء المراهقون أقل عرضةً بكثير لخطر المشكلات التي تنبع من التحصُّن ضد الضعف. لقد كانت الارتباطات القوية مع والديهم هي التي تُجَنِّبهم الضغط، وتحمي صحتهم وأداءهم العاطفيين. كان هذا أيضًا استنتاج عالم النفس الأمريكي الشهير يوليوس سيجال، وهو رائد بارع في البحث حول ما يميز الصغار بالمرونة النفسية. وبإجمال الدراسات من جميع أنحاء العالم، خلص سيجال إلى أن أهم عامل يحمي الأطفال من الخضوع للضغط هو «وجود شخص بالغ ذي جاذبية في حياتهم - شخص يعرفونه، ويستمدون القوة منه».[3] كما قال الدكتور سيجال أيضًا: «ستبوء جميع المساعي بالفشل في غياب صلة رعاية متينة بين الوالد والطفل».

لم يكن من المفترض أن يحظى الأقران بهذا القدر من الأهمية، ولا أن يكونوا أهم من الآباء، أو المعلمين، أو غيرهم من الشخصيات البالغة المرتبَط بها بالتأكيد. إن السخرية والرفض من الأقران أمر مؤلم بالطبع، ولكن لا ينبغي أن يضربنا في الصميم، ولا ينبغي أن تكون له عواقب مدمرة. إن الاكتئاب العميق لدى طفلٍ يشعر بالاستبعاد يكشف عن وجود مشكلة في الارتباط أخطر بكثير من مشكلة الرفض من الأقران.

وتصديًا لقسوة الأطفال المتزايدة بعضهم تجاه بعض، تسارع المدارس في جميع أنحاء هذه القارة إلى تصميم برامج لغرس المسؤولية الاجتماعية في الصغار. إننا نضيع الوقت سدى عندما نحاول جعل الأطفال مسؤولين عن أطفال آخرين. وفي رأيي، فإنه من غير الواقعي على الإطلاق أن نعتقد أنه يمكننا بهذه الطريقة القضاء على الإقصاء، والنبذ، والتعامل المهين من جانب الأقران. وينبغي –بدلًا من ذلك– أن نعمل على التخفيف من حدة هذه المظاهر الطبيعية لعدم النضج، وذلك من خلال استعادة قدرة الكبار على حماية الأطفال من أنفسهم، وحماية بعضهم من بعض.

***

مظاهر الضعف تثير السخرية والاستغلال من قبل الأقران

وهكذا، يواجه الصغار المتوجهون نحو الأقران خطرين نفسيين خطيرين، يكفيان وزيادة لجعل هذا الضعف لا يُطاق، بالإضافة إلى إثارة أدمغتهم لاتخاذ سلوك دفاعي: فقد درع الارتباط بالوالدين، وسيطرة الأطفال المستهترين وغير المسؤولين على سلاح الارتباط القوي. تتمثل الضربة الثالثة الموجهة ضد العاطفة العميقة والمنفتحة –والسبب الثالث للانغلاق العاطفي عند الطفل المتوجه نحو الأقران– في أن أي علامة على الضعف في الطفل غالبًا ما تتعرض لهجوم من قبل أولئك المنغلقين بالفعل في مواجهة الضعف.

ولنطرح مثالًا متطرفًا في هذا النطاق. لقد كان أحد أهدافي الرئيسية خلال عملي مع المجرمين الأحداث العنيفين هو تفكيك دفاعاتهم ضد الضعف، حتى يتمكنوا من البدء في الشعور بجراحهم. وإذا نجحتْ الجلسة، وتمكنتُ من مساعدتهم في تجاوز هذه الدفاعات لمواجهة بعض الألم الدفين، هدأت حدة وجوههم، وأصواتهم، ودمعت أعينهم. بالنسبة إلى معظم هؤلاء الأطفال، كانت هذه الدموع هي الأولى منذ سنوات عديدة. وخصوصًا عندما لا يكون الشخص معتادًا البكاء، يمكن لذلك أن يؤثر بشكل ملحوظ على الوجه والعينين. عندما بدأت أول مرة، كنت ساذجًا بما فيه الكفاية لإرسال الأطفال مرة أخرى إلى نزلاء السجن بعد جلساتهم. ليس من الصعب تخمين ما حدث. ونظرًا إلى أن الضعف كان لا يزال مرتسمًا على وجوههم، فقد لفت انتباه السجناء الآخرين. شعر أولئك الذين كانوا يتمتعون بالتحصُّن ضد ضعفهم بأنهم مضطرون إلى الهجوم. لقد هاجموا الضعف وكأنه هو العدو. ولكنني سرعان ما تعلمتُ اتخاذ تدابير دفاعية، ومساعدة مرضاي على التأكد من عدم إظهار ضعفهم. ولحسن الحظ، كانت هناك دورة مياه بجوار مكتبي في السجن. لقد قضى الأطفال أحيانًا ما يصل إلى ساعة يسكبون الماء البارد على وجوههم، في محاولة لمحو أي أثر للمشاعر التي من شأنها أن تفضح أمرهم. وحتى لو لانت حدة دفاعاتهم قليلًا، فما زال يتعين عليهم ارتداء قناع المَنَعَة، لتجنب التعرض لجرح أكبر. كانت جزءًا من عملي مساعدتهم على التمييز بين قناع

المَنَعَة الذي كان عليهم ارتداؤه في مثل هذا المكان لتجنب التعرض للإيذاء، ومن ناحية أخرى، الدفاعات الداخلية ضد الضعف، التي من شأنها أن تمنعهم من الشعور بعمق وتأثر.

تحدث الدينامية نفسها –طبعًا ليس بهذا القدر من التطرف– في العالم الذي يهيمن عليه الأطفال المتوجهون نحو الأقران. عادة ما يُهاجَم الضعف، ليس باللَّكمات، ولكن بالسخرية، والاستهزاء. يتعلم العديد من الأطفال بسرعة إخفاء أي علامات على الضعف، والحساسية، والهشاشة، بالإضافة إلى الذعر، والخوف، والحماس، والاحتياج، وحتى الفضول. والأهم من ذلك، يجب ألا يظهروا أبدًا أن الاستفزاز قد نال منهم.

أوضح كارل يونج أننا نميل إلى مهاجمة الآخرين بشأن الأمور الأكثر إزعاجًا لنا في أنفسنا. عندما يكون الضعف هو العدو، فإنه يُهاجَم بمجرد استشعاره، ولو في أعز صديق. وقد تثير علاماتُ الذعر التهكمَ اللفظي بكلمات مثل: «خوَّاف»، أو «جبان». والدموع تثير السخرية. ومظاهر حب المعرفة يمكن أن تثير نظرات الامتعاض، والاتهامات بكون المرء غريب الأطوار، أو مُعقدًا. وقد تفضي مظاهر الرقة والحنان إلى مضايقات مستمرة. إن إظهار أن أمرًا ما قد تسبب في أذى، أو الاهتمام كثيرًا بشيء ما، يعتبر مخاطرةً في وجود شخص غير متصالح مع ضعفه. وفي صحبة متبلدي المشاعر، من المرجح أن يتم مهاجمة أي مظهر من مظاهر الانفتاح العاطفي.

***

العلاقات بين الأقران غير آمنة بطبيعتها

لا يزال هناك سبب رابع وأهم يجبر الأطفال المتوجهين نحو الأقران على الهروب من تعرضهم المتزايد للجروح العاطفية.

يمكن أن يكون الضعف الناتج عن التوجه نحو الأقران ساحقًا، حتى وإن لم يؤذِ الأطفال بعضهم بعضًا. وهذه الهشاشة متأصلة في طبيعة العلاقات المتوجهة نحو الأقران غير الآمنة بتاتًا. لا يتعلق الضعف بما يحدث فحسب،

ولكن بما يمكن أن يحدث - مع انعدام الأمان المتأصل في الارتباط. إننا قد نخسر ما نملكه، وكلما زادت قيمة ما نملكه، زادت احتمالية خسارته. قد نكون قادرين على تحقيق القرب في العلاقة، ولكننا لا نستطيع حمايتها بمعنى التشبث بها - ليس كما نؤمِّن على حبلٍ، أو قاربٍ، أو سنداتٍ حكومية بفوائد ثابتة. ولا يكاد المرء يسيطر على ما يحدث في العلاقة، وما إذا كنا سنظل مرغوبين ومحبوبين في اليوم التالي.

على الرغم من أن احتمالية الخسارة موجودة في أي علاقة، فإننا نحن الآباء نسعى جاهدين لمنح أطفالنا ما هم غير قادرين بِنيَويًّا على منحه بعضهم بعضًا: علاقة لا تعتمد على إرضائهم إيانا، أو إسعادنا، أو المعاملة بالمثل، على الإطلاق. وبعبارة أخرى، فنحن نقدم لأطفالنا بالضبط ما تفتقده الارتباطات بين الأقران: القبول غير المشروط.

يمتلك البشر إدراكًا بديهيًّا، للدرجة التي يكون فيها الضعف فوق الاحتمال. إن الضعف بسبب الخوف من الخسارة يعد جزءًا لا يتجزأ من العلاقات بين الأقران، ففي العلاقات بين الأقران لا يوجد نضج يمكن الركون إليه، ولا التزام يمكن الاعتماد عليه، ولا إحساس بالمسؤولية عن إنسان آخر. ويُترَك الطفل في مواجهة الحقيقة الـمرة للارتباط غير الآمن: ماذا لو لم أتواصل مع أقراني؟ ماذا لو لم أتمكن من إنجاح العلاقة؟ ماذا لو لم أرغب في مجاراة الأشياء التي يفعلها رفاقي؟ أو إذا لم تسمح لي أمي بالذهاب؟ أو إذا كانت صديقتي تحب كذا وكذا أكثر مما تحبني؟ هذه هي مصادر القلق الدائم لدى الأطفال المتوجهين نحو الأقران، وهي حاضرة بقوة. إن الأطفال المتوجهين نحو الأقران مهووسون بمَنْ يحب مَنْ، ومَنْ يفضل مَنْ، ومَنْ يريد أن يكون مع مَنْ. ليس هناك أي مجال للخطأ، أو الخيانة المتوهمة، أو الخلاف، أو الاختلافات، أو عدم الامتثال. إن التفرُّد الحقيقي ينسحق تحت وطأة الحاجة إلى الحفاظ على العلاقة بأي ثمن. ومع ذلك، مهما بلغ الجهد الذي يبذله الطفل، فعندما يحل الأقران محل الوالدين، يمكن أن يتفاقم الشعور بعدم الأمان، حتى يكون من الصعب تحمُّله. غالبًا ما يحدث ذلك عندما يتفاقم فقدان الإحساس، ويحدث الانغلاق الدفاعي، ولا يبدو الأطفال ضعفاء. إنهم

يصبحون جامدين عاطفيًا بسبب الحاجة إلى حماية أنفسهم من ألم الخسارة، حتى قبل أن تحدث أصلًا.

في الكتاب الثاني، بعنوان «الانفصال»، ضمن ثلاثية جون بولبي الرائعة حول الارتباط، وصف جون ما لُوحِظَ عندما تم لم شمل عشرة أطفال صغار في دور الحضانة الإيوائية مع أمهاتهم بعد انفصال استمر من اثني عشر يومًا إلى واحد وعشرين أسبوعًا. كانت جميع حالات الانفصال بسبب المشكلات الأسرية الطارئة، وغياب مقدمي الرعاية الآخرين، ولم يرجع ذلك مطلقًا إلى أي نية من جانب الوالدين للتخلي عن الطفل.

بعد مُضِيٍّ بضعة أيام على رحيل الأم، شعر الأطفال بالقلق، وأخذوا يبحثون في كل مكان عن الأم الغائبة. وأعقب هذه المرحلة استسلام واضح، بل واكتئاب من جانب الطفل، ليحل محلها ما بدا وكأنه عودة الحياة إلى طبيعتها. سيبدأ الأطفال في اللعب، والتفاعل مع مقدمي الرعاية، وقبول الطعام، وغيره من أمور الرعاية. لقد اتضحت التبعات العاطفية الحقيقية لصدمة الخسارة فقط عندما عادت الأمهات. عند مقابلة الأطفال العشرة أمهاتهم أول مرة بعد أيام أو أسابيع من الفراق، أظهر كل منهم إعراضًا شديدًا. لقد بدا اثنان منهم وكأنهما لا يعرفان أميهما. والثمانية الآخرون تجاهلوا أمهاتهم، بل وابتعدوا عنهن. معظمهم إما بكوا، وإما أوشكوا على البكاء. ومجموعة منهم تناوبت بين وجه حزين وآخر جامد. لقد أطلق جون بولبي على دينامية الانسحاب اسم «الانفصال».[4] يتسم هذا الانفصال بهدف دفاعي. وهو لا يحمل إلا معنًى واحدًا: لقد آلمني كثيرًا أن أتحمل غيابك، وحتى أتجنب مثل هذا الألم مرة أخرى، سأحبس نفسي في قوقعة من الجمود العاطفي، منيعة ضد الحب، وبالتالي ضد الألم. لا أريد أن أشعر بهذا الألم مجددًا.

أشار بولبي أيضًا إلى أن الوالد قد يكون حاضرًا جسديًا، ولكنه غائب عاطفيًا نتيجة التوتر، أو القلق، أو الاكتئاب، أو الانشغال بأمور أخرى. ومن وجهة نظر الطفل، لا يشكل ذلك فارقًا. ستكون ردود أفعاله المنغلقة هي نفسها، لأن المشكلة الحقيقية بالنسبة إليه ليست مجرد الحضور الجسدي للوالد، وإنما قربه العاطفي. إن الطفل الذي يعاني كثيرًا غياب الأمان في علاقته بوالديه سوف يتبنى قوة الانفصال الدفاعي، باعتبارها أسلوبه

الأساسي في الحياة. عندما يمثل الوالدان جهة الارتباط الحالية للطفل، فإن حبهما وشعورهما بالمسؤولية عادةً ما يضمنان عدم إجبار الطفل على تبني مثل هذه الأفعال البائسة. والأقران لا يتمتعون بمثل هذا الوعي، ولا مثل هذا الشعور بالذنب، ولا مثل هذه المسؤولية. إن التهديد بالهجر حاضر دائمًا في التفاعلات المتوجهة نحو الأقران، ويستجيب الأطفال تلقائيًّا لذلك بالانفصال العاطفي.

لا عجب إذن أن تكون اللامبالاة هي القاعدة الحاكمة، والفضيلة المطلقة في ثقافة الأقران. على الرغم من أن كلمة اللامبالاة تحمل العديد من المعاني، فإنها تشير في الغالب إلى جو من المَنَعة. وعندما يكون التوجه نحو الأقران شديدًا، لن تجد أي علامة على الضعف في الحديث، أو في المشي، أو في اللباس، أو في السلوكيات.

لقد كان المؤلف المشارك لي معلمًا في المدرسة الثانوية قبل أن يصبح طبيبًا. يتذكر جابور أنه عندما قرأ رواية جون ستاينبيك بعنوان «فئران ورجال» مع فصله في الصف العاشر، لم يشعر الطلاب قط بالتعاطف مع اثنين من الرجال العاملين البسطاء، المنكوبين بالفقر، اللذين يمثلان بَطَلَي الرواية. قال العديد من الطلاب: «ولكنهما غبيان جدًّا. لقد نالا ما استحقاه». لقد أبدى هؤلاء المراهقون القليل من التقدير للمأساة، وعدم احترامٍ لكرامة الناس في تحمل الألم.

من السهل إلقاء اللوم على التلفاز، أو الأفلام، أو موسيقى الراب عن تجريد أطفالنا من الإحساس بالمعاناة الإنسانية، والعنف، بل والموت. ومع ذلك، فالمنعة الأساسية لا تأتي من الثقافة ذات الطابع التجاري، التي تستوجب الشجب لاستغلالها جمود الأطفال العاطفي وعدم نضجهم، وخضوعها لهما. يتم تعزيز منعة الأطفال المتوجهين نحو الأقران من الداخل. حتى لو لم تكن هناك أفلام أو برامج تلفزيونية لتشكل مظاهر التعبير عن هذه المنعة، فإنها ستظهر تلقائيًّا كأسلوب تصرف النشء المتوجه نحو الأقران. وعلى الرغم من أن الأطفال المتوجهين نحو الأقران يمكن أن يأتوا من جميع أنحاء العالم، وينتموا إلى عدد لا حصر له من الثقافات الفرعية، فإن مسألة المنعة هذه تعد ظاهرة عامة في ثقافة الشباب. قد تتبدل الموضات، وقد يتغير شكل

الموسيقى، وقد تختلف اللغة، ولكن يبدو أن الانفصال اللامبالي والانغلاق العاطفي يتغلغلان في كل شيء. إن انتشار هذه الثقافة دليل قوي على الهروب المستميت من ضعف أفرادها.

مما يشهد أيضًا على الطبيعة غير المحتملة للضعف الذي يعانيه الأطفال المتوجهون نحو الأقران هيمنة المخدرات القاتلة للضعف. سيفعل الأطفال المتوجهون نحو الأقران أي شيء لتجنب المشاعر الإنسانية التي تتمثل في الوحدة، والمعاناة، والألم، وللهروب من الشعور بالألم، أو الإحراج، أو الخوف، أو عدم الأمان، أو عدم الكفاية، أو الخجل. وكلما كان الأطفال أكبر سنًّا، وأكثر توجهًا نحو الأقران، بدت المخدرات جزءًا لا يتجزأ من نمط حياتهم. إن التوجه نحو الأقران يخلق رغبةً في أي شيء من شأنه أن يقلل من الضعف. وتعد المخدرات مثل المسكنات للألم العاطفي. ومن ناحية أخرى، فهي تساعد الشباب على الهروب من حالة فقدان الإحساس التي يفرضها انفصالهم العاطفي الدفاعي. إن الانغلاق العاطفي يقترن بالملل والعزلة. وتعمل المخدرات على توفير حافزٍ زائفٍ لمنعدمي العاطفة. إنها تُعَمِّق الإحساس، وتمنح شعورًا زائفًا بالاندماج دون تكبد مخاطر الانفتاح الحقيقي. في الواقع، يمكن أن يؤدي المخدر نفسه على ما يبدو وظائف متعارضة على مستوى الفرد. فالكحول والماريجوانا، على سبيل المثال، يمكن أن يعملا كمخدر أو -من جهة أخرى- يحررا الدماغ والعقل من القيود الاجتماعية. ومن المخدرات الأخرى: المنشطات، كالكوكايين، والأمفيتامين، والإكستاسي. ويعد اسم الأخير بالذات -المشتق من كلمة (ecstasy)، التي تعني النشوة، أو السعادة- أكبر دليل على ما هو مفقود بالضبط في الحياة النفسية لصغارنا العاجزين عاطفيًّا.

غالبًا ما يتم تجاهل الوظيفة النفسية التي تؤديها هذه المخدرات من قبل الأشخاص البالغين حسني النيات، الذين يرون أن المشكلة تنبع من خارج الفرد، من خلال ضغط الأقران، والأعراف الثقافية للشباب. المسألة ليست مجرد حَملِ أطفالنا على قول: لا. المشكلة أعمق بكثير. وما دمنا لا نواجه التوجه نحو الأقران لدى أطفالنا، ولا نعكسه، فإننا نخلق شهية نهمة لهذه المخدرات. ينشأ الميل إلى المخدرات التي تقلل من الضعف من أعماق النفس

المنيعة. إن الأمان العاطفي عند أطفالنا لا يمكن أن يتشكل إلا من خلالنا، حينها لن يتم دفعهم إلى الهروب من مشاعرهم، والاعتماد على الآثار المخدرة للعقاقير. إن حاجتهم إلى الشعور بالحيوية والإثارة يمكن، بل وينبغي أن تنبع من داخلهم، من قدرتهم الفطرية اللامحدودة على التفاعل مع الكون.

يعيدنا هذا إلى الطبيعة الهرمية الأساسية للارتباط. كلما زاد احتياج الطفل إلى أن يؤدي الارتباط وظيفته، ازدادت أهمية ارتباطه بالمسؤولين عنه. وعندئذ فقط يمكن تحمل الضعف الملازم للارتباط العاطفي. لا يحتاج الأطفال إلى أصدقاء، بل يحتاجون إلى آباء، وأجداد، وأشخاص بالغين يتحملون مسؤولية التمسك بهم. وكلما زاد ارتباط الأطفال بالراشدين الذين يرعونهم، زادت قدرتهم على التفاعل مع أقرانهم دون أن يطغى عليهم الضعف الذي ينطوي عليه الأمر. وكلما تضاءلت أهمية الأقران، زادت إمكانية تحمل هشاشة العلاقات بين الأقران. إن هؤلاء الأطفال الذين لا يحتاجون إلى أصدقاء هم الأكثر قدرة على تكوين صداقات، دون أن يفقدوا قدرتهم على الشعور بعمق وتأثر.

ولكن لماذا نرغب في أن يظل أطفالنا منفتحين على ضعفهم؟ ما الخطأ في تجميد الانفصال للمشاعر من أجل حماية الطفل؟ نحن نعلم جميعًا بالفطرة أن وجود الشعور أفضل من عدمه. إن عواطفنا ليست رفاهية، ولكنها جانب أساسي من تركيبتنا. إننا لا نحظى بها من أجل التمتع بالشعور فحسب، بل لأنها تكتسي قيمةً مهمة للبقاء على قيد الحياة. إنها تُوجِّهنا، وتفسر العالم لنا، وتعطينا معلومات مهمة لا يمكننا أن نزدهر دونها. فهي تخبرنا بما هو خطير وما هو آمن، وما الذي يهدد وجودنا، وما الذي يعزز نمونا. تخيل كم سنكون عاجزين لو لم نتمكن من الرؤية، أو السماع، أو التذوق، أو الإحساس بالحرارة، أو البرد، أو الألم الجسدي. إن الانغلاق العاطفي يعني فقدان جزء لا غنى عنه من حواسنا، وفضلًا عن ذلك، جزء لا غنى عنه من هويتنا. إن العواطف هي التي تجعل الحياة جديرة بالاهتمام، ومثيرة، ومتحدية، وهادفة. إنها تقودنا إلى استكشاف العالم، وتحفز استنتاجاتنا، وتدعم نمونا. حتى على مستوى الخلايا، يكون البشر إما في حالة دفاع، وإما في حالة نمو، ولكن لا يمكن أن يكونوا في كلتا الحالتين في الوقت نفسه. وعندما يحظى الأطفال

بهذه المنعة، فإنهم يتوقفون عن التعامل مع الحياة كفرصٍ لا حصر لها، ومع النفس كإمكاناتٍ لا حدود لها، ومع العالم كساحةٍ ترحب بتعبيرهم عن أنفسهم وتدعمه. إن المنعة التي يفرضها التوجه نحو الأقران تجعل الأطفال حبيسي قيودهم ومخاوفهم. ولا عجب أن العديد منهم في هذه الأيام يُعالَجون من الاكتئاب، والقلق، وغيرهما من الاضطرابات.

إن مشاعر الحب، والاهتمام، والأمان، التي لا يمكن لأحد أن يمنحها سوى الكبار، تحرر الأطفال من الحاجة إلى جعل أنفسهم منيعين، وتعيد إليهم تلك القدرة على الحياة والمغامرة، التي لا يمكن أن تأتي أبدًا من الأنشطة المحفوفة بالمخاطر، أو الرياضات العنيفة، أو المخدرات. ومن دون هذا الأمان، يضطر أطفالنا إلى التضحية بقدرتهم على النمو والنضج نفسيًّا، وبالانخراط في علاقات بَنَّاءة، وباتباع أعمق وأقوى دوافعهم للتعبير عن الذات. في نهاية المطاف، يُعَدُّ الهروب من الضعف هروبًا من الذات. وإذا لم نتمسك بأطفالنا، أصبحت الخسارة الأكبر هي فقدانهم قدرتهم على التمسك بذواتهم الحقيقية.

9

عاجزون عن النضج

قالت والدة سارة وهي مستاءة من تناقض ابنتها وتقلب مزاجها: «لقد طفح كيلي. إنها لا تكمل أي شيء حتى النهاية، مهما بذلنا من جهد لنحاول إصلاح الأوضاع من أجلها». ثمة موقف واحد متكرر أزعج والِدَي سارة للغاية: لقد كانا يبذلان قصارى جهدهما لتحقيق رغبة ما كانت تُعرِبُ عنها بحماس، فقط ليجدا أنها انسحبت في أول لحظة إحباط أو فشل. لقد تركت درس التزلج على الجليد في نهاية الحصة الثانية لها، بعد أن ادخرت المال بحرصٍ لدفع الرسوم، ورَتَّبَت مَوَاعِدَهم لتوافق جدولها الزمني. كانت سارة أيضًا متسرعة وغير صبورة تمامًا، وتفقد أعصابها بسهولة. وظلت تَعِدُ بأنها ستكون صالحة، ولكنها طالما عجزت عن الوفاء بوعدها.

كان والدا بيتر قلقين أيضًا. لقد كان ابنهما غير صبور، وسريع الغضب دائمًا، كما إنه كان في بعض الأوقات سيئًا للغاية مع أخته ووالديه. قال لي والد بيتر: «يبدو أنه لا يدرك حتى أن ما يقوله وما يفعله يؤثر على بقية أفراد الأسرة». كان بيتر أيضًا مولعًا بالجدل والمعارضة. ولم تكن لديه أي طموحات على المدى البعيد. لم يكن شغوفًا بأي شيء باستثناء ألعاب الفيديو، والحاسوب. يبدو أن مفهوم العمل لم يعنِ شيئًا بالنسبة إليه، سواء

كان واجبًا مدرسيًّا، أو دراسةً منزليةً، أو أعمالًا منزلية. قال الأب: «إن أكثر ما يقلقني هو أن بيتر لا يبدو قلقًا على الإطلاق». لم يُبدِ الصبي أي قلق بشأن افتقاره إلى غاية وأهداف بَنَّاءة.

لقد أظهر كل من بيتر وسارة مجموعة متشابهة من السمات بطرائق مختلفة بعض الشيء. كِلا الطفلين كان مندفعًا. ويبدو أن كلاهما يعرف كيف يجب أن يتصرف، ولكن لم يتصرف أيٌّ منهما في الواقع وفقًا لما يعرفه. كانا كلاهما طائشين، يعجزان عن التفكير قبل التصرف، ومعتادين ردود فعل متقلبة. وقد أراد كلا الأبوين والأمّين معرفة ما إذا كان ينبغي أن يشعروا بالقلق. بالنسبة إلى والدي سارة، كان جوابي على الأرجح ألا يشعرا بالقلق. كانت سارة تبلغ من العمر أربع سنوات فحسب، لقد بدت هذه السمات منطقية. وإذا سارت الأمور كما ينبغي، فإن السنوات القليلة المقبلة من النمو ستؤدي إلى اختلافات جوهرية في عقلية سارة وسلوكها. أما والدا بيتر، فكانت لديهما أسباب تدعو للقلق. لقد كان في الرابعة عشرة من العمر، وبهذه الصورة على الأقل، لم تتغير شخصيته منذ أن كان في سن الحضانة.

أظهر كلٌّ من سارة وبيتر ما توصلتُ إلى تسميته بـ «متلازمة ما قبل المدرسة»، وهي سلوكيات تلائم أي طفل في مرحلة ما قبل المدرسة. في هذه المرحلة من النمو، لم يتم بعد دمج عدد من الوظائف النفسية في الطفل – أي الافتقار إلى الأداء التكاملي، الذي يعد إشارة خطر تنذر بعدم النضج النفسي. وبطبيعة الحال، فإن الأشخاص الوحيدين الذين لديهم «الحق» من الناحية التطورية في التصرف مثل الأطفال تحت سن المدرسة هم الأطفال تحت سن المدرسة. وفي حالة الأطفال الأكبر سنًّا، أو البالغين، يشير غياب التكامل هذا إلى عدم النضج، الذي يخرج عن طوره مع تقدم العمر.

إن النمو البدني والأداء الفسيولوجي للبالغين لا يقترن تلقائيًّا بالنضج النفسي والعاطفي. يكشف روبرت بلاي، في كتابه «مجتمع الأشقاء»، أن عدم النضج مستوطن في مجتمعنا. وقد كتب أن «الناس لا يكلفون أنفسهم عناء النضج، ونحن جميعًا أسماك تسبح في حوض ملآن بأنصاف البالغين».[1] في عالمنا اليوم، تؤثر متلازمة ما قبل المدرسة على العديد من الأطفال الذين تجاوزوا سن ما قبل المدرسة، ويمكن أن نراها حتى في المراهقين،

والبالغين. إن العديد من البالغين لم يصلوا إلى مرحلة النضج - لم يتمكنوا من أن يكونوا أفرادًا مستقلين، يتمتعون بدوافع ذاتية، وقادرين على تلبية احتياجاتهم العاطفية، واحترام احتياجات الآخرين.

من بين الأسباب العديدة التي تجعل النضج أقل شيوعًا اليوم، ربما يكون التوجه نحو الأقران هو السبب الرئيسي للمشكلة. إن عدم النضج والتوجه نحو الأقران أمران متلازمان. فكلما كانت بداية التوجه نحو الأقران في حياة الطفل مبكرة، وكلما زاد الانشغال بالأقران، زادت احتمالية أن يكون مُقدرًا له أن يبقى غير ناضج دائمًا.

لقد كان بيتر شديد التوجه نحو الأقران. ولم يكن من الواضح أيهما حدث أولًا: هل جعله عدم نضجه عرضةً لأن يصبح متوجهًا نحو الأقران؟ أم إن توجهه المبكر نحو الأقران هو الذي تسبب في إعاقة تطوره؟ قد تسلك العلاقة السببية كلا الاتجاهين، ولكن بمجرد أن تتشكل هذه العلاقة، يحسم التوجه نحو الأقران المشكلة. في كلتا الحالتين يعجز الأطفال المتوجهون نحو الأقران عن النضج.

***

ماذا يعني عدم النضج

عندما ننضج، يُطَوِّر دماغنا القدرة على دمج الأشياء معًا لكي يستوعب التصورات، والحواس، والأفكار، والمشاعر، والدوافع المختلفة في آنٍ واحد، دون أن يصبح مُشَوَّش التفكير، أو عاجزًا عن العمل. هذه هي القدرة التي أطلقت عليها مسمى «الأداء التكاملي»، عندما أشرت إلى متلازمة ما قبل المدرسة فيما سبق. إن الوصول إلى هذه المرحلة من التطور له تأثيرٌ تحويليٌّ وتهذيبيٌّ هائل على الشخصية والسلوك. تتلاشى سمات الصبيانية، مثل الاندفاع والأنانية، وتبدأ الشخصية الأكثر اتزانًا في الظهور. ولا يمكن للمرء أن يُعَلِّم الدماغ فعل ذلك، إذ لابد من تطوير القدرة التكاملية وتحسينها. لقد كان الرومان القدماء يطلقون على هذا النوع من الدمج كلمة (temper): المِزاج.

وتعني هذه الكلمة الآن «التنظيم»، أو «الاعتدال»، ولكنها تشير في الأصل إلى خلط المكونات المختلفة لصنع الطين. لقد كان كل من سارة وبيتر «مُتَطَرِّفًا» (untempered) من حيث الشعور والتعبير. إن التطرف –عدم القدرة على تحمل المشاعر المختلطة في آن واحد– هو السمة المميزة لغير الناضجين.

على سبيل المثال، كانت سارة حنونة جدًّا تجاه والديها، ولكنها كأغلب الأطفال يصيبها الإحباط من وقتٍ إلى آخر. وإذا شعرت بالإحباط، كانت تنتابها نوبات غضب، لدرجة أن تقول «أكرهك» لأمها. ولم يخفف الحنان من مشاعر الإحباط التي انتابت سارة تجاه أمها وهي في ذلك المستوى النمائي، تمامًا كما لم تخفف رغبتها في تعلم التزلج من إحباطها بسبب سقوطها على الجليد. ومن هنا كانت اندفاعيتها. وبالمثل، كان بيتر إذا ثار، لازم ذلك توجيه الإهانات والشتائم. وعلى الرغم من أنه كان يقع في المشكلات بشكل متوقع ومتكرر، فإن خوفه من العواقب السلبية كان يطغى عليه أي إحباطٍ شديدٍ عاناه آنذاك. ومرة أخرى، عجزت المشاعر عن الامتزاج. لقد فقد كل من هذين الطفلين مِزاجه بالمعنى الحرفي للكلمة، ولهذا كانت ردود أفعالهما حادة ووقحة وعارمة.

وعلى المنوال نفسه، لم يستطع بيتر استيعاب فكرة العمل، لأن هذا المفهوم يتطلب استيعاب المشاعر المختلطة. إن العمل غالبًا ما لا يكون جذابًا للغاية، ولكننا نقوم به عادةً لأنه يمكننا أن نمزج بين مقاومتنا له في الوقت الحالي، وبين التزامٍ أو هدفٍ قد نضعه في اعتبارنا على المدى الطويل. ونظرًا إلى أن بيتر لم يكن ناضجًا بما فيه الكفاية ليتمسك بهدف يتجاوز المتعة الفورية، فقد عَمِلَ فقط عندما شعر بالرغبة في ذلك، ولم تكن هذه هي الحال في معظم الأحيان. إنه لم يكن يدرك سوى شعورٍ واحدٍ في كل مرة. وعلى هذا النحو، لم يكن يختلف عن أي طفل في سن الحضانة. لقد كانت عدم قدرته على تحمل الأفكار والمشاعر والأهداف المتضاربة في وعيه نتاجًا لتوجهه نحو الأقران.

***

مخطط الطبيعة للنمو

في اندفاعنا المتهور المعتاد لمعرفة ما يجب فعله حيال هذه المشكلة أو تلك، غالبًا ما نتجاهل الخطوة الأساسية الأولى، المتمثلة في البحث، والتفكير، والفهم. ولا يسعنا أن نتحمل إغفال تلك الخطوة عندما يتعلق الأمر بتربية الأطفال في عالمنا الفوضوي المعاصر. يجب أن نعرف الطريقة التي تسير بها الأمور حتى نتمكن من فهم ما يمكن أن يسير بشكل خاطئ - وهذا يعد ضروريًّا للوقاية، أو العلاج إذا لزم الأمر. يرد فيما يلي مخطط موجز للنضج، وهي عملية يجب أن يكون كل من الوالدين والمعلم على دراية عملية بها. وبالنسبة إلى الكثيرين، فإنه سيُعَدُّ مجرد تأكيد على ما أدركوه سلفًا بشكل حدسي.

كيف يصل صغار البشر إلى النضج؟ جاء أحد أهم اكتشافات النظرية النمائية في الخمسينيات من القرن الماضي عندما وجد العلماء أن هناك نظامًا ثابتًا يمكن توقعه لعملية النضج، بغض النظر عن مكان وزمان حدوثها. تتضمن المرحلة الأولى نوعًا من الانفصال أو التمايز، تليها مرحلة ثانية تؤول إلى تكامل متزايد للعناصر المنفصلة. ويسري هذا التسلسل على أي كائن حي، سواء كان نباتًا، أو حيوانًا، وسواء كان على الصعيد البيولوجي، أو النفسي، وسواء كان الكيان أحادي الخلية، أو كان ذلك الكيان المعقَّد، الذي نسميه الذات.

يبدأ النضج أولًا من خلال عملية الانقسام، مما يفصل الأشياء بعضها عن بعض، إلى أن تصبح متمايزة ومستقلة. عندئذٍ فقط يعمل النمو على دمج هذه العناصر المتمايزة والمنفصلة معًا. إنها عملية بسيطة وعميقة في الوقت نفسه - عملية نراها حتى على أبسط المستويات. ينمو الجنين أولًا من خلال الانقسام إلى خلايا منفصلة، ولكل خليةٍ نواتها الخاصة، وحدودها الواضحة. بعد ذلك، بمجرد انفصال الخلايا المنفردة بشكلٍ كافٍ، حيث لا تكون معرضة لخطر الاندماج، يصبح التفاعل فيما بينها هو محط تركيز التطور. تصبح مجموعات الخلايا جزءًا لا يتجزأ من الأعضاء الحيوية. وفي المقابل، تتطور الأعضاء المختلفة بشكل منفصل، ثم تنتظم وتتكامل في أجهزة الجسم. على

سبيل المثال، يشكل القلبُ والأوعيةُ الدمويةُ الجهازَ القلبيَّ الوعائي. ويُتَّبع النمط نفسه في حالة فَصَّي الدماغ. تعمل المناطق النامية في الدماغ في البداية بشكل مستقل تمامًا بعضها عن بعض من الناحية الفسيولوجية والكهربية، ولكنها تتكامل معًا بالتدريج. وبينما يحدث ذلك، يُظهِرُ الطفل مهاراتٍ وسلوكياتٍ جديدة.[2] وتستمر هذه العملية فترة طويلة في سنوات المراهقة، وبعدها أيضًا.

يرتبط النضج في المجال النفسي بالتمييز بين عناصر الوعي: الأفكار، والمشاعر، والدوافع، والقيم، والآراء، والتفضيلات، والاهتمامات، والنيات، والتطلعات. ويجب أن يحدث التمييز قبل أن يتم دمج عناصر الوعي هذه لخلق تجربة وتعبير معتدلين. ويصدق هذا الأمر على مجال العلاقات: يتطلب النضج أن يصبح الطفل أولًا مميزًا ومستقلًّا عن الأفراد الآخرين. وكلما أصبح أكثر تمايزًا، زادت قدرته على الاختلاط بالآخرين دون أن يفقد إحساسه بذاته.

الأهم من ذلك أن الإحساس بالذات يحتاج أولًا إلى الانفصال عن التجربة الداخلية، وهي مهارة غائبة تمامًا في الطفل الصغير. يجب أن يكون الطفل قادرًا على إدراك أن ذاته لا تتماثل مع أي شعور يعتمل في نفسه في أي لحظة بعينها. ويمكن أن ينتابه شعور ما دون أن يسيطر هذا الشعور بالضرورة على أفعاله. ويمكن أن يكون على دراية بالمشاعر الأخرى المتناقضة، أو الأفكار، والقيم، والالتزامات التي قد تتعارض مع شعوره في اللحظة الحالية. وله أن يختار ما يشاء.

كان كل من بيتر وسارة يفتقر إلى وجود علاقة مع نفسه، لأن هذا الانقسام السابق لم يكن قد حدث بعد. لم يكونا معتادين التأمل في تجربتهما الداخلية، أو الاتفاق أو الاختلاف مع نفسيهما، أو قبول أو رفض ما رأياه بداخلهما. ونظرًا إلى أن مشاعرهما وأفكارهما لم تكن متمايزة بما يكفي لتصمد أمام اختلاطها معًا، فقد كانا قادرين فقط إما على الشعور، وإما على الاندفاع في كل مرة. ولم يعتد أيٌّ منهما عبارات مثل: «جزء مني يشعر بهذا، وجزء مني يشعر بذاك». لم يكن لدى أيٍّ منهما مشاعر من نوعية «ولكن...». ولم يشعرا بالتردد حيال الانفعال بدافعٍ من الإحباط، أو تدارك الأمور. ومن دون القدرة على التأمل، فقد هيمنت عليهما التجربة الداخلية وليدة اللحظة. لقد

تصرفا على الفور بدافعٍ من العواطف التي اعترتهما، أيًّا كانت. قد تكون هذه المشاعر هي التجربة الداخلية لكلٍّ منهما، ولكنهما لم يتمكنا من رؤيتها. إن هذا القصور جعلهما مندفعين، وأنانيين، وعديمَي الصبر، ويتسمان بكونهما مجرد رد فعل. ولأن الإحباط لم يمتزج بالاهتمام، فقد نفد صبرهما. ولأن الغضب لم يمتزج بالحب، لم يظهرا أي تسامح. ولأن الإحباط لم يمتزج بالخوف، أو الحنان، فقدا مِزاجيهما. باختصار: لقد كانا يفتقران إلى النضج.

كان من غير المعقول أن نتوقع من سارة أن تكون قادرة على تحمل المشاعر المختلطة، أو أن تفعل أي شيء سوى أن تكون متطرفة في تعبيرها. لقد كانت صغيرة جدًّا. ولكن كان من المعقول بالتأكيد توقع التأمل الذاتي والقدرة على تحمل الدوافع والعواطف المختلطة من بيتر، ولكن كان ذلك غير واقعي تمامًا أيضًا، فهو لم يكن أكثر نضجًا من سارة.

لقد شعرتُ بالثقة حيال طمأنة والدي سارة بأن هناك الكثير من الأدلة على أنها ثمة عملية نضج نشطة للغاية تحدث بداخلها. لقد أظهرت علامات مبشرة على حدوث عملية التمايز في الواقع، حيث كانت تحرص على فعل الأشياء بمفردها، وأحبت اكتشاف الأشياء بنفسها. لقد أرادت بالتأكيد أن تكون شخصية مستقلة، وأن تكون لديها معتقداتها، وأفكارها، ودوافعها الشخصية لفعل الأشياء. كان لديها أيضًا نوعٌ رائع من الحيوية المغامِرة، الفضول حيال الأشياء التي لم تكن على دراية بها، أو شغوفة بها، والحرص على استكشاف المجهول، والانبهار بأي شيء جديد، أو مبتكر. فضلًا عن ذلك، كانت تنخرط في اللعب الانفرادي، الذي اتصف بكونه خياليًّا، وخَلَّاقًا، وممتعًا لها تمامًا. هذه العلامات الواضحة على عملية النضج وضعت نهايةً لأي قلق حول عجز سارة عن النمو. كانت شخصيتها تتجه نحو النضج، وستظهر الثمرة في الوقت المناسب. لقد كان الصبر هو كل ما يتطلبه الأمر.

لم أجد أي مؤشرات حاسمة مشابهة تدل على تجلي الحيوية في بيتر. لم تكن هناك عزلة إبداعية، ولا رغبة في اكتشاف الأشياء بمفرده، ولا اعتداد بكونه مكتفيًا ذاتيًّا، ولا محاولة لتطوير شخصيته المستقلة. لقد كان منشغلًا بوضع الحدود بينه وبين والديه، ولكن لم يكن هذا بهدف التَّفَرُّد الحقيقي، وإنما فقط من أجل إبعاد والديه عن حياته. لم تكن ممانعته الاعتماد على

والديه مدفوعة بالرغبة في فعل الأشياء بنفسه. لقد كان معارضًا ومعاندًا، ولكن كما ناقشنا في الفصل السادس، كان ذلك بسبب قوة ارتباطه بأقرانه، وليس بدافعٍ حقيقي نحو الاستقلالية.

إن النضج يحدث بصورة تلقائية، ولكنه ليس حتميًا. إنه يشبه برنامجًا حاسوبيًا مثبَّتًا سابقًا على القرص الصلب، ولكنه ليس مُفَعَّلًا بالضرورة. ولولا خروج بيتر من قوقعته، لكان في طريقه إلى أن يصبح أحد أولئك البالغين الذين ما زالوا عالقين في متلازمة ما قبل المدرسة. ولكن كيف نخرج الأطفال من قوقعتهم كما فعل بيتر؟ ما الذي يُنَشِّط عملية النضج؟

***

كيف يمكن تعزيز النضج

على الرغم من أن الآباء والمعلمين دائمًا ما يطلبون من الأطفال أن يتعقَّلوا، فإن النضج لا يمكن أن يتأتى عن طريق الأوامر. لا يمكن للمرء أن يُعَلِّم الطفل أن يكون فريدًا، أو أن يدربه على تكوين شخصية مستقلة. هذه مهمة النضج، ولا شيء غير النضج. يمكننا تعزيز هذه العملية، وتهيئة الظروف المناسبة لها، وتذليل العقبات أمامها، ولكن لا يمكننا أن نجعل الطفل ينضج تمامًا، مثلما لا يمكننا أن نطلب من النباتات في حديقتنا أن تنمو.

عند التعامل مع الأطفال غير الناضجين، قد نحتاج إلى تعليمهم كيف يتصرفون، ووضع الحدود لما هو مقبول، وتوضيح توقعاتنا. يجب تعليم الأطفال الذين لا يفهمون مبدأ العدل والإنصاف أن يتناوبوا في الأدوار. ويجب تزويد الأطفال الذين لم ينضجوا بعد بما يكفي لإدراك الآثار المترتبة على أفعالهم بقواعد وتوجيهات للسلوك المقبول. ولكن لا ينبغي الخلط بين هذا السلوك المُوجَّه وبين النضج الحقيقي. لا يمكن أن يكون المرء أكثر نضجًا مما هو عليه حقًّا، ولكنه يمكن أن يتصرف على هذا النحو فقط عندما يتم توجيهه بشكل مناسب. إن القيام بالتناوب في الأدوار لأنه من الصواب فعل ذلك هي لفتة حضارية بالتأكيد، ولكن القيام بالتناوب في الأدوار انطلاقًا

من الإحساس الصادق بالإنصاف لا يمكن أن ينبع إلا من النضج. وقد يكون التعبير عن الأسف هو الفعل الذي يليق بالموقف، ولكن تحمل المسؤولية عن أفعال المرء لا يمكن أن ينتج إلا عن عملية التميز الفردي. ليس هناك بديل عن النضج الحقيقي، ولا يوجد طريق مختصر لبلوغه. يمكن توجيه السلوك أو فرضه، ولكن النضج ينبع من القلب والعقل. إن التحدي الحقيقي الماثل أمام الآباء هو مساعدة الأطفال على النمو والتعقُّل، وليس مجرد أن يظهروا بمظهر الناضجين.

إذا لم يكن الانضباط علاجًا لعدم النضج، وإذا كان التوجيه مفيدًا، ولكنه غير كافٍ، فكيف يمكننا مساعدة أطفالنا على بلوغ النضج؟ حار علماء النمو سنوات في الظروف التي تبعث على النضج. ولم يُتوَصَّل إلى هذا التقدم العلمي إلا عندما اكتشف الباحثون أهمية الارتباط الجوهرية.

ربما يكون من المدهش أن نقول إن موضوع النضج هذا بسيط وبديهي. إنه يبدأ بالارتباط، شأنه في ذلك شأن أي شيء آخر يتعلق بنمو الطفل. وكما أوضحت في الفصل الثاني، فإن الارتباط يتصدر أولويات الكائنات الحية. ولا يمكن أن يحدث النضج إلا عندما يكون هناك قدر من التحرر من هذا الانشغال. بالنسبة إلى النباتات، يجب أن تتأصل الجذور أولًا حتى يبدأ النمو، ويصبح من الممكن أن تؤتي ثمارها. وبالنسبة إلى الأطفال، فإن الخطة النهائية المتمثلة في أن يصبحوا قادرين على العيش ككائنات مستقلة لا يمكن أن تتصدر المشهد إلا عندما يتم تلبية احتياجاتهم إلى الارتباط، وتعزيز التواصل، والقدرة على الاعتماد على العلاقة دون قيد أو شرط. إن القليل من الآباء، بل وقلة قليلة من الخبراء يفهمون هذا بالفطرة. قال لي أحد الآباء المتفكرين الذين فهموا الأمر: «عندما أصبحت والدًا، رأيتُ أن العالم يبدو مقتنعًا تمامًا بأنه يجب عليك تشكيل أطفالك - أن تسعى بجد في تشكيل شخصياتهم بدلًا من مجرد تهيئة بيئة يمكنهم فيها النمو والازدهار. يبدو أنه لا أحد يدرك أنه إذا منحتهم علاقة الحب التي يحتاجون إليها، فإنهم سوف يزدهرون».

إن السبيل إلى تحفيز النضج هو الاهتمام باحتياجات الارتباط عند الطفل. لنشجع الاستقلالية، يجب علينا أولًا أن نرحب بالاعتمادية. ولندعم التميز الفردي، يجب علينا أن نوفر شعورًا بالانتماء والألفة. ولنساعد الطفل على

الاستقلال، يجب علينا أن نتحمل مسؤولية إبقاء الطفل بالقرب منا. إننا نساعد الطفل على أن يطلق العنان لنفسه من خلال توفير قدر أكبر من التواصل والارتباط، أكبر مما يسعى إليه هو نفسه: فعندما يطلب عناقًا، نمنحه عناقًا أدفأ من عناقه لنا. إن تحرير الأطفال لا يكون بجعلهم يسعون إلى نيل حبنا، ولكن بالسماح لهم بأن يسكنوا إليه. إننا نساعد الطفل على مواجهة الانفصال الذي يقتضيه الخلود إلى النوم أو الذهاب إلى المدرسة من خلال تلبية حاجته إلى الحميمية. وبالتالي فإن مسألة النضج هذه تعد من المفارقات: الاعتمادية والارتباط يعززان الاستقلال والانفصال الحقيقي.

يُولَدُ النضج من رحم الارتباط. فمثلما تلد الرحم البيولوجية كائنًا منفصلًا بالمعنى الجسدي، فإن الارتباط يلد هو الآخر كائنًا منفصلًا بالمعنى النفسي. بعد الولادة الجسدية، يكون مخطط النمو هو خلق رَحِمٍ عاطفية للطفل يمكن أن يولد منها مرةً أخرى، كفرد مستقل وقادر على التعايش دون أن تهيمن عليه دوافع الارتباط. فالبشر لا يتجاوزون أبدًا حاجتهم إلى التواصل مع الآخرين، ولا ينبغي لهم ذلك، ولكن الأفراد الناضجين والمستقلين حقًّا لا يخضعون لهذه الحاجات. إن التحول إلى هذه الشخصية المستقلة يستغرق مرحلة الطفولة بأكملها، التي تمتد في عصرنا هذا إلى نهاية سنوات المراهقة على الأقل، وربما بعدها.

نحن في حاجة إلى تحرير الطفل من الانشغال بالارتباط، حتى يتمكن من السير وفق المخطط الطبيعي للنضج المستقل. يكمن سر القيام بذلك في التأكد من أن الطفل لا يحتاج إلى السعي إلى تلبية احتياجاته إلى القرب والحميمية، ومعرفة موقعه، وتحديد وجهته. يحتاج الأطفال إلى إشباع احتياجاتهم من الارتباط، وعندئذ فقط يمكن أن تتحول طاقتهم نحو التميز الفردي، أي عملية التحول إلى شخص مستقل حقًّا. عندها فقط يتحرر الطفل، كي يتسنى له أن يمضي قدمًا، وأن ينمو عاطفيًّا.

إن الجوع إلى الارتباط يشبه الجوع الجسدي إلى حد كبير. فالحاجة إلى الطعام لا تختفي أبدًا، تمامًا كما لا تنتهي حاجة الطفل إلى الارتباط. ونحن كآباء نُعفي الطفل من السعي وراء التغذية البدنية. نتحمل مسؤولية إطعام الطفل، وكذلك نمنحه شعورًا بالأمان حول توفير طعامه. ومهما كانت كمية

الطعام التي يمتلكها الطفل في الوقت الحالي، فإذا لم يكن هناك شعور بالثقة في مصدر الإمداد، ظلت مسألة توفير الطعام هي شغله الشاغل. لن يستطيع الطفل المضي قدمًا في تعلمه وحياته حتى يتم التكفل بمسألة الطعام، ونحن كآباء نفعل ذلك بصورة طبيعية. ويجب أن يكون واجبنا في إشباع حاجة الطفل إلى الارتباط واضحًا لنا بالقدر نفسه.

يوضح المعالج النفسي كارل روجرز في كتابه بعنوان «أن تصير إنسانًا» سلوكًا لطيفًا وعطوفًا، أطلق عليه عبارة «التقدير الإيجابي غير المشروط»، لأنه –حسب قوله– «لا توجد شروط مُعتَبَرة ترتبط به». هذا هو الاهتمام. وكما كتب روجرز: «إنه لا يحدث بدافع التملُّك، ولا يتطلب أي إرضاء شخصي. إنه مناخ يعكس ببساطة أنني مهتم بك، وليس أنني أهتم بك عندما تتصرف على هذا النحو أو ذاك».[3] كان روجرز يلخص صفات المعالج النفسي الجيد من حيث علاقته بعملائه. إذا استبدلنا بالوالد المعالج، وبالطفل العميل، حصلنا على وصف بليغ لما تتطلبه العلاقة بين الوالد والطفل. إن حب الوالدين غير المشروط هو الغذاء الذي لا غنى عنه لنمو الطفل العاطفي الصحي. المهمة الأولى هي خلق مساحة في قلب الطفل ليتأكد من أنه هو تحديدًا الشخص الذي يريده الوالدان ويحبانه. ليس عليه أن يفعل أي شيء أو أن يكون مختلفًا لينال هذا الحب. في الواقع، ليس بإمكانه أن يفعل أي شيء أصلًا، إذ إن هذا الحب لا يمكن كسبه أو خسارته. وهو غير مشروط. إنه موجود فحسب، بغض النظر عن الطريقة التي يتصرف بها الطفل، سواء كانت «سيئة» أو «جيدة». يمكن أن يكون الطفل عنيدًا، ومزعجًا، ومتذمرًا، ووقحًا، وغير متعاون، ومع ذلك، يظل الوالد يُشعِرُه بالحب. ينبغي أن نجد طرائق نعبر بها عن عدم قبول سلوكيات معينة دون أن نجعل الطفل نفسه يشعر بأنه غير مقبول. يجب أن يكون قادرًا على إظهار فوضاه وصفاته غير المحبوبة للوالدين، ومع ذلك يتلقى حبهما المُشبِع، الباعث على الطمأنينة، غير المشروط مطلقًا.

يحتاج الطفل إلى الشعور بالأمان والحب غير المشروط الكافيين، حتى يحدث التحول المطلوب في طاقته. يبدو الأمر وكأن الدماغ يقول: «شكرًا جزيلًا، هذا هو ما كنا في حاجة إليه. والآن نستطيع أن نمضي قدمًا في مهمة النمو الحقيقية، وفي التحول إلى شخصية مستقلة. إنني لست مضطرًا إلى

الاستمرار في البحث عن المؤونة، فقد امتلأ خزاني من جديد، لذا يمكنني الآن أن أمضي في طريقي مرة أخرى». لا يوجد شيء أكثر أهمية من ذلك من المنظور النمائي العام.

كان والد إيفان، البالغ من العمر أحد عشر عامًا، وهو صديق المؤلف المشارك لي، قد انتهى للتو من حضور ندوة في عطلة نهاية الأسبوع حول العلاقات الأسرية. وهو الآن –في صباح يوم الاثنين– يمشي مع ابنه في الطريق إلى المدرسة. لقد كان يضغط على إيفان ليستكمل دروس الكاراتيه، وهو نشاط كان الولد يقاومه. قال له الأب: «أتعلم يا إيفان؟ إذا استمررتَ في رياضة الكاراتيه، فإنني سوف أحبك. أوَتَعلَمُ ماذا أيضًا؟ إذا لم تستمر في رياضة الكاراتيه، فإني سأحبك بالقدر نفسه». لم يتفوه الطفل بأي شيء بضع دقائق. ثم نظر فجأةً إلى السماء الملبدة بالغيوم، وابتسم لوالده، وقال: «أليس هذا يومًا جميلًا يا أبي؟ أوَلَيسَت تلك الغيوم في السماء جميلة؟». وبعد بضع لحظاتٍ أخرى من الصمت، أضاف: «أعتقد أنني سأحصل على حزامي الأسود». وقد واصل دراساته في الفنون القتالية.

حتى الكبار يمكنهم معايشة آثار هذا التحول النمائي في المسارات إذا توفرت الظروف المناسبة. أحد المواقف التي يمكن أن تثمر عن دَفعَة من الطاقة المفاجئة هو الشعور بالحب العميق، وكذلك الشعور بالأمان التام في هذا الحب، فالأشخاص الذين وقعوا حديثًا في الحب يجدون أنفسهم وقد تجددت اهتماماتهم، وفضولهم، وتعمَّق شعورهم بالتميز والتفرد، وتيقظت فيهم روح الاكتشاف. وهذا لا يحدث عندما يدفعنا أحدهم إلى أن نكون ناضجين ومستقلين، ولكن فقط عندما نشعر بتلبية احتياجاتنا من الارتباط، وإشباعها بعمق.

يكمن سبب إعاقة نمو هذا العدد الكبير من أطفالنا في عدم قدرتهم على تحقيق ذلك التحول من السعي إلى إشباع جوعهم إلى الارتباط، إلى نشأة تفاعل مستقل وحيوي مع عالمهم. هناك خمسة أسباب تجعل التوجه نحو الأقران يسلب الأطفال القدرة على الاكتفاء، ومن المهم أن يفهمها الآباء والمعلمون.

***

التوجه نحو الأقران يعوق النمو بخمس طرائق مهمة

الرعاية الوالدية لا تبلغ غايتها

أحد الآثار المترتبة على التوجه نحو الأقران هو أن ما نكنه لأطفالنا من حب ورعاية لا يصل إليهم. لقد كانت هذه هي الحال بالتأكيد في حالة بيتر، وبالنسبة أيضًا إلى العديد من الآباء الذين قدمت لهم المشورة. لم يكن هناك شك في أن والدي بيتر أحباه، وأرادا الخير له، وأنهما كانا على استعداد للتضحية من أجله. ومع ذلك، فقد وجدا –شأنهما شأن العديد من الآباء في وضعهما– صعوبة في الحفاظ على الحب في غياب أي نوع من المعاملة بالمثل من ابنهما، وصعوبة أكبر عندما رفض بشدة محاولاتهما للتقرب، وأعرض عن محبتهما، واستاء من أي تواصل يعبر عن الاهتمام من جانبهما. ببساطة، لم يكن بيتر يسمح لمشاعر الدفء والاهتمام من قبل والديه بأن تغمره.

أرى العديد من المواقف التي يكون فيها الطفل في رخاء، وثمة مأدبة فعلية ممتدة أمامه، ولكنه يعاني الجوع النفسي بسبب مشكلات تتعلق بالارتباط. لا يمكنك إطعام شخص لا يجلس على مائدتك. فكل الحب الذي في العالم لن يكون كافيًا لنقل الطفل إلى نقطة التحول، إذ يجب ربط الحبل السري حتى تمر التغذية من خلاله. ومن المستحيل إشباع احتياجات الارتباط عند طفل لا يرتبط بقوة بالشخص الذي يمتلك كُلًّا من الرغبة والقدرة على تلبية تلك الاحتياجات. فعندما يستبدل الطفلُ بالوالدين أقرانَه، بصفتهم أهم من يرتبط بهم، فإنه سيلتمس الرعاية العاطفية عند هؤلاء الأقران. وبصراحة، قلَّما تُشبع الارتباطات بالأقران ذلك الجوع إلى الارتباط. إن هذا التحول النمائي للطاقة لا يحدث أبدًا. ونظرًا إلى عدم حدوث انتقال من الارتباط إلى التميز الفردي، فإن التوجه نحو الأقران وعدم النضج يسيران جنبًا إلى جنب.

طبيعة الارتباط بالأقران غير الآمنة لا يمكن أن تمنح الطفل السكينة

العلاقات بين الأقران تربط بين الشخصيات غير الناضجة. وكما أشرت في الفصل السابق، فإن هذه العلاقات غير آمنة بطبيعتها. إنها لا يمكنها أن تعفي الطفل من البحث بلا هوادة عن القبول، والحب، والاهتمام، فالطفل لا يتحرر أبدًا من السعي إلى الحميمية. وبدلًا من أن يؤدي التوجه نحو الأقران إلى السكينة، فإنه يبعث على التوتر. فكلما كان الطفل أكثر توجهًا نحو الأقران، أصبح القلق الدفين متغلغلًا ودائمًا بشكل أكبر. ومهما بلغ قدر التواصل والترابط الموجود بين الأقران، فلا يمكن أبدًا اعتبار القرب أمرًا مسلمًا به، أو مستقرًّا. فالطفل الذي يتغذى على شعبيته بين الآخرين –أو يعاني انعدامها– لا تفوته شاردة ولا واردة، ويشعر بالتهديد من كل كلمة، أو نظرة، أو إيماءة سلبية. لا يبلغ الطفل نقطة التحول أبدًا بصحبة الأقران: لا يتحول السعي إلى الحميمية أبدًا إلى المضي قدمًا كشخص مستقل. ونظرًا إلى الطبيعة المشروطة للغاية التي تتسم بها العلاقات بين الأقران –باستثناء حالات قليلة– فإنها لا تقدر على تعزيز نمو ذات الطفل الناشئة. الاستثناء الوحيد هو الصداقة بين الأطفال الآمنين في ارتباطاتهم بالكبار، ففي مثل هذه الحالات، يمكن أن يضيف قبول هذا الصديق ورفقته إلى شعور الطفل بالأمان. يشعر مثل هذا الطفل بالأمان أساسًا في علاقاته مع الكبار، وتزيده الصداقات مع أقرانه تألقًا - إنه غير مضطر إلى الاعتماد عليهم، وليس هناك ما يدعوه إلى الشعور بالتهديد من جراء عدم الاستقرار المتأصل في طبيعتهم.

الأطفال المتوجهون نحو الأقران يتعذر عليهم الشعور بالرضا

هناك سبب آخر لعدم شعور الأطفال المتوجهين نحو الأقران بالاكتفاء. فمن أجل بلوغ نقطة التحول، لا ينبغي أن يشعر الطفل بالرضا فحسب، بل يجب لهذا الشعور بالرضا أن يستقر بداخله. يجب أن يدرك دماغ الطفل بطريقة ما أنه يجري تلبية الرغبة في الحميمية والترابط. هذا الإدراك لا يتم على المستوى المعرفي أو الواعي، ولكنه عاطفي للغاية. إنها العاطفة هي التي تحرك الطفل، وتحول الطاقة من خطة نمائية إلى أخرى، أي من

الارتباط إلى التميز الفردي. المشكلة هي أنه لكي يستقر الشعور بالرضا، يجب أن يكون الطفل قادرًا على الشعور بشكل عميق وحساس، وهي تجربة سيكون معظم الأطفال المتوجهين نحو الأقران مُحَصَّنين ضدها. وللأسباب التي ناقشناها في الفصل الأخير، لا يمكن للأطفال المتوجهين نحو الأقران أن يسمحوا لأنفسهم بالشعور بضعفهم. قد يبدو من الغريب أن تتطلب مشاعر الرضا الانفتاح على مشاعر الضعف. فلا يوجد أذى أو ألم في الرضا، بل على العكس تمامًا. ومع ذلك، فثمة منطق عاطفي يكمن وراء هذه الظاهرة. فمن أجل أن يشعر الطفل بالاكتفاء، يجب أن يشعر أولًا بالفراغ، ولكي يشعر بتلقي المساعدة، يجب أن يشعر أولًا بالحاجة إلى المساعدة، ولكي يشعر بالكمال، يجب أن يكون قد شعر من قبل بالنقص. وليذوق المرء فرحة لم الشمل، ينبغي له أن يكابد أولًا ألم الفقد، وحتى يشعر المرء بالطمأنينة، ينبغي له أن يشعر أولًا بالألم. قد يكون الشعور بالاكتفاء تجربة ممتعة للغاية، ولكن الشرط الأساسي لذلك هو أن تكون قادرًا على الشعور بالضعف.

عندما يعجز الطفل عن الشعور بفقدان الارتباط، فإنه يعجز أيضًا عن الشعور بالاهتمام والرضا. أحد الأمور الأولى التي أتحقق منها في تقييمي للأطفال هو وجود مشاعر الفقدان والخسارة. إنه مؤشر على صحة الأطفال العاطفية، ليكونوا قادرين على الشعور بما يفتقدونه، ومعرفة سبب هذا الخواء. وبمجرد أن يتمكن الأطفال من التعبير، يجب أن يكون بوسعهم قول أشياء مثل: «إنني أفتقد أبي». «لقد أحزنني أن جدتي لم تنتبه إليَّ». «لم يبدُ لي أنك كنت مهتمًّا بقصتي». «لا أعتقد أن فلانًا يحبني».

فالعديد من الأطفال اليوم يحمون أنفسهم، وينغلقون عاطفيًّا لدرجة لا تسمح لهم بالإحساس بهذه المشاعر الهشة. إن الأطفال يتأثرون بما يفتقدونه، سواء شعروا به أم لا، ولكن فقط حينما يشعرون بما يفتقدونه ويتعرفون عليه، يمكنهم أن يتحرروا من سعيهم إلى الارتباط. ولا يستطيع آباء هؤلاء الأطفال أن ينتقلوا بهم إلى نقطة التحول، أو أن يصطحبوهم إلى مكان يشعرون فيه بالطمأنينة. إذا أصبح الطفل محصَّنًا ضد الضعف نتيجة لتوجهه نحو الأقران، فإنه لن يشعر بالاكتفاء مع الوالدين أيضًا. هذه

هي مأساة التوجه نحو الأقران - إنه يجعل حبنا وعاطفتنا بلا قيمة، وغير مُرضيين.

بالنسبة إلى الأطفال الذين لا يشبعون، لا شيء سيكفيهم أبدًا. وبغض النظر عما يفعله المرء، ومقدار محاولاته لإنجاح الأمور، ومقدار الاهتمام والقبول الذي يمنحهم إياه، فإنهم لا يصلون إلى نقطة التحول أبدًا. وهذا أمر محبط ومرهق إلى حد كبير بالنسبة إلى الآباء، فلا شيء يرضي الوالد مثل الشعور بأنه هو مصدر إشباع الطفل. ويُحرَمُ الملايين من الآباء مثل هذا الشعور، لأن أطفالهم إما يبحثون عن الرعاية في مكان آخر، وإما يحمون أنفسهم جيدًا من الضعف، فلا يكونوا قادرين على الاكتفاء. إن عدم الاكتفاء يبقي أطفالنا عالقين في أول درجات سلم النمو، عالقين في عدم النضج، وغير قادرين على تجاوز الغرائز الأساسية. وتُحبط جهودهم إلى الأبد في البحث عن الطمأنينة، ويظلون معتمدين على شخص أو شيء ما خارج ذواتهم من أجل الشعور بالرضا. ليس بمقدور النظام الذي يفرضه الآباء ولا الحب الذي يشعرون به أن يعالج هذه الحالة. الأمل الوحيد هو إعادة الأطفال إلى كنف الارتباط، إلى حيث ينتمون. ثم نرقق قلوبهم إلى الحد الذي يمكن لحبنا عنده أن يتسلل إليهم ويغذيهم.

ماذا يحدث عندما يهيمن عدم الاكتفاء على أداء الفرد العاطفي؟ يتسبب هوسٌ أو إدمانٌ ما في عرقلة عملية النضج، ويكون في هذه الحالة هو التوجه نحو الأقران. إن التواصل مع الأقران يثير الرغبة دون إشباع، ويدغدغ المشاعر دون إرضاء. وعادةً ما تكون المحصلة النهائية للتواصل بين الأقران هي الرغبة الملحة في الاستزادة من هذا التواصل، فكلما ازداد تواصل الطفل مع الأقران، زاد توقه إليه. قالت والدة فتاة تبلغ من العمر ثماني سنوات متسائلةً: «إنني لا أفهم الأمر! فكلما زاد الوقت الذي تقضيه ابنتي مع أصدقائها، أصبَحَتْ أكثر رغبة في الالتقاء معهم. إلى كم من الوقت تحتاج حقًا للتفاعل الاجتماعي على أية حال؟». وبالمثل، اشتكى والدا صبي مراهق أنه: «بمجرد أن يعود ابننا إلى المنزل من المخيم، فإنه يمسك الهاتف في الحال ليتصل بالأطفال الذين كانوا بصحبته للتو. مع أن أسرته هي التي لم يرها منذ أسبوعين». دائمًا ما يزداد الهوس بالتواصل مع الأقران سوءًا بعد التعرف على الأقران، سواء كان ذلك

في المدرسة، أو في أوقات اللعب، أو حفلات المبيت، أو المعتكفات الدراسية، أو النزهات، أو المخيمات. وإذا أُشبِعَت حاجة التواصل مع الأقران، فإن فترات التفاعل مع الأقران ستؤدي تلقائيًّا إلى زيادة فترات اللعب الذاتي، أو العزلة الإبداعية، أو التفكير الفردي.

يخلط العديد من الآباء بين هذا السلوك المتعطش والحاجة الحقيقية إلى التفاعل مع الأقران. كثيرًا ما أسمع هذه الجملة مع بعض الاختلافات: «ولكن ابني مهووسٌ تمامًا بالاجتماع مع أصدقائه. سيكون من القسوة حرمانه من ذلك». في الواقع، سيكون الأشد قسوةً واستهتارًا أن نتساهل مع ما يغذي هذا الهوس بكل وضوح. إن الارتباط الوحيد الذي يحتاج إليه الأطفال بصدق هو ذلك الذي يرعاهم، ويمنحهم الرضا والطمأنينة. وكلما كان الطفل أكثر تطلبًا، أشار ذلك إلى أنه يعاني هَوَسًا أهوج. إن ما يظهره الطفل ليس قوةً، بل هو حالة من اليأس، بسبب الجوع الذي يزداد شدةً بزيادة التواصل مع الأقران.

الأطفال المتوجهون نحو الأقران لا يستطيعون التجاوز

لقد انصَبَّ تركيزي حتى الآن في هذا الفصل على إشباع الجوع إلى الارتباط، باعتباره السبيل إلى تحرير الطفل من الانشغال بالارتباط. ومع ذلك، فهناك أشخاص نضجوا جيدًا دون أن يتمتعوا قط –كأطفال– بالارتباط الداعم مع شخص بالغ. كيف يحدث ذلك؟ التفسير هو أن هناك مفتاحًا ثانيًا لإطلاق العنان لعملية النضج. يمكن للمرء أن يطلق عليه: «الباب الخلفي للنضج». لأنه أقل وضوحًا بكثير، وهو مناقض للإشباع من أوجه شتى. ويتم بلوغ نقطة التحول العاطفية هذه عندما يدرك دماغ الطفل أن هذا الجوع إلى الارتباط لن يُشبَعَ في هذا الوضع، أو في هذا الوقت، بدلًا من أن يتم إشباعه من خلال أمور مناسبة. تنبع الخيبة التي تستقر بداخله من التطلعات المُحبَطة: عدم جذب انتباه الأب، أو الشعور بتمييز الجدة إياه، أو الفشل في تكوين صداقة، أو عدم وجود شخص يلعب معه. قد يكون ذلك بسبب عدم قدرة الطفل على الهروب من الشعور بالوحدة، أو أن يكون هو الأهم والأفضل، أو أن يكون الأكثر أهمية بالنسبة إلى أحدهم، أو أن يجد حيوانه الأليف المفقود، أو أن يُبقِيَ أمه في المنزل، أو أن يمنع أسرته من الانتقال. ويمكن أن تمتد قائمة الرغبات التي

يُحتمَل أن تخيب، من أبسط الأمثلة، كفشل السعي إلى التقارب مع شخص ما، إلى أكثرها عمقًا، كفقدان الارتباط.

إن الدوائر العاطفية في دماغنا مبرمجة على تحريرنا من السعي وراء التواصل والحميمية، ليس فقط عندما يُشبع الجوع إلى الارتباط، ولكن أيضًا عندما ندرك حقًّا أن تلك الرغبة في إشباعه عديمة الجدوى. إن التخلي عن رغبة نتشبث بها لهو أمر صعب للغاية، حتى على الكبار، سواء كانت تلك الرغبة تتمثل في أن ننال إعجاب الجميع، أو أن يحبنا شخص بعينه، أو أن نصبح أقوياء سياسيًّا. من الممكن أن نمضي قدمًا في حياتنا، ولكن ليس قبل أن نتقبل أن الأمر الذي كنا نحاول القيام به لا يمكن أن يحدث، ثم مكابدة ما يلي ذلك من خيبة أمل وحزن بشكل كامل. وباعتبار الأطفال مخلوقات غير ناضجة، يحكمها الارتباط، فإن الأطفال يشعرون بطبيعة الحال بالرغبة في التمسك بمن يرتبطون به، والتواصل معه، وطلب الاهتمام منه، والاستحواذ عليه. قد تتملك هذه الرغبة من الطفل لدرجة أن تهيمن على حياته. وفقط عندما يدرك الدماغ العاطفي هذه الخيبة بعمق، يفتر الإلحاح، وينتهي التعلق. ومن ناحية أخرى، إذا لم يستوعب الطفل هذه الخيبة، ظَلَّ مُحاصَرًا باحتياجات الارتباط الملحة، واستمر في مطاردة المستحيل.

كما هي الحال مع الرضا، فإن الشعور بالخيبة لا بد أن يتغلغل لكي يحدث التحول في الطاقة، ذلك التحول الذي يؤدي إلى التقبل، والانتقال من الشعور بالإحباط إلى التصالح مع الكيفية التي تسير بها الأمور. ولا يكفي أن يتم استيعاب الأمر عقليًّا، بل يجب الشعور به بشكل عميق وعاطفي في صميم الجهاز الحوفي، وفي صميم الدوائر العاطفية في الدماغ. إن الخيبة شعور يتسم بالهشاشة، ويضعنا في مواجهة مع حدود سيطرتنا، وما لا نستطيع تغييره. ومشاعر الخيبة هذه هي من أول الأمور التي تتلاشى عندما يصبح الطفل محصَّنًا ضد الضعف. ونتيجة لذلك، فإن الأطفال المتوجهين نحو الأقران يفتقرون بشدة إلى مثل هذه المشاعر. وعلى الرغم من حقيقة أن العلاقات مع أقرانهم محفوفة بالإحباط والخسارة، فإنهم نادرًا ما يتحدثون عن مشاعر خيبة الأمل، والحزن، والأسى. وكما سنرى في فصل لاحق، فإن

عدم القدرة على الانتقال من الشعور بالغضب إلى الشعور بالخيبة، أي من «الحنق إلى الحزن»، تعد سببًا كبيرًا في العدوانية والعنف.

إن إحدى أكثر علامات الخيبة وضوحًا في الأطفال هي دموع العين. هناك عضو صغير في الدماغ يدير هذه العلامة المنبهة. إننا غالبًا ما نتعلم إخفاء دموعنا كأفراد بالغين، ولكن الرغبة في البكاء ترتبط بمشاعر الخيبة. بالطبع هناك تجارب أخرى يمكن أن تدفعنا إلى البكاء أيضًا، مثل وجود شيء ما في أعيننا، والبصل، والألم الجسدي، والإحباط. تُثار دموع الخيبة من قبل دوائر عصبية مختلفة، وهي فريدة من الناحية النفسية. إننا نحس باختلافها بينما تسيل على وجنتينا، وتكون مصحوبة بتحول في الطاقة: الشعور بالحزن الصحي، والتراجع عن محاولة تغيير الأشياء. إن دموع الخيبة في الواقع تبعث على تنفس الصعداء، ذلك الشعور بأن شيئًا ما قد بلغ نهايته. إنها تشير إلى أن الدماغ يعي حقًّا أن ثمة شيئًا ما لا يجدي نفعًا، ويجب التخلي عنه. فعلى سبيل المثال، الطفل الذي يُسقِطُ بوظته ولكن يتمكن من بث دموعه وأحزانه بين ذراعي شخص بالغ مُحِب، سيتقبل خسارته، ويبتهج سريعًا، وينتقل إلى مغامرته التالية في العالم.

من الطبيعي أن يتأثر الطفل حد البكاء بسبب التعرض لفشل ما في ارتباطاته. وهنا أيضًا يكون الأطفال المتوجهون نحو الأقران بعيدين كل البعد عن الفطرة. إنهم أكثر ميلًا إلى عدم البكاء عندما يتعلق الأمر بالخيبة، وكلما ساءت الأمور في علاقاتهم مع أقرانهم، ترسخت مقاومتهم اللاواعية لتقبل فشل الأمور. عندما نتوقف عن البكاء، يبدو الأمر وكأن قدرة الدماغ على معالجة العواطف -التي عادةً ما تكون مرنة، وسريعة التجاوب للغاية- أُصِيبَت بالجمود. إنها تفقد مرونتها، وقدرتها على التطور. ويستحيل النضج من دون الخيبة، تمامًا كما يستحيل من دون الإشباع.

التوجه نحو الأقران يسحق التَّفَرُّد

إن التوجه نحو الأقران يهدد النضج بطريقة مهمة أخرى: إنه يسحق التَّفَرُّد. قبل أن نستكشف السبب، يجب أن نشير بإيجاز إلى الفارق المهم بين التفرُّد والفردانية. إن التفرُّد هو ثمرة عملية التحول إلى شخصية مستقلة

نفسيًّا، التي تُتوَّج بالازدهار التام لتميز المرء. ويطلق علماء النفس على هذه العملية مسمى التمايز، أو التميز الفردي. فكون المرء فردًا يعني أنه يمتلك تصوراتٍ وأفكارًا وحدودًا شخصية. ويعني أن يُقَدِّر المرء تفضيلاته، ومبادئه، ومقاصده، ووجهات نظره، وأهدافه. كما يعني أن يحتل المرء مساحة لا يشغلها أحد غيره. إن الفردانية هي الفلسفة التي تضع حقوق ومصالح الفرد فوق حقوق ومصالح المجتمع. أما التفرُّد –في المقابل– فهو أساس المجتمع الحقيقي، لأنه لا يمكن سوى للأفراد الناضجين بحق أن يتعاونوا بشكل كامل بطريقة تحترم وتقدر تميز الآخرين. ومما يثير العجب أن التوجه نحو الأقران قد يدعم الفردانية، حتى في الوقت الذي يُقَوِّض فيه التفرُّد الحقيقي.

إن ظهور النزعة الفردية وتنامي الاستقلالية يتطلبان الحماية، سواء من ردود أفعال الآخرين، أو من قوة رغبة المرء في الارتباط بالآخرين بأي ثمن. ثمة شيء شديد الهشاشة يتعلق بالنمو النفسي حديث النشأة بكل تجلياته: الاهتمام، والفضول، والتفرُّد، والإبداع، والأصالة، والدهشة، والأفكار الجديدة، وفعل الأشياء بشكل ذاتي، والتجريب، والاستكشاف، وغيرها من الأمور. يتسم مثل هذا النشوء بطابع متردد وخجول، كسلحفاة تطل برأسها من قوقعتها. إن الاستمرار في جميع إبداعاتنا المعلنة للآخرين يعني التعرض بشكل كامل لردود أفعالهم. وإذا كان رد الفعل شديد الانتقاد، أو السلبية، فإن هذا التعبير عن النشوء سريعًا ما يتلاشى. فالشخص شديد النضج هو وحده القادر على مواجهة ردود أفعال أولئك الذين لا يدركون ولا يقدِّرون استقلالية الفكر والشخصية والتصرف.

من غير المتوقع أن يحتفي الأطفال ببوادر النضج في طفل آخر؛ إن هذه ليست مسؤوليتهم. وعلى أي حال، فهم مدفوعون بالارتباط بدرجة لا تسمح لهم باحترام التفرُّد. كيف يمكن لهم أن يدركوا أن رعاية مقاصد المرء هي بذرة القيم المستقبلية؟ وأن تقسيم العالم إلى أمور «تخصني» وأمور «لا تخصني» ليس فعلًا معاديًا للمجتمع، بل هو البداية الضرورية للتميز الفردي؟ وأن الرغبة في أن تنبع أفعال المرء وأفكاره من ذاته هي السبيل إلى أن يصبح الفرد شخصية مستقلة؟ لا يهتم الأطفال كثيرًا بمثل هذه الأشياء فيما بينهم. إن الأمر يتطلب شخصًا بالغًا حتى يلاحظ بذور النضج، ويفسح

المجال للتفرُّد، ويقدر بوادر الاستقلال. كما يتطلب الأمر شخصًا بالغًا كي يرى التفرُّد على أنه أمانة مقدسة، وكي يوفر لهذا التفرُّد الحماية التي يتطلبها مهما كانت.

على الرغم من ذلك، فإذا كانت المشكلة الوحيدة هي عدم قدرة الأطفال على تشجيع التفرُّد فيما بينهم والاحتفاء به، لما كان التفاعل بين الأقران صعبًا على الشخصية الناشئة. وللأسف، فإن المشكلة أسوأ من ذلك بكثير. يميل الأشخاص غير الناضجين إلى سحق أي تفرُّد يجرؤ على الظهور. في عالم الأطفال، لا يكون عدم النضج هو مصدر الريبة والخزي، وإنما خطوات الاتجاه نحو النضج. يبدو الطفل الناشئ -ذلك الطفل الذي يتمتع بدوافع ذاتية، ولا تحركه احتياجات التواصل مع الأقران- وكأنه حالة شاذة، غير عادي، وخارج عن المألوف نوعًا ما. إن الكلمات التي يستخدمها الأطفال المتوجهون نحو الأقران لوصف مثل هذا الطفل تكون انتقادية جدًّا، كلمات مثل: غريب الأطوار، وغبي، ومتخلف، ومعتوه، ومهووس. الأطفال غير الناضجين لا يفهمون سبب محاولات هؤلاء الآخرين ممن هم في طور النشأة والنضوج الجاهدة لكي يتطوروا، ولماذا يبحثون أحيانًا عن العزلة بدلًا من الرفقة، ولماذا ينتابهم الفضول، والاهتمام بأمور لا يشاركهم فيها الآخرون، ولماذا يطرحون الأسئلة في الفصل؛ لا بد أن يكون هناك خطب ما في هؤلاء الأطفال، ولهذا يستحقون الإهانة. وكلما اشتد توجه الطفل نحو الأقران، زادت حدة استيائه من تفرُّد غيره من الأطفال، واعتدائه عليهم.

تمامًا كما يكون التفرُّد مُهَدَّدًا خارجيًّا بردود أفعال الأقران، فإنه مُقَوَّضٌ أيضًا، بفعل الديناميات الداخلية عند الطفل المتوجه نحو الأقران. يعد التفرُّد أمرًا شاقًّا على الارتباطات بين الأقران. وقليل من العلاقات المتوجهة نحو الأقران يمكنها أن تتحمل تبعات تحول الطفل إلى شخصية مستقلة، وأن تكون لديه تفضيلاته الشخصية، وأن يبدي رأيه بصراحة، وأن يعبر عن تصوراته، وأن يتخذ قراراته بنفسه. ومتى كان الارتباط بالأقران هو الشغل الشاغل، فلا بد من التضحية بالتفرُّد. في نظر الطفل غير الناضج، تبدو هذه التضحية فعلًا سليمًا تمامًا، فيبدو أن تعديل شخصيته، وتحجيم تعبيره الحقيقي عن الذات، وإخفاء أي آراء أو قيم متعارضة هو التصرف الطبيعي. يجب عليه ألا

يسمح لتفرُّده بأن يقف حاجزًا بينه وبين أقرانه. وبالنسبة إلى الشخصيات غير الناضجة، فإن الصداقة –التي يعنون بها الارتباط بالأقران– يجب أن تأتي دائمًا قبل الذات. إن الشخصيات التي يحكمها الارتباط سوف تتخلى طواعيةً عن حقها الطبيعي في التفرُّد في مقابل بعض إشارات القبول من الأقران، دون أن تكون لديها أدنى فكرة عن الخطيئة الذي اقترفتها للتو على مستوى النمو. ولا تتشكل غريزة الحفاظ على الذات قبل أن تكون هناك قدرة على العيش كشخصية مستقلة.

كيت هي والدة كلير، البالغة من العمر سبع سنوات، التي تُعَلِّمها في المنزل. تقول كيت عن ابنتها: «إنها فتاة صغيرة رائعة ومميزة، في السابعة من عمرها، وتتمتع بروح مستقلة. ولكن بعد أن تقضي عدة ساعات مع أقرانها، تعود بشخصية مختلفة عن طبيعتها، فكلامها ليس من بنات أفكارها، وتتطبع هي بسلوكيات أصدقائها. ثم يستغرق الأمر بضع ساعات حتى تعود شخصية كلير الحقيقية للظهور مرة أخرى. ولكن كلما تقدمت في العمر، زادت قدرتها على فرض شخصيتها».

خلال السنوات التي كانت فيها ابنتي تمارا متوجهة نحو أقرانها، لم تتمكن من التعبير عن آرائها، أو حتى اعتناق أفكار من شأنها أن تؤدي إلى صراع مع أصدقائها. كدت أراها تقلل من شأن نفسها لتلائم معايير أي علاقة كانت تسعى إلى الحفاظ عليها. وعندما شجعتها على أن تتصرف بطبيعتها مع شانون، تلك الفتاة التي أصبحت تمثل توجهها الأساسي، واجَهَتْ صعوبة كبيرة في فهم ما كنتُ أعنيه. وعلى الرغم من أن تمارا كانت متفوقة أكاديميًا، فإنها كانت تشعر بالحرج من إنجازاتها، وبذلت قصارى جهدها لإخفاء علاماتها عن أقرانها. إن أي طفل متوجه نحو الأقران يعرف القوانين: لا تقل أو تفعل أي شيء يمكن أن ينعكس سلبًا على الآخرين ويخاطر بدفعهم بعيدًا عنك. لقد كانت تعرف بالفطرة أن هذه العلاقات لا يمكن أن تتسع لمكانتها، ولكن بدلًا من أن تسمح للنمو بأن يأخذ مجراه، حاولَت أن تُصَغِّر من نفسها بما يكفي لتتوافق معهم.

لقد أصبح العالم الذي يعيش فيه أطفالنا معاديًا بشكل متزايد لعمليات النضج الطبيعية. في العالم المتوجه نحو الأقران، يُنظَرُ إلى النضج والتفرُّد

على أنهما عَدُوًّا الارتباط. ويصبح التميز والتفرُّد عائقين أمام النجاح في ثقافة الأقران.

من الواجب علينا كآباء أن ننمي الارتباطات مع أطفالنا، التي من شأنها أن تُفسِحَ المجال للتفرُّد. ولا ينبغي أن يكون تفرُّد الطفل هو الثمن المفروض لقاء الدفء والحميمية. علينا أن نمنح أطفالنا ما لا يمكنهم أن يمنحوا بَعضَهم إياه: الحرية في أن يكونوا على طبيعتهم في ظل القبول الناشئ عن الحب. وهو قبول لا يستطيع الأقران غير الناضجين منحه، ولكن يمكننا –بل يجب علينا– نحن الكبار أن نقدمه.

***

10

إرث من العدوانية

وقفت هيلين ذات الأعوام التسعة أمام المرآة ذات يوم، وقَصَّت خصلات شعرها الأسود ببشاعة، تاركةً مقدمة رأسها بلا شعر تقريبًا. عندما طلبت والدة هيلين –وهي في ذهول وفزع– معرفة السبب وراء ذلك السلوك، وجهت إليها الطفلة الطرف الحاد من المقص، وصرخت بالشتائم.

إيميلي فتاة تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا، أرسلتها والدتها لمقابلتي لأنها كانت تجرح نفسها وتؤذيها. لم تكن انفعالاتها الهجومية موجهة تجاه نفسها فحسب، بل لم يسلم شيء أو أحد من تهكمها، وعدوانيتها المستشيطة غضبًا باستثناء أصدقائها. حتى إنها سخرت من عناوين الكتب على رفوف مكتبتي. وعلى الرغم من أنني وجدتُ نكاتها مسليةً وذكاءها باهرًا، فقد كان من الصعب تحمل الطريقة التي أهانت بها والديها وأخاها الأصغر. لقد كانت تنتقدهم بلا هوادة، بل وتسيء إليهم باستمرار. كان عداؤها لا يلين.

أنا ووالدا هيلين تجمعنا علاقة صداقة. وفي السنة التي سبقت هذا الانفجار غير المتوقع لعدوانية ابنتهما، مرا بفترة صعبة للغاية في زواجهما.

لقد استُنزِفَ وقتهما وطاقتهما بسبب مشكلات في علاقتهما، تاركين هيلين تستجدي التواصل العاطفي من أقرانها، حيث باءت محاولاتها بالفشل.

كما يتضح لنا من تجربة إيميلي، فحتى لو حققت هيلين هدفها، المتمثل في تَقَبُّل الأقران لها، فإن احتياجاتها العاطفية كانت ستظل غير مُلَبَّاة. لقد أصبحت إيميلي –وهي في العاشرة من عمرها– متوجهةً بشدة نحو الأقران، على إثر معركة والدتها مع السرطان. ونظرًا إلى عدم قدرة إيميلي على التعامل مع الضعف الذي أثاره فيها احتمال فقدانها والدَتَها، فقد تمثَّل رد فعلها في إبعاد والدتها عنها. وشغل الأقران ذلك الفراغ الذي أحدثه تخلِّيها عن ارتباطها بوالدتها. هؤلاء الأقران الآن يعنون كل شيء بالنسبة إليها. وقد تلت ذلك العدوانية التي ظهرت في أفعالها، وأقوالها، ومواقفها. إن مهاجمة أفراد الأسرة يعد أمرًا عاديًّا جدًّا بالنسبة إلى الأطفال المتوجهين نحو الأقران، وهو ما يجرح مشاعر الآباء والأشقاء. وفي معظم الحالات، لن يكون الهجوم جسديًّا، ولكن الاعتداءات اللفظية والعداء العاطفي يمكن أن يكونوا مزعجين ومنفرين، ومؤلمين لأبعد الحدود.

تعد العدوانية إحدى أكثر الشكاوى الشائعة التي يشكوها الآباء والمعلمون في هذه الأيام. لقد كانت هي مصدر القلق الأكبر لآباء كل من كرستين، وميلاني، وشون. وفي حين أن العدوانية لا ترتبط دائمًا بالتوجه نحو الأقران، فإنه كلما زاد توجه الطفل نحو الأقران، زادت احتمالية أن تكون العدوانية جزءًا من الصورة.

إن ازدياد التوجه نحو الأقران في المجتمع يصاحبه ازدياد في عدوانية الأطفال. كان هناك ستة آلاف حادث عنف أبلغ عنها مجلس إدارة مدارس مدينة نيويورك في عام 1993، مقارنةً بحادث عنف واحد في عام1961.[1] وارتفع عدد الاعتداءات الخطيرة بين الشباب الكندي بواقع خمسة أضعاف في السنوات الخمسين الماضية، في حين ارتفع العدد في الولايات المتحدة إلى سبعة أضعاف.[2] وكان تزايد إساءة الأطفال إلى الآباء موضوع تقرير باربرا كوتريل الأخير إلى وزارة الصحة الكندية.[3] وفي أحد الاستطلاعات، أفاد أربعة من أصل خمسة معلمين أنهم تعرضوا لهجوم على يد الطلاب، وإن لم يكن الهجوم جسديًّا، فقد كان من خلال التهديدات التخويفية، والاعتداءات

اللفظية.[4] وعندما يتسع مفهوم العدوانية ليشمل إيذاء النفس، تصبح إحصائيات الانتحار مقلقة للغاية. لقد تضاعفت المحاولات التي أسفرت عن عواقب مميتة ثلاث مرات بين الأطفال في السنوات الخمسين الماضية. وتزايدت حالات الانتحار بين الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين عشر سنوات وأربع عشرة سنة بوتيرة تُعَدُّ الأسرع.[5]

يتردد العديد من الأفراد البالغين اليوم في مواجهة مجموعات الشباب الذين لا يعرفونهم، خوفًا من التعرض للهجوم. ولم يكن مثل هذا التخوف معروفًا تقريبًا قبل جيلٍ أو جيلين. يمكن لأولئك الذين كانوا موجودين منذ زمن بعيد أن يشعروا بالفرق الذي أحدثته بضعة عقود قليلة.

تنتشر تقارير وسائل الإعلام عن العدوانية في الأطفال: «مراهق منبوذ يعود إلى الحفلة حاملًا مسدسًا، ويقتل ثلاثة أفراد». «مهاجمة شاب على يد حشد من المراهقين، تاركين إياه في حالة حرجة». «عصابة من الأطفال، تتراوح أعمارهم بين 10 و13 عامًا، تشارك في جرائم عنف». «طالبٌ راسب يعود إلى المدرسة ويقتل معلمًا». وردت حكاية في شهر أكتوبر من عام 2002 عن اعتداء مميت لمجموعة من الشباب تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثامنة عشرة على رجل يبلغ من العمر ستة وثلاثين عامًا في شيكاغو، وقد نقلت وكالة «أسوشيتد برس» تصريحًا عن أحد الشهود يقول فيه: «كانوا يضربونه «بالمجارف، وعلب الحليب، والعصيان»، ويصرخون قائلين: «مهلًا، دعني أستخدم ذلك». لقد كان الأمر أشبه بلعبة بالنسبة إليهم». وفي غضون أسابيع قليلة من ذلك الحادث الدموي، صُدِمَ الشعب الكندي بجريمتي قتل على يد مراهقين في المقاطعات الغربية المجاورة. وعُثِرَ على جثة زوجة تبلغ من العمر تسعة وثلاثين عامًا، وأم لثلاثة أبناء، وسط بقايا حريق مُتَعَمَّد في منزل الأسرة في مابل ريدج، بكولومبيا البريطانية. وبعد بضع ساعات، أوقفت الشرطة مراهقًا في الخامسة عشرة من عمره يستقل سيارة المرأة المقتولة. «كان يقود السيارة، ويدخن سيجارًا. وكان معه خمسة شُبَّان آخرين في السيارة». ووُجِهَت تهمة القتل العمد من الدرجة الأولى إلى الصبي المراهق.

الأمر اللافت في هذه الرواية هو حالة اللامبالاة الواضحة من جانب هذا الصبي القاتل في صحبة أقرانه.[(1)]*

لقد أصبحت الانتهاكات العنيفة التي يقترفها المراهقون في حق بعضهم موضوعًا للعناوين الرئيسية: في مدرسة كولومبين الثانوية في كولورادو، وفي تابور بألبرتا، وفي ليفربول بإنجلترا. ولكن التركيز على الإحصائيات المؤسفة والتقارير الإعلامية عن العنف الدموي هو إغفال للأثر الكلي المترتب على عدوانية الأطفال في مجتمعنا. إن العلامات الأكثر دلالةً على موجة العدوانية والعنف لا توجد في عناوين الأخبار، ولكن في ثقافة الأقران: اللغة، والموسيقى، والألعاب، والفن، ووسائل الترفيه المفضلة. تعكس الثقافة ديناميات المنتمين إليها. وقد باتت ثقافة الأطفال المتوجهين نحو الأقران ثقافة يسودها العنف والعدوانية على نحو متزايد. وتنعكس نزعة العنف في الاستمتاع غير المباشر به، ليس فقط في الموسيقى والأفلام، ولكن أيضًا في ساحات المدارس، وقاعات الدراسة. فالأطفال يؤججون العداوات بين أقرانهم بدلًا من نزع فتيلها، ويشجعون الآخرين على العراك بدلًا من إثنائهم عن العنف. إن أولئك المعتدين ليسوا سوى غيضٍ من فيض، ففي إحدى الدراسات التي أُقيمت في ساحات المدارس، وجد الباحثون أن معظم أطفال المدارس يميلون إلى دعم أفعال التنمر والعدوانية بشكل سلبي، أو تشجيعها بقوة. وقد حاول أقل من فرد واحد من بين كل ثمانية أفراد أن يتدخل لتسوية النزاعات. وهكذا أصبحت ثقافة وسيكولوجية العنف متأصلة للغاية، لدرجة أن الأقران بصفة عامة أبدوا قدرًا أكبر من الاحترام والإعجاب بالمتنمرين مقارنةً بالضحايا.[6]

إن أكثر أشكال عدوانية الأطفال والمراهقين شيوعًا ليست المشاحنات والاعتداءات التي تركز عليها الدراسات أو الإحصائيات، ولكنها الإيماءات، والكلمات، والأفعال الهجومية، التي تمثل أنماط التفاعل اليومية بين الأطفال المتوجهين نحو الأقران. قد تكون الهجمات عاطفية، ويتم التنفيس عنها في شكل عداء، وخصومة، وازدراء. وقد يتم التعبير عنها بإيماءات وقحة، أو

(1) تمت إدانة الصبي المراهق منذ ذلك الحين بالجريمة. إن قصة حياته عبارة عن هجر مبكر، وفقدان متكرر للارتباطات بالكبار، وما ترتب على ذلك من ترسخ في جماعة الأقران.

نظرات امتعاض، أو بالكلمات، من خلال الإهانات والانتقادات الجارحة. قد يتمثل الهجوم في نبرة الصوت، أو في إيماءة ساخرة، أو في نظرات الغضب، أو في لغة الجسد، أو في تعليقٍ تَهَكُّمي، أو في ردة فعل لا مبالية. كما يمكن توجيه العدوانية نحو الآخرين أو التعبير عنها من خلال نوبات الغضب. ويمكن أيضًا توجيهها نحو الذات، كما في جلد الذات بعبارات مثل: «أنا غبي جدًّا». وكراهية الذات، مثل: «أنا أكره نفسي». وضرب الرأس، وإيذاء النفس، والأفكار والدوافع الانتحارية. ويمكن توجيه الهجوم ضد الوجود نفسه، مثل: «سأقتلك»، أو «سأقتل نفسي». كما يمكن أن يكون الهجوم ضد الوجود نفسيًّا أيضًا، كما هي الحال في النبذ، عند التظاهر بأن الشخص الآخر لا وجود له، أو رفض الاعتراف بوجود شخص ما. وتطول القائمة ولا تنتهي. بعبارة أخرى: يتجاوز جوهر العدوانية الصور العنيفة السافرة التي أصبحت محور سياسات «عدم التسامح المطلق» واسعة الانتشار، التي لا طائل من ورائها، التي يجري اعتمادها حاليًّا في المدارس، والمؤسسات الأخرى التي تتعامل مع أعداد كبيرة من الأطفال. وبالنظر إلى الطابع المتفشي للعدوانية، فإن سياسات «عدم التسامح مطلقًا» تعد فكرة سطحية، ومستحيلة التحقيق من الناحية العملية.

إن العدوانية مثل الحب، تتشابه في جوهرها مع الدوافع الكامنة، الأمور التي تحركك. وفي حالة العدوانية، يكون ذلك هو الرغبة في الهجوم. من أين تأتي كل هذه العدوانية؟ وما الذي يدفع العدوانية في الأطفال إلى مستويات أعلى؟ ولماذا يميل الأطفال المتوجهون نحو الأقران إلى العنف؟ لا تكمن إجابات هذه الأسئلة في الإحصائيات، بل في فهم جذور العدوانية، وكيف يرسخ التوجه نحو الأقران لهذه الجذور. ولا يمكننا أن نفهم حقًّا مسألة تفاقم العدوانية في العالم الذي يعيش فيه أطفالنا إلا من خلال فهم العدوانية نفسها.

إن التوجه نحو الأقران ليس هو السبب الجذري للعدوانية، فالأطفال الذين هم في سن الحبو، وفي مرحلة ما قبل المدرسة، وغيرهم من الأطفال غير المتوجهين نحو الأقران تمامًا يمكن أن يتصفوا بالعدوانية. لقد كانت العدوانية والعنف جزءًا من تاريخ البشرية منذ بدء الخليقة. فالعدوانية هي إحدى أقدم المشكلات البشرية، وأكثرها تعقيدًا. أما التوجه نحو الأقران، فهو

حديث نسبيًّا. ولكن التوجه نحو الأقران يشعل نيران العدوانية بقوة، ويُذَكِّي لهيبها لتتحول إلى العنف.

***

القوة المحركة للعدوانية

ما الذي يدفع الشخص إلى الهجوم؟ الإحباط. الإحباط هو وقود العدوانية. وبطبيعة الحال، فإن الإحباط لن يؤدي تلقائيًّا إلى العدوانية أكثر مما يتسبب الإمداد بالأكسجين تلقائيًّا في نشوب الحرائق. وكما سنرى، يمكن أن يؤدي الإحباط إلى نتائج أخرى أيضًا تتعارض تمامًا مع العدوانية. ولا تؤدي زيادة الإحباط إلى العدوانية إلا في غياب حَلٍّ أكثر تحضرًا لهذا الإحباط. ولا يؤدي التوجه نحو الأقران إلى زيادة الإحباط لدى الطفل فحسب، بل إنه يقلل أيضًا من احتمالية إيجاد بدائل سلمية للعدوانية.

الإحباط هو الشعور الذي ينتابنا عندما يفشل شيء ما. قد يكون هذا الفشل متعلقًا بلعبة، أو وظيفة، أو جسد المرء، أو محادثة، أو طلب، أو علاقة، أو ماكينة تحضير القهوة، أو حركة المقص الرياضية. أيًّا كان الأمر، فكلما زادت أهمية أن ينجح «هذا» الأمر بالنسبة إلينا، أصبحنا أكثر استفزازًا عندما لا ينجح. يعتبر الإحباط عاطفة عميقة وبدائية، بدائية جدًّا، لدرجة أنها في الواقع موجودة حتى في الحيوانات. ولا يعد الإحباط شعورًا واعيًا بالضرورة، ولكنه سيحركنا على الرغم من هذا، شأنه في ذلك شأن أي عاطفة أخرى.

هناك العديد من العوامل المثيرة للإحباط، ولكن نظرًا إلى كون الارتباط هو أكثر ما يهم الأطفال –وكذلك العديد من الكبار– فإن أكبر مصدر للإحباط هو الارتباطات غير الناجحة: فقدان العلاقة، والتواصل الفاشل، والانفصال الطويل، والشعور بالرفض، وفقدان شخص عزيز، والشعور بعدم الانتماء، أو عدم التفهم. ونظرًا إلى أننا عادةً لا ندرك الارتباط بشكلٍ واعٍ، فإننا غالبًا لا نعي أيضًا العلاقة بين إحباطنا وفشل ارتباطاتنا.

لقد اتضحت لي العلاقة الوثيقة بين الإحباط المتعلق بالارتباط والعدوانية عندما كان ابني شاي في الثالثة من عمره. كان شاي مرتبطًا جدًّا بي، ولم يشهد فترات انفصال طويلة نسبيًّا عني حتى قَبِلتُ دعوة من جميع أنحاء القارة لتقديم دورة مدتها خمسة أيام للمعلمين. عند عودتي، زادت عدوانية شاي من المستوى الأساسي المناسب لعمره، المتمثل في حادثتين أو ثلاث حوادث في اليوم، إلى أكثر من عشرين إلى ثلاثين حادثة في اليوم. لم أكن في حاجة إلى أن أسأله عن السبب الذي دفعه إلى نوبات الغضب، أو عَضِّ الأشياء وضربها ورميها - صادف أن يكون موضوع الندوة التي قدمتها للتو عن جذور العدوانية والعنف. ولم يستطع أن يخبرني هو الآخر عن السبب. لقد كان الأمر يدور بكل وضوح حول الإحباط المتعلق بالارتباط، الذي كان ينبع من أعماقه. عانت والدة هيلين -الفتاة التي جاء ذكرها في بداية هذا الفصل- اكتئابًا حادًّا عندما كانت هيلين في الثالثة من عمرها. وقد أصبحت منشغلة هي وزوجها عن ابنتهما خلال الأشهر الطويلة المظلمة من اضطراب مزاجها. ثم فجأةً، ودون أي سبب واضح، بدأت هيلين في ضرب الأطفال الآخرين في الملعب، أطفال لم تكن تعرفهم أصلًا. لقد كان إحباطها المتعلق بالارتباط يتحول إلى سلوكٍ عدواني.

عندما يحل الأقران محل الوالدين، يتغير مصدر إحباطهم أيضًا، وسيزداد هذا الإحباط في معظم الحالات بدلًا من أن ينخفض. يشعر الأقران الذين يوجهون ارتباطاتهم الأساسية بعضهم نحو بعض بالإحباط لأنهم يجدون صعوبة في التواصل الوثيق. إنهم لا يعيشون مع بعضهم، وبالتالي يعانون الانفصال باستمرار. ولا توجد أي ثقة مطلقًا في نيل الاستحسان من الأقران، فكونك الشخص المفضَّل اليوم لا يُعَدُّ ضمانًا لأن تكون الشخص المفضَّل غدًا. وإذا كان نيل الاهتمام من الأقران هو الأمر الأهم، فإن الإحباط سيأتي من كل حدب وصوب: عدم الرد على المكالمات، أو الشعور بالإهمال، أو التجاهل، أو استبدال شخص آخر به، أو التعرض للإهانة، أو الانتقاد الجارح. ولا يمكن للطفل أن يقرَّ آمنًا أبدًا، بمعنى أن يشعر بالقبول، أو أن يعتقد أقرانه بأنه مميز. فضلًا عن ذلك، فنادرًا ما تصمد العلاقات بين الأقران أمام الوزن النفسي الحقيقي للطفل. يجب على الطفل التعديل من نفسه باستمرار، مع الحرص على عدم إظهار الاختلافات، أو المعارضة بشدة. ويجب كبت

الغضب والاستياء إذا كان المراد هو الحفاظ على الانسجام. ليست هنالك قاعدة منزلية آمنة، ولا حماية من التوتر، ولا حب رحيم، ولا التزام يُعتَمَدُ عليه، ولا شعورٌ بالمعرفة الوثيقة في العلاقة مع الأقران. يكون الإحباط شديدًا في مثل هذه البيئة، حتى عندما تسير الأمور بشكل جيد نسبيًّا. أضف إلى ذلك بعض الرفض وبعض النبذ، وسترى الإحباط يصل إلى ذروته. لا عجب أن لغة أطفالنا المتوجهين نحو الأقران تتحول إلى لغة بذيئة، وأن سمات موسيقاهم ووسائل ترفيههم تأخذ منعطفات عدوانية. لا عجب أيضًا أن العديد من هؤلاء الأطفال يؤذون أنفسهم، ويشوهون أجسادهم، ويفكرون في الانتحار. ولا يشعر العديد من الأطفال الآخرين بالارتياح مع أنفسهم، وهذا يحدث بصورة أقل وضوحًا، ولكنها أكثر انتشارًا. إنهم ينتقدون صفاتهم انتقادًا شديدًا، بوعيٍ أو من دون وعي. ويُعَدُّ هذا أيضًا شكلًا من أشكال الاعتداء على النفس.

يبحث الأطفال الذين يعانون الإحباط عن فرص للهجوم، وينجذبون بشدة إلى السمات العدوانية في الموسيقى، والأدب، والفن، ووسائل الترفيه. يتذكر المؤلف المشارك لي صدمته عندما بدأ أحد أبنائه -حينما كان على مشارف سن المراهقة- مشاهدة برامج المصارعة العنيفة على التلفزيون، وأخذ يرتدي الأزياء التي تستحضر صورة بطل أفلام الرعب فريدي كروجر، ذي المخالب الحادة الفتاكة. كان هذا الصبي في ذلك الوقت من حياته يفتقر إلى ارتباطٍ آمنٍ بما فيه الكفاية مع والديه، كما كان عالقًا في بعض العلاقات المحبطة للغاية مع أقرانه.

كما عانى العديد من الآباء بشكل مؤسف، فإنه بمجرد أن يعتمد دماغ الطفل على الأقران، يمكن أن تُثير محاولات عرقلة هذه الخطة إحباطًا شديدًا فعلًا. إن الحدود والقيود التي يفرضها الآباء يمكن أن تطلق العنان لسيل من العبارات والسلوكيات الهجومية التي قد تكون مؤلمة للغاية. كان ماثيو، البالغ من العمر أحد عشر عامًا، مثالًا على ذلك. لقد استبدل بوالديه رفيقًا واحدًا، صديقه جيسون. كان الاثنان لا يتفارقان. طلب ماثيو السماح له بالذهاب إلى حفلة الهالوين في منزل جيسون. وعندما رفض والداه، انفجر ماثيو في عداءٍ عاطفي، واعتداء لفظي، مما جعل والديه في خشية مما قد يفعله. هنا قَرَّرا

استشارتي، واكتشفا توجهه الدفين نحو الأقران. لقد كتب ماثيو رسالة مؤلمة إلى والديه، عَبَّرت عن بعض شعوره بالإحباط، وما ترتب عليه من عدوانية.

«الآن، أرجو أن تُفَكِّرا دقيقةً في هذا الوضع. لنقل إن جيسون يريد أن يفعل شيئًا مع شخص ما، فإنه سيتصل بي كالمعتاد. ولكنه لن يكلف نفسه عناء ذلك بعد الآن، لأنكما لا تسمحان لي بالذهاب. لذا، عوضًا عن ذلك، سيتعرف أكثر على أشخاص آخرين، وهو ما يكون عادةً أمرًا مقبولًا، ولكنه الآن لن يكون صديقي. وهذا يثير جنوني لأبعد الحدود! هذا الأمر يجعلني في غاية الغضب، لدرجة أنني أريد أن أؤذي شخصًا ما، وأعني بذلك أن أدمره حقًّا. أقسم بالله إن ابنكما الصغير الذي تحبانه كثيرًا لن يعود له وجود بعد الآن. سوف أقتل نفسي إن اضطررت إلى ذلك! ربما سأقطع شراييني... سأخسر حياتي في اللحظة التي أخسر فيها أصدقائي».

ليست هناك نهاية لوقود نيران العدوانية في طفل متوجه نحو الأقران.

ليس من الضروري أن يؤدي الإحباط حتمًا إلى العدوانية. إن الاستجابة الصحية للإحباط هي محاولة تغيير الأوضاع. وإذا اتضحت لنا استحالة ذلك، أمكننا تقبل الأمور كما هي، والتكيف بشكلٍ خَلَّاق مع أي موقف يصعب تغييره. وإذا لم يحدث هذا التكيف، ظَلَّ من الممكن التحكم في دوافع الهجوم عن طريق تلطيف حدة المشاعر والأفكار، أي من خلال الانضباط الذاتي الناضج. يمكن تمامًا أن يصاب المرء بالإحباط الشديد، ومع ذلك لا يندفع إلى الهجوم. وبالنسبة إلى الأطفال المتوجهين نحو الأقران، من المرجح أن يُحالَ دون العواقب المقبولة للإحباط بطرائق سأشرحها الآن. إن هؤلاء الأطفال يصبحون عدوانيين بطبيعتهم.

هناك ثلاثة أوجه قصور رئيسية في العلاقات بين الأقران، التي تؤدي إلى تراكم الشعور بالإحباط حتى ينفجر في صورة عدوانية.

***

كيف يحرض التوجه نحو الأقران على العدوانية

الأطفال المتوجهون نحو الأقران أقل قدرة على إحداث التغيير

عندما نشعر بالإحباط، يكون أول ما نفكر فيه هو تغيير كل ما يفشل معنا. يمكننا محاولة تحقيق ذلك من خلال توجيه مطالب إلى الآخرين، أو محاولة تغيير سلوكنا، أو من خلال مجموعة متنوعة من الوسائل الأخرى. وبمجرد أن ننتقل إلى حيز الفعل، يكون الإحباط قد أدى واجبه.

المشكلة هنا أن الحياة تجلب لنا العديد من الإحباطات التي تفوق طاقتنا: لا يمكننا تبديل الزمان، أو تغيير الماضي، أو التراجع عما فعلناه. لا يمكننا تجنب الموت، أو جعل اللحظات السعيدة تدوم، أو التحايل على الواقع، أو إنجاح أشياء مستحيلة، أو حث شخص ما على التعاون معنا في حين أنه قد لا يشعر بالرغبة في ذلك. ليس بمقدورنا تحقيق العدل دائمًا، أو ضمان سلامتنا، أو سلامة الآخرين. ومن بين كل هذه الإحباطات التي لا يمكن تجنبها، فإن التهديد الأكبر الذي يواجهه الأطفال هو أنهم لا يستطيعون أن يجعلوا أنفسهم آمنين نفسيًّا وعاطفيًّا. هذه الاحتياجات المهمة للغاية -أن تكون مرغوبًا، ومُرحَّبًا بك، ومحبوبًا، ومميزًا- خارجة عن سيطرتهم.

ما دمنا نحن الآباء نحقق نجاحًا في التمسك بأطفالنا، فإنهم لن يضطروا إلى مواجهة هذا الشعور العميق بالخيبة، وهو شعورٌ أصيلٌ في حياة الإنسان. هذا لا يعني أننا نستطيع حمايتهم إلى الأبد من مواجهة الواقع، ولكن لا ينبغي للأطفال أن يواجهوا تحديات ليسوا مستعدين لها. إن الأطفال المتوجهين نحو الأقران ليسوا محظوظين للغاية. وفي ظل درجة الإحباط التي يشعرون بها، يصبحون في أمس الحاجة إلى تغيير الأمور، وحماية ارتباطاتهم بطريقة ما. يصبح بعضهم متطلبين رغمًا عنهم في علاقاتهم المتبادلة. ويصبح الشغل

الشاغل لبعضهم هو زيادة جاذبيتهم في نظر أقرانهم - ومن هنا تأتي الزيادة الكبيرة في الإقبال على الجراحات التجميلية بين الشباب، وبالتالي أيضًا هوسهم بالأناقة، بما يتماشى مع الموضة في أعمار أصغر وأصغر. ويصبح بعضهم متسلطين، ويصبح البعض الآخر فاتنين، أو مُؤنسين. وبعضهم يفعل المستحيل من أجل أقرانهم، ويتحولون إلى مُسَلِّياتٍ نفسيةٍ ليحافظوا على الشعور بالقرب من هؤلاء الأقران. إن هؤلاء الأطفال يشعرون بالاستياء على الدوام، فهم بعيدون كل البعد عن مصدر سخطهم، ويعترضون على واقع ليست لديهم أي سيطرة عليه. بالطبع قد تحدث نفس هذه الديناميات أيضًا في علاقات الأطفال مع الكبار –وغالبًا ما تحدث– ولكن حضورها مؤكد تمامًا في العلاقات ذات التوجه نحو الأقران.

مهما حاول الطفل المتوجه نحو الأقران تغيير الأوضاع، من خلال فرض مطالبه، أو تغيير مظهره، أو إصلاح الأمور من أجل الآخرين، ومهما أخفى شخصيته الحقيقية، أو قدم تنازلات على حساب نفسه، فإنه لن يجد سوى راحةٍ عابرة. لن يجد أي راحة دائمة من الإحباط المستمر المتعلق بالارتباط، بل سيكون هناك المزيد من الإحباط من الطَّرقِ المستمر على باب المستحيل. وبدلًا من أن ينتهي الشعور بالإحباط، فإنه يخطو خطوة أخرى نحو التحول إلى العدوانية، كما في حالَتَي هيلين وإيميلي، اللتين جاء ذكرهما في بداية هذا الفصل.

الأطفال المتوجهون نحو الأقران أقل قدرةً على التكيف

إن الإحباط الذي يصادف العقبات التعجيزية يُفتَرَضُ به أن يتحول إلى شعور بالخيبة. وبهذه الطريقة، يفضي الإحباط إلى التكيف، مما يدفعنا إلى تغيير أنفسنا عندما لا نستطيع تغيير الظروف التي تحبطنا. إن الطفل الذي يتحول إلى التكيف لا يلجأ إلى الهجوم، فالتكيف والعدوانية –وكلاهما نتيجة محتملة للإحباط– لا يلتقيان.

تتضح دينامية التحول من الإحباط إلى الخيبة هذه أكثر ما تتضح في الأطفال الدارجين. يطلب الطفل الدارج أمورًا لا يرغب الوالد في تلبيتها، أو لا يقدر على الوفاء بها، وعادةً ما يكون ذلك لأسباب وجيهة. بعد بعض

المحاولات الفاشلة لتغيير الأمور، ينبغي أن يبدأ الطفل في البكاء نتيجة الشعور بالخيبة. وتعد هذه الاستجابة أمرًا جيدًا للغاية. تتحول الطاقة الآن من محاولة تغيير الأمور إلى الاستسلام. وإذا تطورت بعض مشاعر الإحباط بالفعل إلى المهاجمة، فإن تلك المشاعر أيضًا ستتحول من الغضب إلى الحزن. ويهدأ الطفل بمجرد أن يحدث التحول إلى مشاعر الخيبة. وعندما لا تتحول مشاعر الإحباط من خلال هذه العملية، لا يتوقف الطفل عن محاولة الحصول على مبتغاه. وما لم يكن الطفل مُشَتَّتًا، أو مُلتهيًا بشيء ما، فمن المرجح أن يستمر في مقاومة مشاعر الخيبة بالهجوم، حتى يتملك الإرهاق منه. إن مشاعر الخيبة هي فقط التي تُمَكِّن الفرد من التخلي عن مسار لا يؤتي ثماره، وتُبَدِّد الإحباط الذي ينطوي عليه الأمر.

يجب أن يستوعب الدماغ أن ثمة أمرًا ما لا يجدي نفعًا. ولا يكفي الاعتقاد بأن هناك أمرًا لا يجدي نفعًا فحسب، ولكن لا بد من الشعور بذلك. لقد مررنا جميعًا بتجربة معرفة أن شيئًا ما لن يجدي نفعًا، ولكننا نستمر في معاودة الفعل نفسه مرارًا وتكرارًا. على سبيل المثال، قال العديد منا –نحن الآباء– لطفل: «لقد قلتُ لك بدل المرة ألف مرة إن...». بدلًا من ذلك، إذا سمحنا لشعورنا بالخيبة بأن يتغلغل داخلنا، فإننا لن نستمر في سلوكياتٍ تربويةٍ نعرف أنها لم ولن تجدي نفعًا، مهما عِدنا وزِدنا فيها.

يعد التكيف عمليةً عاطفيةً لا واعية تمامًا، ولا تنظمها الأجزاء المسؤولة عن التفكير في القشرة الدماغية، ولكن ينظمها الجهاز الحوفي، وهو الجهاز المسؤول عن المشاعر في الدماغ. على سبيل المثال، عندما نفقد أحد أحبتنا، سواء بسبب الموت، أو ببساطة بسبب انتهاء العلاقة، لا يكفي أن نعرف بغيابه كي يحدث التكيف. ولكن يجب أن نتعايش مع هذا عاطفيًّا، من خلال موجات من مشاعر الخيبة. عندما يتغلغل الشعور بالخيبة داخلنا، ونستوعب على أعمق المستويات العاطفية استحالة الحفاظ على الاتصال الجسدي والعاطفي مع شخص رحل إلى الأبد من حياتنا، حينها فقط تنهمر الدموع، ويبدأ التكيف. وقد تستغرق هذه العملية سنوات. أما عندما يرتطم طفل صغير بجدران الخيبة عند رفض رغبته في تناول وجبة خفيفة قبل العشاء، فينبغي أن يستغرق التكيف بضع لحظات فقط، أي يجب أن ينتقل من الغضب إلى

الحزن بمنتهى السرعة. وفي حالة الاضطرار إلى أن يشاركه أخوه في أمه، فقد يستغرق هذا التكيف وقتًا أطول قليلًا. ولكن إذا لم تنهمر دموع الخيبة قط، فإن التكيف لن يحدث. وسواء بكينا أم لم نَبكِ، فإن أبرز المشاعر المرتبطة بالخيبة هي الحزن، والاستياء، والكآبة. ومن حسن الحظ أنه حتى عندما تعلمنا كيف نحبس دموعنا، فإنه ما زال بإمكان الحزن والاستياء تأدية عملهما في تيسير التكيف في حال تمكنا من الشعور بالخيبة في أعماقنا. المشكلة في الأطفال المتوجهين نحو الأقران هي أن مشاعر الخيبة تنطوي على الضعف، فالشعور بالخيبة يعني أن نتصالح مع حدود قوتنا وسيطرتنا. وعند هروب الطفل المتوجه نحو الأقران من الضعف، تكون مشاعر الخيبة هي أول ما يتم كبته، إذ تعتبر دموع الخيبة مبعثًا للخجل في ثقافة اللامبالاة. ويعد الأطفال الذين يعجزون عن الشعور بالخيبة هم الأكثر ميلًا إلى العدوانية.

يؤدي التوجه نحو الأقران إلى الإحباط، ويسلب الدموع التي قد تكون هي الترياق. على سبيل المثال، فقدت هيلين قدرتها على البكاء، وباتت الآن مشحونة بالعداء العاطفي تجاه والدتها. ولم تذرف إيميلي دمعة واحدة على إصابة أمها بالسرطان. وبدلًا من أن تنهمر دموع خيبتها، فقد نزفت قطرات الدم نتيجة جرحها نَفسَها. وبدلًا من أن تشعر بالحزن والاستياء، كانت مشحونة بالتهكم والازدراء. لقد اختارت موسيقى الميتال وما فيها من العنف بدلًا من نوعية الموسيقى الحزينة التي من شأنها أن تعبر عن آلامها وتُسَكِّنَها. ويواجه الأطفال بأعداد متزايدة فشلًا في إصلاح علاقاتهم بأقرانهم، ولكن نظرًا إلى أنهم ذوو مشاعر متحجرة لدرجة لا تسمح بتغلغل الخيبة داخلهم، ينتهي بهم الأمر إلى الاعتداء على أنفسهم والآخرين.

عندما لا يتغلغل الشعور بالخيبة، يكون هناك أيضًا عجز عن التخلي، وعجز عن التسليم بالحدود القائمة. وفي ظل غياب التكيف، لن تكون هناك مرونة في مواجهة الشدائد، ولا حسن تدبير في غياب التوجيه، ولا قدرة على التعافي من جروح الماضي.

إن الأطفال المتوجهين نحو الأقران عالقون بين المطرقة والسندان: المطرقة هي الأمور التي لا يمكنهم تغييرها، والسندان يقع في قلوبهم.

الأطفال المتوجهون نحو الأقران لديهم قدر أقل من المشاعر المختلطة حيال الهجوم

يمكن أيضًا منع تحول الإحباط إلى العدوانية إن تم كبح دوافع الهجوم، وذلك بالاستعانة بدوافع وأفكار ونيات ومشاعر مقابلة لها. يعد التردد أمرًا جيدًا للغاية عندما يتعلق الأمر بالعدوانية. ومن المستبعد أن يشعر الأطفال المتوجهون نحو الأقران بالتردد حيال الهجوم.

إن الأمر الذي يعمل على كبح جماح دوافع الهجوم عادةً هو العزم على عدم الإيذاء، أو الرغبة في الاتصاف بالصلاح، أو الخوف من الانتقام، أو القلق بشأن العواقب. كما إن كبح العدوانية يعكس الشعور بالقلق حيال خسارة أولئك الذين نرتبط بهم، ومشاعر المودة، وحتى الرغبة في ضبط النفس. بمجرد أن تنشأ الرغبة في الهجوم، يكون الأمر الذي يُبقي الطفل مهذبًا هو أن يتم دفعه في الوقت نفسه في اتجاه معاكس. إن الدوافع المتضاربة تستدعي وعيًا حضاريًّا يساعد على ضبط النفس. ومع غياب التردد، وتصدُّر الرغبة في الهجوم، فليس ثمة ما يمنع من التصرف وفقًا للدوافع غير اللائقة.

لماذا تقل احتمالية أن يشعر الأطفال المتوجهون نحو الأقران بالتردد حيال الهجوم؟ أولًا: نظرًا إلى توقف نموهم، فمن المرجح أن يتسموا بطبيعة لا تتقيد بالمشاعر المختلطة والدوافع المتضاربة. هذه هي متلازمة ما قبل المدرسة، التي ناقشناها في الفصل التاسع - الاندفاع المترتب على عدم النضج النفسي. لا يهم ما الذي يعرفه الطفل المندفع، ومدى حسن نيته، ومدى قسوة العواقب، وكم مرة تعرض للوعظ والتوبيخ، فبمجرد أن يتراكم الإحباط بداخله بدرجة كافية، ستطغى رغبته في الهجوم على كل ذلك.

السبب الثاني الذي يجعل الأطفال المتوجهين نحو الأقران أقل ميلًا إلى الشعور بالتردد هو غياب قوة الارتباط المهدئة. كما أوضحتُ في الفصل الثاني، فإن الطبيعة ثنائية القطب التي يتسم بها الارتباط الفطري تدفعنا إلى صَدِّ أولئك الذين لا ننجذب إليهم. وعندما يلتمس الطفل التواصل والحميمية عند الأقران ليشبع جوعه إلى الارتباط، يترك ذلك كل الأفراد الآخرين تقريبًا عرضةً للهجوم: الأشقاء، والآباء، والمعلمين.

إن أولئك الأقران الذين لا يرغب الطفل في الارتباط بهم يتعرضون للهجوم أيضًا. مجددًا، قد تظهر مثل هذه العدوانية في سلوكيات عديدة بخلاف الهجوم الجسدي، مثل: التشهير، والسخرية، والتجاهل، والغيبة، والعداوة العاطفية، والتنابز بالألقاب، والإهانة، والخصومة، والازدراء.

وبالتالي، فإن التوجه نحو الأقران يثير دوافع الهجوم، وفي الوقت نفسه، يرفع الحصانة الطبيعية عن أفراد الأسرة، وغيرهم، من الأفراد البالغين المسؤولين عن الطفل. وبذلك، يزداد قدر إساءة الأطفال إلى آبائهم، وإساءة الطلاب إلى معلميهم.

هناك تأثير مهدئ قوي آخر، وهو الإنذار النفسي. هناك جزء كبير من الدماغ مكرس لعمل نظام إنذار مُحكَم. يعتبر القلق إنذارًا عاطفيًّا ينذرنا بالخطر، سواء خطر الهجوم، أو خطر التهديد بالانفصال عن أولئك الذين نهتم لأمرهم. إن الخوف من الوقوع في المشكلات، والخوف من التعرض للأذى، والقلق حيال العواقب، والقلق حيال خسارة الأحبة، تعد جميعًا آليات يُفترض بها أن تدفع الطفل إلى الحذر. إن الهجوم يعتبر ضربًا من المخاطرة. وبالنسبة إلى طفلٍ قادرٍ على استيعاب المشاعر المختلطة، فإن مجرد التفكير في الأمر يجب أن يثير مشاعر القلق، التي تساعد على كبح جماح عدوانيته.

إن مشكلة الشعور بالقلق هي أنه يجعلنا نشعر أيضًا بالضعف. في الواقع، إن إدراك احتمالية أن يصيبنا شيء سيئ يعد هو جوهر الضعف. ونظرًا إلى هروب الأطفال المتوجهين نحو الأقران من الضعف، فإن العديد منهم يفقدون شعورهم بالخوف. قد يظل بإمكانهم الشعور بالقلق على المستوى الفسيولوجي، ولكنهم لم يعودوا يشعرون بإحساس الخطر، أو الضعف الذي يصاحبه. إنهم لم يعودوا يتحدثون عن الشعور بالخوف، أو التوتر، أو الذعر.

بمجرد أن تتخدر مشاعر القلق، يمكن أن يصبح التفاعل الكيميائي المتعلق بالقلق –اندفاع الأدرينالين– مغريًا، بل ومسببًا للإدمان. إن الأطفال الذين ينغلقون على مشاعرهم كوسيلة دفاعية ضد الضعف يمكن في الواقع أن يلجؤوا إلى المخاطر، من أجل ما تسببه من اندفاع للأدرينالين، وهذا يفسر بلا شك الإقبال الكبير على «الرياضات المتطرفة».

وكلما زادت حدة توجه الطفل نحو الأقران، قلت احتمالية شعوره بالخوف والحذر. تكشف أبحاث الدماغ أن ما يصل إلى ثلث المراهقين الجانحين لدينا لم يعد لديهم نشاط دماغي طبيعي في المنطقة التي من المفترض أن يظهر فيها الإنذار. وفي ظل غياب محفز فعال في الدماغ لتفعيل الإنذار، فمن المرجح أن تنفجر دوافع الشخص للهجوم في صور عنيفة.

يوضح تأثير الكحول هذه العلاقة. يخدر الكحول الشعور بالإنذار، الذي يكبح جماح الدوافع العدوانية، سواء كان الإنذار بشأن التعرض للأذى، أو الوقوع في مشكلة، أو خسارة شخص مهم بالنسبة إلينا. عندما يتناول المرء الكحول، يتم تثبيط أجزاء دماغه المسؤولة عن كبح العدوانية عادةً. ولا ينبغي أن يكون من المستغرب أن يرتبط الكحول بنسب عالية من جرائم العنف.[7] ومع ذلك، فإن الدماغ قادر تمامًا على تخدير شعورنا بالخطر دون أي مساعدة من الكحول، أو غيره من المخدرات، وسيفعل ذلك إذا كانت الظروف ساحقةً للغاية.

إن محاولة إخماد نيران العدوانية في أطفالنا المتوجهين نحو الأقران تعد في حد ذاتها ضربًا من العبث. على كل حال، من غير المرجح أن نغير أساليبنا إلى أن يتغلغل فينا هذا الشعور بالخيبة، ونشعر بالحزن حيال هذا الوضع. إننا نمر بمحنة شديدة مع أطفالنا المتوجهين نحو الأقران. وكلما أصبحوا أكثر توجهًا نحو أقرانهم، زاد ميلهم إلى العدوانية، بل وأصبحوا أيضًا أقل استجابة لممارساتنا التربوية. وكلما كانوا أكثر عدوانية، أصبحنا أكثر نفورًا وغيابًا، تاركين فراغًا أكبر ليشغله أقرانهم. إننا نميل تلقائيًا في ظل هذه الظروف إلى تركيز اهتمامنا وجهودنا على العدوانية، بدلًا من التركيز على المشكلة الدفينة، المتمثلة في ارتباطات أطفالنا الموجهة إلى غير محلها. ومهما كانت المشكلة مزعجة ومستهجنة، فليس بوسعنا أن نضع العدوانية في بؤرة الاهتمام. إن أملنا الوحيد في تغيير الأمور هو استعادة أطفالنا، واستعادة ارتباطهم بنا.

11

صناعة المتنمرين والضحايا

لطالما كان المتنمرون موجودين حولنا، كما يعرف أي شخص على دراية بشخصية فلاشمان المغرورة، والجبانة أيضًا، من رواية «توم براون في المدرسة» الكلاسيكية للأولاد في العصر الفيكتوري. يمكننا جميعًا أن نتذكر حوادث التنمر في طفولتنا، سواء كنا مشاركين فيها، أو شاهدين عليها، أو ضحايا لها. وعلى الرغم من كل ذلك، فإن ظاهرة التنمر لم تصل إلى مثل هذه المعدلات إلا في الآونة الأخيرة، لتصبح محل قلق اجتماعي واسع النطاق. ذكرت صحيفة «نيويورك تايمز» أنه «في واحدة من أكبر الدراسات على الإطلاق عن نمو الطفل، أفاد باحثون في المعاهد الوطنية للصحة بالولايات المتحدة أن نحو ربع جميع الأطفال في المرحلة المتوسطة كانوا إما معتدين، وإما ضحايا (وإما كليهما في بعض الحالات) لممارسات التنمر الخطيرة المستمرة، وهي سلوكيات تشمل التهديد، والسخرية، والتنابز بالألقاب، واللكم، والصفع، والتهكم، والاحتقار».[1]

لقد بات من النادر الآن العثور على إدارة تعليمية في أمريكا الشمالية لم تَرَ أنه من الضروري وضع برامج لمكافحة التنمر، أو نشر مراسيم «عدم التسامح المطلق» ضد سلوكيات التنمر. ومع ذلك، فإن أسباب التنمر لا تزال

غير مفهومة. إن التدابير المقترحة للتعامل مع التنمر عديمة الجدوى كما هو متوقع، لأنها -كالعادة- تسعى إلى معالجة السلوكيات بدلًا من الأسباب. فعلى سبيل المثال، في عام 2001، ذكرت صحيفة «نيويورك تايمز» في تقرير لها أن مجلس شيوخ ولاية واشنطن أصدر تشريعًا يهدف إلى القضاء على هذه المشكلة، وذلك على إثر حادث إطلاق نار مميت في مدرسة ثانوية بسبب حوادث التنمر التي وقعت في مدينة سانتي بكاليفورنيا. وقد ذكر التقرير أن «مؤيدي مشروع القانون يقولون إنه قد يساعد فقط في تجنب وقوع المزيد من حوادث العنف، ولكن المتشككين لاحظوا أن المدرسة الثانوية التي حدث فيها إطلاق النار في كاليفورنيا كانت لديها بالفعل برامج لمكافحة التنمر، بما في ذلك بنود تتعلق بتلقي معلومات مجهولة المصدر حول الطلاب الذين يوجِّهون التهديدات، وبرامج لمساعدة المراهقين على التعايش معًا، مثل برنامج بعنوان (الإهانات تؤلمنا حقًّا)».[2]

في دراسة سبق ذكرها في الفصل السابق، درس باحثون من جامعة يورك أشرطة فيديو لثلاث وخمسين حادثة تنمر في الملاعب بين طلاب المدارس الابتدائية، ووجدوا أنه في أكثر من نصف الحوادث تابع المتفرجون السخرية والعنف بشكل سلبي، بينما شارك بعضهم في الاعتداء على الضحية فيما يقترب من ربع الحوادث.[3]

في عام 1997، كانت إحدى الجرائم التي لفتت أنظار العالم هي جريمة قتل المراهقة رينا فيرك على يد أقرانها في مدينة فيكتوريا بكولومبيا البريطانية، التي أعادت إلى أذهاننا ببشاعة فيلم «أمير الذباب». كانت رينا تبلغ من العمر أربعة عشر عامًا وقت وفاتها، وكان المتهمون بقتلها في مثل سنها، بفارق عام أو عامين. وعلى غرار رواية ويليام جولدنج، انقلبت مجموعة من المراهقين على الشخصية الأكثر ضعفًا في شِلَّتِهم، ولم يتم التنفيس عن سخطهم وغضبهم بالكامل حتى رقد جسدها ممزقًا وغارقًا. يُقال إن أحد القتلة كان يدخن سيجارة وهو يدفع رأس الضحية تحت الماء ببرود. وقد شاهد الاعتداء العديد من الذين لم يشاركوا فيه مباشرةً، ولم يبذل أيهم أي جهد قوي ليتدخل، ولم يتحرك أحد بعد ذلك لإبلاغ السلطات عن الحادث. ولم يكتشف أي شخص بالغ جريمة القتل قبل عدة أيام.

في رواية «أمير الذباب»، تتقطع السبل بمجموعة من فتيان الجوقة البريطانيين في جزيرة استوائية. وبينما يواجهون مصيرهم وحدهم دون رعاية، ينقسمون تلقائيًا إلى متنمرين وضحايا للتنمر، الذي يصل إلى حد القتل. كان التفسير الذي ارتآه الكثيرون لرواية جولدنج هو أن الأطفال يُكِنُّون وحشية جامحة تحت قناع خادع من التحضر، وأن قوة السلطة فقط هي التي يمكنها أن تكبح جماح دوافعهم الفطرية المتوحشة. ويتعزز هذا الانطباع من خلال انتشار التقارير الإعلامية عن الأطفال الذين يقعون ضحية أطفال آخرين. ورغم صحة القول بأن عدم وجود البالغين في حياة الأطفال يعد سببًا رئيسيًا في التنمر، فإن الدينامية الحقيقية للتنمر لا تنطوي على غياب سلطة الكبار، وإنما ندرة الارتباطات بالكبار. ولمزيد من الدقة: يرتبط تراجع سلطة الكبار ارتباطًا مباشرًا بضعف الارتباطات مع الكبار، واستبدال ارتباطات مع الأقران بها. إننا نرى آثار التوجه نحو الأقران في التنمر، كما هي الحال مع إرث العنف عمومًا. وفي الواقع، يمكننا أن نشاهد الظاهرة نفسها في عالم الحيوان، ففي مختبر للقرود في معاهد الصحة الوطنية الأمريكية، تم فصل مجموعة من الرضع عن البالغين، وتربوا فقط بعضهم على يد بعض بشكلٍ افتراضي. وعلى العكس من القرود التي تتربى على يد الكبار، أظهر عدد كبير من هذه الحيوانات المتوجهة نحو الأقران سلوك التنمر، وأصبحت مندفعة، وعدوانية، ومدمِّرة للذات.[4]

في محمية للحياة البرية بجنوب إفريقيا، ساور حراس المحمية القلق حيال مقتل حيوانات وحيد القرن الأبيض النادرة. في بادئ الأمر، أُلقي اللوم على الصيادين، ولكن تبين لاحقًا أن مجموعة من الأفيال الصغيرة المارقة كانت هي المسؤولة عن ذلك. جذب الحادث اهتمامًا بالغًا، لدرجة أنه عُرِضَ تقريرٌ بشأنه في البرنامج التلفزيوني الأمريكي الشهير «60 دقيقة». ويروي حساب على الإنترنت تفاصيل الحادث:

بدأت القصة قبل عقد من الزمان، عندما لم تعد المحمية قادرة على تحمل تعداد الفيلة. قَرَّر الحراس قتل العديد من الفيلة البالغة، التي بلغ صغارها من

العمر ما يؤهلهم للبقاء على قيد الحياة من دونها. وهكذا، كَبُرت الفيلة الصغيرة يتيمة الأب.

مع مرور الوقت، تجول العديد من هذه الفيلة الصغيرة معًا في مجموعات، وبدؤوا في القيام بأشياء لا تقوم بها الفيلة عادةً: أخذوا يرمون وحيد القرن بالعصي والماء، ويتصرفون مثل المتنمرين في الأحياء. كَبُر عدد قليل من الفيلة الذكور الصغار وهم يتسمون بعنف شديد، حيث أسقطوا وحيدي القرن ودهسوهم، أو جثوا عليهم، وأزهقوا أرواحهم.

كان الحل هو إحضار فيلٍ ذكرٍ كبير ليقودهم، ويتصدى لسلوكياتهم المتنمرة. وسرعان ما بسط الذكر الجديد هيمنته على ذكور الفيلة الصغار، ووضع حَدًّا لهم. وتوقف القتل.

في كلتا هاتين الحالتين، نرى أن التنمر بين الحيوانات جاء في عقب تدمير التسلسل الهرمي الطبيعي للأجيال. بالنسبة إلى أطفال البشر أيضًا، تأتي ظاهرة التنمر كنتيجة مباشرة لتخريب التسلسل الهرمي الطبيعي، على إثر فقدان العلاقات مع البالغين. في رواية «أمير الذباب»، يُترَكُ الأطفال لمواجهة مصيرهم وحدهم في أعقاب حادث تحطم طائرة لم ينجُ منه أحد من البالغين الذين يرعونهم. وفي قضية مقتل رينا فيرك بمدينة فيكتوريا، كان كل من الضحية والمعتدين عليها شبابًا من خلفيات عائلية مضطربة، وكانوا شديدي التوجه نحو الأقران، بعد أن فقدوا ارتباطاتهم العاطفية مع الكبار. حتى فلاشمان، ذلك المتنمر من العصر الفيكتوري، كان نتاج نظام أخرج الفتية الصغار من منازلهم، ووضعهم في مؤسسات تهيمن فيها قيم الأقران على علاقاتهم، وحياتهم الاجتماعية. ولطالما كان التنمر سمة متفشية في مدارس الأولاد البريطانيين.

إن المشكلة الأساسية ليست في السلوك نفسه، ولكن في فقدان التسلسل الهرمي الطبيعي للارتباط بالبالغين المسؤولين عن الأطفال. فحينما لا يعود بإمكان الصغار التطلع إلى الآباء لالتماس التوجيه منهم، فإنهم يلجؤون إلى الغريزة والاندفاع. وكما سأشرح لاحقًا، فإن غريزة السيطرة تظهر عند غياب الارتباطات المناسبة. وللأسف، غالبًا ما يتم التغاضي عن ديناميات سلوك التنمر المتجذرة بعمق في الغريزة والعاطفة. إن ما يتضح مباشرةً للعيان، وهو سلوك التنمر، وتأثيره المؤسف على الضحايا، هو فقط ما يثير قلق الجميع.

إن الأمر الذي يسترعي انتباهنا على وجه الخصوص هو تفشي التنمر في مدارسنا. لم تعد الصورة النمطية التقليدية في أمريكا الشمالية عن المتنمر هي أنه شخصٌ غير لائق، ومُهَمَّشٌ اجتماعيًا، ويحتال على الضعفاء والمستضعفين، إلا إنه منبوذ من قبل الجميع. فالمتنمرون ليسوا منبوذين في العالم الذي يعيش فيه أطفالنا، بل غالبًا ما يحظون بجمهور كبير داعم، على الأقل في المدرسة. وجدت دراسة نشرتها جمعية علم النفس الأمريكية في عام 2000 أن «العديد من الأولاد شديدي العدوانية، والمعادين للمجتمع في المرحلة الابتدائية يُكافَؤون بالشعبية والشهرة». كان فيليب رودكين، الأستاذ في جامعة ديوك بولاية كارولينا الشمالية، هو المؤلف الرئيسي لهذا البحث. وقال الدكتور رودكين: «عندما نتصور الأطفال العدوانيين، فإننا نميل إلى رؤية أطفال فاشلين، ومُحتَقَرين، وخارجين عن السيطرة. ولكن نحو ثلث هؤلاء الأطفال العدوانيين هم زعماء الجماعات في الفصول الدراسية. ويمكن أن يكون لهؤلاء الأطفال تأثيرٌ كبير على أقرانهم، وعلى الفصل الدراسي ككل، حتى لو كانوا أقلية، وذلك بفضل مكانتهم العالية».[5]

يشيع الاعتقاد خطأً بأن التنمر يرجع إلى فشل أخلاقي، أو ينبع من سوء المعاملة في المنزل، أو غياب التربية، أو التعرض لمشاهد العنف في وسائل الإعلام الترفيهية. قد تنشأ بعض جوانب التنمر نتيجة لهذه الأسباب، ولكنني مقتنع بأن التنمر نفسه هو في الأساس نتيجة لفشل الارتباط. وفي كل مثال من الأمثلة السابقة، كان الأطفال والحيوانات يعانون اليتم على المستوى الجسدي، أو العاطفي والنفسي. ولدراسة تأثير التنشئة على يد الأقران، فُصِلَت القرود

عن والديها، وقُتِلَ آباء الفيلة لتقليل عددهم، ومات الأفراد البالغون في رواية «أمير الذباب»، وانفصل المراهقون في مدينة فيكتوريا عن آبائهم. لقد عانوا جميعًا –الحيوانات والأطفال على حد سواء– غياب الارتباط بشكل لا يُطاق. وكان سلوكهم المتنمر يعبر عن كائنات غير ناضجة، لم تتنعَّم كما ينبغي بالتسلسل الهرمي الطبيعي للارتباطات. وجميع الأبحاث الموجودة تدعم هذا الاستنتاج بالضبط. ولقد أشارت إحدى الدراسات الواردة في صحيفة «نيويورك تايمز» إلى أنه كلما زاد الوقت الذي يقضيه الأطفال الصغار في صحبة أقرانهم، وبعيدًا عن والديهم، زاد ميلهم إلى تطوير سلوكيات التنمر. وحسب مقال صحيفة التايمز: «كان لدى الصغار الذين قضوا أكثر من 30 ساعة في الأسبوع بعيدًا عن الأم فرصة بنسبة 17٪ لينتهي بهم المطاف متنمرين، ومثيري شغب تقليديين، مقارنة بنسبة 6٪ فقط من الأطفال الذين قضوا أقل من 10 ساعات في الأسبوع في مراكز الرعاية النهارية».[6]

***

هيمنة بلا رعاية

لماذا تعمل ارتباطات الطفل الفاشلة على تهيئته لأن يصبح متنمرًا؟ أو – في هذا الصدد– أن يصبح ضحية؟ لقد أوضحتُ أن الدور الأساسي للارتباط في حياة الإنسان هو تمكين الشخص البالغ الناضج والمربي من الاعتناء بطفل صغير غير ناضج، ومحتاج إلى الرعاية.

وتحقيقًا لهذه الغاية، يعد أول بنود العمل في أي علاقة ارتباط هو إنشاء تسلسل هرمي ناجح. وكما ناقشنا من قبل في الفصل الخامس، ففي ظل الظروف العادية، يقوم دماغ الارتباط بوضع الطفل في مقام التابع، بينما يضطلع الشخص البالغ بالدور المهيمن. ومع ذلك، يمكن تنشيط غريزة الاضطلاع بدور المهيمن أو التابع في أي علاقة ارتباط، حتى لو كان كلا الطرفين غير ناضج، ولا يقدر أي منهما على رعاية احتياجات الآخر. ويتطلع التابع إلى المهيمن لكي يمنحه الرعاية، في حين يتحمل المهيمن مسؤولية سلامة ورفاهية التابع. وفي حالة وجود الأطفال مع البالغين، يكون التقسيم

المناسب للأدوار واضحًا، أو ينبغي أن يكون كذلك. ولكن عندما يُسنَدُ كلا الدورين إلى الأطفال، يمكن أن تكون العواقب كارثية. إن بعض الأطفال يسعون إلى الهيمنة دون تحمل أي مسؤولية عن أولئك الذين يتبعونهم، في الحين الذي يخضع فيه أطفال آخرون لأولئك الذين لا يستطيعون رعايتهم. وتتضح نتيجة التوجه نحو الأقران في أن دوافع الارتباط القوية تجبر الأطفال غير الناضجين، الذين يجب أن يكونوا على قدم المساواة فيما بينهم، على تسلسلٍ هَرَميٍّ غير طبيعي للهيمنة والخضوع.

بعض الأطفال المهيمنين يتحولون بالفعل إلى دور الأم الحريصة، إذ يعتنون بالأطفال الأصغر سنًّا، ويرعون المحتاجين، ويدافعون عن المستضعفين، ويحمون الضعفاء. وهناك قصص تثلج الصدور عن أطفالٍ يتولون رعاية أطفال آخرين في غياب الكبار. وقد يكون هؤلاء الأطفال المتحكمين متسلطين، ومتأمِّرين، وميالين إلى إملاء الأوامر على الأطفال الآخرين. ولكن هذا يحدث بهدف رعاية التابعين لهم، والوفاء بمسؤولياتهم، فلا بد أن يفعل ذلك أحدٌ ما، وهؤلاء الأطفال يرتقون إلى مستوى الحدث. وعلى الرغم من أساليبهم المتسلطة، فإنهم ليسوا متنمرين. فهم لا يسيئون معاملة الضعفاء، وإنما يفعلون ذلك فقط مع أولئك الذين يعبثون مع الأطفال الذين يعتنون بهم. كما إنهم لا يهاجمون الضعف عندما يرونه، وإنما يهاجمون فقط أولئك الذين يستغلون هذا الضعف. إنهم لا يتصفون بخصال لئيمة، وإنما يمتلكون غريزة دفاعية شرسة. وقد يتشاجرون بالفعل أو يتخاصمون، ليس بهدف إبراز مكانتهم، وإنما فقط للدفاع عن التابعين لهم. الرواية الكلاسيكية الأمريكية «أطفال عربة القطار»، لكاتبها جيرترود شاندلر وارنر، هي رواية خيالية محبوبة، عن أطفال يتحملون المسؤولية بعضهم تجاه بعض. يقرر أربعة إخوة وأخوات أيتام بعضهم رعاية بعض بدلًا من البحث عن مأوى عند جدهم، الذي لا يعرفه أيٌّ منهم. حتى إن هنري، الأخ الأكبر سنًّا، يجد عملًا ليساعده في تلبية احتياجات أشقائه.

يصبح الأطفال –أو الكبار– متنمرين عندما لا يقترن السعي وراء الهيمنة بالشعور الغريزي بالمسؤولية عن أولئك الأقل مرتبة في التسلسل الهرمي. وبذلك، تُهَمَّش احتياجات الآخرين، ولا تُلَبَّى، وتُستَغَلُّ الهشاشة بدلًا من

حمايتها، ويثير الضعفُ الاستهزاءَ، وليس المساعدة، وتحل السخرية من الإعاقة محل الإشفاق.

إن الهيمنة هنا لا تستدعي الرعاية، لأن هروب المتنمر من الضعف عادةً ما يكون مستميتًا، لدرجة أنه يصبح متبلدًا أمام مشاعر الرعاية والمسؤولية. إن المتنمرين منغلقون نفسيًّا بالدرجة الأولى أمام الوعي بأي شيء من شأنه أن يزيد من إحساسهم بالضعف - أي شيء من شأنه أن يفضي بهم إلى الشعور الواعي بإمكانية تعرضهم لجروح عاطفية. والمتنمرون لا يبصرون عيوبهم وأخطاءهم. وينظرون إلى القوة باعتبارها ميزة: أن يتجرد المرء من دموعه ومخاوفه. فالاهتمام يعني أن تُكَرِّسَ نفسك عاطفيًّا لشيء أو شخص ما. والشعور بالمسؤولية يعني التصالح مع الشعور بالذنب والعجز. وتتمثل الشعارات التي يتغنى بها المتنمر في عبارات على شاكلة: «لا أبالي»، و«ليس ذنبي».

يظهر التنمر عندما تقترن الحاجة إلى الهيمنة على الأقران –التي يحركها الارتباط– بالقسوة أمام مشاعر الرعاية والمسؤولية، التي يجب أن ترافق الدور المهيمن. إن تجنب المتنمر للضعف ينحرف بالهيمنة إلى اتجاه مدمر. ولا عجب إذن في تطور التنمر في العالم الذي يعيش فيه أطفالنا.

***

ما الذي يدفع المتنمرين إلى الهيمنة؟

إن الشخص المهمين يعد أقل ضعفًا بكثير من الشخص الذي يتخذ موقف التابع، وبالتالي، فإن الأطفال المنغلقين عاطفيًّا على نحو أكبر هم أيضًا الأكثر ميلًا إلى السعي وراء الهيمنة على الآخرين.

من المؤكد أن بعض الأطفال لديهم الاستعداد النفسي ليصبحوا متنمرين قبل أن يكونوا متوجهين نحو الأقران. وفي مثل هذه الحالات، يوفر التوجه نحو الأقران –حتى لو لم يكن هو السبب– فرصةً كافيةً للطفل ليتصرف وفقًا لدوافع التنمر.

في بعض الأحيان، قد يرجع الدافع إلى الهيمنة إلى تجربة مؤلمة عاناها الطفل عندما كان في دور التابع، فعندما يسيء أحد الوالدين أو القائم بالرعاية استغلال مكانته مسؤولًا عن طريق التسلط على الطفل، أو إهانة كرامته، أو إيذائه، لا يكون من المُستَغرَب أن تنمو لدى الطفل رغبة في تجنب موقف التابع بأي ثمن. وفي أي حالة ارتباطٍ جديدة، سوف يسعى الطفل غريزيًّا لاحتلال موقع الصدارة. عندما كان فرانك صبيًّا صغيرًا، عاش مع زوج أم يضربه باستمرار. وعندما حل الأقران محل الوالدين، كارتباطات مهمة بالنسبة إليه، كان هذا الطفل ذو الأعوام الاثني عشر يجاهد ليحتل موقع الصدارة. لقد كان يحاكي ما حدث له بالضبط. وبهذه الطريقة، وليس من خلال الجينات، يمكن للمتنمرين أن يصنعوا متنمرين آخرين.

قد يكون الطفل أيضًا عرضةً لأن يصبح متنمرًا إذا فشل الوالد في منحه الشعور بالطمأنينة تجاه وجود شخص مسؤول عنه، يتسم بالكفاءة واللطف والقوة. إن الطفل، بقدر ما قد يقاوم توجيه الوالدين، ويسعى إلى قدر أكبر من الاستقلالية يفوق قدرته على التحمل، يتوق إلى الشعور بأنه بين يدي شخصٍ قويٍّ وحكيم بما فيه الكفاية ليعتني به. ويبدو أن فشل الوالدين في خلق حالة من الهيمنة في الارتباط آخذ في التفاقم، ويرجع ذلك إلى أسباب عديدة، من بينها الممارسات التربوية المعاصرة، وتدني قيمة الحس التربوي. يبدو أن العديد من الآباء يضعون أطفالهم في الصدارة، بل ويتطلعون إليهم، بحثًا عن توجيهات حول كيفية التربية. ويأمل بعض الآباء في تجنب الاستياء والإحباط من خلال بذل كل ما في وسعهم لتسيير الأمور من أجل أطفالهم. والأطفال الذين تربوا على هذا النحو لا يواجهون أبدًا الإحباط الحتمي، الذي يرافق تقبل الأمور المستحيلة، فهم محرومون من تجربة تحويل الإحباط إلى مشاعر الخيبة، والتجاوز، والتكيف. وهناك آباء آخرون يخلطون بين احترام أطفالهم، وبين إشباع رغباتهم بدلًا من تلبية احتياجاتهم. بينما يسعى آخرون إلى تمكين أطفالهم، من خلال منحهم الخيارات والمبررات، عندما يكون كل ما يحتاج إليه الطفل حقًّا هو السماح له بالتعبير عن إحباطه جراء تَحَطُّم بعض رغباته على صخرة الواقع، وإعطاؤه الحرية للتذمر من شيء لا يجدي نفعًا. وثمة آباء آخرون يعتمدون على أطفالهم لتلبية احتياجاتهم هم. وهناك العديد من الآباء –في ظل المناخ الاجتماعي والاقتصادي غير المستقر تمامًا

اليوم– الذين يكونون حاضرين جسديًا مع أطفالهم، إلا إنهم منشغلون جدًا بضغوط حياتهم، على نحو لا يسمح لهم بأن يكونوا حاضرين عاطفيًا تمامًا.

إذا كان الوالدان متطلبين، أو سلبيين، أو مترددين للغاية، حيث لا يمكنهما فرض هيمنتهما، فإن غرائز الارتباط ستدفع الطفل إلى تولي هذا الدور المهمين بشكل افتراضي. وقد يصبح هؤلاء الأطفال متسلطين ومتحكمين، كما قال طفل يبلغ من العمر خمس سنوات لأمه: «كيف لكِ أن تقولي بأنكِ تحبينني إذا كُنتِ لا تفعلين ما أطلبه منكِ؟». وهمست طالبةٌ أخرى في سن ما قبل المدرسة في أذن والدتها: «إنْ لم تُصغي إلي، فسوف أقتلكِ عندما أكبر». عندما يفشل الآباء في شغل مكانهم الصحيح في العلاقة مع أطفالهم، يصبح الارتباط معكوسًا. وإذا كانت لممارساتي المهنية أي دلالة، فهي أن الأطفال يتجهون إلى التنمر على والديهم بشكل متزايد. وعندما يصبح هؤلاء الأطفال متوجهين نحو الأقران، سيختار دماغهم الدور المهمين بشكل تلقائي. وسيمضون قدمًا في التنمر على أقرانهم.

***

كيف يسعى المتنمرون إلى الهيمنة على الآخرين

إن فرض الهيمنة قد يتخذ أشكالًا عديدة. فأكثر طريقة مباشرة لإعلاء شأن الذات هي التفاخر، أو التباهي، وتقديم الذات على أنها الأعظم، والأفضل، والأهم. ومع ذلك، فإن الطريقة الأكثر شيوعًا لإعلاء شأن الذات هي الحطُّ من شأن الآخرين. وعادةً ما ينشغل المتنمر بالإثبات للآخرين من هو المسيطر، ومن الذي يتحكم فيهم. إن أساليب التنمر كثيرة: التعالي، والازدراء، والإهانة، والتقليل من شأن الآخرين وإهانتهم، والإذلال، والاستفزاز، والإغاظة، والتعيير. يبحث المتنمر بشكل غريزي عن مواطن عدم الثقة بالنفس في الآخرين، ويسعى إلى استغلالها لمصلحته الشخصية. ويشعر المتنمرون بمتعة كبيرة في إظهار الآخرين على أنهم سخفاء، أو أغبياء، أو إذلالهم. ولكي يضخموا أنفسهم، فإنهم يحقِّرون من الآخرين بشكل لا إرادي. وليس عليهم أن يتعلموا

كيفية تحقيق هذه الغايات، فالأساليب المطلوبة تنبع تلقائيًّا من نفسية المتنمر.

إن ما يريده المتنمر هو ما يريده كل طفل بطبيعة الحال: شيء يشبع جوعه إلى الارتباط. وبالنسبة إلى المتنمرين، يجب تحقيق هذا الإشباع بأقل الطرائق عرضةً للضعف. ومن بين طرائق الارتباط الست التي ذكرتها في الفصل الثاني، يعد التشابه مع شخص ما الطريقة الأقل عرضةً للضعف.[1]* وعلى الوجه الآخر من العملة، تصبح الاختلافات هي أول ما يُستَهدَف بالإهانة. إن أي شيء يلفت النظر، وأي شيء يجعل الطفل مميزًا، وأي شيء لا تحترمه ثقافة الأقران، يجعل من ذلك الطفل هدفًا للمتنمر. إن المتنمرين ينفرون من الاختلافات، ويبسطون هيمنتهم من خلال مهاجمة الاختلاف في الآخرين. إحدى طرائق الارتباط الأخرى الأقل عرضةً للضعف هي أن تكون بارزًا، وأن تكون مهمًّا في نظر أحدهم. وفي محاولة المتنمرين للتفوق، يستغلون أي نقيصة ظاهرة في الآخرين، تمامًا كما يسخرون ويقللون من قيمة أي تفوق ملحوظ فيهم. فالمتنمرون لا يطيقون أن يكون أي شخص أهم منهم.

ثمة طريقة أخرى لتحقيق الهيمنة، وهي الترهيب. يحظى المتنمر باليد العليا من خلال إثارة الخوف. لذلك يكون منشغلًا بتخويف الآخرين، عن طريق التهديدات، والتحذيرات، والأكاذيب، وأساليب الترهيب. ولكي يعزز المتنمر مكانته، يجب ألا يُنظر إليه أبدًا على أنه يخاف أي شيء. ويبذل بعض المراهقين أقصى ما في وسعهم لإثبات شجاعتهم، كحرق أو جرح أنفسهم، وإظهار ندوبهم لإثبات عدم خوفهم. ولا ينبغي الاستهانة بقوة هذه الغرائز. والتحدث بالمنطق مع هؤلاء الأطفال يعد أمرًا مستحيلًا، لأن منطقنا يعتبر غير منطقي في نظرهم.

لا شك أن إحدى أكثر الطرائق بدائيةً لفرض الهيمنة تتمثل في اكتساب التفوق البدني. ذكر مراهق كان قد أدلى بشهادته في محاكمة في مدينة تورنتو، حيث اتُّهِمَ هو وثلاثة من أقرانه بضرب صبي يبلغ من العمر خمسة

---

(1) راجع «طرائق الارتباط الست» في الفصل الثاني. إن طرائق الارتباط المعرضة للضعف، مثل الانفتاح والألفة النفسية، هي أمور يبغضها المتنمر.

عشر عامًا حتى الموت، أن أصدقاءه شرعوا في التباهي بعد الاعتداء على الصبي. وقال إنهم كانوا «يعبرون عن إعجابهم بأنفسهم».

كانت هناك عادةً اختلافات كبيرة بين الجنسين في هذه المنافسة من أجل الهيمنة، بالإضافة إلى العديد من القواعد المحددة ثقافيًا لكيفية القيام بذلك. وقد قلل التوجه نحو الأقران من الفروق بين الجنسين، وجرَّد المنافسة من قواعدها المقبولة اجتماعيًا، وجعل السعي لتحقيق الهيمنة أكثر إلحاحًا من أي وقت مضى. إن الفتيات الآن يفرضن هيمنتهن أيضًا من خلال الاعتداء البدني على الآخرين. أحيانًا يُفسر هذا التقاتل بين الفتيات بكونهن فتيات أقل تزمُّتًا وتَكَلُّفًا، وأقل كبتًا مما كنَّ عليه في الماضي - وبعبارة أخرى: يعد تعبيرًا عن «قوة الفتيات». وهذا أبعد ما يكون عن الواقع، فتنمر الفتيات على بعضهن يعد علامةً على الانتكاس العاطفي، وليس التحرر.

ثمة طريقة أخرى لتحقيق الهيمنة، وهي المطالبة بالإذعان، وهو سلوك يميز المتنمر. إن الأطفال ينظرون إلى المتنمر باعتباره شخصًا لن يتنازل عن الحصول على مبتغاه، ولن يتورع عن فعل أي شيء لتحقيق هذه الغاية. إذن ما الذي يجعل المتنمرين متطلبين لهذه الدرجة؟ مجددًا، نحتاج إلى النظر في ديناميات كل من الارتباط والضعف. ورغم أن المتنمرين لا يدركون ذلك، فإنهم غارقون في الإحباط بسبب فقدان ارتباطاتهم بالكبار، وضعف ارتباطاتهم بأقرانهم. ولكونهم منيعين نفسيًا بدرجة لا تسمح لهم بمعرفة سبب سخطهم، فإنهم يطالبون بأمور بعيدة كل البعد عن أسباب إحباطهم. إنهم محاصرون، ولا يمكنهم أبدًا أن يطالبوا بما يحتاجون إليه حقًا: الدفء، والحب، والارتباط. أما الإذعان، أو المظاهر السطحية المعبرة عنه، فيعد بديلًا ضعيفًا. وبالتالي، أيًا كان ما يتلقاه المتنمرون استجابةً لمطالبهم –ومهما تحققت مطالبهم بالكامل– فلا يمكن أبدًا لذلك أن يشبع الجوع المتجذر فيهم للتغذية العاطفية. إن محاولاتهم لإشباع رغباتهم لا تؤتي ثمارها، ولكن بما أنهم لا يستطيعون السماح لأنفسهم باستشعار الخيبة الحقيقية جراء كل ذلك، فلن يمكنهم التحرر مما يعانونه. وتتوالى مطالب المتنمر على الدوام.

إن الإذعان مطلوب لأنه علامة قوية على الولاء والخضوع. ولا يبدو أن المتنمر يهمه إن كانت علامات الإذعان لا تنبع من القلب، وإنما يُمنَحُ إياها

فقط عند الطلب، أو تحت التهديد، فالمتنمرون لا يترددون في المطالبة بما ليس لهم، أو أخذ ما لا يُمنحون إياه عن طيب خاطر. والشعور بالخيبة من مثل هذه المحاولات لا يتغلغل أبدًا، فالمتنمر لا يستطيع تمييز بوادر الإذعان السطحية من الحقيقية، كما لا يستطيع أن يفهم أن منح القرب والتواصل عند طلبهما لا يكون حقيقيًّا، ولا يمكن أن يرضيه أبدًا. ولما كان الإذعان الذي يبتزه المتنمر بالقوة يفشل في إرضائه، فإن كلًّا من جوعه إلى الارتباط وإحباطه يزدادان شدةً أكثر من أي وقت مضى. ولا يمكن للمتنمر أن يحصل على ما يريده حقًّا -علاقات مرضية عاطفيًّا- بهذه الطرق أبدًا.

***

ما الذي يدفع المتنمر إلى الاعتداء؟

إن المتنمر يتحفز للاعتداء إذا لم تتحقق مطالبه، حتى وإن كانت غير واضحة. على سبيل المثال، المتنمرون حساسون جدًّا تجاه عدم الاحترام. حتى مجرد النظر إليه بطريقة غير مناسبة يمكن أن يثير ردة فعل من جانبه. إن السير في ممر يقف فيه أشخاص متنمرون يشبه السير في حقل ألغام، إذ تحاول بحرص شديد تجنب القيام بأي حركة خاطئة، خوفًا من تفجير شيء ما. وللأسف، دائمًا لا تتضح تلك الحركة الخاطئة إلا بعد فوات الأوان. بالنسبة إلى إحدى الأطفال، وهي جوستين، كانت هذه الحركة هي ملامسة طبق فتاة متنمرة في الكافتيريا. وبالنسبة إلى فرانكا، كانت هذه الحركة هي الرقص مع صبي كانت الفتاة المتنمرة في الصف قد اعتبرته ملكًا لها. بالنسبة إلى هاتين الفتاتين، كلفهما خطآهما شهورًا من التهديدات والمضايقات، مما جعل حياتيهما بائستين، وأثَّر على درجاتهما، على الرغم من حقيقة أن كلتا الطفلتين كانت ذكية جدًّا. وعادةً ما كانتا تتمكنان من تجنب طريق الأذى.

لا يتمكن العديد من الأطفال من العيش دون التورط في المشكلات في عالم يهيمن عليه المتنمرون. ولسوء الحظ، يظهر أحد الآثار الرئيسية للتوجه نحو الأقران في تحفيز الدفاعات ضد الحساسية اللازمة لفهم إيماءات العداوة والرفض. وعندما يتجاهل الأطفال صوت نظام الإنذار، يصبحون

أقل قدرة على فهم التلميحات، التي من شأنها أن تدفعهم إلى الحذر. وبهذه الطريقة، فإن التوجه نحو الأقران لا يصنع المتنمرين فحسب، بل يعمل على إعداد الضحايا، فهؤلاء الأطفال التعساء يسيرون في طريق الأذى إلى الأبد. وهكذا كانت قصة رينا فيرك، ضحية الضرب والإغراق في مدينة فيكتوريا. لقد كانت شديدة التوجه على الأقران، ولكنها حَصَّنت نفسها ضد الشعور بالجروح الناتجة عن رفض أقرانها لها. وكلما زاد تعرضها للرفض، حاولت الانتماء بإصرار أكبر. وحتى عند اقتراب النهاية، قيل إنها كانت تستجدي أعداءها ليكونوا لطيفين معها، وتتوسل إليهم بحبها لهم. وبدلًا من أن تشعر بالذعر وتنتقل إلى الحذر، راحت تسير سيرًا أعمى نحو نهايتها. وتتكرر هذه الدينامية –بصور أقل حدة– مئات المرات يوميًّا في ساحات المدارس في جميع أنحاء قارتنا. إن الأطفال يسيرون نحو الخطر لأنهم استطاعوا تجاهل كل من الإشارات الاجتماعية للرفض، والرسائل المعلنة أو غير المعلنة، التي يجب أن تثير قلقهم.

يتمثل الدافع الأساسي الآخر للتنمر –بالإضافة إلى عدم الاحترام أو عدم الخضوع المتوهَّمين– في إظهار الضعف. لا بد ألا يُظهِرَ الطفل أبدًا للمتنمر كيف يمكنه أن يجرحه، وإلا سيدفع ثمن خطئه. فقط أظهر أن ثمة ما يؤلمك، وسينكأ المتنمر جراحك. أو أظهر أن هناك أمرًا ما يهمك، وسيجد المتنمر وسيلة لإفساده. فظهور المرء بمظهر المحتاج، أو المتلهف، أو المتحمس، يجعل منه هدفًا. ومعظم أطفالنا يعرفون ذلك، ويخفون ضعفهم بعناية أمام أولئك الذين قد يهاجمونه. فلا يمكنهم أن يعبروا عن افتقادهم إيانا، وإلا فسيصبحون أضحوكة لأقرانهم. ويجب ألا يعترفوا بأنهم تألموا من تعليق ما، وإلا فسيتم الاستهزاء بهم بلا رحمة. ولا يمكنهم الاعتراف برهافة إحساسهم، وإلا فستستمر المضايقات إلى الأبد. إنهم لا بد أن يتعلموا كيف يخفون خوفهم، وألا يظهروا الانزعاج أبدًا، وأن يتبرؤوا من جراحهم. ومن أجل النجاة في عالم يسوده المتنمرون، يجب على أطفالنا إخفاء أي علامة على الضعف بعناية، ومحو كافة مظاهر الاهتمام. ولا شك أن هذا هو السبب في كون العديد من الأطفال يكبتون أي شعور بالتعاطف مع ضحايا التنمر.

في التسلسلات الهرمية المُختلَّة، التي يخلقها التوجه نحو الأقران، يصبح بعض الأطفال خاضعين. وفي هذا السياق، يكون هؤلاء الأطفال محكومين بالغريزة بقدر أولئك المدفوعين إلى الهيمنة. يظهر الأطفال الخاضعون الاحترام تلقائيًا أمام الرفيق المهيمن. كما يعتبر إظهار الضعف جزءًا من إظهار الخضوع، مثلما ينقلب الذئب في القطيع على ظهره ليكشف عن عنقه للقائد الأقوى. فالذئب يظهر الجزء الأضعف من جسده، مشيرًا بذلك إلى خضوعه. هذا السلوك له جذور عميقة في غريزة الارتباط. وفي إطار الظروف الطبيعية، فإن إظهار المرء ضَعفَه لا بد أن يؤدي إلى تلقي الرعاية. وتصريح المرء بأن ثمة ما يؤلمه، لا بد أن يثير مشاعر الحنان والعطف. ورغم ذلك، يكون هذا الضعف الصريح في نظر المتنمر أشبه بالعلم الأحمر بالنسبة إلى الثور، إذ يؤجج الرغبة في الهجوم. إن كلًّا من الضحايا والمتنمرين لا يتبعون سوى غرائزهم اللاواعية، إلا إن الأمر ينتهي بعواقب كارثية في حق الضحايا.

***

دعم الارتباطات

من ضمن الميول الخبيثة عند المتنمرين، توجد عملية عجيبة أسميها «دعم الارتباطات». إن الشخص السوي عاطفيًا يتعامل مع الارتباطات بطريقة مباشرة، أو وجهًا لوجه، إن جاز التعبير. فهو يعبر عن احتياجاته ورغباته بصراحة، كما يكشف عن ضعفه. بالنسبة إلى المتنمر، يُعتبر السعي إلى القرب بشكل واضح مخاطرةً كبيرةً جدًا. سيكون من المخيف جدًا بالنسبة إلى المتنمر المتوجه نحو الأقران أن يقول: «أنا أحبك». «أنت مهم بالنسبة إلي». «أفتقدك عندما لا تكون هنا». «أريدك أن تكون صديقي». فلا يمكن للمتنمر أن يعترف أبدًا بتعطشه اللامحدود إلى التواصل، ولا يمكنه حتى أن يشعر به عن وعي في معظم الأوقات.

إذن كيف يرتبط المتنمر؟ تذكر أن للارتباط جانبًا سلبيًا وآخر إيجابيًا. لقد وصفت ذلك في الفصل الثاني على أنه طبيعة الارتباط ثنائية القطب. وهنا نجد طريقةً سلبيةً أخرى لتوطيد العلاقة. يحاول المتنمر الاقتراب من

أولئك الذين يتوق إلى التقرب إليهم من خلال الابتعاد عن الأفراد الذين لا يريد التواصل معهم. وعلى الرغم من أن هذا نهج غير مباشر، وأقل فعالية بكثير، فإنه ينطوي أيضًا على مخاطر أقل بكثير من حيث التعرض للأذى، أو الرفض. إنه يسمح للمتنمر بألا يبدو أبدًا وكأنه يهتم بعواقب الأمور، وألا يظهر أبدًا أي استثمار عاطفي في العلاقة المرغوبة. وبدلًا من التعبير عن رغبته العارمة في التواصل مع الفرد المرغوب مباشرة، سيرفض المتنمر التواصل مع الآخرين، متباهيًا بتجاهلهم ونبذهم، خصوصًا في وجود الشخص الذي يلاحقه بشدة. وبدلًا من أن يتشبه بذلك الشخص الذي يرغب سرًّا في ملاحقته، فإنه يقلد الآخرين باستهزاء، ويسخر منهم. ونظرًا إلى أن المتنمرين باردون عاطفيًّا للغاية، حيث لا يمكنهم مصارحة من يهمونهم، فإنهم يخفون الأسرار عن أولئك الذين لا يهتمون بهم، بل وحتى سيخلقون أسرارًا بشأنهم.

هكذا تظهر شخصية المتنمر: يُبعِدُ شخصًا ما ليتقرب من الآخر، ويفيض بالاحتقار هنا ليوطد علاقة هناك، ويتجنب وينبذ بعض الناس ليعزز التواصل مع غيرهم. إن الحب محفوف بالمخاطر، على العكس من الكراهية، وهناك مخاطرة في الإعجاب لا توجد في الازدراء، وثمة ضعف في الرغبة في التشبه بشخص آخر، ولكن السخرية من أولئك المختلفين لا يشوبها أي ضعف. فالمتنمرون يسلكون بالفطرة الطريق الأقل عرضة للخطر للوصول إلى غاياتهم.

غالبًا ما يكون أولئك المتلقون لهذا السلوك المدفوع بالغريزة متحيرين في فهمه. «لم أنا؟»، و«ما الذي فعلته لأستحق مثل هذه المعاملة؟»، و«لماذا يضايقني بينما أحاول أن أهتم بشؤوني فقط؟». لا عجب أنهم يشعرون بالحيرة والارتباك. والحقيقة أن الأمر نادرًا ما يكون متعلقًا بهم، فأولئك المستهدفون ليسوا سوى وسيلة لبلوغ غاية ما. ولا بد لأحد ما أن يخدم هذه الغاية من أجل المتنمر. فالأمر ليس شخصيًّا؛ نادرًا ما يكون كذلك. إن الشرط الأساسي الوحيد للتنمر على أحد ما هو ألا يكون شخصًا يرتبط به المتنمر. ولسوء الحظ، عندما تأخذ هذه البيادق غير المقصودة لذاتها في هذه الاستراتيجية تلك المعاملة على محمل الجد، فإنها تتعرض لدمار نفسي أكبر بكثير. ليس من السهل أن نمنع بعض الأطفال الذين يستهدفهم المتنمرون

من الاعتقاد بأنه ثمة خطب ما فيهم شخصيًّا، أو أنهم مسؤولون بطريقة ما عن الكيفية التي تتم معاملتهم بها. وإذا كان الأطفال المستهدفون غير مُحَصَّنين بارتباطات قوية بالبالغين، فإنهم معرضون بشكل كبير لخطر التعرض للإيذاء العاطفي، أو الانغلاق العاطفي الدفاعي التام، أو الاكتئاب، أو ما هو أسوأ من ذلك.

مع تزايد فئة المتنمرين، ستزداد كذلك احتمالية أن يجد الأطفال أنفسهم مستهدفين. عندما يجتمع طفلان أو أكثر من الأطفال المتوجهين نحو الأقران، فإنهم على الأرجح سيعملون على دعم ارتباطاتهم بعضهم ببعض من خلال نبذ الآخرين. «ألا تكرهينها؟». «ها هو ذاك الفاشل». «يا لها من مغرورة». «هذا الفتى أحمق». ويمكن لمثل هذا الكلام البذيء أن يستمر بلا انقطاع. قد يكون هذا السلوك محيرًا في نظر البالغين، لأن هؤلاء الأطفال أنفسهم يمكن أن يكونوا مهذبين ولطيفين وجذابين في بيئة أخرى. إن بعض شخصيات الأطفال قد تتحول بسهولة في غمضة عين، وهذا يتوقف على الأفراد الموجودين معهم، وفي اتجاه أي قطب –السلبي أم الإيجابي– يتم جذب مغناطيس الارتباط.

***

تغيير المتنمر

من المهم أن نتذكر أن التنمر لا يكون متعمدًا. فالأطفال لا يريدون أن يصبحوا متنمرين، ولا يحتاجون حتى إلى تعلم كيفية ذلك، لأنه يمكن للتنمر أن يظهر بشكل تلقائي في أي ثقافة. ومن الخطأ الاعتقاد بأن السلوك العدواني للمتنمر يعكس شخصيته الحقيقية، فالمتنمرون ليسوا مجرد أشخاص فاسدين، بل هم أشخاص عنيدون، أشخاص لم يتمكن الآباء والمعلمون من إعدادهم ليصبحوا شخصيات مستقلة. إن التنمر هو نتاج التفاعل بين أهم ديناميتين نفسيتين في الدماغ العاطفي عند البشر: الارتباط، والدفاعية. هاتان الديناميتان المؤثرتان تموهان شخصية الطفل الفطرية.

إذا أردنا إنقاذ المتنمر، وجب علينا أولًا أن نوقف المتنمر عند حده - ليس بمعنى تلقينه درسًا، أو معاقبته، أو التقليل من شأنه، ولكن بمعنى إعادة دمجه في التسلسل الهرمي الطبيعي للارتباط. ويتمثل الأمل الوحيد للمتنمر في أن يرتبط بشخص بالغ يكون مستعدًا بدوره لتحمل مسؤولية رعاية احتياجاته العاطفية. إن هذا المظهر الخارجي القاسي يخفي طفلًا يعاني جروحًا عميقة، ووحدة شديدة، ويتلاشى قناع القسوة هذا في وجود شخص بالغ عطوف بصدق. قال لي أحد مرشدي المرحلة المتوسطة: «سألتُ متنمرًا ذات مرة عن شعوره إزاء خوف الجميع إياه، فأجابني: «إنني أمتلك أصدقاء كثر، ولكنني في الواقع ليس لدي أصدقاء على الإطلاق». وبمجرد أن قال ذلك، شرع في البكاء».

حين يتلاشى شعور المتنمر بالحرمان، ولا يكون مضطرًا إلى تدبر أموره لإشباع جوعه إلى الارتباط، يصبح التنمر بلا جدوى. في النسخة السينمائية من رواية «البرجان»، الجزء الثاني من ثلاثية «سيد الخواتم»، نرى مثالًا مؤثرًا على كيفية تحول السلوك العدواني إلى سلوكٍ عديم النفع بالنسبة إلى الشخص بمجرد تلبية احتياجاته من الارتباط. ينخرط جولوم –وهو مخلوق لزج ومخادع، ومحروم عاطفيًا، وملآن بالمرارة والكراهية– في حوار داخلي مع نفسه عندما يصبح مرتبطًا بالهوبيت فرودو، الذي يدعوه جولوم بـ «سيدي». ويتحدث مع ذاته الأخرى المرتابة، المتلاعبة، بل الدموية، قائلًا: «لم نعد في حاجة إليك بعد اليوم، فسيدي يعتني بنا الآن».

باختصار، إذا أردنا أن نصف حقيقة المتنمر، أشرنا إلى غلاف صلب من العواطف الجامدة، يحمي مخلوقًا حساسًا للغاية، يأسره الارتباط، غير ناضج تمامًا، واعتماديًا إلى حد كبير، ويسعى إلى مكانة مهيمنة. وعلى الرغم من أن هذا السلوك قد يكون ناجمًا عن ظروف أخرى، فإنه نتيجة متوقعة للتوجه نحو الأقران، الذي يؤدي بدوره إلى التنمر وتفاقمه، وهو السبب الأكثر شيوعًا للتنمر بين الأطفال اليوم. إن كافة سمات المتنمرين تنبع من تضافر هاتين الديناميتين المؤثرتين: الارتباط الذي يتصف بكونه شديدًا ومعكوسًا في غير محله، والهروب المستميت من الضعف. وتتمثل ثمرة هذه التوليفة في المتنمر: طفل قاسٍ، لئيم، متطلب للغاية، يضايق الآخرين ويسخر منهم،

ويستفزهم، ويهددهم، ويخيفهم. وبالإضافة إلى ذلك، فإن المتنمر حساس تجاه التجاهل، سهل الاستفزاز، لا يخاف، ولا يبكي، ويتغذى على الضعف والهشاشة.

إن التوجه نحو الأقران يخلق كُلًّا من المتنمرين وضحاياهم. لقد كنا نتسم بسذاجة خطيرة عندما تصورنا أن جمع الأطفال معًا سيساعدنا في تعزيز قيم المساواة والتفاهم. ولكننا بدلًا من ذلك مهدنا الطريق أمام بناء تسلسلٍ هرميٍّ جديد ومُدَمِّر. إننا نخلق مجتمعًا يهيئ الأجواء لواقع أشبه برواية «أمير الذباب». إن التوجه نحو الأقران يترك أطفالنا أيتامًا، ويحول مدارسنا إلى دُور أيتام نهارية، إن جاز التعبير. لقد باتت المدرسة الآن مكانًا يجتمع فيه الأطفال المتوجهون نحو الأقران معًا، وتَخْلو نسبيًّا من إشراف البالغين، سواء في غرف الطعام، أو الممرات، أو ساحات المدرسة. ونظرًا إلى ما يحدث من إعادة هيكلة قوية للارتباط على إثر التوجه نحو الأقران، أصبحت المدارس أيضًا مثل مصانع للتنمر - بشكل غير متعمد، وغير مقصود، ولكنه يظل مأساويًّا.

إن معظم النُّهُج المتبعة إزاء التنمر تفشل، لأنها تعجز عن فهم الديناميات الأساسية. فأولئك الذين ينظرون إلى التنمر على أنه مشكلة سلوكية، يعتقدون أنه يمكنهم القضاء على هذا السلوك من خلال فرض العقوبات وتحميل التبعات. إن العواقب السلبية لا تؤتي ثمارها فحسب، بل إنها تغذي الإحباط، وتصيب المتنمرين بنفور أكبر. فالمتنمر ليس هو الذي يتسم بالقوة، وإنما الديناميات التي تخلق هذا المتنمر. وفي ثقافة الأقران، لا يمكن لمخزون الضحايا المحتملين أن ينضب أبدًا أيضًا.

إن الطريقة الوحيدة لتغيير المتنمر هي عكس الديناميات التي صنعته في أول الأمر: إعادة دمج الطفل في تسلسل هرمي مناسب، ثم المضي قدمًا في تلطيف حدة دفاعاته، وإشباع جوعه إلى الارتباط. ورغم أن هذه المهمة قد تبدو شاقة، فإنها الحل الوحيد الذي يتيح فرصة للنجاح. إن الأساليب الحالية التي تركز على تثبيط سلوك التنمر، أو حث الأطفال بدلًا من ذلك على التصرف بطرائق متحضرة فيما بينهم تغفل عن جذور المشكلة: غياب الاعتمادية الهشة على مقدمي الرعاية البالغين. ومن المستبعد أن تُحدِثَ حلولنا فرقًا كبيرًا، إلى أن نرى التنمر على أنه اضطراب في الارتباط، كما هو في حقيقة الأمر.

وبالمثل، فإن أفضل طريقة لحماية الضحايا هي أيضًا دمجهم ثانيةً في الاعتماد على البالغين المسؤولين عنهم، حتى يتمكنوا من الشعور بضعفهم، والبكاء حزنًا على ما لا يصلح لهم. وغالبًا ما يكون الأطفال المتوجهون بشدة نحو الأقران –حيث لا يمكنهم أن يعتمدوا على البالغين– هم الأكثر تعرضًا للخطر.

لقد شاركت مؤخرًا في برنامج تلفزيوني وطني كندي حول التنمر، وقد شمل عددًا من الآباء الذين انتحر أطفالهم كرد فعلٍ على تعرضهم للتنمر. كانت هناك في البرنامج أيضًا فتاة باتت حياتها تعيسة بسبب التنمر. قالت والدة الفتاة إن ابنتها كانت تنفجر في البكاء كل يوم تقريبًا بعد المدرسة، وتتحدث عن تجاربها المؤلمة. وبعد انتهاء الحلقة، أعربت مقدمة البرنامج لي عن قلقها من أن هذه الفتاة قد تكون هي أيضًا عرضةً لخطر الانتحار. وأخبرتها أن الأمر على العكس من ذلك، إذ إن اعتمادها على والدتها، وكلماتها، ودموعها التي فاضت بها في ظل الأمان الذي منحتها إياه علاقتهما، كل ذلك كان هو سبيل نجاتها. إن الأطفال الذين أنهوا حياتهم بالانتحار كانوا مثل ألغاز بالنسبة إلى والديهم. كان انتحارهم مفاجأة تامة. لقد أصبح هؤلاء الضحايا التعساء متوجهين نحو الأقران لدرجة تمنعهم من التحدث مع والديهم حول ما كان يحدث لهم، كما كانوا محصَّنين تمامًا ضد ضعفهم، حيث لا يمكنهم أن ينهمروا في البكاء نتيجة الصدمات النفسية التي مروا بها. وقد تفاقم إحباطهم حتى لم يعد من الممكن كبته. في هذه الحالات تحديدًا، اعتدى الأطفال على أنفسهم بدلًا من الاعتداء على الآخرين. وبهذه الطريقة أيضًا، غالبًا ما ينبت المتنمرون والضحايا من طينة واحدة - كل منهم يفتقر إلى الارتباطات الجيدة مع البالغين الداعمين. وبغض النظر عن التعاسة التي قد يشعر بها الأطفال في بعض الأحيان، فإنهم ليسوا عرضةً لخطر الاعتداء على أنفسهم أو الآخرين ما داموا قادرين على الاعتماد على والديهم، والتعامل مع ما يزعجهم، والاستجابة من خلال مشاعر الخيبة المناسبة.

يرى بعض الناس –بمن فيهم أولئك الذين يُعتبرون خبراء– أن مشكلة التنمر تعد فشلًا في نقل القيم الأخلاقية. هذا الاعتقاد صحيح إلى حد ما، ولكن ليس صحيحًا على الإطلاق بالمعنى المقصود عادةً. لا يكون الفشل من

قِبَلِ تعليم أطفالنا قيم العطف والمراعاة، فهذه القيم الإنسانية تظهر بشكل طبيعي عند الأطفال الذين تتسم مشاعرهم بالعمق والتأثر بما فيه الكفاية. وليست المشكلة في انهيار التربية الأخلاقية للمتنمر، وإنما تكمن المشكلة في انهيار القيم الأساسية المتمثلة في الارتباط والضعف عند التيار العام للمجتمع. وإذا أُخِذَت هذه القيم الأساسية على محمل الجد، فإن التوجه نحو الأقران لن ينتشر، أو يتسبب في وجود المتنمرين والضحايا.

***

12

طلاب غير قابلين للتعلم

كان إيثان طالبًا ماهرًا في المدرسة الابتدائية، حتى وإن لم يكن شديد الاهتمام قط. فقد كان ذكيًا جدًّا. وعلى الرغم من أنه بدا كما لو كان يفتقر إلى حافز للتفوق، فإن والديه ومعلميه كانوا قادرين على التأثير عليه من خلال خططهم المتعلقة بالتعلم والسلوك. لقد وجده المعلمون محبوبًا وجذابًا. وبحلول الوقت الذي جاء فيه والدا إيثان لرؤيتي، حينما أوشك ابنهما على إنهاء الصف السادس، كان امتثاله توقعات البالغين دربًا من دروب الماضي. كان إقناع إيثان بحل الواجبات المدرسية صراعًا لا ينتهي. واشتكى معلموه عدم انتباهه، وأنه لم يعد متقبلًا التعليم. كان مجادلًا ووقحًا في أغلب الأحيان، ولم يتناسب مستوى أدائه مع قدراته. هذا التغير في القابلية للتعلم جاء بالتوازي مع انشغالٍ بالأقران كان قد اكتسبه مؤخرًا. وفي الأشهر القليلة الماضية، تعلَّق إيثان بصديق تلو الآخر، مما جعله يحاكي سلوكياتهم، ويتبنى اهتماماتهم. وعندما تبدأ العلاقة مع زميل له في الانهيار، يستميت بشكل أكبر لإنجاح علاقته مع زميل آخر.

بالنسبة إلى ميا، بدأ التدهور الأكاديمي قبل عام دراسي واحد. وقبل التحاقها بالصف الخامس، كانت تبذل غاية جهدها في دراستها، وكانت ملآنة

بالشغف، وتطرح العديد من الأسئلة الذكية. أما الآن، فقد أصبحت تشتكي شعورها بالملل من موادها الدراسية. علم الوالدان أنها لم تكن تسلم بعض المهام الدراسية، وأن المهام التي كانت تُسلِّمها لم تكن على مستوى جودتها المعتاد، مما أثار انزعاجهما. وكان المعلمون يتصلون للإبلاغ عن نقص انتباه ميا، وافتقارها إلى الحوافز، وكذلك حديثها المستمر مع الأصدقاء في الفصل، وهي شكاوى لم يعتد والداها سماعها. وعندما واجهاها بمخاوفهما، بدت ميا غير مبالية. كما لاحظا أنها أصبحت نادرًا ما تتحدث عن معلميها، أو تتحدث عنهم فقط بعبارات تنم عن الاستهزاء. ولم تعد الواجبات الدراسية تمثل أولوية بالنسبة إليها، لقد كانت الأولوية للتحدث عبر الهاتف، أو التواصل مع صديقاتها عبر الإنترنت. وعندما حاول والداها تحجيم هذه الأنشطة، تحدتهما بوقاحة وبغض لم يشهدا مثلهما قط في الماضي.

تمثل هاتان الحالتان ظاهرةً متفشيةً في ثقافتنا اليوم: الأطفال المتفوقون، ولكن بلا حوافز، الأذكياء، ولكن بلا تحصيل، متوقدو الذهن، ولكنهم يشعرون بالضجر. وعلى الوجه الآخر من العملة، أصبح التعليم مهنةً مرهقةً أكثر بكثير مما كانت عليه منذ جيل أو جيلين. وكما يؤكد العديد من المعلمين في الوقت الحاضر، يبدو أن التدريس يزداد صعوبة، والطلاب يصبحون أقل احترامًا وتجاوبًا. لقد أصبحت الفصول الدراسية غير قابلة للإدارة بشكل متزايد. ومن الواضح أن الأداء الأكاديمي آخذ في التراجع. يبدو أن قدرات تلاميذ المدارس على القراءة قد ضعفت، وذلك على الرغم من التركيز الشديد الذي أولته العديد من المدارس مهارات القراءة والكتابة في السنوات الأخيرة.[1] ومع ذلك، لم يكن معلمونا في يوم من الأيام أفضل تدريبًا مما هم عليه اليوم، ولم تكن مناهجنا الدراسية متطورة كما هي الآن قط، ولم تكن التكنولوجيا لدينا بهذه الاحترافية قط.

ما الذي تغير؟ نعود مرة أخرى إلى التأثير المحوري للارتباط. كانت للتحول في أنماط الارتباط عند أطفالنا آثار سلبية بالغة على التعليم. لا يزال العديد من الآباء والمعلمين يعتقدون أنه بإمكاننا أن نضع طالبًا متفوقًا مع معلمٍ جيد لنحصل على نتائج طيبة. إن الأمور لم تَسِر بهذه الطريقة يومًا قط، ولكن بما أن التعلم كان حاصلًا، فقد أفلتنا بسذاجتنا. وحتى وقت قريب نسبيًّا، كان المعلمون قادرين على ركوب مطية التوجه القوي نحو الكبار،

الذي تولَّد عن الثقافة والمجتمع. ولكن هذا الزمن قد وَلَّى. فالمشكلة التي نواجهها الآن فيما يتعلق بتعليم أطفالنا ليست مشكلة بوسع المال أن يحلها، أو يمكن للمناهج الدراسية أن تتداركها، أو تستطيع تكنولوجيا المعلومات أن تعالجها. إنها أكبر من كل ذلك، إلا إنها أبسط أيضًا.

قال جوته: إن المعرفة لا يمكن وضعها في العقل كما توضع العملات المعدنية في الحقيبة. إن قابلية أي طالب للتعلم تكون ثمرةً للعديد من العوامل: الرغبة في التعلم والفهم، والشغف بالمجهول، والاستعداد لتحمل بعض المخاطر، وتقبل الخضوع للسلطة والتقويم. كما تتطلب هذه القابلية للتعلم أيضًا وجود علاقة مع المعلم، والميل إلى الانتباه، والاستعداد لطلب المساعدة، والتطلع إلى الارتقاء وتحقيق الإنجازات، فضلًا عن الرغبة في العمل. وكل هذه العوامل تضرب بجذورها في الارتباط، أو تتأثر به.

وعند التفحص الدقيق، نجد أربع سمات مهمة وأساسية في تحديد قابلية الطفل للتعلم: الفضول الطبيعي، والعقل التكاملي، والقدرة على الاستفادة من التقويم، والعلاقة مع المعلم. ويعزز الارتباط الصحي كلًّا من هذه السمات، ويقوضها التوجه نحو الأقران.

***

التوجه نحو الأقران يقتل الفضول

في الظروف المثالية، ينبغي أن يكون الفضول المنفتح على العالم هو ما يوجه الطفل إلى التعلم. ولا بد للطفل من طرح الأسئلة قبل الوصول إلى الإجابات، والاستكشاف قبل اكتشاف الحقائق، والتجربة قبل التوصل إلى استنتاجات قاطعة. ومع ذلك، فإن الفضول لا يعد جزءًا متأصلًا في شخصية الطفل. إنه ثمرة عملية النمو - وبعبارة أخرى: هو نتاج التطور المسؤول عن جعل الطفل قادرًا على الاستمرار في الحياة كشخص منفصل ومستقل، ويستطيع التعايش بعيدًا عن الارتباطات.

عادةً ما تكون لدى الأطفال الناشئين بوتيرة سريعة مجالات اهتمام شديد، ويتمتعون بحوافز داخلية للتعلم. إنهم يستمدون قدرًا كبيرًا من الرضا من تكوين فكرة، أو فهم كيفية عمل شيء ما. إنهم يضعون أهدافهم الخاصة حول التعلم. كما إنهم يحبون أن يكونوا مبدعين، ويسعون إلى ضبط النفس. ويستمتع المتعلمون الناشئون بتحمل المسؤولية، ويتحركون تلقائيًّا لاستغلال كامل طاقاتهم الكامنة.

بالنسبة إلى المعلمين الذين يقدرون الفضول، ويرحبون بالأسئلة، ويعطون اهتمامات الطفل الأولوية، يكون التدريس للمتعلمين الناشئين من دواعي سرورهم. وبالنسبة إلى مثل هؤلاء الأطفال، يكون أفضل المعلمين هم أولئك الذين يعملون مرشدين، فيدعمون اهتماماتهم، ويشعلون شغفهم، ويجعلونهم مسؤولين عن تعلمهم. وإذا كان المتعلمون الناشئون لا يؤدون دائمًا بشكل جيد في المدرسة، فمن المحتمل أن يكون ذلك بسبب أن لديهم أفكارهم الخاصة بشأن ما يريدون تعلمه، مما يجعلهم ينظرون إلى المنهج الذي يفرضه عليهم المعلم باعتباره تدخلًا غير مرحبٍ به.

يعد الفضول رفاهيةً من الناحية التنموية، أما الارتباط، فلا غنى عنه. إن الإقدام على اكتشاف المجهول لا يكون مطروحًا ضمن مخطط التطور، وذلك إلى أن تتحرر بعض الطاقة من الاضطرار إلى السعي إلى إيجاد ارتباطات آمنة ومضمونة. وهذا هو ما يجعل التوجه نحو الأقران يقتل الفضول. فالطلاب المتوجهون نحو الأقران ينشغلون تمامًا بالمسائل المتعلقة بالارتباط. وبدلًا من الاهتمام بالمجهول، ينتابهم الملل تجاه أي شيء لا يخدم هدف الارتباط بالأقران. فالملل يعد وباءً متفشيًا بين الأقران.

ثمة مشكلة أخرى تتعلق بالفضول. إن الفضول يجعل الشخص ضعيفًا للغاية في عالم الأقران «اللامبالي». فالأعين المللآنة بالدهشة، والحماس تجاه موضوع ما، والأسئلة حول كيفية عمل الأشياء، والقدرة على ابتكار الأفكار، كلها أمور تُعَرِّض الطفل للسخرية والاستهزاء من جانب أقرانه. إن هروب الأطفال المتوجهين نحو الأقران من الضعف يقتل فضولهم، فضلًا عن تثبيطه لفضول المحيطين بهم. كما أن توجه أطفالنا نحو الأقران يجعل من الفضول فكرةً مهددةً بالانقراض.

***

التوجه نحو الأقران يُبلِّد العقل التكاملي

من المفيد للمرء أن يمتلك عقلًا تكامليًّا –أي عقلًا قادرًا على معالجة الدوافع أو الأفكار المتناقضة– من أجل تحقيق التحفيز الذاتي. بالنسبة إلى الطفل الذي يتمتع بقدرات تكاملية متطورة، فإن عدم الرغبة في الذهاب إلى المدرسة يثير مخاوف بشأن التغيب عن المدرسة، وعدم الرغبة في الاستيقاظ في الصباح، يثير القلق حيال التأخُّر. كما إن عدم الرغبة في الانتباه إلى المعلم تُوَازِنُه الرغبة في التفوق، ومقاومة المرء فِعلَ ما يُؤمَرُ به، يخفف من حدتها الوعي بأن عدم طاعة الأوامر له عواقب غير محمودة.

ولتحقيق التعلم التكاملي، يجب أن يكون الطفل ناضجًا بما يكفي لتحمل الازدواجية في التفكير: تحمل إضمار مشاعر مختلطة، وإعادة النظر في الأمور، والشعور بالتردد. ومن أجل توافر العنصر الملطِّف –ذلك العنصر الذي من شأنه إحباط الدوافع التي تعوق التعلم– يجب أن يتمتع الطفل أيضًا بارتباط جيد. ويجب أن يكون قادرًا على الشعور بعمق وتأثر. على سبيل المثال، يجب أن يحظى الطفل بارتباط قوي بما يكفي للاهتمام بما يفكر فيه الكبار، والداه ومعلموه، والاهتمام بتوقعاتهم، والاهتمام بعدم إزعاجهم، أو إغضابهم. ويحتاج الطالب إلى أن يكرس نفسه عاطفيًّا للتعلم، وأن يكون متحمسًا لاكتشاف الأشياء. إن عدم التأثر –عدم الاهتمام– يعوق التعلم، كما يدمر القابلية للتعلم.

إن الطلاب يحتاجون إلى ذكاء تكاملي من أجل تحقيق نوع من التعلم يتخطى مجرد الحفظ والتسميع الروتيني. ومن أجل حل المشكلات، يحتاج الطالب إلى استيعاب أكثر من بُعدٍ واحدٍ. كما يحتاج الطالب، بخلاف معرفة الحقائق المجردة، إلى اكتشاف الأفكار، وتبيُّن المعاني العميقة، وفهم الاستعارات، وإماطة اللثام عن المبادئ الكامنة. يجب على الطالب أن يعرف كيفية اختصار مضمون المعلومات إلى خلاصته، أو ربط الأمور ببعضها في كُلٍّ متناسق. إن أي شيء يتجاوز التفكير المحسوس يتطلب عقلًا تكامليًّا. فتمامًا كما تحتاج القدرة على تقدير الأبعاد إلى عينين، فإن التعلم المتعمق يتطلب القدرة على رؤية الأشياء من وِجهَتَي نظر على الأقل. إذا كان العقل

يمتلك عينًا واحدةً فقط، فليس ثمة عمق أو أفق، ولا ربط أو تلخيص، ولا قدرة على إدراك معانٍ وحقائق أعمق. ولن يؤخذ السياق بعين الاعتبار، ولن يمكن تمييز الشكل من الخلفية.

ولسوء الحظ، لا يُتَرجَم الذكاء المحض عند الطالب إلى ذكاء تكاملي بصورة تلقائية. وكما ناقشت في الفصل التاسع، فإن الأداء التكاملي يعد ثمرةً للنضج - تلك العملية نفسها التي يعوقها التوجه نحو الأقران، فالأفراد غير الناضجين يعجزون عن تطوير القدرات التكاملية.

إن مناهجنا التربوية والدراسية تعتبر القدرات التكاملية عند الأطفال أمرًا مسلمًا به. وعندما نفشل بدورنا معلمين في استيعاب ما نفتقر إليه، فإننا نفشل أيضًا في إدراك ما نواجهه عند محاولة السيطرة على تفكير الأطفال أو سلوكهم. نحاول أن نحملهم على فعل أشياء تعجز عقولهم عن فعلها، وعندما نفشل في ذلك، نعاقبهم على هذا الفشل. إن أولئك الذين يتمتعون بعقول تكاملية يفترضون أنه بإمكان الجميع أن يفكروا بالطريقة نفسها. ولكن هذا الافتراض لم يعد يتناسب مع نوعيات الطلاب التي نقابلها في فصولنا الدراسية اليوم. فالأطفال الذين يفتقرون إلى الذكاء التكاملي لا يتقبلون هذا الأسلوب التعليمي، ويحتاجون إلى التعامل معهم بشكل مختلف. ومن المرجح أن يكون الطلاب المتوجهون نحو الأقران من المتعلمين العاجزين، المتطرفين في أفكارهم، ومشاعرهم، وأفعالهم.

***

التوجه نحو الأقران يُقَوِّض التعلم التكيفي القائم على التجربة والخطأ

يحدث أكبر قدر من التعلم عن طريق التكيف، ومن خلال عملية تقوم على التجربة والخطأ. نحاول القيام بمهام جديدة، ونرتكب الأخطاء، ونواجه العقبات، ونخطئ في فهم الأمور، ثم نستخلص الاستنتاجات السليمة، أو نجعل شخصًا آخر يستنتجها لنا. يعد الفشل جزءًا أساسيًّا من عملية التعلم،

كما يعتبر التقويم أهم وسيلة تعليمية. إن حالة الهروب من الضعف التي يثيرها التوجه نحو الأقران توجه ثلاث ضربات مدمرة إلى هذا المسار الرئيسي للتعلم.

الضربة الأولى تُوجَّه إلى جزء التجربة في العملية. إن تجربة الأشياء الجديدة تتطلب المخاطرة: القراءة بصوتٍ عالٍ، وإبداء الرأي، واقتحام موقف غير معتاد، وتجربة فكرة ما. وهذه التجارب هي مثل حقل ألغام يحتوي على أخطاء محتملة، وردود فعل غير متوقعة، واستجابات سلبية. وعندما يكون الضعف أشد بالفعل مما يمكن تحمله، كما هي الحال بالنسبة إلى معظم الأطفال المتوجهين نحو الأقران، تبدو هذه المخاطرات غير مقبولة.

الضربة الثانية تصيب قدرة الطفل المتوجه نحو الأقران على الاستفادة من الخطأ. قبل أن نتعلم من أخطائنا، يجب أن ندركها، وأن نعترف بفشلنا. يجب أن نتحمل المسؤولية إذا أردنا الاستفادة من أخطائنا، كما نحتاج إلى الترحيب بالمساعدة، والنصح، والتقويم. مجددًا، غالبًا ما يكون الطلاب المتوجهون نحو الأقران مُحَصَّنين ضد الضعف، حيث لا يمكنهم أن يدركوا أخطاءهم، أو أن يتحملوا المسؤولية عن فشلهم. فإذا كانت درجات الاختبار سيئة جدًّا، حيث لا يمكن لمثل هذا الطالب أن يتحملها، فإنه سوف يلقي مسؤولية فشله على شيء –أو شخص– آخر. أو إنه سوف ينأى بنفسه عن مواجهة المشكلة. إن أدمغة الأطفال المحصَّنين ضد الضعف تتجاهل أي شيء من شأنه أن يؤدي إلى الشعور بهذا الضعف، وفي هذه الحالة، يكون ذلك الشيء هو الاعتراف بالخطأ والفشل. حتى إن تقويم مثل هذا الطفل بلطفٍ من جانب المعلم أو الوالد قد يهدده بشعور التقصير والإحراج، ذلك الشعور بأن «هناك خطبًا ما بي». إن التعليق على ما ارتكبه هؤلاء الأطفال من أخطاء سوف يثير فيهم ردود فعل مراوغة أو عدائية بكل جرأة. وغالبًا ما يفسر البالغون هذه الاستجابات على أنها وقاحة، ولكنهم في الحقيقة يخدمون بذلك هدف إبعاد هؤلاء الأطفال عن الشعور بضعفهم.

الضربة الثالثة الموجهة ضد التعلم القائم على التجربة والخطأ هي أن الشعور بعدم جدوى تصرف ما لا يترسخ، وذلك عندما يكون الطفل محصَّنا ضد الضعف أكثر من اللازم. وكما أوضحت سابقًا، يجب أن يتحول الإحباط

إلى شعور بالخيبة حتى يتمكن الدماغ من استيعاب فشل شيء ما. (راجع الفصل التاسع). إن استيعاب الخيبة هو جوهر التعلم التكيفي. وعندما تتصف عواطفنا بجمود شديد لا تترك معه مجالًا للحزن أو خيبة الأمل حيال فشل شيء ما، فإننا نتجاوب، ليس من خلال التعلم من خطئنا، وإنما من خلال التنفيس عن الإحباط. وفي حالة الطلاب، سيكون الهدف الخارجي هو المعلم «الغبي»، والواجبات «المملة»، وضيق الوقت. وقد يكون الهدف الداخلي هو الذات، كما هي الحال في عبارةٍ مثل: «أنا غبي للغاية». في كلتا الحالتين، لا يتحول الغضب إلى الحزن، ولا تظهر العاطفة المرتبطة بمكابدة الخيبة حقًّا. ولا تتغير عادات العمل، ولا تُعَدَّل استراتيجيات التعلم، ولا يتم التغلب على العقبات. إن الأطفال العالقين في هذه الحالة لا يطورون سمة المرونة من أجل التعامل مع الفشل والتقويم. إنهم محاصرون بكل شيء يبوء بالفشل. ومن واقع ممارساتي المهنية، أرى أعدادًا متزايدة من الأطفال الذين يفعلون الأشياء نفسها مرارًا وتكرارًا، على الرغم من الإخفاقات المتكررة.

***

التوجه نحو الأقران يحول الطلاب إلى متعلمين معتمدين على الارتباط، حتى عندما يربطهم بالمرشدين غير المناسبين

كما ذكرت سابقًا في هذا الفصل، هناك أربع عمليات تعليمية أساسية فقط، وذلك من المنظور التطوري. لقد ناقشنا كيف يعمل التوجه نحو الأقران على تقويض ثلاثٍ من هذه العمليات: التعلم النشوئي، والتعلم التكاملي، والتعلم التكيفي. فما دام الأطفال متعلمين ناشئين، فمن الممكن أن يتعلموا على يد معلمين يعطون اهتماماتهم الأولوية. ويمكن وضع الأطفال الذين يتمتعون بقدرات تكاملية في مواجهة مع العناصر المتضاربة التي ينبغي مراعاتها عند حل مشكلة ما. ويمكن تعليم الأطفال المتكيفين من خلال التجربة والخطأ والتقويم. وقد يتعلم هؤلاء الأطفال حتى على يد من لا يرتبطون بهم. وعندما

تتم عرقلة هذه العمليات التعليمية المهمة، يصبح التعلم معتمدًا على ديناميةواحدة فقط: الارتباط. إن الطلاب الذين يعانون انعدام قدرتهم على النشوء، أو التكامل، أو التكيف، لا يمكنهم أن يتعلموا إلا في حالة وجود الارتباط بطريقة أو بأخرى. قد لا تنبع رغبتهم في التعلم من داخلهم، ولكنها يمكن أن تكون مؤثرةً إذا كان هناك دافع قوي يحفزهم ليكونوا قريبين من الشخص البالغ الـمُعلم، سواء كان ذلك المدرس في الفصل الدراسي، أو الوالد الذي يتولى التعليم المنزلي، أو صديق الأسرة، الذي قد يؤدي دور المرشد.

يعتبر الارتباط هو أقوى عملية في التعلم دون منازع، كما إنه كفيل بإنجاز المهمة بلا شك، حتى من دون الاستعانة بالفضول، أو القدرة على الاستفادة من التقويم. ولطالما كان هناك طلاب يفتقرون إلى الأداء النشوئي، والتكيفي، والتكاملي. وعلى الرغم من عجزهم عن استغلال كامل طاقاتهم، فإن أداءهم غالبًا ما يكون جيدًا. يتميز المتعلمون المعتمدون على الارتباط بدرجة عالية من التحفيز بطرائق قد لا يتحفز بها الطلاب الآخرون. إنهم -على سبيل المثال- أكثر ميلًا إلى التعلم من خلال التقليد، والنمذجة، والحفظ، والاسترشاد. ويرغب الطلاب المعتمدون على الارتباط أيضًا في الارتقاء بمستواهم، كما إنهم سيتحمسون للعمل من أجل نيل الاستحسان، والتقدير، والمكانة المرموقة. ولا تظهر المشكلة عندما يقتصر الأطفال على التعلم المرتكز على الارتباط، ولكن عندما يصبحون مرتبطين بالأقران بدلًا من البالغين الناصحين.

كان إيثان -على سبيل المثال- متعلمًا معتمدًا على الارتباط بصورة حصرية تقريبًا في البداية. لقد كان يحظى بقدرٍ قليلٍ من الاهتمام الناشئ بالأشياء التي لم يكن على دراية بها. كما كان أداؤه التكيفي محدودًا، حتى قبل أن يصبح متوجهًا نحو الأقران. وهكذا، كان إيثان قابلًا للتعلم فقط من خلال الارتباط، وفقط على يد المعلمين الذين شعر أنه قريب منهم. لقد مر بتجربة مؤسفة في الصف الثاني، وهو العام الذي لم يتمكن فيه من بناء علاقة مع معلمه. لم يكن توجهه الذي اكتسبه مؤخرًا نحو أقرانه هو ما جعله متعلمًا يعتمد على الارتباط، ولكن كان ما فعله هذا التوجه هو أنه دمَّر قدرة إيثان على التعلم المرتكز على الارتباط تمامًا. إن الطفل الذي اعتاد التعلم فقط من

خلال الارتباط، الذي يُساء توجيه غرائزه بسبب التوجه نحو الأقران، سيعاني تراجع قابليته للتعلم بشكل كبير، مهما كانت إمكاناته الفطرية واعدة.

في المقابل، كانت ميا قابلة للتعلم قبل أن تكون متوجهة نحو الأقران، حتى على يد أولئك الذين لم تكن مرتبطة بهم. لقد قضى التوجه نحو الأقران على فضولها، وأصاب عقلها التكاملي بالبلادة، ودمَّر قدرتها على التعلم من التجربة والخطأ. لقد حولها التوجه نحو الأقران إلى متعلمة تعتمد على الارتباط بشكل افتراضي. لقد سخرت ميا ذكاءها في ذلك الوقت على هدف واحد فقط: القرب من أصدقائها.

إن بعض الأطفال يتخذون قرار «النزول بمستواهم» عن وعي تام. يتذكر روس، البالغ من العمر تسعة وعشرين عامًا، الذي يعمل الآن مدرب لياقة بدنية، قائلًا: «في الصفين السادس والسابع، كنت دائمًا الأول على صفي. لقد حصلت على جميع الجوائز. وفي الصف الثامن، عندما بلغتُ الثالثة عشرة من عمري، بدأ الأطفال الآخرون في السخرية مني. وفجأةً، لم أعد ذكيًّا، وإنما معقدًا، مهووسًا بالدراسة. لم يكن هذا رائعًا. أردت أن أكون من ضمن خفيفي الظل، أولئك القلائل المميزين. لقد اخترت أن أندمج معهم، وحرصت على ألا أحصل على علامات ممتازة. كنت أتعمد كتابة إجابات خاطئة في مادة الرياضيات، فقط حتى لا أحصل على الدرجة النهائية. وعلى مر السنين، أدى هذا إلى اكتسابي عادات دراسية سيئة، وفي السنتين الأخيرتين من المرحلة الثانوية، نجحت «خطتي» تمامًا. وحتى في الكلية، استمرت عاداتي الدراسية السيئة، ولم أتمكن قط من إتمام دراستي. والآن، أتمنى لو كنت أكثر تكيفًا مع نفسي عندما كنت مراهقًا، وأقل قلقًا بشأن ما يعتقده أصدقائي عني».

***

التوجه نحو الأقران يُهَمِّشُ الدراسة

بالنسبة إلى أولئك المتوجهين نحو الأقران، تصبح المواد الدراسية غير مهمة، فلا قيمة للتاريخ، أو الثقافة، أو المشكلات الاجتماعية، أو عجائب

الطبيعة بالنسبة إليهم. فما علاقة الكيمياء بالوجود مع الأصدقاء؟ وكيف تساعد الأحياء في إنجاح العلاقات مع الأقران؟ ما فائدة الرياضيات والأدب والدراسات الاجتماعية في أمور الارتباط؟ إن كلمات تلك الأغنية الشهيرة في أواخر الخمسينيات تعبر عن ذلك جيدًا: «لا أعرف الكثير عن التاريخ، ولا أعرف الكثير عن الأحياء... ولكنني أعلم أني أحبك».

إن الصغار لا يُقَدِّرون قيمة التعليم النظامي بطبيعتهم. فالأمر يتطلب بعض النضج لإدراك أن التعليم يمكن أن ينير العقول ويفتح الأبواب، وأن بإمكانه أن يضفي طابعًا إنسانيًا وحضاريًا. إن الأمر الذي يحتاج إليه الطلاب هو تقدير أولئك الذين يُقَدِّرون التعليم. على الأقل، بهذه الطريقة سيحذون حذونا، إلى أن يصبحوا ناضجين بما فيه الكفاية ليتوصلوا إلى استنتاجاتهم الخاصة. ويشعر الطلاب المتوجهون نحو الأقران غريزيًا أن الأصدقاء هم الأهم، وأن كونهم معًا هو كل ما يهم. ومن المستحيل الاعتراض على غريزة شخص ما، حتى لو كانت غريزة منحرفة.

***

التوجه نحو الأقران يأخذ الطلاب من معلميهم

يعتمد الصغار غير الناضجين على الارتباط ليساعدهم على التعلم. وكلما كان الطفل أقل نشوءًا وتكاملًا وتكيفًا، انطبق ذلك عليه. في الفصل الخامس، أوضحتُ أن الارتباط يمكن أن يكون مفيدًا للوالدين والمعلمين من حيث جذب انتباه الطفل، وإثارة احترامه، وجعله متقبلًا الخضوع للسلطة؛ العمليات الأساسية لتحقيق هدف تعليم الطفل. وينظر الأطفال المتوجهون نحو الكبار إلى البالغين على أنهم وجهة البوصلة البشرية، التي يمكنهم من خلالها معرفة مكانهم واتجاههم. سيكونون مخلصين للمعلم بدلًا من جماعة الأقران، وسيعتبرون المعلم هو القدوة، والخبير، ومصدر الإلهام. وعندما يرتبط الأطفال بمعلم ما، فإن هذا المعلم يحظى بالسلطة الطبيعية لتوجيه سلوك الطفل، والحث على النيات الحسنة، وغرس القيم المجتمعية.

ولكن من هم المعلمون الذين يختارهم الأطفال المتوجهون نحو الأقران؟ ليسوا المعلمين الذين يعينهم مجلس إدارة المدرسة. فبمجرد أن يتوجه الطفل نحو الأقران، يبلغ التعلم ذروته خلال فترة الاستراحة، وساعة الغداء، وبعد المدرسة، وفي فترات الراحة بين الحصص الدراسية. إن ما يتعلمه الأطفال المتوجهون نحو الأقران لن يأتي من المعلم، أو من المناهج الدراسية، فليس هناك أي شيء يتعلق بارتباطات الطفل من شأنه أن يوجه الولاء تلقائيًّا إلى المعلمين المُعتَمَدين من الحكومة، أو المُدَرَّبين في الجامعة، أو المُعَيَّنين بشكل مؤسسي. عندما يكون الارتباط منحرفًا، يصبح المعلم غير مؤثر، مهما كان مدى جودة تدريبه، أو مدى تفانيه، أو احترامه من جانب الآخرين.

نحن لا نستهين بقيمة حصول المعلم على تعليم متميز، أو تمتعه بباعٍ طويلٍ من الخبرة، أو التزامه الشديد، أو منهجه الجيد، أو إمكانية استفادته من التكنولوجيا. ولكن هذه الأمور لا تُمَكِّن المعلم بشكل أساسي من التدريس. إن الأطفال يتعلمون بشكل أفضل عندما يحبون معلمهم ويعتقدون أن معلمهم يحبهم. ولطالما كانت قلوب الأطفال هي السبيل إلى عقولهم.

يميل نهجنا التعليمي في مرحلة ما بعد الصناعة إلى أن يكون مثاليًّا، معتبرًا أن إمكانية تعليم الأطفال على يد معلمين لا يرتبطون بهم هي أمر مسلم به. في العقود القليلة الماضية، حاولت بعض النُّهُج التعليمية حسنة النية، بل والمدروسة جيدًا، الاستفادة من العوامل النشوئية والتكيفية والتكاملية في التعلم، مما يفسح المجال لاهتمامات الطلاب، وفرديتهم، وتفاعلاتهم، وخياراتهم. وإذا كانت هذه النُّهُج تبوء بالفشل في أحيانٍ كثيرة، فليس ذلك لكونها سيئة في حد ذاتها، ولكن لأن التوجه نحو الأقران جعل الطلاب لا يتأثرون بها، فالأطفال المتوجهون نحو الأقران هم متعلمون يعتمدون على الارتباط بطبيعة الحال، ويعجزون عن التعلم النشوئي والتكيفي والتكاملي. إن المشكلة هنا هي أن ارتباطاتهم الموجَّهة إلى غير محلها تجعلهم يتعلمون من المعلمين الخطأ.

ينظر منتقدو التعليم المحافظون إلى النُّهُج «المستنيرة» الحديثة في مجال التدريس على أنها فاشلة، ويرون أنها تغرس الفوضى، وعدم الاحترام، والعصيان. وينظر الكثيرون إلى ما وراء البحار، حيث توجد النُّهُج الأكثر

تسلطًا وصرامةً في القارتين: الأوروبية، والآسيوية. وما لا يدركونه هو أن هذه الأنظمة التعليمية التقليدية توجد في مجتمعات لا تزال فيها الارتباطات بالكبار قائمة نسبيًّا. وهذا ما يمنحهم الشرعية والسلطة. ولكن حتى هذه الأنظمة التعليمية تُظهِرُ أوجه قصورها بالتزامن مع انهيار الارتباطات الهرمية التقليدية. لقد أُتيحَت لي الفرصة لأشهد ذلك بنفسي في اليابان، وأشارك كباحثٍ مدعوٍّ في مؤتمر تعليمي مخصص لبحث مشكلات الأنظمة تحت الضغوط. لا يبدو أن هناك أي مجتمع من مجتمعات ما بعد العصر الصناعي يتمتع بالحصانة، فبمجرد أن يبدأ المجتمع في تفضيل الاقتصاد على الثقافة، يصبح الانهيار أمرًا حتميًّا، وتبدأ قرية الارتباط في التفكك. لم يدرك المعلمون في الأنظمة التعليمية السلطوية بعد أن التواصل –وليس الإكراه– هو الذي كان من شأنه تيسير التعلم. إنه لا بد أن يكون نظامنا التعليمي قادرًا على الاستفادة من العمليات النشوئية والتكاملية والتكيفية متى وُجِدَت. كما ينبغي له أيضًا بناء شبكة أمان من التواصل والترابط، لتحول دون إغفال المتعلمين المعتمدين على الارتباط. ولا يمكن للنُّهُج السلطوية التي تنظر إلى الوراء إلا أن تزيد الأمور سوءًا.

لمَّا كان التوجه نحو الأقران يدمر نظامنا التعليمي، فقد يعتقد المرء أننا سنشعر بالقلق، ونبحث عن طرائق لعكس هذا الاتجاه، أو على الأقل منع انتشاره. بل على العكس من ذلك، فإننا آباء ومعلمين ندعم هذه الظاهرة، ونشجعها بالفعل. إن نهجنا التعليمي «المستنير» الذي يركز على الطفل يدفعنا إلى دراسة الأطفال، وإلى الخلط بين ما هو كائن، وما يجب أن يكون، وبين ورغباتهم واحتياجاتهم. لقد أُثيرت خرافة تربوية خطيرة، مفادها أن الأطفال يتعلمون بشكل أفضل من أقرانهم. وهذا حاصل جزئيًّا، لأن الأقران أسهل في محاكاتهم من البالغين، ولكن السبب الأهم في ذلك هو أن الأطفال أصبحوا متوجهين نحو الأقران. ومع ذلك، فإن ما يتعلمونه ليس قيمة التفكير، وأهمية التفرُّد، وخبايا الطبيعة، وأسرار العلوم، ومظاهر الوجود البشري، ودروس التاريخ، ومنطق الرياضيات، وأصول التراجيديا. كما إنهم لا يتعلمون ما الذي يميزنا كبشر، أو كيف يتمتعون بالإنسانية، أو لماذا نضع القوانين، أو ما معنى أن نكون نبلاء. ما يتعلمه الأطفال من أقرانهم هو كيفية التحدث مثل أقرانهم، والسير مثل أقرانهم، وارتداء ملابس كملابس أقرانهم، والتصرف مثل

أقرانهم، والتشبه بأقرانهم. باختصار: الأمر الذي يتعلمونه هو كيفية التوافق والتقليد.[2]

إن التعلم من الأقران يجعل الطلاب أكثر استقلالية عن المعلمين، مما يخفف كثيرًا بالطبع عن العديد من المعلمين المُستَنزَفين في العمل. ولسوء الحظ، لا يحرز الطلاب بعد ذلك أي تقدم في النمو. إن المعنى العميق لكلمة المُرَبِّي هو «القائد» - وتحديدًا، المرء الذي يقود الأطفال. ولا يمكن للمعلمين أن يكونوا قادة إلا إذا اتبعهم طلابهم، والطلاب سيتبعون فقط أولئك الذين يرتبطون بهم. ويبدو أن المعلمين يتأثرون بطلابهم بشكل متزايد، وبالتالي يضعون الطلاب في موقع القيادة، ويضرون بصميم جوهر التربية.

إن التوجه نحو الأقران يجعل مهمة تعليم الصغار أكثر صعوبة مما هي عليه أصلًا، وهو ما يشكل عبئًا ثقيلًا على المعلمين، وهو ما يظهر في الروح المعنوية، ومستويات التوتر، وحتى الصحة البدنية. كما إن التوجه نحو الأقران يجعل الطلاب مقاومين لخطط معلميهم، وملتزمين حملة مستمرة من التباطؤ في العمل، عن طريق تطبيق القواعد بحذافيرها. إن مواجهة المقاومة المستعصية تعد مثل وصفة مضمونة للاحتراق النفسي. ولا يكمن الحل في بذل جهد أكبر في التعليم. إن الاهتمام بمسألة الارتباط هو الطريقة الوحيدة التي يمكن بها تسهيل التدريس. والأمر الذي يجعل المعلم معلمًا بحق هو قدرته على تنوير عقل الطالب. ولكي ننير عقول طلابنا، علينا أولًا أن نكسب قلوبهم.

كلمة أخيرة عن التعليم. في هذا العصر، عصر التخصص والخبراء، قد نفكر في التعليم كمهمة تقتصر على المعلمين. ومع ذلك، فإذا أدركنا دور الارتباط في تسهيل التعلم، وتفادي التوجه نحو الأقران، رأينا أن تعليم صغارنا هو مسؤولية مجتمعية مُوَزَّعة بالتساوي على كل من: الآباء، والمعلمين، وجميع البالغين الذين يتعاملون مع صغارنا، وكذلك جميع أولئك الذين يشكلون بنية المجتمع، وطبيعة الثقافة التي ينمو فيها الأطفال ويتعلمون عن الحياة.

الجزء الرابع

كيف نتمسك بأطفالنا
(أو كيف نستعيدهم)

13

احتواء أطفالنا

لقد أوضحنا في هذا الكتاب حتى الآن أن مجتمعنا بعيد كل البعد عن الغرائز التربوية. إن أطفالنا يتواصلون بعضهم مع بعض - مع أشخاص غير ناضجين، لا يمكنهم أن يصلوا بهم إلى مرحلة النضج. والآن نستعرض الحلول. كيف يمكننا آباء ومعلمين أن نستعيد من جديد أدوارنا المحددة طبيعيًّا مُوَجِّهِين ومربين لصغارنا، وقدوات وقادة يتطلعون إليهم بحثًا عن التوجيه؟

لقد ذكرت في الفصل الأول أن التربية تتطلب سياقًا لتكون فعالة، وهذا السياق هو علاقة الارتباط. ولقد سمحنا أفرادًا وثقافة –عن غير قصد– للتوجه نحو الأقران بتقويض هذا السياق. وقد حان الوقت لاستعادته. علينا أن نضع على رأس اهتماماتنا مهمة احتواء أطفالنا، وأخذهم تحت أجنحتنا، مما يجعلهم يرغبون في الانتماء إلينا، فلم يعد بإمكاننا أن نفترض –كما افترض الآباء في الماضي– أن الرابطة القديمة القوية بيننا وبين أطفالنا ستظل قائمةً ما دمنا في حاجة إليها. وبغض النظر عن مدى حبنا، أو مدى حسن نيتنا في التربية، فإننا نمتلك في ظل الظروف الحالية هامش خطأ أقل مقارنةً بالآباء في أي وقت مضى. نحن أمام منافسة شديدة. ولكي نتخلص من الفوضى

الثقافية التي نشهدها في الوقت الحالي، نحتاج إلى أن نعتاد احتواء أطفالنا بشكل يومي ومتكرر، حتى يبلغوا من العمر ما يكفيهم للتعايش كشخصيات مستقلة. والخبر السار هو أن الطبيعة –طبيعتنا– تخبرنا كيف نفعل ذلك.

إننا نحن البشر مثل النحل، والطيور، والعديد من المخلوقات الأخرى، نستعين بالسلوكيات الغريزية لإثارة استجابات الارتباط بعضنا لدى بعض. ولدينا أيضًا نوعية من الرقص التوددي، الذي يهدف إلى جذب الآخرين وتكوين علاقات معهم. ومما لا شك فيه أن أهم وظيفة لهذه الرقصة –بالتساوي مع التكاثر– هي احتواء الأطفال. فعندما يكون البالغون بالقرب من الرُّضَّع، حتى لو لم يكونوا أبناءهم، فإن غرائز التودد هذه تحيا فيهم بصورة شبه تلقائية: الابتسامات، والإيماءات، والأعين المتسعة، وأصوات المناغاة. أحب أن أسمي هذا النوع من السلوك الغريزي «رقصة الارتباط أو الاحتواء».

ستعتقد أنه إذا كانت رقصة الارتباط متأصلة في طبيعتنا، فلا ينبغي أن نواجه مشكلة في احتواء أطفالنا ما دمنا نحتاج إلى ذلك. ولسوء الحظ، لا يسير الأمر بهذه الطريقة. فعلى الرغم من أن خطوات هذه الرقصة فطرية بالنسبة إلينا جميعًا، فإننا لن نقوم بها إذا فقدنا الصلة بحدسنا. بالنسبة إلى العديد من البالغين، لم تعد غرائز احتواء الأطفال تستثار مع الأطفال الذين تجاوزوا مرحلة الرضاعة، وخصوصًا مع الأطفال الذين –على العكس من الرضيع اللطيف– قد لا يحاولون الارتباط بنا بقوة. وإذا أردنا أن نأخذ أطفالنا تحت أجنحتنا وسط العديد من الانحرافات والإغراءات في ثقافة اليوم، فنحن في حاجة إلى أن نستحضر غرائز الاحتواء هذه في وعينا. نحن نحتاج إلى التركيز عليها بشكلٍ واعٍ، كما نحتاج إلى الاستعانة بها في ممارساتنا التربوية والتعليمية عن قصد، بالقدر نفسه الذي قد نستخدم به مهاراتنا في التودد لجذب شريك بالغ محبوب، نريد أن ندخل في علاقة معه.

عندما ألاحظ تفاعل البالغين مع الرُّضَّع، أستطيع أن أرى أن رقصة الارتباط تتكون من أربع خطوات مميزة. وتتطور هذه الخطوات وفقًا لترتيب محدد، وهي في أثناء ذلك تقوم ببناء النموذج الأساسي لجميع أشكال التفاعل التوددي بين البشر. توفر هذه الخطوات الأربع التسلسل الذي نحتاج إلى

اتباعه في مهمة احتواء أطفالنا، من مرحلة الطفولة وما بعدها، حتى مرحلة المراهقة.

الإقبال على الطفل -أو اقتحام مساحته- بطريقة ودودة

الهدف من هذه الخطوة الأولى هو جذب عيني الطفل، ورسم الابتسامة على وجهه، والحصول على إيماءة منه إن أمكن ذلك. عادةً ما تكون نياتنا واضحة وضوح الشمس مع الأطفال الرُّضَّع - نجد أنفسنا نقوم بحركات بهلوانية لنحصل على الانطباع المنشود. ومع تقدم الأطفال في السن، يجب أن تكون نياتنا أقل وضوحًا، حتى لا ننفرهم. لقد شعر الكثيرون منا بالانزعاج من مندوبي المبيعات -على سبيل المثال- الذين يتمادون في سلوكيات التودد إلى أقصى حد، ويتصورون أن التآلف مع العملاء المحتملين أمر بالغ السهولة.

غالبًا ما يكون هذا التفاعل التوددي مع الأطفال الرضع هدفًا بحد ذاته، كما إنه يكون مُرضيًا بطبيعته للوالد في حالة نجاحه، ومُحبِطًا تمامًا في حالة فشله. وليست ثمة دوافع وراء ذلك؛ إننا لا نحاول أن نجعل الرضيع «يفعل» أي شيء. إن بناء العلاقات يمثل غايةً في حد ذاته، ويجب أن يبقى على هذا النحو بعد الفِطَام، وطوال مرحلة الطفولة. ومع زيادة التركيز على استراتيجيات التربية في عالم اليوم، غالبًا ما نركز على ما يجب القيام به بدلًا من التركيز على الهدف الذي نريد الوصول إليه. يجب أن يكون المنطلق والهدف الأساسي في جميع علاقاتنا مع الأطفال هو العلاقة نفسها، وليس السلوك، أو التصرف.

كلما أصبح الأطفال الأكبر سنًّا، زادت احتمالية إقبالنا عليهم فقط عند حدوث خطأ ما. يبدأ هذا الاتجاه في مرحلة الحبو، التي تتسم بالنشاط، حيث يضطر الوالد إلى حماية الطفل من الأذى بشكل متزايد. ووفقًا لإحدى الدراسات، فإن سلوك الأم في بدايات هذه المرحلة من الاستكشاف الحركي المتواصل يتكون بنسبة 90% من منح الحنان، واللعب، وتقديم الرعاية، مع تخصيص نسبة 5% فقط لمنع الطفل من الحركة المستمرة. ومن ثم يحدث تحولٌ جذريٌّ في الأشهر التالية. إن الطفل الصغير يقوده فضوله واندفاعه

إلى العديد من المواقف التي يجب أن يتصرف فيها الوالد كسلطة مانعة. وبين عمر أحد عشر وسبعة عشر شهرًا، يتلقى الطفل الدارج العادي أمرًا ناهيًا كل تسع دقائق.[1] إن الهدف من مثل هذه المواجهات ليس احتواء الأطفال عاطفيًّا، ولكن تقويمهم، أو توجيههم. ونحن في أثناء هذا الوقت، أو بعده بقليل، نضع ما نمتلكه من غرائز احتواء جانبًا. وبالطريقة نفسها، غالبًا ما يختفي سلوك التودد بين البالغين بمجرد توطيد العلاقة. ونبدأ في التعامل مع العلاقة كأمر مسلم به. ربما يكون هذا الإهمال مثل خطأ في الارتباطات العاطفية بين الكبار، إلا إنه يعد كارثيًّا في حق الأطفال. وحتى في الوقت الذي يجب علينا فيه أن نكون حُماةً لسلامة أطفالنا ورفاههم، علينا أن نواصل الإقبال عليهم بطرائق دافئة وجذابة، التي تحثهم باستمرار على الحفاظ على علاقتهم بنا.

مع تقدم الأطفال في السن، أو مقاومتهم للتواصل، يتحول التحدي من الإقبال عليهم بطريقة ودودة إلى اقتحام مساحتهم بطريقة ودودة. ورغم أن المهمة قد باتت أصعب، فإنه يجب علينا أن نركز دائمًا على هدف احتواء الطفل. أقر ديفيد هذا، وهو والد طفل يبلغ من العمر أربعة عشر عامًا، قائلًا: «هذا صحيح. عندما أتأمل الطريقة التي أتحدث بها مع ابنتي، فغالبًا ما يكون الهدف هو حملها على فعل شيء ما، أو تعليمها شيئًا ما، أو تغيير سلوكها بطريقة ما. نادرًا ما يتعلق الأمر بمجرد كوننا معًا، والاستمتاع بصحبتها».

لا يمكن أن تتطور رقصة الاحتواء إذا اتبعنا أهدافًا سلوكية قصيرة الأجل. وإذ نصرف تركيزنا إلى الهدف طويل الأجل، المتمثل في وجود علاقة داعمة، يجب أن نكتشف بأنفسنا الخطوات التي يمكن أن تحقق لنا ذلك. يمكننا أن نشحذ همتنا من خلال معرفة أن غرائزنا وحدسنا يعملون لصالحنا، حتى لو كانوا في حالة خمول فترة من الوقت. اسمح لنفسك بالتجربة والاستكشاف. إن الأمر يتعلق بالتجربة والخطأ، وليس روشتةً سلوكية، فثمة رقصة مختلفة ستنشأ لكل طفل.

من الأهمية بمكان أن نحتوي أطفالنا بعد أي فترة انفصال. هناك طقوس للارتباط –التي تزدهر بفضل غريزة الاحتواء هذه– في العديد من الثقافات. وتعتبر التحية هي أكثرها شيوعًا، التي تعد الشرط الأساسي لجميع التفاعلات الناجحة. عندما تُلقَى التحية على أفضل وجه، فإنها يجب أن تجذب الأعين،

وأن تُقابَلَ بابتسامة وإيماءة. إن تجاهل هذه الخطوة يعد خطأً فادحًا. وفي بعض الثقافات، كما هي الحال في بروفنس، وبعض البلدان اللاتينية، لا يزال إلقاء التحية على الأطفال أمرا مألوفًا ومتوقعًا. أما في مجتمعنا، فغالبًا ما لا نلقي التحية حتى على طفلنا، ناهيك بأطفال الآخرين. وبما أن الأطفال يفقدون حس المبادرة من جانبهم إلى التواصل معنا بعد فترات الانفصال، فقد يبدو التواصل معهم أقل أهمية في نظرنا. وهذا أبعد ما يكون عن الصواب. يجب أن نعوض هذا الانفصال باهتمامٍ شديد، ومبادرة من جانبنا.

تحدث أبرز حالات الانفصال بسبب المدرسة والعمل، ولكن يمكن للعديد من التجارب الأخرى أن تفرقنا أيضًا. قد يكون الانفصال أحيانًا بسبب انشغال الطفل مثلًا بالتلفزيون، أو اللعب، أو القراءة، أو الواجبات الدراسية. وينبغي أن يكون التفاعل الأول هو استعادة التواصل. ولن تنجح الكثير من الأمور ما لم نتمكن من احتواء الطفل مرةً أخرى. فعلى سبيل المثال، من غير المجدي، بل ومن المحبط إعطاء الطفل توجيهات بينما ينصب تركيزه بالكامل على جهاز التلفزيون. في هذه اللحظة، وقبل أن ندعوهم إلى تناول العشاء، قد نرغب في الجلوس بجانبهم، والتربيت على أكتافهم، وإشراكهم في التفاعل. كما نحتاج إلى الاستعانة بالتواصل البصري. «مرحبًا! هذا برنامجٌ جيد، أليس كذلك؟ يبدو ممتعًا. ولكن للأسف حان وقت الجلوس إلى مائدة الطعام».

من المهم أيضًا احتواء أطفالنا بعد الانفصال للنوم. كان من الممكن أن يختلف الصباح كثيرًا في العديد من العائلات إذا لم يصر الوالد على ممارسة التربية إلى أن يتم احتواء الطفل بشكل مناسب. كانت إحدى عاداتنا المثمرة عندما كان أولادنا صغارًا هي تهيئة ما أطلقنا عليه «وقت الإحماء الصباحي». لقد خصصنا كرسيين مريحين في غرفة المعيشة ككرسيين للإحماء. وبعد أن يستيقظ الأولاد مباشرة، نحملهم أنا وزوجتي جوي، ونضعهم في أحضاننا، ونلاعبهم ونمازحهم، حتى تتلاقى الأعين، وترتسم الابتسامات، وتتبدى الإيماءات. وبعد ذلك، يسير كل شيء بسلاسة أكبر. لقد كان الأمر يستحق الاستثمار في النهوض عشر دقائق مبكرًا لبدء اليوم بطقوس الاحتواء هذه، بدلًا من التوجه مباشرةً إلى الممارسات التربوية على قدم وساق. إن الأطفال مُصَمَّمون للبدء من درجات السلم الأولى، مهما كانت أعمارهم ومدى نضجهم.

وباختصار: نحن في حاجة إلى بناء عادات روتينية لاحتواء أطفالنا في حياتنا اليومية. بالإضافة إلى ذلك، من المهم للغاية إعادة التواصل معهم بعد أي شكل من أشكال الانفصال العاطفي، فقد ينهار الشعور بالتواصل بعد الشجار أو الجدال على سبيل المثال، سواء بسبب التباعد، أو سوء الفهم، أو الغضب. ويضيع سياق التربية إلى أن نهمَّ باستعادة ما أسماه عالم النفس جيرشون كوفمان «جسر العلاقات». إن إعادة بناء هذا الجسر هي مسؤوليتنا دائمًا. ولا يمكننا أن نتوقع من الأطفال القيام بذلك، فهم ليسوا ناضجين بما يكفي لفهم الحاجة إليه.

بالنسبة إلى المعلمين و / أو البالغين الآخرين المسؤولين عن أطفال ليسوا أبناءهم، يجب أن يكون احتواؤهم دائمًا هو أول اهتماماتهم. فإذا حاولنا رعاية الأطفال أو تعليمهم دون احتوائهم أولًا، فإننا نعارض بذلك غريزتهم الطبيعية، التي تدفعهم إلى مقاومة مطالب الغرباء وتعليماتهم.

مما لا شك فيه أن هذا الفعل، المتمثل في احتواء الطفل، هو الذي يميز المعلم القائد عن غيره من المعلمين. إنني لن أنسى أبدًا تجربتي مع معلمتي الأولى، السيدة آكيربيرج. فبعد أن تركتني والدتي عند باب فصلي الدراسي في الصف الأول، وقبل أن أحظى بفرصة ليتشتت ذهني بفعل طفل آخر، جاءت هذه المرأة المبتسمة الرائعة بخفة من آخر الفصل وجذبتني، بأسلوب في غاية اللطف، وحَيَّتني باسمي، وأخبرتني عن مدى سعادتها لكوني في صفها، مؤكدةً لي أننا سنحظى بسنة رائعة للغاية. إنني على يقين من أنها استغرقت القليل من الوقت لتحتويني. وبعد ذلك، أصبحتُ طوع أمرها، بل ومُحَصَّنًا ضد الارتباطات الأخرى. لم أكن في حاجة إليهم؛ لقد كنت مرتبطًا بالفعل. ولم يحتويني أي معلم مرة أخرى حتى بلغت الصف الخامس. وقد كانت الفترة بين هذين الصفين مثل تجربة عاصفة فيما يتعلق بحياتي الدراسية.

امنح الطفل شيئًا ليتشبث به

إن المبدأ الذي تستند إليه الخطوة التالية بسيط: من أجل جذب غرائز الارتباط لدى الأطفال، يجب أن نمنحهم شيئًا يرتبطون به. في حالة الأطفال الرُّضَّع، غالبًا ما يعني ذلك وضع إصبع في راحة أيديهم. وإذا كان دماغ الطفل

مستجيبًا، فإن الطفل سوف يتشبث بالإصبع، وإذا لم يكن كذلك، فإنه سوف يسحب يده بعيدًا. ولا يعد ذلك استجابة عضلية لا إرادية، مثل تلك المُستَحَثَّة عن طريق النقر أسفل الركبة، ولكنها استجابة ارتباطية، وهي واحدة من بين العديد من الاستجابات الموجودة منذ الولادة، التي من شأنها أن تفسح المجال لأنشطة مثل الرضاعة، والمداعبة. إنه يشير إلى أن غرائز الارتباط قد باتت نشطة، وأن الطفل جاهز الآن للاعتناء به.

لا يعرف الفرد البالغ ولا الطفل ما يحدث، أو يُقَدِّرانه. إن هذه القبضة البسيطة للإصبع هي مثل تواصلٍ غير واعٍ تمامًا، ويتمثل هدفه في تحفيز غرائز الارتباط لحمل الطفل على التشبث. وفي هذه الحالة، يتشبث الرضيع جسديًّا، ولكن الهدف الأساسي هو الترابط العاطفي. وعندما نضع إصبعنا في راحة يد الطفل، فإننا نوجه بذلك دعوة للتواصل. وهكذا يبدأ دورنا في الرقصة بهذه الدعوة.

وبينما يكبر الأطفال، لا يكون الهدف من العملية هو التشبث بالمعنى الجسدي، وإنما التشبث بالمعنى المجازي. نحن في حاجة إلى نقدم شيئًا للأطفال كي يتشبثوا به، ويعتزوا به، شيئًا يمكن أن يتأثروا به في أعماقهم، ولا يرغبون في التخلي عنه. وأيًّا كان ما نقدمه لهم، فلا بد أن يأتي من خلالنا أو أن يكون ملكًا لنا لنمنحهم إياه. ومهما كان ما نمنحه أطفالنا، فإن السر يكمن في أن تشبثهم بهذا الشيء سيجعلهم متشبثين بنا.

إن الانتباه والاهتمام يعتبران أساسين قويين للترابط. وتتميز الإيماءات التي تدل على المودة بكونها مؤثرة. لقد تبيَّن للباحثين أن الدفء العاطفي والمرح والبهجة يأتون على رأس القائمة كمحفزات مؤثرة للارتباط. إذا كان ثمة بريقٌ يلمع في أعيننا، وبعض الدفء في أصواتنا، فإننا نوجه بذلك دعوة للترابط لن يرفضها معظم الأطفال. عندما نعطي الأطفال علامات تدل على أنهم مهمون بالنسبة إلينا، سيرغب معظمهم في التشبث بذلك الإدراك بأنهم مميزون بالنسبة إلينا، وأنهم مُقَدَّرون في حياتنا.

بالنسبة إلى أطفالنا، يكمن السر في الجانب الجسدي. لقد كان الغرض من الأحضان والمعانقات هو أن يتشبث بها الأطفال، وأن تُشعِرَ الطفل بالدفء فترةً طويلة، حتى بعد انتهاء العناق. وليس من المستغرب أن نجد العديد من

البالغين في الجلسات الإرشادية لا يزالون يشعرون بالأسى تجاه شُحِّ الدفء الجسدي الذي منحهم إياه والداهم في مرحلة الطفولة.

غالبًا ما يسألني المعلمون عن كيفية تعزيز التواصل في هذه الأيام، وذلك بعد أن أصبح الاتصال الجسدي مسألة مثيرة للجدل الآن. إن اللمس هو حاسة واحدة فقط من بين الحواس الخمس، والحواس هي طريقة واحدة فقط من بين ست طرائق للتواصل. (للاطلاع على أنماط الارتباط الست، راجع الفصل الثاني). وعلى الرغم من أهمية التلامس، فإننا نحتاج إلى أن نضع في اعتبارنا أنه بالتأكيد ليس الطريقة الوحيدة للتواصل مع الأطفال.

في حالة الأطفال المُحَصَّنين عاطفيًا ضد الارتباط بإحدى الطرائق الأكثر ضعفًا، قد يتعين على المرء التركيز على الطرائق الأقل ضعفًا، مثل إضفاء الشعور بالتوافق مع طفل صغير السن، أو اغتنام فرصة لإظهار بعض الولاء من خلال الوقوف في صفه. وفي عملي مع الأطفال الجانحين، كانت هذه هي النقطة التي أبدأ منها في أغلب الأحوال. في بعض الأحيان يكون الأمر بسيطًا، مثل ملاحظة أن كلينا يحظى بعينين زرقاوين، أو أننا نتشارك الاهتمام نفسه، وأن بيننا شيئًا مشتركًا. وقبل كل شيء، يجب على الشخص البالغ تقديم شيء قبل أن يتشبث الطفل.

إن أفضل هدية نقدمها للطفل هي إشعاره بأنه مُرَحَّبٌ بوجوده بيننا تمامًا كما هو، والتعبير عن إعجابنا بشخصيته الحقيقية. وتوجد آلاف الطرائق التي يمكن من خلالها الإعلان عن هذا الترحيب: في الإيماءات، والكلمات، والإشارات، والأفعال. لا بد أن يشعر الطفل بأنه مرغوب، ومميز، ومهم، وعزيز، ومُقَدَّر، ومحبوب، ومُشتاقٌ إليه. ولكي يستقبل الأطفال هذا الترحيب بشكل كامل –لكي يصدقوه ويتمكنوا من التشبث به، حتى عندما ننفصل عنهم جسديًا– يجب أن يكون حقيقيًا، وغير مشروط. وفي الفصل السابع عشر، حيث سأناقش التربية الفعالة، سنرى مدى الضرر الذي يحدث جراء استخدام الانفصال عن الوالدين عقابًا للطفل. إن تطبيق هذا الأسلوب، الذي كثيرًا ما يُنصَحُ به رغم كونه مُضِرًّا، يعني في الواقع أن الطفل لا يُرحَّبُ بوجوده بيننا إلا عندما يرقى إلى مستوى قيمنا وتوقعاتنا – وبعبارة أخرى: يعني هذا أن علاقتنا بهم مشروطة. ويتمثل التحدي الذي نواجهه كآباء في توجيه دعوة

جذابة ومميزة للغاية، حيث لا يمكن أن يرفضها الطفل، وهذه الدعوة تتمثل في القبول الناشئ عن الحب، الذي لا يمكن لأي صديق أن يمنح الطفل إياه. وعندما يتشبث الطفل بما نمنحه إياه من حب غير مشروط، فإنه سيتشبث بنا عاطفيًا - تمامًا كما يُحكِمُ الرضيعُ قبضته على إصبع الوالد.

من أجل أن ينجح التواصل، يجب أن يشعر الطفل بأن ما نقدمه له يتم بطريقة عفوية. قد يبدو من غير المتوقع أن أقول هذا (وسأشرح أسبابي لاحقًا)، ولكننا لا نستطيع احتواء طفل من خلال منحه أشياء متوقعة، سواء كان ذلك جزءًا من عادة ما، أو هدية عيد ميلاد، أو مكافأة عن بعض الإنجازات. ومهما كان مقدار الاهتمام الذي قد نظهره، فإن ما نقدمه في ظل هذه الظروف سيكون مرتبطًا بالموقف، أو الحدث، وليس بالعلاقة. مثل هذا العطاء لا يكون مرضيًا أبدًا. قد يفرح الطفل بالهدايا المتوقعة، سواء كانت جسدية أو عاطفية، ولكن لا يمكن لهذه الهدايا أن تشبع احتياجاته إلى الارتباط.

إننا لا نستطيع تعزيز التواصل من خلال مجاراة مطالب الطفل، سواء من أجل الاهتمام، أو التعاطف، أو التقدير، أو الحظوة. وعلى الرغم من أنه يمكننا أن ندمر العلاقة من خلال تجاهل الطفل عند تعبيره عن حاجة حقيقية، فإنه لا ينبغي الخلط بين تلبية الاحتياجات عند الطلب، وبين إثراء العلاقة. إن عنصر المبادرة والمفاجأة يعد أمرًا بالغ الأهمية في احتواء الطفل. إذ إن تقديم شيء للتشبث به يكون أشد تأثيرًا عندما يكون غير متوقع. وإذا كان الأمر الذي نقدمه يمكن الحصول عليه، أو يُنظَرُ إليه على أنه نوع من المكافأة، فلن يكون مثل تعزيز للعلاقة. يجب أن تنبع عروضنا للتواصل من الدعوة الأساسية التي نوجهها إلى الطفل. إن هذه الخطوة في الرقصة لا تأتي كردة فعل على الطفل. إنها عملية صياغة للعلاقة، مرارًا وتكرارًا. إنها دعوة لرقص أمِّ جميع الرقصات - رقصة الارتباط. مرة أخرى، يدور الأمر حول الإعراب عن الإعجاب العفوي بشخصية الطفل في حد ذاتها، ليس عند طلبه شيئًا ما، ولكن عندما لا يطلب أي شيء. إن سعادتنا بوجوده تظهر في الإيماءات، والابتسامات، ونبرة الصوت، والعناق، والضحك، أو في اقتراح القيام بنشاط مشترك، أو ببساطة في بريق أعيننا.

بالمناسبة، هناك اعتقاد سائد بأن الرضوخ لطلبات الطفل يعني «إفساده». وهذا الخوف لا يشوبه مثقال ذرة من الحقيقة. يعوض بعض الآباء عن الاهتمام والارتباط والتواصل الملائم الذي لا يقدمونه من خلال تقديم تنازلات عشوائية لمطالب الطفل. إننا عندما نُفسِدُ شيئًا ما، يكون ذلك بحرمانه من الظروف التي يتطلبها. فعلى سبيل المثال، نحن نُفسِدُ اللحم بتركه خارج الثلاجة. فالإفساد الحقيقي للأطفال لا يكون بمجاراتهم في المطالب، أو تقديم الهدايا، وإنما بتجاهل احتياجاتهم الحقيقية. لقد قالت ممرضة في مستشفى الولادة لابنة أخت المؤلف المشارك لي –وهي أم جديدة– بعدم حمل طفلتها بين ذراعيها فترة طويلة، لأنها «ستفسدها» بذلك. وعلى العكس تمامًا، فإن الإفساد سيكون في حرمان الرضيع من القرب. وقد تجاهلت الأم هذه النصيحة «الاحترافية» بحكمة. إن الرضيع أو الطفل الصغير الذي يحظى بعلاقة ودودة مع الوالدين لن يتجه إلى المبالغة في مطالبه عندما يكبر.

صحيح أن الطفل غير المستقر بدرجة كبيرة يمكن أن يكون متطلبًا الوقت والاهتمام بشكل مرهق. وقد يتوق الوالد إلى فترة هدوء، وليس المزيد من التواصل. إن المعضلة هنا هي أن الاهتمام الذي يُمنَحُ بناءً على طلب الطفل لا يكون مرضيًا أبدًا، فهو يترك حالة من عدم اليقين بأن الوالد يستجيب للمطالب فحسب، ولا يكرس نفسه طوعًا للطفل. ومن ثم تتزايد المطالب فقط، دون إشباعٍ للحاجة العاطفية الكامنة وراءها. والحل هو اغتنام الفرصة، والدعوة للتواصل بالضبط عندما لا يطلب الطفل ذلك. أو –في حالة الاستجابة لطلب الطفل– يمكن للوالد أن يأخذ بزمام المبادرة، مُعرِبًا عن اهتمامٍ وحماس أكثر مما يتوقعه الطفل: «أجل! يا لها من فكرة رائعة. لقد كنت أفكر كيف يمكننا أن نقضي بعض الوقت معًا! أنا مسرورةٌ جدًّا لأنك فكرت في ذلك». نحن بذلك نفاجئ الطفل، مما يشعره وكأنه هو الذي يتلقى الدعوة.

إن المرء لا يمكنه أن يحتوي طفلًا أو أن يقدم له شيئًا ليتشبث به من خلال إغراقه بالمديح، فالثناء عادةً ما يكون على شيء فعله الطفل، وبالتالي فإنه لا يعد هديةً، ولا يكون عفويًّا. ولا يكون منبع الثناء من الكبار، وإنما من إنجازات الطفل. ولا يمكن للطفل أن يتشبث بالثناء، لأنه يكون عرضة للرجوع عنه مع كل فشل. وحتى لو استطاع الطفل التشبث بالثناء، فإنه لن

يتشبث بمانح الثناء، ولكن بالإنجاز الذي تسبب في هذا الثناء. ولا عجب أن الثناء يؤدي إلى نتائج عكسية في بعض الأطفال، أو يولِّد سلوكًا مخالفًا للأمر المحمود، أو يتسبب في انسحاب الطفل من العلاقة تحسبًا للفشل.

هل نقول إنه لا ينبغي الثناء على الأطفال أبدًا؟ بل على العكس من ذلك، فمن المفيد واللطيف والجيد للعلاقة –أي علاقة– أن نعبر عن تقديرنا للآخرين لقاء بعض الإسهامات المميزة التي قدموها، أو لجهدهم، أو طاقتهم التي بذلوها لتحقيق شيء ما. إن ما نقوله هنا هو أنه لا ينبغي المبالغة في الثناء، ويجب أن نكون حذرين من أن يصبح حافز الطفل معتمدًا على إعجاب الآخرين، أو انطباعاتهم الجيدة. إن صورة الطفل الذاتية يجب ألا تعتمد على مدى نجاحه أو فشله في نيل استحساننا عن طريق الإنجازات أو السلوكيات المطيعة. ويتمثل أساس احترام الذات الحقيقي عند الطفل في الشعور بقبول الوالدينْ له، ومحبته، والسرور به تمامًا كما هو على طبيعته.

***

الترحيب بالاعتمادية

إذا كان الرضيع كبيرًا بما فيه الكفاية، فإننا نرحب باعتماديته من خلال مد أذرعنا كما لو كنا سنحمله، ثم ننتظر الاستجابة قبل المتابعة. فإذا كانت غرائز ارتباطه نشطة بما فيه الكفاية، فإنه سوف يستجيب، ويرفع ذراعيه، مما يشير إلى الرغبة في القرب، والاستعداد للاعتماد علينا. وتكون الأدوار المتبادلة بين الوالد والطفل في رقصة الارتباط هذه بديهية.

إن الترحيب باعتمادية الطفل يعني أن تقول له في الواقع: «هأنذا، دعني أحملك. سأكون مثل ساقيك. يمكنك أن تعتمد علي. ستكون بأمان معي». وتتمثل دعوة طفل أكبر سنًّا للاعتماد علينا في أن نخبره بأنه يمكنه الوثوق بنا، وأن يُعَوِّلَ علينا، وأن يعتمد علينا، وأن يحظى برعايتنا. ويمكنه أن يأتي إلينا طلبًا للدعم، وأن يتوقع مساعدتنا إياه. ونحن نقول له إننا هنا من أجله، وإنه لا بأس بأن يحتاج إلينا. ولكن المضي قدمًا دون اكتساب ثقة الطفل أولًا يعد بحثًا عن المتاعب. وهذا ينطبق على الوالد، وكذلك مقدم الرعاية النهارية،

أو جليسة الأطفال، أو المعلم، أو الوالد بالتبني، أو زوج الأم، أو زوجة الأب، أو المرشد.

وهنا يقف اهتمامنا العالمي الجديد بالاستقلالية عقبة في الطريق. إننا لا نجد إشكالًا في الترحيب باعتمادية الرُّضَّع، ولكن بعد تلك المرحلة، تصبح الاستقلالية هي شغلنا الشاغل. سواء تعلق الأمر بارتداء أطفالنا ثيابهم بأنفسهم، أو إطعام أنفسهم، أو تهدئة أنفسهم، أو الترويح عن أنفسهم، أو التفكير لأنفسهم، أو حل مشكلاتهم بأنفسهم، فإن الأمر واحد: نحن ندعم الاستقلالية، أو ما نعتقد أنه استقلالية. ونخشى أن يكون الترحيب بالاعتمادية ترحيبًا بالتراجع بدلًا من النمو، وأنه إذا أفسحنا المجال أمام الاعتمادية ولو قيد أنملة، فإنها ستخرج عن السيطرة. إن ما نشجع عليه حقًّا من خلال هذا التوجه ليس هو الاستقلال الحقيقي، وإنما الاستقلال عنا. ومن ثم تنتقل الاعتمادية إلى جماعة الأقران.

بآلاف الطرائق البسيطة، نجذب أطفالنا وندفعهم لينضجوا، ونحثهم على السير بسرعة بدلًا من دعوتهم إلى السكينة. ندفعهم بعيدًا عنا بدلًا من جذبهم إلينا. إننا لا نستطيع أبدًا بوصفنا بالغين أن نتودد بعضنا إلى بعض بمقاومة الاعتمادية. هل يمكنك أن تتخيل التأثير على التودد إذا أعربنا عن رسالة مفادها: «لا تتوقع مني أن أساعدك في أي شيء أعتقد أنه يمكنك أو يجب عليك القيام به بنفسك»؟ إنه لأمر مستبعد أن تتوطد هذه العلاقة، ففي فترة التودد، يزخر حديثنا بعبارات مثل: «هأنذا، دعني أساعدك». «سأساعدك في هذا الأمر». «هذا من دواعي سروري». «مشكلاتك هي مشكلاتي». إذا كان بإمكاننا فعل ذلك مع البالغين، ألا يجب أن نكون قادرين على الترحيب باعتمادية الأطفال الذين يحتاجون حقًّا إلى شخص يعتمدون عليه؟

ربما نحن لا نتردد في الترحيب باعتمادية البالغين لأننا لسنا مسؤولين عن نموهم ونضجهم. نحن لا نتحمل عبء دفعهم إلى الاستقلالية. وهنا يكمن جوهر المشكلة: نحن نتحمل قدرًا كبيرًا من المسؤولية عن نضج أطفالنا. لقد نسينا أننا لسنا بمفردنا، فالطبيعة تقف في صفنا. إن الاستقلالية تعد ثمرة من ثمار النضج، ودورنا في تربية الأطفال هو رعاية احتياجاتهم الاعتمادية، فعندما نقوم بعملنا، المتمثل في تلبية احتياجات الاعتمادية الحقيقية، تنطلق

الطبيعة في القيام بعملها، المتمثل في تعزيز النضج. وبالطريقة نفسها، لا نضطر إلى زيادة طول أطفالنا؛ نحتاج فقط إلى منحهم الطعام. إننا نغفل عن الصورة الكبيرة عندما ننسى أن النمو والتطور والنضج عمليات طبيعية. نخاف أن يتعثر أطفالنا، وألا ينضجوا أبدًا. وربما نعتقد أننا إذا لم نضغط عليهم قليلًا، فإنهم لن يغادروا أعشاشهم أبدًا. إن البشر لا يشبهون الطيور في هذا الأمر، فكلما تم دفع الأطفال أكثر، تعلقوا أكثر - أو إذا فشلوا في ذلك، فإنهم يتخذون أعشاشًا مع أشخاص آخرين.

إن الحياة تتبدى لنا في فصول، ولا يمكننا أن نبلغ الربيع بمقاومة الشتاء، ففي الشتاء تكون النباتات في حالة سبات، وستزهر فجأةً عندما يحل الربيع. وكذلك لا يمكننا أن نصل إلى الاستقلالية بمقاومة الاعتمادية. ولا يبدأ السعي إلى الاستقلالية الحقيقية إلا بعد تلبية احتياجات الاعتمادية. وبمقاومة الاعتمادية، نعوق السير تجاه الاستقلالية، ونؤجل تحققها. من الواضح أننا لم نعد مُطَّلِعين على أهم مبادئ النمو. إننا إذا حاولنا شَدَّ النباتات حتى نجعلها تنضج، عَرَّضنا جذور ارتباطها وقدرتها على الإثمار للخطر. وزعزعة جذور ارتباط الأطفال لا تؤدي بهم إلا إلى الانتقال بأنفسهم إلى علاقات أخرى. كما إن رفضنا دعوتهم إلى الاعتماد علينا يُلجئهم بعضهم إلى أحضان بعض.

إن الضغط على الأطفال لتحمل الانفصال قبل أن يكونوا مستعدين لذلك، سواء كان ذلك في وقت النوم، أو خارج المنزل، هو أمر يثير فيهم الذعر، والتشبث بشكل أكبر ابتداءً، وليس العكس. وربما يقوم الأطفال الذين لا ينجحون في إبقاء والديهم قريبين منهم باستبدال بديل بهم. وكثيرًا ما يتم الخلط بين هذا التحول في الاعتمادية والاستقلالية الحقيقية. وبتشجيعنا مثل هذه الاستقلالية الزائفة -أو الاستقلالية التي لم ينضج أطفالنا بعد بما يكفي لتحمُّلها- فإننا ندعم التوجه نحو الأقران، ونحرض عليه.

ينبغي أن يرحب المعلمون بالاعتمادية أيضًا. في الواقع، عادةً ما يكون هؤلاء المعلمون الذين يشجعون طلابهم على الاعتماد عليهم هم الذين غالبًا ما ينجحون في تعزيز الاستقلالية في نهاية المطاف. إن المعلم القائد لا يدفع التلاميذ نحو الاستقلالية، وإنما يعرض عليهم المساعدة بسخاء. يريد المعلم القائد من طلابه أن يفكروا باستقلالية، ولكنه يعلم أن الطلاب لا يستطيعون

تحقيق ذلك إذا رفض اعتماديتهم، أو عاقبهم على عدم نضجهم. ولا يتردد طلاب هذا المعلم في الاعتماد عليه، دون أي شعور بالحرج من احتياجهم.

لا يوجد طريق مختصر إلى الاستقلالية الحقيقية، فالسبيل الوحيد للوصول إلى الاستقلالية يكون من خلال الاعتمادية. إن الاستناد إلى الثقة بأن توجيه الأطفال إلى القدرة على التعايش كشخصيات مستقلة لا يتوقف علينا بالكلية -إنها مهمة الطبيعة- يفسح لنا المجال للمضي قدمًا في مهمتنا، وهي الترحيب باعتماديتهم.

***

تَصَرَّف وكأنك وجهة بوصلة الطفل

الطريقة الرابعة لجذب غرائز الارتباط هي توجيه الطفل. يبدأ هذا الجزء من الرقصة عندما يكون الطفل بين أذرعنا. وبما أن الأطفال يعتمدون علينا لمعرفة وجهتهم، يجب أن نتولى دور وجهة البوصلة، ونكون مثل المرشد بالنسبة إليهم. ونحن الكبار نتولى هذه المهمة تلقائيًّا، دون حتى أن ندرك ذلك. نشير إلى هذا وذاك، ونسمي الأشياء بأسمائها، ونُطْلِعُ الرضيع النامي على بيئته.

في بيئة المدرسة، وفي هذا الجزء من الرقصة، يمضي المعلم سريع البديهة في توجيه الطفل لمعرفة مكانه، ومن يكون هذا الشخص، وماذا يكون هذا الشيء، ومتى سيحدث هذا الأمر أو ذاك: «سيكون هذا هو المكان الذي تعلق فيه معطفك». «هذه الفتاة اسمها دانا». «سنقوم بالشرح العملي في وقت لاحق، والآن يمكنك القراءة في هذه الكتب».

إن الاختلافات في خطوة الاحتواء هذه لا تعد ولا تحصى، وتحددها ظروف الطفل واحتياجاته. ورغم أننا سريعو البديهة إلى حد ما مع الصغار، فإن الكثيرين منا يفتقرون إلى هذه الغريزة التوجيهية مع الأطفال الأكبر سنًّا، فلم نعد نتولى مهمة تعريفهم إلى من حولهم، وإطلاعهم على عالمهم، وإخبارهم بما سيحدث، وتفسير ما تعنيه الأشياء. وباختصار: إننا نعجز عن أن نكون مثل مرشد لأولئك الذين ينبغي أن يظلوا معتمدين علينا.

يميل الأطفال تلقائيًّا إلى البقاء بالقرب من الوجهة الحالية لبوصلتهم. وإذا أدركنا حقًّا فعالية القيام بهذا الدور في حياة الأطفال، عرفنا أنه دور مهم جدًّا، حيث لا يمكن تركه لغيرنا.

إننا جميعًا بالفطرة ننظر إلى القدرة على التوجيه باعتبارها تمهيدًا أوَّليًّا للارتباط. تخيل أن تكون في مدينة أجنبية، تائهًا وحائرًا، بعيدًا عن أمتعتك، وغير قادر على التحدث بلغة البلد أو فهمها، وتشعر بالعجز واليأس حيال ظروفك. ثم تخيل أن هناك امرأة تقترب منك وتعرض عليك مساعدتها بلغتك الأم. وبعد أن ساعدت في توجيهك إلى الأشخاص الذين ينبغي لك الاتصال بهم، والأماكن التي يمكنك الذهاب إليها، تكون كل غريزة فيك مستنفرة للحفاظ على القرب من مرشدتك. وبمجرد أن تستدير لتمضي إلى سبيلها، تسعى بلا شك إلى إطالة المحادثة، متعلقًا بحبال الهواء لتبقيها قريبة منك. إن كان هذا ينطبق على الكبار، فكيف بالشخصيات غير الناضجة التي يحكمها الارتباط؟ التي تعتمد اعتمادًا تامًّا على الآخرين لمعرفة وجهتها.

يكمن جزء من مشكلة فقدان الصلة بغريزة التوجيه هذه في أننا لم نعد نشعر بأننا مُلِمُّون بذلك العالم الذي يجد أطفالنا أنفسهم فيه. لقد تغيرت الأمور كثيرًا بالنسبة إلينا، مما لا يسمح لنا بأن نكون مرشدين لهم. ولا يستغرق الأطفال وقتًا طويلًا لمعرفة أمور أكثر من تلك التي نعرفها نحن عن عالم الحاسوب والإنترنت، وعن ألعاب الفيديو، وألعابهم التقليدية. لقد خلق التوجه نحو الأقران ثقافة للأطفال غريبة على الكثيرين منا بقدر غرابة ثقافتنا على المهاجرين الجدد. وتمامًا كما يضل المهاجرون في بلد أجنبي، فإننا نخسر قدرتنا على قيادة أطفالنا. إن اللغة تبدو مختلفة، وكذلك الموسيقى بالطبع، وقد تغيرت الثقافة المدرسية، وكذلك المناهج الدراسية. إن كل تغيير من هذه التغييرات يساهم في تلاشي الثقة، إلى الدرجة التي نتصور عندها أنفسنا على أننا نحن الذين نحتاج إلى التوجيه! ونشعر بشكل متزايد بعدم القدرة على توجيه أطفالنا نحو عالمهم.

يكمن جزء آخر من المشكلة في قيام التوجه نحو الأقران بتجريد أطفالنا من الحافز الذي من شأنه –في ظل ظروف طبيعية أكثر– أن يُنَشِّطَ غريزتنا لتوجيههم: تلك النظرة التائهة والحائرة. ويمكن لأولئك الذين تعتلي وجوههم

هذه النظرة، حتى لو كانوا كبارًا، أن يحفزوا الاستجابات التوجيهية حتى عند الغرباء. (يقول المؤلف المشارك لي، جابور ماتيه، وهو يعمل طبيبًا، إنه قد شحذ نظرة الارتباك العاجزة هذه لتصبح فَنًّا تصويريًّا، خصوصًا حول مكاتب التمريض في المستشفيات). وعلى الرغم من أن الأطفال المتوجهين نحو الأقران لا يعرفون الكثير عن هويتهم أو وجهتهم مقارنة بغيرهم، فإن الأثر الذي يتركه التوجه نحو الأقران يتمثل في التخلص من هذا الشعور بالتيهان أو الحيرة. إن الطفل الراسخ في ثقافة «اللامبالاة» لا يبدو ضعيفًا، أو محتاجًا إلى مساعدة في التوجيه، فالقرب من أصدقائه هو أهم شيء. وهذا هو أحد الأسباب التي تجعل الأطفال المتوجهين نحو الأقران غالبًا ما يبدون أكثر ثقةً ودهاءً، بينما هم في الواقع كالعُمْي الذين يقودون العُمْي. والمحصلة النهائية لعدم إظهار حيرتهم على وجوههم هي أن تظل غرائزنا المسؤولة عن توجيههم كامنة، كما تتناقص قدرتنا على احتوائهم.

على الرغم من حقيقة أن عالمنا قد تغير –أو، بتعبير أدق، بسبب تلك الحقيقة– فقد بات من المهم أكثر من أي وقت مضى أن نستجمع ثقتنا، وأن نتبوأ مكانتنا، وجهة البوصلة الأساسية في حياة أطفالنا. إن العالم قد يتغير، ولكن رقصة الارتباط تبقى على حالها. إننا نجيد توجيه أطفالنا الدارجين، والأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة، ربما لأننا نعتقد أنهم سيضيعون من دوننا. نحن نخبرهم باستمرار بما سيحدث، وأين سنكون، وماذا سيفعلون، ومن هو هذا الشخص، وما معنى هذا الشيء. وبعد هذه المرحلة، يبدو أننا نفقد ثقتنا، وتتبلد غريزة الاحتواء الضرورية هذه.

علينا أن نتذكر أن الأطفال في حاجة إلى التوجيه، وأننا أفضل مرجع لهم للقيام بذلك، سواء كانوا يعرفون ذلك أم لا. وكلما قمنا بتوجيههم، من حيث الزمان، والمكان، والناس، والأحداث، والمعاني، والظروف، زاد ميلهم إلى إبقائنا بالقرب منهم. يجب علينا ألا ننتظر نظرتهم الحائرة، بل ينبغي أن نتبوأ مكانتنا بثقة في حياتهم، كمرشدين ومُفَسِّرين. ويمكن حتى للقليل من التوجيه في بداية اليوم أن يقطع شوطًا طويلًا في إبقائهم بالقرب منا: «هذا هو ما سنفعله اليوم». «هذا هو المكان الذي سأكون فيه. الأمر المميز في هذا اليوم هو...». «ما أخطط له هذا المساء هو...». «أريدك أن تلتقي فلانًا

وفلانًا». «دعني أوضح لك كيف يعمل هذا الشيء». «هذا هو من سيعتني بك». «هذا هو من ستطلب مساعدته إن احتَجتَ إلى المساعدة». «تبقى من الزمن ثلاثة أيام فقط حتى...». وبالطبع توجيههم فيما يتعلق بهويتهم، ومكانتهم: «لديك طريقة مميزة في...». «أنتِ من نوعية الفتيات اللواتي...». «إنك تتمتع بمقومات مفكر أصيل». «أنت حقًّا موهوب في...». «لديك ما يؤهلك لكي...». «أستطيع أن أرى أنك ستنجح في...». فالتصرف وكأنك وجهة بوصلة الطفل يُنَشِّط غرائز الارتباط، وإنها لمسؤولية هائلة.

في حالة التعامل مع طفلنا، يعيد التوجيه تنشيط غرائزه التي تدفعه إلى إبقائنا بالقرب منه. أما في حالة احتواء طفل شخصٍ آخر، يعتبر التوجيه خطوة أساسية لتعزيز التواصل. يكمن السر في استغلال الشخص البالغ – سواء كان المعلم، أو زوج الأم، أو زوجة الأب– أي فجوة في التوجيه يعانيها الطفل، وذلك من خلال تقديم نفسه كمرشد. وإذا كان بإمكانك ترتيب مواقف تجعل الطفل أو الطالب يعتمد عليك لمعرفه وجهته، كان ذلك أفضل كثيرًا من حيث التمهيد للارتباط.

***

استعادة الأطفال المتوجهين نحو الأقران

هذه الخطوات الأربع لرقصة الارتباط تمكننا من جذب غرائز الارتباط عند الطفل، وستُدخِلُ معظم الأطفال في علاقة ناجحة مع مقدمي الرعاية البالغين. ولكن سيكون هناك أطفال شديدو العزلة بسبب التوجه نحو الأقران، مما لا يسمح بنجاح هذا السيناريو البسيط للارتباط. سيتساءل بعض الآباء: «ماذا يجب أن أفعل إذا «خسرت» طفلي بالفعل لصالح عالم الأصدقاء؟ هل هناك أي طريقة يمكنني من خلالها أن أكسبه مرة أخرى؟».

إن رسالتي الختامية في الفصل الأول جديرة بالتكرار هنا: هناك دائمًا أمور يمكننا فعلها. وفي حين أنه ليس هناك نهج واحد مضمون تمامًا في جميع الأحوال، فمن الممكن أن نكون واثقين من النجاح على المدى الطويل

إن فهمنا إلى أين يجب أن نوجه جهودنا. وتنطبق الخطوات والمبادئ نفسها، حتى لو كانت مقاومة الطفل المبدئية للتودد إليه مترسخة ومُحبِطة. وفي نهاية المطاف، فإن العلاقات ليست بالأمر الذي يمكننا التحكم فيه، وإنما فقط نرحب بها، ونشجع عليها. ويمكننا أن نجعل من عودة الأطفال «الضائعين» أمرًا سهلًا قدر الإمكان، وأن نجعل من احتفاظ المتنافسين بهم أمرًا صعبًا قدر الإمكان. حسن، كيف يمكننا فعل ذلك؟

إن التوجه نحو الأقران أشبه بالعقيدة من نواحٍ عديدة، وتكون التحديات التي تنطوي عليها استعادة الأطفال هي نفسها تمامًا كما لو كنا نواجه الفتن العقدية. فالتحدي الحقيقي هو أن نستعيد قلوبهم وعقولهم، وليس مجرد أن نحظى بأجسادهم في منازلنا وعلى موائدنا.

عند محاولة احتواء أطفالنا، لا بد أن نتذكر أنهم في حاجة إلينا، حتى وإن كانوا لا يدركون ذلك. وحتى أكثر المراهقين عزلةً وعدوانيةً يحتاجون إلى أولياء أمور داعمين. وعلى الرغم من الغرائز المُضَلِّلة والانغلاق العاطفي، تظل هذه المعرفة متأصلة في نفوسهم، وقد يزل لسانهم بها سرًّا في لقاء مع شخص بالغ أو مرشد مَعنِيٍّ. تقول ماريون، وهي والدة لشابين مراهقين: «لقد حرصنا دائمًا على أن يشعر أصدقاء أطفالنا بالراحة في منزلنا. ويبدو أنهم شعروا براحة أكبر هنا أكثر من منازلهم. لقد كان هؤلاء الشبان الضخام «القساة» يجلسون حول منضدة المطبخ ويخوضون في أحاديث معي أنا وزوجي، ثم يعترفون لأبنائنا في وقت لاحق أنهم ما كانوا ليخوضوا في مثل هذه الأحاديث مع والديهم قط».

ينبغي لنا أن نباشر مهمة احتواء أطفالنا في جو من الثقة، وألا نسمح لأنفسنا بأن يصيبنا الإحباط، أو أن يتشتت انتباهنا عن هدفنا. فكلما كان الأطفال أكثر تمردًا، و «يستحيل الوجود حولهم»، زادت حاجتهم إلى أن يعودوا إلينا.

إن كسبهم مرة أخرى هو أمر مهم، ليس فقط لكي نتمكن من إنهاء مهمتنا التربوية، ولكن لكي نمنحهم فرصة للنمو. يجب تشجيع الأطفال الذين غادروا رحم الارتباط بالوالدين مبكرًا على العودة من أجل استكمال عملية النضج. لقد كتب طبيب الأطفال النفسي الأمريكي البارز ستانلي جرينسبان: «بغض

النظر عن العمر، يمكن للأطفال أن يبدؤوا في التصرف وفق مستويات تطورية كانوا يعجزون عن بلوغها، ولكن لا يمكنهم القيام بذلك سوى في إطار علاقة شخصية وثيقة مع شخصٍ بالِغٍ متفانٍ».[2] إن استمالة الطفل لإعادته إلى رابطة ارتباطٍ قويةٍ واستبقائه فيها هي الأساس الذي تقوم عليه كل الأمور الأخرى التي قد نحاول فعلها مع الطفل ومن أجله.

ويعتبر مفتاح استعادة الطفل هو تغيير الظروف التي تفضي إلى التوجه نحو الأقران. نحن نحتاج إلى خلق فجوة في الارتباط من خلال فصل الطفل عن أصدقائه، ثم نملأ نحن هذه الفجوة بدلاء لهم. ومن المهم أن نتذكر أن الأطفال المتوجهين نحو الأقران لديهم احتياجات شديدة إلى الارتباط، وإلا فما كانوا ليتوجهوا نحو الأقران. ومن المرجح أن يكون البعد عن الأصدقاء غير محتمل تمامًا، كما كانت الفجوات في الارتباط بالوالدين غير محتملة في أول الأمر.

في كثير من الأحيان، خصوصًا إذا لم يكن التوجه نحو الأقران متطورًا جدًّا، يمكن إحداث تغيير بسيط من خلال فرض بعض القيود على التواصل مع الأصدقاء، مع إيلاء احتواء الطفل الأولوية كلما أمكن ذلك. ومن المهم ألا يكشف المرء عن خطته، لأن ذلك قد يفضي إلى نتائج عكسية بكل سهولة. يعتبر الجزء الأصعب بالنسبة إلى العديد من الآباء هو التحول من التركيز على السلوك إلى التركيز على العلاقة. وبمجرد أن تتدهور العلاقة، قد يصبح السلوك عدوانيًّا ومثيرًا للقلق بشكل متزايد. وفي ظل هذه الظروف، نجد صعوبة في التوقف عن الترغيب، أو اللوم والانتقاد. ولكي نغير محور التركيز، يجب علينا أولًا أن نتفهم عدم جدوى معالجة السلوك، وأن نعيد توجيه أنفسنا نحو مهمة استعادة العلاقة. وما لم يكن هذا التحول حقيقيًّا، فلن يكون هناك ما يكفي من الصبر لإنجاز المهمة المطلوبة. يعرف معظمنا بالفطرة كيفية التودد، ولكننا نحتاج فقط إلى معرفة أنه ليس هناك طريق آخر للوصول إلى ما نريد، وأن القريب العاجل خير من البعيد الآجل.

سأتناول أساليب محددة، مثل إقامة النظام وفرض القيود، في الفصل السابع عشر، ولكنني سأتوقف لحظة هنا لأتناول أسلوب العقاب بالمنع من الخروج. لا يزال المنع من الخروج يشكل أسلوبًا تأديبيًّا شائعًا للمراهقين

الصغار عند خرق بعض القواعد، أو ارتكاب المخالفات. السؤال هو: كيف نستخدمه؟ كعقاب؟ أم كفرصة؟ إن المنع من الخروج عادةً ما يحدُّ من التواصل مع الأصدقاء، وبالتالي فقد يعمل في الواقع على خلق فجوة في الارتباط، التي يمكننا استغلالها. إذا كان الآباء يرون أنه وقت للإقبال على أطفالهم بطريقة ودودة، وتقديم شيء للطفل ليتشبث به، فقد تكون النتيجة مفيدة. أما أسلوب المنع من الخروج وحده، فلن يجدي نفعًا. إن منع التفاعل مع الأصدقاء قد لا يفضي إلا إلى زيادة شدة سعي الطفل إليه. ويجب أيضًا تجنب المنع من الخروج إذا كان الوالدان يفتقران إلى قوة الارتباط الفطرية، ولا يتمتعان بالثقة الداخلية اللازمة لإنجاز المهمة. ومثله مثل معظم المداخل السلوكية، ينجح أسلوب المنع من الخروج مع أولئك الذين لا يحتاجون إليه، ويكون أقل فعالية مع أولئك الذين هم في أمس الحاجة إليه. ولكن مهما كانت الظروف، فإن المنع من الخروج –إن أردنا استخدامه بأي حال– ينجح إذا اغتنمه الوالدان كفرصة لإعادة توطيد العلاقة مع طفلهما. وهذا يعني تجنب جميع الأساليب والانفعالات التأديبية في التواصل.

يتطلب الأمر في بعض الأحيان المزيد من التغييرات الجذرية، ولا سيما عندما تبوء محاولات احتواء الطفل بالفشل، وتعود الجهود المبذولة لوضع حتى أدنى حاجز بين الطفل وأصدقائه بلا طائل. هناك مجموعة واسعة من التدخلات التي يمكننا الاستعانة بها، اعتمادًا على موارد الأسرة وخطورة الوضع، بدءًا من رحلات نهاية الأسبوع مع الطفل وحده، ومرورًا بالرحلات الطويلة للأسرة كلها، وكل ما هو بينهما. وهذا هو الوقت الذي قد يكون فيه المنزل الصيفي مفيدًا، بالنسبة إلى أولئك الذين يمكنهم تحمل تكلفة شرائه. كما إن الأقارب، ممن يعيشون في الريف، ويتمتعون بصدر رحب، وغرائز احتواء جيدة، هم شيء لا يمكن شراؤه بالمال. وغالبًا ما يكون اصطحاب الطفل في عطلة صيفية في إطار العائلة –حتى لو لم تكن عائلتنا– ترياقًا للانخراط المتزايد مع الأصدقاء. لقد قررت العديد من الأسر التي أعرفها الانتقال من أجل خلق فجوة في الارتباط بالأصدقاء، ولحسن الحظ، كانت نتائج هذا الحل الجذري ناجحة. ولكن خلق مثل هذه الفجوة ليس سوى نصف الحل. أما احتواء الطفل، فهو النصف الأهم.

إن التفاعل الفردي هو الأكثر فاعلية في محاولة احتواء الطفل. فعندما يكون هناك أكثر من شخص بالغ، يظل بإمكان الطفل الهروب من اللقاءات الشخصية. ومع وجود أطفال آخرين، لا تكون الفجوة في الارتباط كبيرة أبدًا بما فيه الكفاية لدفع الطفل إلى أحضاننا.

من المستحيل أن نرقص مع طفل متوجه نحو الأقران. علينا أن نستجمع كل ذرة من روح المبادرة والبراعة بكل ما أوتينا. بالنسبة إلى ابنتي المراهقتين: تمارا، وتاشا، جاءت نقاط التحول في توجههما نحو الأقران في أثناء الرحلات التي خططنا لها بغرض استعادتهما مرة أخرى. بالنسبة إلى تاشا، كان الطُّعمُ هو أخذ إجازة من المدرسة والذهاب إلى مكان أعرف أنها تحبُّه. وعلى الرغم من ذلك، شعرت تاشا بالاستياء لأنها كانت ستفتقد المدرسة. ليس بدافع الاهتمام الأكاديمي، ولكن لأن المدرسة هي المكان حيث يوجد أصدقاؤها. ولحسن الحظ، كنا في ذلك الوقت على متن الباخرة بالفعل، بعد فوات الأوان. وعندما وصلنا إلى الكوخ الساحلي الذي استأجرته، قالت إن هذه الرحلة ستكون مملة، لأنه لم يكن هناك أحد. هذه هي المشكلة في التوجه نحو الأقران، إنه يقلل من قدر الوالدين إلى درجة الـ «لا أحد». إن «الجميع» بالنسبة إليهم هم أولئك الذين يرتبطون بهم، أما الـ «لا أحد»، فهو أي شخص آخر.

كان عليَّ أن أتذكر ألا أسمح بأن يتم إبعادي، وألا أقاوم الأعراض. بدأت الأمور ببطء إلى حد ما، ولكن بعد أن حصلت على إجازة من العمل عدة أيام، كنت على استعداد للانتظار حتى تصبح الفجوة في الارتباط غير محتملة بما فيه الكفاية لكي تدفع تاشا إلى التماس القرب مني. كانت مهمتي هي اقتحام مساحتها بطريقة ودودة، دون المبالغة في ذلك. كانت تعبيرات وجهها الكئيبة لا تمت بصلةٍ إلى التماع عينيها، وإشراقة ابتسامتها التي اعتادت أن تظهرها في وجودي. وفي هذه الرحلة، تَعَرَّفَتْ عليَّ أول مرة رفيقًا للمشي والتجديف. ثم توالت بعض الابتسامات، وتسلل بعض الدفء إلى صوتها. وأخيرًا، بدأ الحديث والترحيب بالعناق. ومع استعادة العلاقة، جاءت أيضًا –بشكل مثير للانتباه– الرغبة في طبخ الطعام وتناوله معًا. وعندما حان الوقت للمغادرة، لم يكن أيٌّ منا متلهفًا على العودة. وفي طريق عودتنا إلى المنزل، توصَّلت أنا وتاشا إلى بعض الاتفاقات للحفاظ على علاقتنا: التنزه معًا مرة واحدة في

الأسبوع، أو تناول كوب من الشوكولاتة الساخنة في أحد المقاهي. ووعدت نفسي ألا أُثقِلَ عليها خلال أوقاتنا الخاصة. لقد كان الغرض من هذه الأنشطة التي جرى الترتيب لها خصيصى هو الحفاظ على سياق الارتباط - يمكنني مباشرة مهامي التربوية الأخرى المتعلقة بالتوجيه والقيادة في باقي الأوقات.

سألتني تاشا لماذا تركتها من البداية. وانطلقتُ في الادعاء بأنها فهمت الأمر بشكل خاطئ. وعندها، فجأةً، أدركت أنها كانت على حق. إن مسؤولية إبقاء الطفل بجوارنا تقع على عاتق الوالدين. لم تكن ابنتي مسؤولة بالتأكيد عن الحالة التي وصلت إليها ثقافتنا. وعندما كانت تسعى إلى التقارب مع أصدقائها، كانت تتبع غرائزها المنحرفة فحسب. وعلى الرغم من أنه ليس ذنبي أن ثقافتنا كانت تقودنا إلى الفشل، فما زالت مسؤوليتي كأب هي التمسك بتاشا، إلى أن تصبح في غير حاجة إليَّ. لقد أفلتُّ يدها بجهل، ومن دون قصد، قبل أن أُتِمَّ مهمتي التربوية. ويصيبني الذعر كلما تذكرت أنني في ذلك الوقت كنت أخشى أخذ أسبوع إجازة من العمل. وبالنظر إلى الماضي، أعلم أن ذلك كان أحد أفضل القرارات التي اتخذتها في حياتي.

في حالة تمارا، كان ما أصلح علاقتنا هو قضاء بضعة أيام من المشي مسافات طويلة، والتخييم في الغابة بمفردنا. وكان الطُّعمُ أنها تحب المشي مسافات طويلة، وصيد الأسماك، والبقاء في الهواء الطلق. في البداية، ظهر توجهها نحو الأقران في رفضها مساعدتي، وسيرها أمامي، أو خلفي، والتواصل معي في أضيق الحدود. وكان وجهها العابس يذكرني بأنني لم أكن الرفيق الذي كانت تتمناه. لقد اخترتُ الغابة التي كنتُ على دراية بها حتى أكون أنا وجهة البوصلة بكل ما تعنيه الكلمة. لقد استغرق الأمر بضعة أيام. وعلى الرغم من أنني –مجددًا– اضطررت إلى تذكير نفسي بالتحلي بالصبر والتصرف بود، فإن ابنتي في اليوم الأخير كانت تسير بجانبي وترحب بمساعدتي. وكما في الأيام الخوالي، كان لديها الكثير من القصص لتحكيها، وراحت تثرثر لي بلا توقف. إن ما أدهشني هو كيف كان لابتسامتها الدافئة أن تلمس قلبي بسرعة وعمق، ففي أعقاب توجهها نحو أقرانها، كنت قد نسيت تمامًا البهجة التي غمرتني بها علاقتنا سابقًا.

14

الحفاظ على الروابط الداعمة

إن العلاقة بين الطفل والوالد علاقة مقدسة. وإذ نواجه التحدي المتمثل في ثقافة الأصدقاء، نحتاج إلى الحفاظ على ارتباطات أطفالنا بنا قوية، وأن نجعل هذه الارتباطات تدوم ما دام أطفالنا في حاجة إلى التربية. ولكن كيف نحقق ذلك؟

***

اجعل الأولوية للعلاقة

مهما كانت المشكلة أو المسألة التي نواجهها في التربية، لا بد أن تكون علاقتنا مع أطفالنا على رأس أولوياتنا، فالأطفال لا يدركون نياتنا مهما كانت صادقة. إنهم يرون ما نُظهِرُه في نبرتنا وسلوكنا. ولا يسعنا أن نفترض أن الأطفال سيعرفون ما هي أولوياتنا؛ يجب أن نعيش وفق أولوياتنا. إن العديد من الأطفال الذين يشعر والداهم بحب غير مشروط تجاههم يتلقون رسالةً مفادها أن هذا الحب مشروط جدًّا بالفعل. تقول جويس، وهي أم لثلاثة أطفال

صغار: «التحدي الحقيقي هو التحلي بالصبر على الدوام، والتمسك بالرؤية طويلة الأجل. فعندما تكون في عجلة من أمرك، من الصعب أن تتذكر أنك على علاقة بشخص ما، وليس أنك تحاول إخراج أحدهم من الباب في غضون عشر دقائق. المشكلة هي أننا لدينا أجنداتنا الخاصة، وأحيانًا نرى الطفل عائقًا أمامنا».

إن القبول غير المشروط يكون أصعب ما يمكن التعبير عنه تحديدًا عندما تكون هناك حاجة ماسة إليه: عندما يخيب الأطفال آمالنا، أو يخالفون قيمنا، أو يجعلون أنفسهم مصدر إزعاج لنا. وفي هذه الأوقات بالتحديد، يجب أن نشير، بالكلمات أو الإيماءات، إلى أن الطفل أهم من تصرفاته، وأن العلاقة أهم من السلوك، أو الإنجازات. إننا نجعل العلاقة آمنة قبل أن نعالج السلوك. ويجب أن نتمسك بأطفالنا بقوة أكبر في الفترات التي تكون فيها الأمور صعبة للغاية. ومن ثم يمكنهم هم -في المقابل- أن يتمسكوا بنا. إن محاولة التربية و «تلقين الدروس» عندما نكون مستائين أو مشحونين بالغضب قد تُعَرِّضُ الطفل للشعور بالقلق حيال العلاقة. ولا يمكننا أن نتوقع من الطفل أن يتمسك بعلاقة لا يرى أننا نشعر بقيمتها. وفي مثل هذه الأوقات، يكون أفضل شيء نفعله هو أن نتمالك أنفسنا، وأن نكبح جماح كلماتنا الانتقادية، وأن نمتنع عن فرض أي عواقب.

بالنسبة إلى بعض الآباء، تبدو طريقة التواصل هذه غير طبيعية. إنهم يخشون أن ينظر إليهم أطفالهم على أنهم يتغاضون عن السلوكيات السيئة، ويعتقدون أن عدم التحدث على الفور وباستمرار عن السلوكيات غير اللائقة سوف يشوِّش الطفل، ويهدم قيمهم. ورغم أنه من الممكن تفهُّم ذلك، فإن هذا الخوف في غير محله، فنادرًا ما يكون التشوش هو المشكلة: الطفل يعرف عادةً ما هو متوقع منه، وهو إما غير قادر، وإما غير راغب في الوفاء به. وعادةً ما يكون عدم القدرة على الوفاء بالمطلوب مشكلة في النضج، وعادةً ما يكون عدم الرغبة في الوفاء به مشكلة في الارتباط. ومن المرجح أن يشعر الطفل بالتشوش، ليس حيال الأمر الذي ينال التقدير، ولكن حيال قيمته وأهميته عند الوالدين. وهذا هو بالضبط ما يتطلب التوضيح والتوكيد. وما لم يكن الارتباط آمنًا والعلاقة سليمة، فعندما نقول للطفل: «هذا غير مقبول»، فعلى الأغلب

سيفهم الطفل ما يلي: «إنها لا تحبني»، أو «أنا غير مقبول بسبب...»، أو «أنا أحظى بالقبول فقط عندما...». وعندما يتلقى الطفل مثل هذه الرسالة، سواء قلناها بالفعل أم لا، تتدمر العلاقة. لقد تَهَدَّمَ الأساس الفعلي الذي تقوم عليه رغبة الطفل في أن يكون صالحًا في نظرنا.

إننا لا نتنازل عن قيمنا عندما نقول إن الطفل أهم من سلوكه، بل نؤكدها إلى أقصى الحدود. إننا نسبر الأغوار العميقة، ثم نعلن عن الأمر الصحيح. عندما يتم تحدي الآباء لتوضيح قيمهم، مع استثناءات قليلة جدًّا، فإنهم يظهرون في صف الطفل والارتباط. المشكلة هي أننا عادةً ما نعتبر العلاقة أمرًا مسلمًا به. إننا ندرك القيم الأخرى (كالقيم الأخلاقية)، ولكننا لا ندرك أهم هذه القيم بالنسبة إلينا جميعًا: الارتباط. إننا ننقل هذه القيم الأخرى عندما نتفاعل مع أطفالنا. ولا نكتشف أهم التزاماتنا –الطفل نفسه– إلا عندما يصير الارتباط ارتباطًا واعيًا.

***

التربية من منطلق الارتباط

إن أولوياتنا ستكون واضحة إذا سرنا على نهج التسلسل الطبيعي للنمو. ستكون الأولوية الأولى هي الارتباط، والثانية هي النضج، والثالثة هي التنشئة الاجتماعية. وعند مواجهة بعض التمرد من جانب طفلنا، سنتطرق أولًا إلى العلاقة، وهو ما لا يختلف عن الحفاظ على السياق المناسب للنضج. وفقط بعد ذلك سنركز على الملاءمة الاجتماعية، أي على سلوك الطفل. وقبل أن نشعر براحة الضمير إزاء الوفاء بالأولويتين الأولى والثانية، سننتقل إلى الأولوية الثالثة. إن قبول هذا النهج في تفاعلاتنا مع أطفالنا سيبقينا في تناغم مع المخطط النمائي، ويساعدنا على العيش في وئام مع أهم التزاماتنا. وهذا هو السر في التربية: بذل قصارى جهدنا من أجل أطفالنا يؤدي إلى إظهار أفضل ما فينا.

إن التربية من منطلق الارتباط تعني عدم السماح لأي شيء بإبعاد الطفل عنا، على الأقل على المستوى النفسي. هذا التحدي يكون أصعب بكثير مع الطفل المتوجه نحو الأقران، لأن ثمة شيئًا ما قد فَرَّقَ بالفعل بين الوالد والطفل: الأصدقاء. فالأطفال المتوجهون نحو الأقران ليسوا أقل ميلًا إلى الارتباط بنا فحسب، بل إنهم ينجرون إلى سلوكيات قد تكون مؤذية وبغيضة. (راجع الفصل الثاني للاطلاع على طاقة الارتباط السلبية التي تعزز مثل هذه السلوكيات). إن مشاعرنا كآباء قد تتأذى حتى عندما لا يستجيب الطفل الرضيع لمحاولاتنا للتقرب. وقد لا يكون الطفل الأكبر سنًّا، المنغمس في التوجه نحو الأقران غير مستجيبٍ فحسب، بل قد يكون لئيمًا ومزعجًا جدًّا. إنه لمن المؤلم أن تشعر بالرفض، والتجاهل، وعدم الاحترام. كما إنه من الصعب عدم الرد على نظرات الامتعاض، والصوت المتأفف، والسلوك اللامبالي، والنبرة الوقحة. إن الغرور وعدم الولاء الملموسين من الطفل المتوجه نحو الأقران ينتهكان كل إحساس بالارتباط عند الوالدين. إنهما يثيران الأعصاب. ومثل هذا السلوك المؤذي المهين يدفعنا إلى الغضب، وكيف لا يمكنه ذلك؟

في الفصل الثاني، أطلقت على التوجه نحو الأقران مسمى «علاقة غرامية». عندما يتخلى أطفالنا عنا من أجل أصدقائهم، نشعر بالقدر نفسه من الانتهاك والغضب والإهانة الذي نشعر به في أي علاقة أخرى نهتم بها كثيرًا. ومن الطبيعي عندما يُجرَحُ المرء أن يتراجع بطريقة دفاعية، وأن ينسحب عاطفيًّا، ليتجنب التعرض للأذى أكثر من ذلك. وهذا هو الوقت الذي يحثنا فيه الجزء الدفاعي من دماغنا على التراجع عن المنطقة المعرضة للخطر إلى مكان لا تجرحنا فيه الإهانات، ولا يؤدي فيه غياب التواصل إلى إثارة الغضب، فالآباء ما هم إلا بشر.

إن كبت طاقة الارتباط التي نتمتع بها قد يحمينا من المزيد من الضعف، ولكن الطفل ينظر إلى الأمر كحالة من الرفض. نحن في حاجة إلى أن نتذكر أن الطفل لا يخطط لإيذائنا عن وعي، فهو يتبع غرائزه المنحرفة فحسب. وإذا تجردنا من عاطفتنا كرد فعل على ذلك، فإننا سنخلق فجوة أوسع في الارتباط، التي من شأنها أن تدفع الطفل إلى أحضان أصدقائه بقوة أكبر من أي وقت مضى. بالنسبة إلى الطفل، فإن انسحاب الوالدين دائمًا ما يعجل

بالانحدار إلى دوامة من الاضطراب والارتباط بالأصدقاء. وعلى الرغم من أنه قد يبدو للوالدين أنه لا توجد أي روابط تسمح بالإنقاذ، فإن العلاقة مع الأم والأب والأسرة تظل مهمة للغاية، حتى بالنسبة إلى الطفل الأكثر توجهًا نحو الأقران. وإذا سمحنا لأنفسنا نحن الآباء أن نصبح منعزلين، هدمنا الجسر الوحيد الذي يمكن للطفل أن يعود من خلاله. يتطلب الأمر قديسًا لكيلا يشعر بالنفور، ولكن مع أطفالنا المتوجهين نحو الأقران، فقد تكون حالة القداسة هذه هي ما يجب أن نكون عليه. وإذا كان هذا يبدو غير طبيعي، فذلك لأنه غير طبيعي. لم يكن من المفترض أن تسير الوالدية على هذا النحو، كما إنها لم تكن مُصَمَّمةً بطبيعتها مع إمكانية أن تصبح قلوب أطفالنا معاديةً لنا. ومع ذلك، فإذا سمحنا لأنفسنا بالابتعاد، لم يتبقَّ شيء للطفل ليتشبث به. إن الاستمرار في أداء أدوارنا، دون السماح لأنفسنا بأن نصبح منعزلين، هو أحد أهم الأمور التي ينبغي القيام بها من أجل مصلحة أطفالنا ومصلحتنا.

في الحقيقة، ليس ثمة ما يجرح أكثر من الشعور بالرفض المستمر. وهذا يتطلب الاعتماد بصبر وإيمان على ينبوعنا الذي لا ينضب من الحب بلا مقابل، والأمل في غدٍ أفضل. وحتى إذا كان الوضع يُشعِرُنا بالإحباط واليأس، يجب ألا نتخلى عن دورنا. وما دمنا متاحين، فهناك فرصة جيدة لأن يعود الابن أو الابنة المتمردان.

في كثير من الأحيان، سيوجه الآباء إنذارًا نهائيًا إلى طفلهم بدافع من الإحباط. وعادةً ما يكون ذلك بصيغة مثل: إما أن تُحسِنَ التصرف، وإما أن تنصرف من هنا. وسواء تم استخدام هذه الصيغة رسميًا كأسلوب مثل أسلوب «الحب الصارم»، أو كمجرد استجابة فطرية لضبط سلوك الطفل، فإنها نادرًا ما تُجدي نفعًا مع طفل متوجه نحو الأقران. إن هذا الإنذار النهائي يفترض وجود ارتباطٍ كافٍ للمراهنة عليه. وإذا لم يكن الارتباط قويًا بما فيه الكفاية، لم يكن هناك دافع عند الطفل للبقاء بالقرب من الوالدين. إن الإنذارات النهائية تمنح الطفل إحساسًا عميقًا بأن والديه لا يحبانه، ولا يقبلانه إلا بشروط محددة فحسب. إنها تدفع الطفل المتوجه نحو الأقران إلى الانفصال عن الوالدين بشكل أكبر، وتقوده إلى رسوخٍ أعمق في عالم الأصدقاء.

أحيانًا لا يكون الإنذار إنذارًا نهائيًا في الحقيقة على الإطلاق، وإنما هو وسيلة للتخلي عن المسؤولية، أو الانسحاب. لقد ضاق الوالد ذرعًا، وتلاشى أمله في أن تتحسن الأمور، أو أن تتحسن الطاقة التي من شأنها تحسين الأمور. وإذا كان الأمر كذلك، فمن الأفضل إيجاد طريقة للانفصال لا تؤدي إلى تفاقم المشكلة، أو زيادة صعوبة إصلاح العلاقة في المستقبل. إن هذا القدر من الرفض يَصعُبُ على أي طفل أن يتعافى منه. وإذا لم يعد الصمود خيارًا متاحًا أمام الوالدين، فغالبًا ما أقترح أن يفكرا في إرسال طفلهما إلى مدرسة داخلية خاصة، أو الاعتماد على الأقارب، أو ربما البحث عن عائلة مقربة، من أولئك الذين سيقدمون يد العون. وكلما كان الرفض أقل وضوحًا، زادت إمكانية الاستعادة في نهاية المطاف. وإذا لم يتمزق الرابط النفسي، وكان الانفصال الجسدي يمنح الآباء بعض الراحة، فإنهم قد يجدون مرة أخرى القوة وروح المبادرة ليحاولوا استعادة طفلهم.

في بعض الحالات الأقل حدةً، والمهمة أيضًا بالقدر نفسه لننتبه إليها، قد يجد جميع الآباء أنفسهم ينسحبون من العلاقة من وقت إلى آخر، حتى لو كان ذلك عن غير قصد. إن منح العلاقة الأولوية يستلزم القيام ببعض الإصلاحات، خصوصًا عندما يكون الرابط العاطفي مستنزفًا، أو ممزقًا. من النادر وجود والد لا يفقد أعصابه من حينٍ إلى آخر، فالهدوء المثالي يفوق قدراتنا. وبغض النظر عن مدى الحكمة التي نتمتع بها، أو مدى وضوح أولوياتنا، فمن المحتم أن يدفعنا أطفالنا إلى ردود فعل غير منضبطة عاطفيًّا، جميعنا، باستثناء القديسين الموجودين بيننا، هكذا ببساطة. إن فترات الانفصال المؤقتة في العلاقة أمر لا مفر منه، وليس ضارًّا بحد ذاته، ما لم تكن متكررة وقاسية. يحدث الضرر الحقيقي عندما نتجاهل إعادة احتواء طفلنا، مما يوحي بأن العلاقة لا تهمنا، أو –بخلاف ذلك– إذا تركنا انطباعًا بأن مسؤولية استعادة العلاقة تقع على عاتق الطفل.

إن إحدى الطرائق التي يمكننا من خلالها معرفة مدى قيمة شيء ما بالنسبة إلى أحدهم هي العقبات التي يكون مستعدًّا للتغلب عليها في سعيه وراء ذلك الشيء. وهذه هي الطريقة التي يعرف بها أطفالنا مدى قيمة العلاقة بالنسبة إلينا. وعندما نبذل الجهد لكي نجد طريق العودة إلى جانب أطفالنا،

متجاوزين مشاعرنا، ومحتوين مشاعرهم، فإننا نبعث برسالة قوية، مفادها أن العلاقة هي أولى أولوياتنا. وعندما تتسم ردود الفعل بالحدة، والمشاعر بالتوتر، يكون قد حان الوقت لاستعادة أهم أولوياتنا، والتأكيد على التزامنا إياها: «إنني ما زلت أمك، وسأظل كذلك دائمًا. أعلم أنه من الصعب عليك أن تتذكر أنني أحبك عندما أكون غاضبة، وأحيانًا قد أنسى أنا ذلك لحظةً أو اثنتين، ولكنني دائمًا ما أعود إلى صوابي. أنا سعيدة لأن علاقتنا قوية. ولا بد لها أن تكون كذلك في وقتٍ كهذا». إن الكلمات الفعلية ليست بتلك الأهمية، وإنما نبرة صوتك، والحب في عينيك، ورقة لمساتك هي التي تتحدث عنك.

***

ساعد طفلك على إبقائك قريبًا منه

لقد ذكرت في الفصل الثاني أن هناك ست طرائق للارتباط، وأن «كل واحدة منها تعطي لمحة عن سلوك أطفالنا، وغالبًا عن سلوكنا أيضًا». إن الأمر الذي يُشعِرُ الطفل بالانفصال يعتمد على ديناميةِ الارتباط التي تغلب على حياته العاطفية.

إن الأطفال الذين يرتبطون في المقام الأول عن طريق الحواس، يشعرون بالانفصال عندما يغيب التواصل الجسدي. والأطفال الذين يرتبطون من خلال الولاء، سيشعرون بالعزلة إن بدا لهم أن الوالد يقف ضدهم، وليس معهم. يتذكر جابور، المؤلف المشارك لي، أن ابنه الذكي والحساس للغاية، الذي كان يبلغ من العمر تسع سنوات في ذلك الوقت، شعر بالانزعاج المستمر بسبب أمه وأبيه، لدرجة أنه تخيل أنهما كانا يأخذان دورات تدريبية ليلًا حول كيفية جعل الحياة صعبة على الأطفال! قد يعبر القليل من الأطفال عن مشاعرهم بشكل عميق، ولكن العديد من الأطفال يشعرون أن والديهم لا يقفون في صفهم.

يحتاج بعض الأطفال إلى الشعور بأنهم مهمون بالنسبة إلى الوالدين حتى يشعروا بأنهم قريبون منهم. وإذا شعر مثل هذا الطفل بأنه غير مهم

بالنسبة إلى والديه، شعر بالنبذ - كما لو أنه تَوَلَّدَ لدى الطفل انطباعٌ بأن الوالد يعتبر العمل أو الأنشطة الأخرى أولويات أهم منه في حياته. وحينما يكون الطفل مرتبطًا عاطفيًا، يُشعِرُه غياب الدفء والعاطفة بأنه متروك في العراء. وإذا كان شعور الطفل بأنه معروف ومفهوم هو ما يخلق شعورًا بالألفة، فإن الشعور بإساءة الفهم سيخلق حاجزًا، وكذلك انطباعًا بأن الوالدين يخفيان بعض الأسرار المهمة، حتى وإن كان انطباعًا لا شعوريًا. ولهذا السبب لا ينبغي أن يكذب الوالدان على أطفالهما أبدًا. إن الأكاذيب، مهما كان غرضها بريئًا، لا يمكن أن تحمي الطفل من الألم، فثمة شيء ما بداخلنا يعرف متى يتم الكذب علينا، حتى لو لم يصل هذا الشعور إلى الوعي قط. واستثناء الطفل من معرفة سر ما يُوَلِّد شعورًا بالعزلة، ويبعث على الخوف من الاستبعاد.

وخلاصة القول، بغض النظر عن الطريقة الأساسية التي يرتبط بها أطفالنا، فإن هدفنا الأول يتمثل في مساعدتهم على الارتباط بنا بدرجة كافية، حتى لا يضطروا إلى تبديلنا.

***

الحفاظ على التواصل في حالة الانفصال الجسدي

إن الأطفال الذين يواجهون أصعب التحديات هم الأطفال الذين لا يزالون يعتمدون في المقام الأول على حواسهم للشعور بالقرب. وهذه هي طبيعة الأطفال الأصغر سنًا، ولكن العديد من الأطفال الأكبر سنًا –إذا كانوا متوجهين نحو الأقران– يعجزون أيضًا عن الحفاظ على شعورهم بالقرب من والديهم عندما ينفصلون جسديًا عنهم. ويمكننا أن نعرف هؤلاء الأطفال من خلال شعورهم باللامبالاة، وابتعادهم عنا بعد فترات الانفصال الجسدي، حتى وإن كانت قصيرة نسبيًا، مثل قضاء يوم في المدرسة الابتدائية. بوسعنا أن نلجأ إلى الحِيَلِ التي يلجأ إليها العشاق لسد فجوة الانفصال الجسدي. وفي الواقع، ينبغي أن يُوَلِّد التفكير بهذه الطريقة أفكارًا عديدة. في حالة العشاق، تكون الرغبة في الحفاظ على القرب متبادلة، لذلك عادةً ما يكرس الاثنان نفسيهما

لهذه المهمة. وفي حالة الأطفال، تقع مسؤولية التفكير فيما يحتاج إليه الطفل على عاتق الوالدين. إن التحدي هو نفسه، بغض النظر عن سبب الانفصال: اضطرار الآباء إلى العمل، أو ذهاب الطفل إلى المدرسة، أو عدم إقامة الوالدين معًا، أو دخول المستشفى للعلاج، أو الذهاب للتخييم، أو النوم بشكل منفصل.

يرد فيما يلي بعض الأساليب المفيدة للآباء لمساعدة أطفالهم على جسر فجوة الانفصال المحتوم: إعطاء الطفل صورًا لهم، أو حلية أو قلادة مميزة ليرتديها، أو رسائل ليقرأها، أو كان قد قرأها من قبل، أو شيئًا خاصًّا بهم، ليتمسك الطفل به عندما يكون منفصلًا عنهم، أو مكالمات هاتفية في أوقات محددة، أو تسجيلات بصوتهم لأغاني، أو رسائل مفضلة، أو شيئًا يحمل رائحتهم، أو هدايا ليتم فتحها في أوقات معينة. وربما تطول القائمة بلا نهاية. إن الجميع يعرفون كيف يفعلون ذلك، فالمسألة تتعلق بإدراك مدى أهمية سد فجوة الانفصال الجسدي، وكذلك تحمل المسؤولية. ومن المهم للغاية القيام بذلك مع أولئك الأطفال الذين لا يُلَمِّحون لنا بأن هذا هو ما يحتاجون إليه. بالطبع نحن نتحدث هنا عن الأطفال قبل سن المراهقة، فمثل هذه الحيل لن تلقى استحسان ابنك المراهق!

هناك طريقة أخرى للحفاظ على الترابط، وهي إعطاء طفلك فكرة عن مكان وجودك عندما لا تكون بجانبه. وقد يساعد في ذلك تعريف مكان عملك له. عندما تكون مسافرًا في رحلة، ابحث عن طريقة ما تسمح له بمتابعة رحلاتك على الخريطة. وكما هي الحال مع العشاق، يتحمل المرء الغياب الجسدي بسهولة أكبر عندما يستطيع معرفة موقع شريكه من حيث الزمان والمكان. وعجز المرء عن إضفاء شعور بالترابط يعني المخاطرة بالاستعاضة عنه.

قد نحتاج إلى طلب المساعدة من الآخرين لكي يبقونا حاضرين في ذهن الطفل عندما نغيب عنه. يمكننا أن نطلب من الأصدقاء، أو الأقارب، أو غيرهم من مقدمي الرعاية البالغين أن يتحدثوا مع الطفل عنا بطريقة لطيفة، ومساعدته على تخيل ما نحن بصدده في بعض الأوقات، وإطلاعه على صور من شأنها أن تذكره بذكريات مبهجة. وحتى لو كان ذلك مزعجًا للطفل في البداية، فإن مثل هذا التواصل الثانوي معنا يخدم هدف الحفاظ على الترابط.

وفي حالة الأطفال المعرضين لخطر استبدال أصدقائهم بنا، يمكن للأفراد البالغين الآخرين أداء دور مهم في الحفاظ على سلامة العلاقة بين الطفل والوالدين. وينطبق هذا بصفة خاصة على الأطفال الذين لا يعيش والداهم معًا. وإذا أردنا التصرف بما يحقق أفضل مصلحة للطفل، فعلينا أن نبذل كل ما في وسعنا لمساعدة أطفالنا على الحفاظ على القرب من الوالد الآخر في حالة انفصالنا. ونظرًا إلى تزايد خطر التوجه نحو الأقران في أعقاب الطلاق، يجب أن يكون هذا الأمر من بين أول أهدافنا، وأهم مسؤولياتنا. ولسوء الحظ، غالبًا ما لا يكون الوعي بالارتباط قويًا بما يكفي للتغلب على الخلافات الشخصية القائمة بين الوالدين.

***

الحميمية: الرابط الأعمق

إن الغاية المنشودة من مساعدة أطفالنا على إبقائنا قريبين منهم هي تعزيز حالة من الحميمية العميقة، التي لا يمكن لأصدقاء أطفالنا منافستها. فمهما كان مستوى القرب من الأصدقاء، من النادر أن يشارك الأطفال أحاسيسهم بعضهم مع بعض. وغالبًا ما تحظى المشاعر العميقة بالحماية، وعادةً ما تكون النفس هَشَّةً جدًّا، مما لا يسمح لها بتحمل خطر التعرض للإحراج، أو إساءة الفهم. تتذكر إحدى الأمهات ما حدث عندما مات حصان ابنتها المراهقة في حادث في أثناء امتطائه. تقول: «لقد صُدِمتُ عندما اكتشفتُ أن أصدقاء جينا المقربين لم يعرفوا شيئًا عن الألم الذي اعتصرها على الإطلاق. وعندما سألتها لماذا لم تخبريهم، أجابت بكل ثقة أن هذه ليست الأمور التي يشاركها الأطفال مع أصدقائهم!». إنه تصور غريب للصداقة، ولكنه طبيعي تمامًا في عالم الارتباطات بين الأصدقاء.

غالبًا ما تكون الأسرار التي يشاركها الأطفال بعضهم مع بعض أسرارًا عن الآخرين، أو معلومات عن أنفسهم لا تُفصِحُ عنهم كثيرًا. أما الأمور التي توحي بالضعف، فنادرًا ما يتم التحدث عنها. وهذا من حسن حظ الوالدين، لأن الإحساس بالقرب الذي يمكن أن يتأتى من شعور الطفل بأنه معروف ومفهوم

جيدًا يُعَدُّ على الأرجح أعمق حالات الحميمية على الإطلاق، مما يخلق رابطة يمكن أن تتجاوز أصعب فترات الانفصال الجسدي. إن قوة مثل هذا الرابط الحميمي بين الوالدين والطفل لا تحتاج إلى مزيد من التأكيد.

الخطوة الأولى في خلق هذا النوع من القرب هي حث الطفل على الكلام. ورغم أن العديد من الأطفال يحتاجون إلى مبادرة من جانبنا، فإن مجرد سؤالهم عما يفكرون فيه ويشعرون به نادرًا ما يجدي نفعًا. في بعض الأحيان، تكمن الحيلة في إيجاد روتين مناسب: التنزه معًا باستمرار، والقيام بأنشطة مشتركة، وتمشية الكلب. مع والدتي، عندما كنا نغسل الأطباق، أو نجمع التوت معًا، كنت أشارك أفكاري ومشاعري التي نادرًا ما كنت أفصح عنها لولا ذلك. كان القرب الذي شعرت به في تلك الأوقات استثنائيًا جدًّا، وكان له أثر كبير في خلق رابط دائم بيننا.

إن ابنة المؤلف المشارك لي المراهقة لديها عادة القدوم إلى مكتبه في وقت متأخر من الليل، تمامًا في الوقت الذي يأمل أن يحظى فيه ببعض الخصوصية. ولكنها تبدأ في مثل هذه الأوقات في البوح بأمورٍ شخصيةٍ لا تقوى على البوح بها طوال اليوم. لقد تعلَّم الترحيب بهذا «التطفل» وتقديره، وصار يترك قراءته أو مطالعة بريده الإلكتروني ليصرف انتباهه إلى طفلته. إننا في حاجة إلى اغتنام كل فرصة.

إن بعض الأطفال تتعطل مشاعرهم للأسباب الدفاعية التي شرحتها في الفصل الثامن. ويعتبر إقناعهم بالبوح عن أي شيء يتسم بالهشاشة ولو قليلًا أمرًا مرهقًا. إننا في حاجة إلى أن نجعل من البوح أمرًا سهلًا عليهم قدر الإمكان، وأن نتذكر أن هدفنا الأساسي ليس تقويمهم، أو تعليمهم، وإنما التفاعل معهم. إن تخصيص أوقات لتبادل الحديث معًا، مع الحرص على ألا يكون المرء مباشرًا جدًّا يعد بداية جيدة. يتعلق الأمر بالتجربة والخطأ إلى حد كبير، ولكن عادةً ما تؤتي المبادرة والبراعة ثمارها. وكلما ازدادت صعوبة بناء مثل هذا الرابط، ازدادت أهمية سعينا لبنائه. وكلما شعر أطفالنا بأنهم معروفون ومفهومون من جانبنا، أصبحنا أقل عرضةً للتبديل. إن هذا الرابط يعتبر أفضل فرصة أمامنا لتحصين أطفالنا ضد التوجه نحو الأقران.

من الأفضل القيام بتعزيز الحميمية النفسية على سبيل الوقاية. إنه بمجرد أن يصبح الطفل شديد التوجه نحو الأقران، ربما نكون قد فقدنا فرصة تطوير مثل هذا الرابط. وفي مثل هذه الحالات، نحتاج أولًا إلى احتواء الطفل، بالطرائق التي ناقشتها في الفصل الرابع عشر. بالنسبة إلى الأطفال المتوجهين نحو الأقران، من الواضح أن التحدث إلى الوالدين حول أي شيء مهم يعد أمرًا غير مقبول، ففي برنامجٍ إذاعيٍّ كنت أقدمه حول هذا الموضوع، عبرت متصلة شابة بوضوح شديد عمَّا يواجهه آباء الأطفال المتوجهين نحو الأقران. وبنبرة تنضح بثقة أولئك العارفين بالأسرار والخفايا، اتصلت بي هذه الفتاة ذات الأعوام الخمسة عشرة لتوضح لي الصورة، قائلة: «أنت غريب جدًّا. عندما تكون مراهقًا، فأصدقاؤك هم عائلتك. لماذا قد تود أي مراهقة أن تتحدث مع والديها؟ هذا الأمر ليس صحيحًا. إنه ليس طبيعيًّا أصلًا». وبالنظر إلى توجهها نحو أقرانها، فلم يكن بإمكانها أن ترى الأمر بأي طريقة أخرى. إنه داء خبيث؛ هؤلاء الأطفال لا يشعرون أبدًا بأنه ثمة خلل ما. ولا فائدة تمامًا من أن نوضح لطفلة متوجهة نحو الأقران أن غرائزها تحيد بها عن الصواب، أو أن قوة علاقاتها بأصدقائها لا تخدم مصلحتها. ما من شيء منطقي حول هذا الانحراف، ولو اجتمع كل المنطق في العالم، لما استطاع أن يُقَوِّم هذه الغرائز المنحرفة. ولا توجد طريقة أخرى سوى استعادة أطفالنا، واحدًا تلو الآخر.

إن تعزيز الروابط المتشعبة والمتجذرة بعمق هو أفضل وسيلة للوقاية من التوجه نحو الأقران. (سأشرح المزيد في الفصل السابع عشر حول كيفية تجنب التوجه نحو الأقران). إن الطفل الذي يشعر بأنه معروف ومفهوم على الأغلب لن تكفيه المؤونة المتواضعة التي يقدمها التوجه نحو الأقران. وبهذه الطريقة، نحن نقدم أيضًا لطفلنا نموذجًا للارتباطات المستقبلية المُرضية بقدر ذلك الارتباط الذي اختبره مع والديه نفسه. ومن دون هذا النموذج، قد تكون علاقاته المستقبلية ضعيفة، معتمدةً في المقام الأول على التفاعلات أحادية البعد بين الأصدقاء.

***

خلق الروتين وفرض القيود

كما قد نعتبر أن فرض النظام على سلوك الطفل أمرًا ضروريًا، فمن الأهم بكثير فرض النظام على ارتباطات الطفل. لدينا مهمتان هنا: خلق الروتين الذي يعزز الروابط، والقيود التي تُضعِف المنافسة. وصدقوني، إذا رأينا الموقف بوضوح، أدركنا أن الصراع للسيطرة على قلوب وعقول أطفالنا في ثقافتنا أشبه بحرب شعواء، بلا قيود، وبلا رحمة، حيث يحصل الفائز على كل شيء، ولا يحصل الخاسر على أي شيء، والكل يبحث عن مصلحته!

بالطبع هناك حدود لما يمكننا القيام به: لا يمكننا أن نجعل أطفالنا يرغبون في أن يكونوا معنا، أو أن يتوجهوا إلينا، أو أن يحبونا. ولا يمكننا أن نجعلهم يرغبون في أن يكونوا صالحين في نظرنا، ولا يمكننا أن نختار لهم أصدقاءهم. وفي حالة الأطفال المرتبطين بالبالغين، ليس علينا أن نقوم بأيٍّ من هذه الأشياء، لأن ارتباطاتهم بنا ستتولى المهمة نيابةً عنا. وبالمثل، هناك حدود لما لا يجب علينا فعله: لا ينبغي لنا أن نفرض أنفسنا عليهم، ولا ينبغي لنا أن نلجأ إلى القوة لنضمَّهم إلينا. إن التمسك بأطفالنا لا يعني تشكيل سلوكهم، وإنما تنشيط غرائزهم المسؤولة عن الارتباط، والحفاظ على التسلسل الهرمي الطبيعي. وليس من الكافي –أو حتى من الممكن– أن نحتضن أطفالنا في الوقت الذي تبعدهم فيه غرائزهم عنا. يجب أن نعمل على الحفاظ على العلاقة واستعادتها، حتى يبدو الوجود معنا والاعتماد علينا أمرًا صائبًا وطبيعيًا في نظرهم. وتحقيقًا لهذه الغاية، يتعين علينا أن نضع النظام والقيود موضع التنفيذ. ولا ينبغي أن نعهد بارتباطات أطفالنا إلى القضاء والقدر، تمامًا كما ينبغي لنا ألا نترك أمر صحتنا أو أموالنا للقضاء والقدر.

إن الأنظمة والقيود تحمي الأمور المقدسة. ويتمثل جزء من دور الثقافة في حماية القيم التي نعتز بها، ولكن لا نعتبرها ضرورية في حياتنا اليومية. نحن ندرك مثلًا أن الرياضة والخلوة مهمتان لصحتنا الجسدية والعاطفية، ولكن نادرًا ما يكون إحساسنا بضرورتهما قويًا بما يكفي لحثنا على تلبية تلك الاحتياجات باستمرار. فالثقافات التي تكون فيها الرياضة والخلوة التأملية مثل ممارسات أصيلة، تحمي أفرادها من حالة انعدام الدافعية هذه. ومع

تدهور ثقافتنا، فإن النظام، والطقوس التي تحمي الحياة الأسرية وقدسية العلاقة بين الوالدين والطفل –المهمة للغاية، ولكنها لا تعد ضرورة مُلِحَّة في وعينا– تتدهور أيضًا بالتدريج.

لو كانت الثقافة البروفنسية استسلمت للضغوط الاقتصادية والثقافة السائدة اليوم، لكان من المرجح أن تختفي الطقوس التي تحمي ارتباطات الطفل: تناول الوجبات معًا كعائلة، والتحيات عند بوابة المدرسة، ومهرجان القرية، والنزهات العائلية يوم الأحد. ولهذا السبب، يحتاج آباء اليوم إلى تولي زمام الأمور بأنفسهم، لخلق ثقافة مُصَغَّرَة ناجحة خاصة بهم. إننا في حاجة إلى بعض طقوس الارتباط التي من شأنها حماية الأمور المقدسة، وهو شيء يخدمنا على المدى الطويل، حتى لا نضطر إلى استحضاره في وعينا على المدى القصير. لا يمكننا أن ندع الأمور تنفلت بعيدًا، بحيث يستحيل إصلاح الوضع مرة أخرى، كما حدث مع الشخصية الكرتونية هامبتي دامبتي. ومن الحكمة أن نستخدم قوة الارتباط التي نمتلكها اليوم لوضع النظام الذي سيمكننا من الحفاظ على القوة التي سنحتاج إليها من أجل الغد. إننا في حاجة إلى بناء نظام يحدُّ من الأشياء التي من شأنها أن تسلبنا أطفالنا، ويسمح لنا في الوقت نفسه باحتوائهم. ولا بد من تطبيق القواعد والقيود على استخدام التلفزيون، والحاسوب، والهاتف، والإنترنت، والألعاب الإلكترونية، والأنشطة اللامنهجية. وأبرز القيود التي يجب فرضها، هي تلك التي تحكم التفاعل مع الأصدقاء، ولا سيما التفاعل الحر، الذي لا يشرف عليه البالغون المسؤولون. وما لم يفرض الآباء بعض القيود، فإن المطالبة بحضور لقاءات اللعب، والتجمعات، وحفلات المبيت، ووقت تبادل رسائل الدردشة سرعان ما تخرج عن السيطرة. ولا يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى يستأثر السعي إلى التواصل مع الأصدقاء بالأولوية عن الرغبة في القرب من الوالدين. ومن دون قواعد وقيود تمنحنا الأفضلية، يصبح التنافس أصعب فأصعب. ولاحظوا مرة أخرى أننا نتكلم هنا عن الوقاية، فلا يمكن فرض النظام والقيود بالقوة على الطفل المتوجه نحو الأقران دون إحداث ضرر أكبر. إن تلك الحالات تستدعي اتباع نُهُجٍ مختلفة.

إن الآباء الحكماء لن يفرضوا قيودًا أكثر مما ستتحمله قوة الارتباط التي يتمتعون بها. تتذكَّر والدة أحد المراهقين قائلة: «عندما كان لانس في الحادية عشرة من عمره، انتقل فجأةً من كونه غير محبوب، إلى كونه فردًا من القلائل المميزين. كنت أنا ووالده لا نشعر بالارتياح تجاه صديقيه المقربين الجديدين. لم يبدوا مترابطين بوالديهما، أو أنهما ينتميان إلى عائلة. وكنا نشعر بالضيق عند قدوم هؤلاء الأطفال. لقد كان شعورًا داخليًّا قويًّا. هذان الطفلان كانا يثيران أعصابنا.

فجأةً، بدأ لانس يستمع إلى أسطواناتهما. لقد كانت بشعة - وأنا من محبي موسيقى الروك. لقد كانت ملآنة بالكثير من الشتائم، والعنف. هذه الأسطوانات ما كنت لأسمح باقتنائها الآن، ولكن وقتها، عندما كان ابني في الحادية عشرة... على أية حال، لقد كان هذا الطفل الذي يُدعى جوش مثل النَّدَّاهة. كان الأمر كما لو أنه اجتذب ابني بعيدًا عني. وتغيَّر لانس. لقد صار كتومًا معنا، ويطلب دائمًا أن يكون على تواصل مع هؤلاء الأطفال.

لقد قررنا أنه علينا إنهاء تلك العلاقة. وفشلنا فشلًا ذريعًا. ثم جلسنا مع لانس لنتحدث معه. قلتُ له: «أنا ووالدك لم نعد نرغب في أن تصاحب جوش». في البداية، ظل يبكي طويلًا، وبات من الواضح أنه شعر أننا أجبرناه على اتخاذ قرار الاختيار بيننا وبين جوش، وأنه قد اختار جوش. لقد بكى لأنه شعر بأنه سيفتقدني.

لم يكن يتحدث إلينا. وعلى مدار ثلاثة أشهر ونصف، لم نحظَ بأيٍّ شيء على الإطلاق. واستمر في رؤية جوش، في المدرسة، وبعد المدرسة، وفي عطلات نهاية الأسبوع. وفي النهاية، اضطررنا إلى الاستسلام». ما أدركه والدا لانس هو أنه ليس بوسعهما التصدي لمشكلة الأصدقاء مباشرة. لقد كانا يفتقران إلى قوة الارتباط، وهذا هو السبب الذي جعل محاولتهما للحد من تفاعل ابنهما مع أصدقائه محكومًا عليها بالفشل. كان عليهما اتخاذ عدة خطوات إلى الوراء واحتواء ابنهما، والتودد إليه ليعود إلى علاقته معهما.

لا بد من حماية النزهات والعطلات العائلية. إذا كانت هذه الأوقات تهدف إلى احتواء أطفالنا والحفاظ على الروابط، فلا يمكننا تحمل إضعاف هذه المهمة من خلال اصطحاب أصدقاء أطفالنا معنا. كما لا يمكننا تحمل نوعية

العطلات التي تُفَرِّق بين أفراد الأسرة، كما هي الموضة الآن في كل من ساحات التزلج والمنتجعات المشمسة. ويعد هذا مؤشرًا على مدى الهوس بالأصدقاء الذي وصلنا إليه، لدرجة أنه حتى العطلات العائلية قد استسلمت لفكرة أن مكان الأطفال مع الأطفال، والكبار مع الكبار، أو أن العطلات هي فرصة تتيح للوالدين أخذ استراحة من أطفالهما. وكلما حظينا بفترات راحة أطول، ضَعُفَ ارتباط الأطفال بنا. والمفارقة هنا هي أن تربيتهم تصبح أصعب، وبالتالي نحتاج إلى المزيد من فترات الراحة منهم!

بطبيعة الحال، يصبح من الصعب فرض القيود على المراهقين، وبخاصة أولئك المتوجهين بشدة نحو أقرانهم. إنهم يطالبون بالحرية لتوطيد علاقاتهم بعضهم ببعض، وليكن الله في عون من يقف في طريقهم! وبالنسبة إلى المراهقين المتوجهين نحو الأقران الذين يتبعون غرائزهم المنحرفة، من الواضح جيدًا أنهم ينتمون بعضهم إلى بعض، وأن الآباء يقفون في طريق ما يمثل أهميةً بالنسبة إليهم حقًا. ومن وجهة نظرهم، فإن الآباء والمعلمين الذين لا يفهمون هذه الأمور بعيدون عن الواقع، ولا يستوعبونه.

ومن هنا تأتي أهمية إقامة النظام بينما لا نزال قادرين على القيام بذلك. وإذا تركنا الأمر للأقدار، فإن أسرنا ستتمزق تدريجيًا بفعل النشاطات الفردية، والمطالب المجتمعية، والضغوط الاقتصادية، وأخيرًا، غرائز أولادنا الفاسدة. إن النظام الذي يُسَهِّل العلاقة بين الوالدين والطفل هو الأساس: العطلات العائلية، والاحتفالات العائلية، والألعاب العائلية، والنشاطات العائلية. وما لم يتم تحديد زمان ومكان، وخلق طقوس، فستطغى الضغوط الأكثر إلحاحًا كالعادة. وبالنسبة إلى الأسر ذات العائل الواحد، تزداد أهمية هذه المهمة، بسبب تزايد شدة الضغوط المتعارضة. وفي أعقاب تفكك الأسرة، كثيرًا ما يتم التخلي عن الأعراف الثقافية التي لا تزال قائمة في الزواج، حتى وإن ضَعُفَت مقارنةً بالأعراف التي كانت سائدة في الماضي.

منذ زيارتنا بروفنس، أصبحتُ أعتبر تناول الوجبات معًا كعائلة أحد أهم طقوس الارتباط على الإطلاق. إن الارتباط وتناول الطعام يسيران جنبًا إلى جنب، ويُسَهِّل أحدهما الآخر. يبدو لي أن تناول الوجبة يجب أن يكون مثل لحظات من الاعتمادية الصريحة، حيث يظل التسلسل الهرمي للارتباط قائمًا،

وحيث يعتني العائل بالمُعال، وحيث تظل الخبرة مهمة، وحيث تكون المتعة في الرعاية والتربية، وحيث يكون الطعام هو الطريق إلى القلب. لقد أظهرت الدراسات التي أُجريَت على الثدييات الأخرى أنه حتى عملية الهضم يبدو أنها تسير بشكل أفضل في سياق الارتباط. وربما تفسر الارتباطات المضطربة ارتفاع حالات الإصابة بالمغص لدى الأطفال في المدارس، وكذلك مشكلاتهم المتعلقة بتناول الطعام في وقت الغداء. كما أنها تفسر مقاومة العديد من الأطفال المتوجهين نحو الأقران إطعامهم من قبل والديهم، والجلوس على مائدة الطعام، والمشاركة في الوجبات العائلية.

على الرغم من أن مجرد تناول الطعام معًا يمكن أن يفسح المجال لبعض التواصل البدائي، فإن الأمر الذي يُرَجَّح أن يخلق ارتباطًا حقيقيًّا يتعلق بشكل التفاعل الذي يحدث في أثناء تناول الطعام. يمكن أن تكون الوجبة العائلية مثل طقوس احتواء ناجعة. ما النشاط الآخر الذي بوسعه إتاحة مثل هذه الفرصة للإقبال على أطفالنا بطريقة ودودة؟ وتقديم شيء لأطفالنا ليتشبثوا به؟ ودعوة أطفالنا للاعتماد علينا؟ وما النشاط الآخر الذي يتيح لنا الفرصة للفت أنظارهم وانتزاع ابتساماتهم والحصول على إيماءة منهم؟

لا عجب أن تناول الطعام كان أهم طقوس التودد عند البشر على مر العصور. كما إنه يفسر سبب كون الوجبات العائلية هي حجر الأساس في الثقافة البروفنسية: يتم إعداد الموائد بعناية، وتُقَدَّمُ أطباق الطعام واحدًا تلو الآخر، وتُراعى التقاليد، وتُصَمَّم الوجبات حيث تستغرق وقتًا، ولا يُسمَح بأي مقاطعة في أثناء ذلك. ويقوم على الوجبة العائلية فريقٌ داعِمٌ كبير، بمن في ذلك الخَبَّاز، والجزار، والباعة في سوق القرية. وفي أثناء وجبتي الغداء والعشاء، يتوقف العمل، وتُغلق المتاجر أبوابها. وتعد مطاعم الوجبات السريعة نادرة الوجود، وكذلك عادات تناول الطعام على انفراد، أو في وضعية الوقوف. وقد أُطلِقَ على مدينة بروفنس «ثقافة الطعام». ومع ذلك، يبدو لي أن استهلاك الطعام ليس سوى الجانب الأكثر وضوحًا. إن الغاية الأكثر جوهرية هي الارتباط. لقد كانت الوجبات العائلية بالتأكيد محور حياتنا الأسرية في أثناء فترة مكوثنا في بروفنس. وقد كان ذلك هو أكثر ما افتقده أطفالنا عند عودتنا.

إننا في ورطة كبيرة هنا في هذا العالم الجديد. لقد أصبح تناول الوجبات معًا كعائلة حدثًا مهددًا بالانقراض. وعند حدوثه، فغالبًا ما يكون نشاطًا روتينيًا، لغرض التزود بالطاقة، فهناك أماكن يمكن الذهاب إليها، وعمل لا بد من القيام به، ورياضة تنبغي ممارستها، وحواسيب لنجلس أمامها، وأشياء لنشتريها، وأفلام لنستمتع بها، وتلفزيون لنشاهده. إن تناول الطعام هو ما يفعله المرء استعدادًا لما سيأتي لاحقًا. ونادرًا ما تُمَكِّنُنا هذه الأنشطة الأخرى من احتواء أطفالنا. وتحديدًا الآن، في الوقت الذي نحتاج فيه إلى تناول الطعام معًا كعائلة أكثر من أي وقت مضى، غالبًا ما نأكل بمفردنا، ونسمح لأطفالنا بأن يفعلوا الشيء نفسه. وبطبيعة الحال، فإن أوقات تناول الطعام المشحونة بالتوتر، التي تنتهي بالشجار، أو تمهد الطريق إلى نقاشات حول السلوكيات، أو من يتعين عليه تنظيف مائدة الطعام، لن تخدم هدف الاحتواء. إن الآباء يحتاجون إلى استغلال أوقات تناول الطعام لاقتحام مساحة أطفالهم بطريقة ودودة.

إن الأنظمة الفردية تعتبر ضرورية أيضًا لاحتواء أطفالنا والحفاظ على الروابط. علينا أن نحدد وقتًا ومكانًا لممارسة نشاط مع الطفل يكون هدفنا الفعلي منه هو التواصل. وتكون فاعلية بناء العلاقات والحفاظ على الارتباطات أكثر بكثير عندما يحدثان في إطار جلسات فردية مقارنةً بالجلسات الجماعية. وهناك عدد غير محدود من الأنشطة التي يمكنها تحقيق ذلك: العمل على مشروع، والذهاب للتمشية، واللعب، والطهو معًا، والقراءة. وتعد طقوس ما قبل النوم، مثل القصص، والأغاني، بمكانة تفاعلات ارتباطية مقدسة مع الأطفال الصغار. وأقول مجددًا: معظم الآباء قادرون تمامًا على اكتشاف هذه الأمور. ما ينقصهم هو إدراك أن ارتباطات أطفالنا بنا تحتاج إلى الحفاظ عليها حتى لا نخسرها في ظل المنافسة. ويمكن حتى لممارسة أحد النشاطات مرةً واحدةً أسبوعيًا أن تقطع شوطًا طويلًا في تحقيق هدف الارتباط.

***

تقييد التواصل مع الأصدقاء

على الرغم من أن القيود والأنظمة تعمل بصورة أفضل عند استخدامها على سبيل الوقاية، فإنه يمكن استخدامها أيضًا لتقليل الهوس بالأصدقاء. ومن الأفضل دائمًا أن يكون المرء غير مباشر قدر الإمكان. إن إخبار الطفل بأن أصدقاءه يهمونه أكثر من اللازم لا يكشف إلا عن مدى غرابتنا، ومحدودية فهمنا. إننا في حاجة إلى خلق مواقف وأنظمة تؤدي المهمة دون الإفصاح عن مساعينا الحقيقية. إذا كانت ساعة الغداء هي الوقت الذي يعزز ترابط الأصدقاء ببعضهم، فإن البحث عن بدائل سيحظى بالأولوية عندما يكون الوالدان أو مقدمو الرعاية الآخرون في وضع يسمح لهم بالقيام بذلك. وإذا كان وقت ما بعد المدرسة هو الوقت الأساسي للتواصل مع الأصدقاء، وجب استهداف هذا الوقت لممارسة أنشطة مُنافِسة. وإذا كانت حفلات المبيت تمثل مشكلة، فإن فرض بعض القيود على معدل تكرارها سيكون أمرًا مناسبًا. إن سياستنا التي تنص على حضور حفلات المبيت مرة واحدة في الشهر لابنتنا بريا قُوبِلَت برفض كبير في بعض الأحيان. وفي أحد الأيام، انفجرت من شدة الاحباط قائلة: «ولكن هذا ليس عدلًا؛ إنك تُفسِدُ وقت تواصلنا معًا». لم تستطع أن تقولها بعبارة أكثر إيجازًا ووضوحًا، أو أن تُعَمِّق مخاوفنا أكثر. إذا كانت وسائل التكنولوجيا التي تدعم الارتباط في منزل المرء -الهواتف المحمولة، والإنترنت، والماسنجر- تخدم أغراض الأطفال المرتبطين بمنافسينا، فنحن في حاجة إلى إيجاد طريقة للحد من استخدام هذه التكنولوجيا، أو وضع أنظمة منافسة. ومع ذلك، فبمجرد أن يكون الطفل متوجهًا بالفعل نحو الأقران، قد تكون غرائز السعي إلى القرب من أصدقائه قوية جدًّا، لدرجة أنه ربما لا تعود القواعد كافية للتحكم في سلوكه. وفي هذه الحالات، قد تكون هناك حاجة إلى التضحية بالأجهزة التكنولوجية التي تدعم الارتباطات بالأصدقاء، تمامًا كما يتم منع وجود الكحول في المنزل إن كان أحد أفراد الأسرة يعاني مشكلة في معاقرة الكحول، أو كما يتم إغلاق التلفزيون إن تم تجاهل الحدود التي تفرضها.

في بعض الأحيان، يمكن للوالدين أن يتنافسا بنجاح مع أصدقاء طفلهما من خلال التفوق عليهم بخطوة واحدة. فغالبًا ما يعاني الأطفال المتوجهون نحو الأقران صعوبة في التخطيط للمستقبل. إنهم يريدون أن يكونوا معًا، ولكن إذا بادروا إلى ذلك أكثر من اللازم، بَدَوا بمظهر المحتاجين، وبالتالي وضعوا أنفسهم في موقف رفض مُحتَمَل. إنهم يتعلمون إتقان الطرائق غير المباشرة: «مرحبًا، ماذا تريد أن تفعل؟». «لا أدري، ماذا تريد أن تفعل أنت؟». «لا أدري». «حسن، ربما يمكننا فقط أن نتسكع أو ما شابه». «لا يهمني، أيًّا يكن». وهكذا دواليك. ينجرف الأطفال المتوجهون نحو الأقران معًا بطريقة ما، دون أن يضعوا أنفسهم أو الآخرين في حالة من الضعف. ويمنحهم الارتباطُ الدافعَ للاجتماع معًا، ولكن الخوف من الضعف يمنعهم من أن يكونوا منفتحين للغاية بشأن ذلك. إن الجانب المشرق في هذه الحالة هو أنها تمنح الوالدين الفرصة لتوجيه ضربة استباقية، فالتخطيط لشيء ما –وجبة مميزة، أو جولة تسوق، أو نزهة عائلية، أو نشاط مفضل– قبل يوم، أو أحيانًا قبل عدة ساعات فقط من الأوقات المتوقعة للتواصل الاجتماعي بين الأصدقاء، يمكنه أن يمنع الطفل من الانغماس في دوامة التفاعل مع الأصدقاء المتصاعدة. إن التحلي بالإبداع في قطع الطريق أمام أوقات الترابط بين الأقران يعد أفضل بكثير من التفاعل مع أعراض التوجه نحو الأقران.

في أحيانٍ كثيرة، إذا تمكنا من عرقلة التفاعل مع الأصدقاء بشكلٍ كافٍ، حدثت عملية الاختيار الذاتي التلقائية. سينتقل أصدقاء أطفالنا الأكثر توجهًا نحو الأقران إلى الآخرين، الذين يسعون أيضًا إلى التواصل في المقام الأول مع أطفال آخرين. ولأننا جميعًا نريد أن نرتبط بأشخاص يشاركوننا اهتماماتنا وقيمنا، فمن المرجح أن يجد الأطفال الذين تربطهم صلات جيدة بوالديهم أصدقاءً تكون أسرهم أيضًا أكثر أهمية بالنسبة إليهم. هذا هو ما حدث بالضبط مع ابنتي بريا في الصفين السادس والسابع. ذهب أصدقاؤها الأكثر توجهًا نحو الأقران إلى البحث عن أطفال آخرين من النوعية نفسها، وكان الأصدقاء الذين بقيت معهم يحظون بعائلات يرتبطون بها للغاية، ويرغبون في البقاء بالقرب منها. إن الأصدقاء الذين لا يتنافسون مع العائلة هم بالضبط ما نريده لأطفالنا ولأنفسنا.

بطبيعة الحال، فإن الرحلة لبلوغ هذا الأمر قد تجعل أطفالنا –إذا كانوا متوجهين بالفعل نحو الأقران– يمرون بأوقات عصيبة. إنه لمن الصعب علينا فعل الأشياء التي تزعج أطفالنا، حتى ونحن نعلم أن هذا هو الأفضل لهم على المدى البعيد. وبفرض القيود على الأطفال العازمين على ملاحقة أقرانهم، نضعهم في موقف عصيب. إن قدرتهم على البقاء بعضهم بالقرب من بعض تعتمد على اغتنام كل فرصة للتواصل والترابط. وتفويت تبادل الرسائل على الماسنجر مع صديق، أو اجتماع في غرفة دردشة عبر الإنترنت، أو مكالمة هاتفية، أو لقاء، أو حفلة مبيت، أو سهرة، كل ذلك من شأنه أن يعرض العلاقة للخطر. وعادةً ما تكون حالة انعدام الاستقرار القهرية هذه لها ما يبررها. إن الأطفال المتوجهين بشدة نحو الأقران لا يتسامحون مع أولئك الذين يفشلون في السعي إلى القرب منهم باهتمام كما يفعلون، أو أولئك الذين يعترض آباؤهم طريقهم. وبقدر ما يبدو الأمر قاسيًا، فإنه غالبًا ما يكون من مصلحة الطفل أن تعترض طريقه. لا يريد أيٌّ منا أن يرى أطفاله منبوذين بالعراء، ولكن هذا هو أخف الضررين حين تهدد العلاقاتُ مع الأصدقاء القربَ من الآباء. فلا سبيل إلى إنقاذ طفل متوجه نحو الأقران من الضيق. الخيار الوحيد هو إما أن يصيبه هذا الضيق الآن، وإما لاحقًا. وهذا الضيق التي نتسبب فيه على المدى القصير يحول دون حدوث مشكلات أكبر بكثير في المستقبل.

نظرًا إلى حالة الضيق التي ستصيب أطفالنا بسبب قيودنا التي نفرضها عليهم، يجب أن نكون مستعدين لمواجهة تحديات صعبة. عندما نفرض قيودًا على الأطفال الذين يعتزمون إنجاح عَلاقاتهم مع أقرانهم، فإنهم يشعرون على الأرجح بإحباط شديد. وإذا كان هناك أي شك في حقيقة أن الأمر يفوق قدرة الطفل على التحمل، فإن تعبيراته الوقحة والحادة التي تعبر عن شعور عميق بالإحباط ينبغي أن تزيل جميع الشكوك. وكثيرًا ما يشهد جابور –المؤلف المشارك لي– في عمله الطبي الحالي مع مدمني المخدرات نوبات مماثلة من اليأس، والغضب الشديد عندما يرفض –مثلًا– وصف دواء مخدر بناءً على طلب أحد المدمنين. والنهج الحكيم هو عدم أخذ مثل هذه الهجمات على محملٍ شخصي. ضع في اعتبارك دائمًا أن الطفل المتوجه نحو الأقران يرى أن حل مشكلات الحياة يتمثل في القرب من أصدقائه. إن العبث بهذه الغاية يثير قدرًا هائلًا من الإحباط المتعلق بالارتباط. لذلك من الأفضل أن يكون الآباء

مستعدين لمواجهة الكراهية والعدوانية. وعلاوةً على ذلك، تذكر أن الأطفال المتوجهين نحو الأقران عالقون في مخططاتهم، ولا يستطيعون التخلي عنها. وبما أنهم لا يستوعبون عدم جدوى تصرفاتهم، فإنهم يتشبثون بها إلى حد البغضاء. ومن الخطأ أن نفكر في هذا على أنه عناد، أو قوة إرادة، وإنما هو في حقيقته شعور بالعجز واليأس. فلا يمكن للأطفال شديدي التوجه نحو الأقران أن يتصوروا العيش من دون الارتباطات بالأقران. ولذلك نحتاج إلى الاستعداد لتحمل واحتواء ردود الأفعال التي تستفزها قواعدنا وقيودنا. إن مهمتنا هنا هي تمالك أنفسنا، أي عدم الاندفاع والارتباك بسبب ردود أفعالنا الخارجة عن السيطرة. وسيساعدنا ذلك على التمسك بأطفالنا في مثل هذه الحالات، إلى أن نتمكن من العبور إلى الضفة الأخرى.

عند وضع القيود، نحتاج إلى الجمع بين الشعور التفاؤلي تجاه ما يحتاج إليه أطفالنا، والرؤية الواقعية للأمور التي يمكن تحقيقها، أي القدر الذي نمتلكه بالفعل من قوة الارتباط. وكلما كنا غير مباشرين في فرض القيود، وكلما كنا أكثر استباقية في وضع الأنظمة التي تفي بالغرض، زادت احتمالية تجنبنا الصدامات المباشرة. إن محاولة فرض القواعد ونحن نفتقر إلى قوة الارتباط لا تفضي إلا إلى التمهيد للكشف عن عجزنا. فالعجز ليس بالشيء الذي قد نود إظهاره أبدًا. وبمجرد أن ينكشف افتقارنا إلى القوة، يُنزَعُ القناع حتى عن أخطر تهديداتنا لتظهر حقيقة أنها ما هي إلا خدعة - ما لم نكن مستعدين لتصعيد الموقف، واستخدام القوة بطرائق من شأنها أن تُلحق ضررًا شديدًا بالعلاقة. ومن دون قوة الارتباط، فنحن لا نمتلك أي قوة حقيقية على الإطلاق.

من المهم أيضًا أن نتذكر عند فرض قيود على التفاعل مع الأقران أن هذا ليس سوى نصف الحل. ففي حالة الأطفال المتوجهين نحو الأقران، لا يتمثل التحدي في فصلهم عن أقرانهم فحسب، وإنما في عكس الكيفية التي أبعدتهم عنا في بداية الأمر. علينا أن نحل نحن -والديهم- محل أقرانهم. وإذا قمنا بخلق فجوة في الارتباط من خلال القيود التي نفرضها، فإنه يجب أن نكون مستعدين لسد هذه الفجوة بأنفسنا. لقد أشرت بالفعل إلى أنه لا ينبغي استخدام المنع من الخروج عقابًا، وإنما فرصةً. (راجع الفصل الرابع عشر).

فالفائدة الحقيقية لا تكمن في الدرس المستفاد. وكما سنرى في الفصل التالي، العقوبات المُصَمَّمة لـ «تلقين الدروس» نادرًا ما تؤتي ثمارها. ومع ذلك، يمكن أن تؤدي إعاقة التفاعل مع الأقران من خلال المنع من الخروج إلى خلق مساحة لقضاء الوقت معنا بدلًا من التفاعل مع الأقران.

إننا كآباء نحتاج إلى قدر كبير من الثقة لمواجهة التيار السائد، ولفرض قيود على التفاعل مع الأقران، ولوضع أنظمة للحفاظ على ارتباطات أطفالنا بنا. قد يتطلب الأمر بعض الشجاعة لتحمل ردود الأفعال المرتابة والانتقادية لأصدقائنا الذين لا يفهمون سبب عدم تقديرنا العلاقات مع الأقران كما يفعلون، ولماذا نسعى لإبقائها ضمن حدود ضيقة. يقول أب شاب: «حتى مع الأصدقاء المقربين إلينا، وهم أناسٌ لطيفون وعلى قدر كبير من الاستقامة، ما زلنا نواجه المخاوف نفسها والضغوط نفسها كي نسمح لأطفالنا بقضاء وقت لعب غير مقيد مع أقرانهم، وحضور حفلات المبيت باستمرار، وما إلى ذلك. وفي كل مرة نجيب فيها عن سؤال لماذا لا نفعل ذلك، نجرحهم عن غير قصد، لأنهم اتخذوا الخيار المعاكس».

نحن في حاجة إلى القوة لنتحمل التوسلات المستميتة الصادرة عن طفل متوجه نحو الأقران، وللصمود في وجه الاستياء المحتوم، وعاصفة الاحتجاجات. وقبل أي شيء، نحتاج إلى الإيمان بأنفسنا كأفضل خيار أمام طفلنا. إن ذلك يساعد في تلقي بعض الدعم النظري لحدسك الوالدي (وهذا الكتاب يهدف إلى توفير ذلك)، ولكن الأمر يحتاج إلى الشجاعة للسير عكس التيار. ولا نوصي بأن يأخذ الآباء بنصائحنا حتى يتمتعوا بالثقة والصبر واللطف اللازمين لمواصلة العمل بهذه النصائح حتى النهاية. فلا ينبغي للمرء أن يربي طفلًا من خلال كتاب - ولا حتى هذا الكتاب!

يجب أن تنبع أفعالنا وتوجهاتنا من ثقة داخلية عميقة بأن ما نقوم به يصب في مصلحة طفلنا، وهذا يتطلب الثقة الكاملة في رؤى المرء، والتزامه قناعاته الراسخ.

***

15

الانضباط الذي لا يثير الفُرقة

إن فرض النظام على سلوك الطفل يعد واحدًا من أصعب تحديات التربية. كيف يمكننا التحكم في طفل لا يستطيع التحكم في نفسه؟ كيف نحمل الطفل على القيام بشيء لا يريد القيام به؟ كيف نمنع طفلًا من الاعتداء على أخيه؟ كيف نتعامل مع طفل يقاوم توجيهاتنا؟

في ثقافتنا التي تعتمد على الحلول السريعة، مع تركيزها على النتائج قصيرة الأجل، يعتبر الهدف الأهم هو السلوك نفسه. وإذا حصلنا على الطاعة، حتى ولو بصورة مؤقتة، فإننا نعتقد أن الطريقة ناجحة. ومع ذلك، بمجرد أن نأخذ الارتباط والضعف بعين الاعتبار، نرى أن المداخل السلوكية -فرض العقوبات، وافتعال العواقب، وسحب الامتيازات- تأتي بنتائج عكسية. إن العقاب يخلق علاقة عدائية، ويستجلب الجمود العاطفي، فالأساليب التي تكون على شاكلة العقاب بالوقت التأديبي المستقطع لتلقين درس ما، و«الحب الصارم» لتهذيب السلوك، و«سحر الخطوات الثلاث»[1]* لجعل الأطفال مطيعين هي التي توتر العلاقة. فعندما نتجاهل طفلًا كرد فعل على نوبة غضب، أو نعزل الطفل الذي

(1) «سحر الخطوات الثلاث» هي طريقة شائعة على غرار «ثلاثة إنذارات ثم يتم طردك»، للأطفال الدارجين والصغار، من أحد الكتب الأكثر مبيعًا، الذي يحمل العنوان نفسه.

يسيء التصرف، أو نحرمه من حناننا، فإننا ننال من إحساس الطفل بالأمان. كما إن توجيه الأوامر إلى الأطفال –وكذلك رشوتهم بالمكافآت– يستفز الإرادة المضادة. وجميع هذه الأساليب تعرض الطفل لخطر الانجراف في دوامة الأقران. إذن ما هي الأساليب المتبقية للوالد ليستعين بها؟

لا يزال هناك العديد من الطرائق الآمنة والطبيعية والفعالة لتغيير السلوك. تنشأ بعض هذه الأساليب تلقائيًّا إذا كان اهتمامنا بما يجب القيام به أقل من اهتمامنا بما يتسم بالأهمية في العملية التربوية - بمعنى آخر: إذا كنا دائمًا على وعي بالارتباط. وعندما يكون التركيز على السلوك بدلًا من ذلك، فإننا نُقدِم على مجازفة من شأنها تهديد أساس قدرتنا على التربية: علاقتنا بأطفالنا.

إن هذا الفصل لا يعد دليلًا شاملًا للتعامل مع المشكلات السلوكية. ومع ذلك، فإنه يطرح بدائل للأساليب التي تضرب بالعلاقة والعاطفة عرض الحائط، كما يقدم المبادئ الأساسية للانضباط الذي لا يثير الفُرقة. وتمثل هذه الإرشادات -في معظمها- تحولًا عن الممارسات السائدة بمقدار مئة وثمانين درجة. وقد تستغرق بعض الوقت لكي تتجانس وتندمج معًا. بالنسبة إلى بعض الآباء، يتطلب هذا النهج تغييرًا كبيرًا في التفكير والتركيز، بينما يؤكد للبعض الآخر صحة ما كانوا يمارسونه طوال الوقت.

***

ما هو الانضباط الصحيح؟

في البداية، دعونا نوضح مفهومنا عن الانضباط. يُنظَرُ إلى الانضباط في سياق التربية عادةً على أنه العقاب. ومع ذلك، فعند إمعان النظر، نرى أن كلمة الانضباط هي في الواقع كلمة عميقة، تحمل عدة معانٍ متـرابطة. فقد تشير كلمة الانضباط (Discipline) في اللغة الإنجليزيـة أيضًا إلى التدريب، ومجال الدراسة، ونظام القواعد، وضبط النفس. وبهذا المعنى، فإن الآباء هم أول من يحتاجون إلى الانضباط. وعندما يتعلق الأمر بالأطفال، فإننا نستخدم مصطلح الانضباط لا بمعنى العقاب، وإنما بمعانيه الأعمق، المتمثلة في

التدريب، والسيطرة، وفرض النظام. ومما لا شك فيه أن الأطفال يحتاجون إلى الانضباط. إننا في حاجة إلى ممارسة الانضباط بطرائق لا تضر بالعلاقة، أو تُحَفِّز الدفاعات العاطفية القاسية، أو تعزز التوجه نحو الأقران.

على مدار سنوات عديدة من تقديم المشورة للآباء، قمت تدريجيًا بتنظيم أفكاري حول هذه المسألة في سبعة مبادئ للانضباط الطبيعي. وأعني بالطبيعي أنه آمن من ناحية النمو، ومُراعٍ للارتباط - أي إنه يحترم كلًّا من: العلاقة بين الوالدين والطفل، ونضج الطفل على المدى البعيد. إن هذه مجرد مبادئ، وليست قواعد. وستختلف في كيفية ترجمتها إلى أفعال من موقف إلى آخر، ومن طفل إلى آخر، ومن والد إلى آخر، ومن شخصية إلى أخرى، كما إنها ستعتمد على احتياجات وأهداف كُلٍّ من الطفل والوالد.

إن الاتجاه السائد حاليًا في كتب التربية يهتم بتلبية الحاجة إلى المهارات، أو الاستراتيجيات التربوية. وليس هذا هو ما يحتاج إليه الآباء. فالاستراتيجيات تعتبر مُحَدِّدةً ومُقيِّدةً للغاية بالنسبة إلى مهمة معقدة ودقيقة مثل التربية. إنها تُحَقِّرُ من شأن ذكاء الوالدين، وعادةً ما تُحَقِّر من شأن ذكاء الطفل أيضًا. فالاستراتيجيات تجعلنا نعتمد على الخبراء الذين يروجون لها. إن التربية ما هي إلا علاقة في المقام الأول، والعلاقات لا تصلح للاستراتيجيات؛ إنها تقوم على الحدس. وهذه المبادئ السبعة تهدف إلى إيقاظ الحدس التربوي الذي نمتلكه جميعًا، أو تعزيزه. فنحن لا نحتاج إلى المهارات أو الاستراتيجيات، وإنما نحتاج إلى الحنان، والمبادئ، والبصيرة. وستأتي بقية الأمور بشكل طبيعي - رغم أنني لا أقول إنها ستأتي بسهولة.

بينما نعمل على تطبيق قيم الارتباط على أرض الواقع، قد يضطر معظمنا إلى مجاهدة ردود أفعالنا المتسرعة وعدم نضجنا، وكذلك صراعاتنا الداخلية. وقبل أي شيء، ربما نضطر إلى مقاومة مشاعر الخيبة. ثمة عدد قليل جدًّا من الآباء يأتون وهم مستعدين. فالآباء يولدون من رحم الارتباط والتكيف. والارتباط، أي تعلق الطفل بنا، هو ما يُقَوِّينا ويدعمنا كآباء. أما مسألة التكيف، فلها علاقة بتطورنا الشخصي المستمر، حينما نستوعب الخيبة عندما لا تنجح الأشياء التي نحاول فعلها. ولا يوجد طريق مختصر لعملية التجربة والخطأ هذه. ومع ذلك، يجب أن نسمح لأنفسنا بالشعور بالحزن وخيبة الأمل عندما

نشعر بالفشل، فالجمود العاطفي لن يؤدي إلا إلى تحجيم تطورنا كآباء، مما يجعلنا صارمين، وغير مؤثرين.

باختصار، يمكننا أن نطلق على هذه المبادئ السبعة للانضباط الطبيعي أيضًا عنوان: «المبادئ السبعة للآباء». فهي تشمل التحكم في النفس، والعمل على تحقيق الأهداف بشكل منهجي. إن قدرتنا على التحكم في الطفل بشكلٍ فَعَّال هي إلى حد كبير ثمرة قدرتنا على التحكم في أنفسنا. إننا نحتاج إلى الشعور بالتعاطف تجاه أنفسنا بقدر التعاطف الذي نرغب في تقديمه إلى طفلنا. على سبيل المثال، لا يكمن حل مشكلة افتقارنا إلى ضبط النفس في معاقبة أنفسنا، أو حَضِّ أنفسنا على حسن التصرف. إن هذه الأساليب لا تصلح لنا، تمامًا كما لا تصلح لأطفالنا. ولكن يكمن الحل في تقبل أننا أيضًا غير معصومين من الخطأ، وأن مشاعرنا السوداوية قد تنتصر علينا. وفي بعض الأحيان، قد يشتعل غضبنا على الرغم من حبنا لطفلنا، والتزامنا تحقيق سعادته. وفي بعض الحالات، قد نضطر إلى التوقف عن القيام بدورنا كآباء –إذا أمكن فعل ذلك دون إهمال– حتى تطفو بواعث المحبة على السطح مرة أخرى. على سبيل المثال، قد نُسَلِّم مسؤولية التربية إلى شريكنا، أو شخص بالغ آخر موثوق به، بينما نحظى بفترة استراحة - لا لنعاقب الطفل، ولكن لكي نجد مشاعر القبول والرعاية تجاه طفلنا وسط مشاعرنا المختلطة. وفي خضم هذه الأجواء المتضاربة، نجد التحكم، والتوازن، والرؤية، والحكمة.

لا يجب أن يكون الانضباط عدائيًا، ولا ينبغي له. وليس ذنب أطفالنا أنهم وُلِدوا غير متحضرين وغير ناضجين، أو أن دوافعهم تتحكم فيهم، أو أنهم لا يرقون إلى مستوى توقعاتنا. إن الانضباط بالنسبة إلى الوالدين يعني العمل فقط في سياق من الترابط. في بعض الأحيان، عندما يقوم أحد الآباء المحبطين –في ظل جوٍّ من الأمان في مكتبي– بانتقاد طفله، أقترح عليه التوقف مدة دقيقة ليستشعر ارتباطه العاطفي بالطفل، ومن ثم التحدث معي مرة أخرى حول مخاوفه. إنه لمن المدهش كيف تختلف الأمور بالنسبة إلينا عندما نجد طريقنا لنكون في صف الطفل.

تمامًا كما رأينا في عملية النضج، هناك حليف لنا في الطبيعة. لسنا مضطرين إلى القيام بكل شيء وحدنا، فالانضباط جزء لا يتجزأ من المخطط

النمائي. هناك عمليات طبيعية يتم من خلالها تقويم الطفل تلقائيًا. ويتمثل جزء من المهمة المنوطة بالآباء في التعاون مع الطبيعة، وليس معارضتها. يعتبر الارتباط أهم هذه الديناميات بالطبع، ولكن هناك أيضًا العملية النشوئية: الدافع الفطري عند الطفل لضبط النفس. والعملية التكيفية: القدرة على التعلم من الفشل. والعملية التكاملية: القدرة على تحمل المشاعر والأفكار المختلطة. وكل طريقة من طرائق النمو الطبيعي هذه تنظم السلوك، وتجعل الطفل أكثر ملاءمة للمجتمع. تظهر المشكلة عندما تتوقف هذه العمليات أو تنحرف. ولأسباب شرحتها في الفصلين: التاسع، والثالث عشر تحديدًا، فإنها تتوقف في حالة الطفل المتوجه نحو الأقران. ولا يتبقى سوى أشياء قليلة جدًّا للعمل عليها حين تَضعُف أو تنحرف الديناميات التي ينبغي أن تفضي بشكل طبيعي وعفوي إلى الانضباط.

عندما نصل إلى المبادئ السبعة، سننظر أولًا في أساليب الانضباط التي تستند إلى النمو الطبيعي. ولا ينبغي التعامل مع هذه المبادئ على أنها روشتات لا تقبل التعديل. إنها قيم يجب السعي لبلوغها، وأفكار جوهرية تجب العودة إليها عندما تدفعنا مشاعر الإحباط من التربية –التي لا مفر منها– إلى تبني أساليب «الانضباط الحقيقي على الطريقة القديمة»، التي تأتي بنتائج عكسية.

***

المبادئ السبعة للانضباط الطبيعي

استخدم التواصل، وليس الانفصال، لتجعل الطفل مطيعًا

لقد كان الانفصال دائمًا هو الورقة الرابحة في التربية. وقد تحول اليوم إلى موضة تحت ستار عقوبة الوقت التأديبي المستقطع. وعند تجريد أساليب تعديل السلوك هذه من مسمياتها اللطيفة، تصبح صورًا مشتقة من الهجر: العزلة، والتجاهل، والجفاء، والحرمان من الحنان. ولطالما تسببت هذه الأساليب في مشكلات أكثر من تلك التي حلَّتها. واليوم تأتي بمشكلة إضافية،

فهي تساعد في خلق الظروف التي تزيد من استعداد الأطفال للتوجه نحو الأقران.

إن الحرمان من القرب (أو التهديد بفقدانه) هو وسيلة فعالة للتحكم في السلوك، لأنه يثير في الطفل أسوأ مخاوفه: الخوف من التخلي عنه. وإذا لم يكن التواصل والقرب مُهِمَّين بالنسبة إلى الطفل الدارج، أو الطفل الأكبر سنًّا، كان للانفصال عنا تأثيرٌ طفيفٌ جدًّا.

عندما نقوم بمنع التواصل، أو قطع العلاقة (أو عندما يتوقع الطفل حدوث ذلك)، فإننا نضع دماغ الارتباط لدى الطفل في حالة تأهب قصوى. في جميع الحالات، ستنبع استجابة الطفل من حالة من القلق، ولكن كيفية إظهار الطفل ذلك ستعتمد على طريقته الخاصة في الارتباط. فالطفل الذي اعتاد الحفاظ على التواصل مع الوالدين من خلال «حسن التصرف»، سيقسم جاهدًا إنه لن يرتكب الأخطاء مرة أخرى. وستُمطر محاولته لاستعادة التواصل سيلًا من عبارات مثل: «أنا آسف». أما الطفل الذي تكون طريقته في تحري القرب هي اللفتات والكلمات الحنونة، فعندما يشعر أن ارتباطه مهدد من قبل والده، يفيض بعبارات مثل «أحبك» - سيكون هذا هو أسلوبه في استعادة القرب. وإذا كانت الأولوية للتلامس الجسدي، فقد يصبح الطفل شديد التعلق والالتصاق بك بضع ساعات، ولا يرغب في السماح لك بالابتعاد عن ناظريه. النقطة التي يجب على الوالدين فهمها هي أن هذه المظاهر لا تعبر عن فهم حقيقي أو ندم عميق، ولا يعبر عن هذا الفهم أو الندم سوى شعور القلق لدى الطفل الذي يحاول استعادة العلاقة مع الوالد. إنه لمن السذاجة الاعتقاد بأننا بهذه الأساليب نلقِّن الأطفال درسًا، أو نجعلهم يفكرون في أخطائهم السلوكية.

هناك تكلفة باهظة للعب بورقة الانفصال: انعدام الأمان. إن الطفل الذي ينضبط عن طريق الانفصال قد يتوقع الشعور بالقرب والتواصل مع الوالد فقط عندما يرقى إلى مستوى توقعات والده. وفي ظل هذه الظروف، لا يتحرر الطفل ولا يرتاح من السعي إلى الارتباط، وبالتالي، لا يتمتع بالحرية لكي تظهر شخصيته المتفردة واستقلاليته. قد يصبح الطفل «مهذبًا» جدًّا، ولكنه سيفتقر أيضًا إلى الطاقة النشوئية. لقد تم تقويض نموه.

إن التهديد بالانفصال ينجح فقط بسبب ارتباط الطفل بنا، وتوقه إلى القرب منا، ولأنه ليس محصنًا عاطفيًا بعد ضد الضعف. وبعبارة أخرى: لا يزال الطفل قادرًا على الشعور بشوقه للارتباط وألمه عند الانفصال. وإذا لم تتوفر هذه الشروط، كان الانفصال غير فعالٍ كوسيلة لتحقيق الامتثال. ومن ناحية أخرى، فإن أي «نجاح» يكون مجرد أمر مؤقت. وسواء كان هذا الانفصال جسديًا أو في صورة انسحاب عاطفي، فمن المرجح أن مشاعره المرهفة لن تستطيع التعامل مع هذا الوضع. وإذا كنا نحن الكبار نشعر بالأذى عندما يتم تجاهلنا أو نبذنا، فكيف بأطفالنا؟ قد يكون من الصعب على الآباء الذين يستخدمون أسلوب الوقت التأديبي المستقطع ولا يُكِنُّون سوى النيات الحسنة تفهم ذلك، ولكن العواقب النهائية لأسلوب الانفصال هذا تعد في غاية السلبية على الطفل الصغير الحساس. إنه يضرب الطفل في الجانب الأكثر ضعفًا منه: احتياجه إلى أن يظل مرتبطًا بالوالدين. وعاجلًا أو آجلًا، سيضطر الطفل إلى حماية نفسه من ألم جرحه بهذه الطريقة. سوف ينغلق عاطفيًا، أو –بشكل أدق– سينغلق الجزء المسؤول عن الارتباط في دماغه. (راجع الفصل الثامن للاطلاع على المناقشة حول الانغلاق الدفاعي).

عندما نستخدم العلاقة كسلاح ضد الطفل، نستفز دماغ الارتباط ليقوم باستبعادنا، وخلق فجوة كبيرة في التواصل. في الواقع، نحن ندفع الطفل إلى البحث عن احتياجه من الارتباط في مكان آخر، وقد بات من الواضح الآن ما هي نتيجة ذلك. إننا نُلقي بأطفالنا في واقع الأمر إلى أقرانهم من خلال استخدام عقاب الوقت التأديبي المستقطع، والتفاعل بطرائق تفسد العلاقة.

إن دماغ الطفل يستطيع أيضًا التحصًن ضد القابلية للتأثر بالانفصال، من خلال مقاومة التواصل مع الوالد. وربما يختبئ هذا الطفل تحت السرير، أو في الخزانة، ويرفض محاولات الوالدين للتقرب بهدف التصالح. أو –تحسبًا للمشكلات– قد يهرب إلى غرفته، أو يطلب أن يبقى بمفرده. إن تجربة الانفصال سوف تثير غريزة الطفل للابتعاد عنا بطريقة أو بأخرى.

يعتبر الانفصال مؤذيًا بالأخص عند استخدامه بشكل عقابي كتهذيب للسلوك العدواني. وكما أوضحت في الفصل العاشر، فإن الإحباط هو وقود العدوانية. وتكون المحصلة النهائية لتبني أسلوب الانفصال هي زيادة

العدوانية، وليس العكس. إن أي امتثال قد نحققه مع طفل عدواني باستخدام عقوبة الوقت التأديبي المستقطع، والحب الصارم، وأساليب الانفصال الأخرى، سيكون قصير الأجل، لأنه يعتمد على إثارة قلق الطفل المؤقت حيال العلاقة. وبمجرد استعادة القرب من الوالد، ستعود العدوانية للظهور بقوة أكبر، بفضل ذلك الوقود الإضافي الناتج عن الإحباط المتعلق بالارتباط، الذي تسببنا فيه للتو. ولا تُفضي محاولاتنا الخرقاء للقضاء على العدوانية في مهدها إلا إلى تفاقمها.

إن تعريض الطفل لتجارب انفصال غير ضرورية، حتى وإن كان ذلك عن حسن نية، ينم عن قِصَر نظر شديد، وهو خطأ لا يمكن للطبيعة أن تغفره بسهولة. وإنه لمن الحماقة أن نخاطر بقدرتنا على التربية في الغد من أجل الحصول على المزيد من النفوذ اليوم.

إن البديل الإيجابي والطبيعي للانفصال هو التواصل، فالتواصل هو مصدر كل من: قوتنا في التربية، وتأثيرنا، ورغبة الطفل في أن يكون صالحًا في نظرنا. وينبغي أن يكون التواصل هو هدفنا على المدى القصير، وهدفنا على المدى الطويل. تكمن الحيلة في الانتباه إلى التواصل قبل حدوث المشكلة، بدلًا من فرض عقوبة الانفصال بعد حدوثها، وتجنب المشكلات المستقبلية، بدلًا من الرد بالعقاب بعد أن يتجاوز سلوك طفلنا حدوده.

إن الممارسة التربوية الأساسية المستمدة من هذا التحول في التفكير هي ما أسميه «التواصل قبل التوجيه». والفكرة هي احتواء الطفل –تنشيط غرائز الارتباط عند الطفل وفقًا للأسس التي جرت مناقشتها في الفصل الرابع عشر– من أجل تقديم الإرشاد والتوجيه. ومن خلال تعزيز التواصل أولًا، نحدُّ من احتمالية المقاومة، ونقلل من فرص تعريض أنفسنا لردود أفعالنا السلبية. وسواء عند التعامل مع الطفل الصغير غير المتعاون، أو المراهق المتمرد، فإن الوالد يحتاج أولًا إلى الاقتراب من الطفل، واستعادة القرب العاطفي قبل توقع الامتثال.

ونسوق مثالًا واحدًا يوضح هذا المبدأ البسيط. كان تايلور البالغ من العمر أحد عشر عامًا في مسبح الفناء الخلفي مع أخته وبعض الأصدقاء. وكانوا يقضون وقتًا ممتعًا، حتى تحمَّس تايلور كثيرًا وبدأ يضرب رفقاءه في اللعب

بعصا بلاستيكية. طلبت منه الأم أن يتوقف، ولكنه لم يفعل. وغضب الأب، وصاح في تايلور لعصيانه أمر أمه، وأمره بالخروج من المسبح، فرفض الانصياع لأمر أبيه. قفز الأب في المسبح، وسحبه إلى الخارج، ثم فكر في تلقين ابنه درسًا، فأرسله إلى غرفته للتفكير فيما فعله. أوضح لي الوالدان أن سلوك تايلور كان غير مقبول تمامًا، ولا يجب أن يتكرر مرة أخرى. بيد أنهما كانا قد سمعاني أتحدث عن مخاطر استخدام الانفصال لحمل الطفل على الطاعة، وأرادا معرفة ما الذي كان بوسعهما فعله بشكل مختلف.

بمجرد انهيار الوضع كما حدث، ربما كان يحتاج الوالدان إلى التريث قليلًا قبل التصرف. عندما تكون هناك مشكلة، يكون من الأفضل زيادة القرب بدلًا من تحجيمه. ويجب أن تكون الرغبة في التواصل حاضرة لدى الوالد قبل أن يكون هناك أي شيء إيجابي يستجيب له الطفل. عندما تظهر الرغبة في التواصل مجددًا عند الوالد، تكون الخطوة الأولى هي استعادة التواصل: المشي معًا، أو الذهاب في نزهة معًا، أو اللعب بالكرة - يجب أن يكون التواصل الإنساني قائمًا قبل أن يكون بوسعنا التعبير عن وجهة نظرنا. وفي هذه الحالة، كان ما جعل الوالدين يبدآن بداية غير موفقة هو الأمر الذي كان مفقودًا في بداية تفاعلهما. لقد كان تايلور مستغرقًا تمامًا فيما كان يفعله. وفي تلك الحالة الذهنية، لم يكن متوجهًا نحو والديه، أو يميل إلى أي رغبة في طاعة أوامرهما. وفي ظل هذه الظروف، تعد استعادة التواصل مع الطفل أمرًا ضروريًّا قبل المضي قدمًا. كان من الممكن أن تنطوي محاولات التواصل على عبارة مثل: «كم هذا رائع يا تايلور! هل تستمع بوقتك؟». وبذلك، فمن المحتمل أن يتلقى المرء ابتسامة، وإيماءةً بالإيجاب. وبمجرد اجتذاب العينين والابتسامة والإيماءة، يكون التوجيه التالي من الوالدين هو إحضار الطفل بالقرب منهم. «تايلور، أحتاج إلى التحدث معك لحظة على انفراد. تعال هنا جانبًا». وبمجرد احتواء الطفل، سيكون الوالد في موضع قوة ونفوذ. يمكن أن يقدم بعض التوجيه لتهدئة الأمور والإبقاء على جو من المتعة للجميع. وعلاوةً على ذلك، كان من الممكن منع تدهور ارتباطات تايلور، وهي نقطة أهم بكثير من ناحية النمو من تلقين تايلور درسًا. وبدلًا من استخدام الانفصال في نهاية الأمر، كان ينبغي لوالِدَي تايلور استخدام التواصل في أول الأمر.

إنها ليست رقصة معقدة. في الواقع، إنها بسيطة بشكل مدهش. يكمن السر في خطوة الارتباط الصغيرة في البداية. وينطبق مبدأ التواصل قبل التوجيه على أي شيء تقريبًا، سواء كان السؤال عن الواجبات المدرسية، أو طلب المساعدة في إعداد مائدة الطعام، أو تذكير الطفل بالملابس المراد تعليقها، أو إعلامه بأنه قد حان الوقت لإطفاء التلفزيون، أو مواجهته بشأن طريقة التعامل مع إخوته. وإذا كانت العلاقة الأساسية جيدة، فإنه يفترض أن تستغرق هذه العملية بضع ثوانٍ فقط. أما إذا كان الارتباط ضعيفًا، أو إذا كان هناك تحصُّن ضده، وجب أن تكشف لنا محاولة احتواء الطفل عن ذلك. من الصعب جدًّا فرض النظام على سلوك الطفل عندما يكون هناك خلل كامن في الارتباط. ويجب أن يذكرنا الفشل في احتواء الطفل بالتراجع عن الانشغال بالسلوك، وتركيز جهودنا واهتمامنا على بناء العلاقة.

عندما نستخدم هذه الممارسة المتمثلة في التواصل قبل التوجيه أول مرة، قد تبدو لنا غريبة نوعًا ما، ومتكلَّفة. ومع ذلك، بمجرد أن تتحول هذه الممارسة إلى عادة، ينبغي أن يتوقف التدهور في العلاقة بشكل كبير. إن الآباء الذين يجيدون هذه الممارسة غالبًا ما يلتمسون الابتسامة والإيماءة قبل توجيه طلباتهم أو أوامرهم. ومن الممكن أن تكون النتائج مذهلة.

عندما تحدث المشكلات، عالج العلاقة، وليس الموقف

عندما يحدث خطأ ما، فإن الاستجابة المعتادة هي مواجهة السلوك الذي نحن بصدده في أقرب وقت ممكن. وفي علم النفس، يطلق على ذلك مبدأ الفورية، ويستند هذا المبدأ إلى فكرة مفادها أنه إذا لم يتم التعامل مع السلوك على الفور، ضاعت فرصة التعلم. سيكون الطفل قد «أفلت» من العقاب على سوء سلوكه. وهذا القلق لا أساس له من الصحة.

إن مبدأ الفورية له جذوره في مجال دراسة تعلم الحيوانات، حيث لا يوجد وعي يمكن التعامل على أساسه، ولا أي قدرة على التواصل مع الحيوانات موضع الدراسة. إن التعامل مع أطفالنا وكأنهم مخلوقات بلا وعي يعبر عن شعور عميق بعدم الثقة، ويحطُّ من إنسانيتهم. الأطفال –مثلهم مثل البالغين–

لا يرغبون في التمسك بأولئك الذين يسيئون الحكم على نياتهم، ويُحَقِّرون من قدراتهم، خصوصًا عندما تكون الارتباطات البديلة متاحة بسهولة.

إن محاولة إحراز تقدم في خضم مشكلة مزعجة لا يبدو أمرًا منطقيًّا لأسباب أخرى أيضًا. فعند الشعور بالانزعاج، يحتمل أن يكون الطفل خارجًا عن السيطرة. واختيار لحظة كهذه للتقويم، أو التوجيه، أو تلقين «الدروس» ما هو إلا مضيعة للوقت. أما بالنسبة إلينا، فغالبًا ما يفاجئنا سلوك طفلنا غير اللائق، مما يثير ردود فعل عاطفية حادة. لذلك، من المرجح أن يكون سلوكنا -تمامًا مثل سلوك أطفالنا- متسرعًا وجامحًا. إن معالجة المشكلات تتطلب إعدادًا مدروسًا. وفي خضم المشكلة، نادرًا ما يكون الطفل أكثر قدرةً على الفهم، أو نكون نحن في أكثر حالاتنا وعيًا وإبداعًا.

عند وضع العلاقة بعين الاعتبار، تصبح الأهداف الفورية هي إيقاف السلوك إذا لزم الأمر، والحفاظ على ارتباط فعال. وبوسعنا دائمًا إعادة النظر في المشكلة والسلوك لاحقًا، بعد تهدئة المشاعر الحادة، واستعادة التواصل.

إن بعض السلوكيات تثير غضبنا، وتمتحن بشدة قدرتنا على البقاء مرتبطين بطفلنا. وتأتي على رأس القائمة العدوانية، والإرادة المضادة. إذا كنا نحن الطرف المتلقي للإهانات، كعبارات مثل «أنا أكرهك»، أو حتى الاعتداءات الجسدية، فإن التحدي الأول أمامنا هو النجاة من الهجوم دون إلحاق ضرر بالعلاقة. ليس هذا هو الوقت المناسب للتعليق على طبيعة السلوك، أو تأثيره المؤذي. كما إن هذا ليس هو الوقت المناسب لإطلاق التهديدات، وإنزال العقوبات، أو عزل الطفل. واستعدادًا للتدخل التالي، يجب على الآباء الحفاظ على هيبتهم. علينا أن نتجنب تفاقم الوضع بسبب التعبيرات العاطفية غير المنضبطة. وإذا سمحنا لمشاعرنا الناتجة عن التعرض للإيذاء بأن تهيمن علينا، فإننا لن نستطيع الاستمرار في دور الشخص البالغ المسؤول.

إن التركيز على شعور الطفل بالإحباط بدلًا من أخذ الهجوم على محمل شخصي غالبًا ما يكون مفيدًا: «أنت مستاء مني». «إنك مُحبَطٌ حقًّا». «لم يكن هذا مناسبًا لك». «لقد أردتني أن أوافق وأنا رفضت». «لا بد أنك تفكر في جميع الكلمات السيئة التي يمكنك أن تصفني بها». «لقد تمكنت منك هذه المشاعر مرة أخرى». ليست الكلمات هي المهمة، وإنما الإقرار بالإحباط الذي

يشعر به الطفل، ونبرة الصوت التي تشير إلى أن ما حدث للتو لم يفسد الوئام بيننا. ومن أجل الحفاظ على علاقة ناجحة مع الطفل، لا بد أن نوضح بطريقة ما أن العلاقة ليست في خطر.

في بعض الأحيان، يكون من المفيد الإشارة إلى حدوث مخالفة ما. «هذا فعل سيئ. سنتحدث بشأن هذا الأمر فيما بعد». وأقول مجددًا: إن الكلمات ليست بأهمية الأسلوب، الذي ينبغي أن يكون ودودًا ولطيفًا، لا مُهَدِّدا. إن التواصل الأساسي الذي يجب الحفاظ عليه هو التواصل الإنساني. نحن في حاجة إلى إعادة الهدوء إلى أنفسنا، وإلى الطفل. وفي الوقت المناسب، نلتزم الموعد الذي حددناه لتسوية الأمور. علينا أولًا أن نحتوي الطفل، وبعدئذ فقط يمكننا محاولة استخلاص الدروس مما حدث.

عندما لا تسير الأمور على نحو جيد مع الطفل، استَدعِ البكاء بدلًا من محاولة تلقين الدروس

هناك أمور كثيرة يجب أن يتعلمها الطفل: المشاركة في الأم، وإفساح المجال للأخ، والتعامل مع الإحباط وخيبة الأمل، والتعايش مع عدم الكمال، والتنازل عن بعض المطالب، والتخلي عن الحاجة إلى أن يكون مركز الاهتمام، وتقبُّل الرفض. تذكر أن أحد المعاني الأساسية التي تنطوي عليها كلمة الانضباط هو «التعليم». لذلك فإن جزءًا كبيرًا من دورنا آباء يتمثل في تعليم أطفالنا ما يحتاجون إلى معرفته. ولكن كيف؟

إن هذه الدروس الحياتية لا تعد نتيجة للتفكير السليم بقدر ما هي نتيجة للتكيف. والسبيل إلى التكيف هو استيعاب الخيبة عند مواجهة شيء لن يجدي نفعًا ولا يمكننا تغييره. وإذا سارت عملية التكيف كما ينبغي، حدث تعلم الدروس تلقائيًّا. إن الآباء لا يعملون بمفردهم.

تنجز عملية التكيف مهمتها المتمثلة في «ضبط» أطفالنا بعدد من الطرائق الطبيعية: من خلال وضع حد للتصرفات التي لا تجدي نفعًا، ومن خلال منح الطفل القدرة على تقبل الحدود والقيود، ومن خلال تسهيل التنازل عن المطالب غير المجدية. ولا يستطيع الطفل أن يتأقلم مع الظروف التي لا يمكن تغييرها إلا عن طريق هذا التكيف. ومن خلال هذه العملية، يكتشف الطفل

أيضًا أنه يمكنه التعايش مع رغباته غير المشبعة. إن التكيف يمنح الطفل القدرة على التعافي من الصدمات، وتجاوز الخسارة. ولا يمكن تلقين هذه الدروس مباشرة، سواء عن طريق المنطق أو العواقب. إنها دروس عاطفية بحق، ولا يتم تعلمها إلا عند استيعاب مشاعر الخيبة.

يحتاج الوالد إلى أن يكون مبعوث الخيبة وملاك الطمأنينة في الوقت نفسه. إنه التناقض البشري في أرقى صوره وأكثرها صعوبة. ولتيسير التكيف، يجب على الوالد أن يأخذ بيد الطفل إلى البكاء، والاستسلام، والشعور بالراحة، الذي يأتي في أعقاب الاستسلام.

إن الجزء الأول من رقصة التكيف هذه هو أن تكون للطفل مثل «جدار الخيبة». في بعض الأحيان، سيكون هذا الجدار من صنيعنا، ولكنه في معظم الأحيان سيكون من صنيع واقع الحياة اليومية وقيودها: «لقد قالت أختك: لا». «لن يجدي هذا نفعًا». «لا يمكنني السماح لك بفعل ذلك». «ليس هناك ما يكفي». «هذا كل ما لدينا اليوم». «إنه لم يَدعُك». «إنها لم تكن مهتمة بالاستماع إليك». «لقد فازت سالي في اللعبة». «لا تستطيع الجدة المجيء». ويجب عرض هذه الحقائق بحزم، حتى لا تصبح هي المشكلة. إن المراوغة -التفسير، والشرح، والتبرير- تعني الفشل في إعطاء الطفل شيئًا ليتكيف معه. وإذا كانت هناك أي فرصة لتغيير الوضع، لم يكن هناك أي استعداد للتكيف. إن الأمر يتعلق بحمل الطفل على التكيف مع الأمور كما هي بالضبط، وليس كما يريدها هو -أو حتى أنت- أن تكون.

إن عدم اتخاذ موقف حازم عندما يكون هناك شيء غير قابل للتغيير يدفع الطفل إلى البحث عن طرق للهروب من الواقع، وبالتالي يعوق عملية التكيف. وسيكون لديك الكثير من الوقت لشرح مبرراتك، ولكن فقط بعد تقبل عدم جدوى تغيير الأمور.

الجزء الثاني من رقصة التكيف هو أن تأتي بالتزامن مع شعور الطفل بالإحباط، وتمنحه الطمأنينة. فبمجرد بناء جدار الخيبة (بطريقة حازمة دون أن تكون قاسية)، يحين الوقت لمساعدة الطفل على البكاء تحت وطأة الإحباط. وينبغي ألا يكون الهدف هو تلقين درس، وإنما تحويل الإحباط إلى حزن. وسيتم تعلم الدرس تلقائيًّا بمجرد الانتهاء من هذه المهمة. يمكننا أن

نقول أشياء مثل: «من الصعب للغاية ألا تسير الأمور على ما يُرام». «أعلم أنك أردت بشدة أن يحدث هذا الأمر». «لقد كنتَ تأمل أن تكون لدي إجابة مختلفة». «ليس هذا ما كنت تتوقعه». «أتمنى لو كانت الأمور مختلفة». مجددًا، الأهم من كلماتنا هو شعور الطفل بأننا نقف معه، وليس ضده. وعندما يحين الوقت المناسب، يمكن لإضفاء بعض الحزن على صوتنا أن يحفز الانتقال إلى البكاء، والشعور بخيبة الأمل. قد يتطلب الأمر بعض التدريب لاستشعار هذه اللحظة، فالتحدث بسرعة كبيرة أو الإسهاب في الكلام قد يؤديان إلى نتائج عكسية. ولا يمكن تصميم هذه الرقصة، إذ يجب على الوالد أن يتحسس طريقه بنفسه. وهنا أيضًا نتعلم عن طريق التجربة والخطأ.

في بعض الأحيان، يمكن للوالد أن يؤدي كل الحركات الصحيحة، ومع ذلك يفشل فشلًا ذريعًا في تهيئة عملية التكيف. قد تكون المشكلة هي أن الطفل لا ينظر إلى الوالد كمصدر آمن للطمأنينة المتعلقة بالارتباط. وفي أحيانٍ كثيرة، لا تنهمر الدموع بسبب تعثر عملية التكيف: إحدى الخسائر المترتبة على تَحَصُّن الطفل ضد الضعف. إنه لا يتم استيعاب الخيبة.

إن التكيف يعمل بطريقتين. في بعض الأحيان، قد نحتاج نحن الآباء إلى التكيف مع افتقار أطفالنا إلى القدرة على التكيف. وعندما تكون العملية التي تعزز الانضباط الطبيعي غير نشطة في طفلنا، يجب علينا أن نتراجع عن محاولاتنا للمضي قدمًا. وفي مثل هذه الأوقات، نحتاج إلى أن نواجه شعورنا بالحزن، وأن نتخلى عن توقعاتنا الخائبة. وإذا تخلينا عن الأمور التي لا تجدي نفعًا، زاد احتمال أن نكتشف بالصدفة الأمور التي تجدي نفعًا. إذا كانت العلامات التي تدل على التكيف غير موجودة –إذا كانت عينا الطفل لا تنهمران بالدموع عندما تفشل خططه، وإذا كانت الخسارة لا تثير حزنه، وإذا لم يتحول الغضب إلى الحزن– احتاج الوالد إلى إيجاد طريقة أخرى لخلق نظام من بين الفوضى. ولحسن الحظ، توجد طرائق أخرى.

التمس حسن النيات بدلًا من المطالبة بحسن التصرف

إن التحول الرابع في التفكير يدعو إلى تغيير محور التركيز من السلوك إلى النية. فالنيات لا تُقَدَّر حق قدرها. والشعور السائد في مجتمعنا هو أن

النيات ليست كافية، وأن السلوك اللائق هو فقط ما يجب قبوله والثناء عليه. أليس الطريق إلى الجحيم مُعَبَّدًا بالنيات الحسنة؟

من وجهة نظر نمائية، لا شيء أبعد عن الحقيقة من ذلك. إن النيات الحسنة تشبه الذهب، فالنية هي أصل القيم، ودليل الإحساس بالمسؤولية. إنها تمهد الطريق للمشاعر المختلطة. وتجاهل النية يعني التغاضي عن أحد أهم الإمكانات في تجربة الطفل.

ينبغي أن يكون هدفنا هو التماس النيات الحسنة لدى الطفل متى أمكن ذلك. ومجددًا، يتطلب النجاح أن يكون الطفل راغبًا في أن يكون صالحا في نظرنا، وأن يكون متقبلًا الانقياد إلينا. ويجب أن تكون الخطوة الأولى -كما هي الحال دائمًا- هي احتواء الطفل، لتعزيز التواصل الذي يمنحنا القوة.

وبعد ذلك، نستخدم سلطتنا لاستدراج الطفل في الاتجاه الصحيح، أو على الأقل في اتجاه مخالف للمشكلات. ولا يكفي أن يعرف الأطفال ما نريده. كما يجب أن تنبع النية في الامتثال من داخلهم. بالنسبة إلى طفل لا يرغب في الذهاب مع الأم، قد يتضمن ذلك احتواءه، ومن ثم تحفيز نية من شأنها أن تجعله يذهب في الاتجاه الذي تريده. «هل يمكنك أن تعانق جدتك الآن وتودعها؟». «أحتاج إلى بعض المساعدة في حمل هذا إلى السيارة. هل يمكنك أن تحمله من أجلي؟». تكمن الحيلة في وضع يد الطفل على عجلة القيادة الخاصة به - تمامًا كما هي الحال في حديقة الملاهي، حيث تكون للعديد من العربات عجلات قيادة صغيرة لا توجِّه القطار أو السيارة في الواقع، ولكنها تسمح للسائق الصغير بالاعتقاد بأنه هو المسؤول عن القيادة. والأفضل من ذلك هو توقع المشكلات قبل حدوثها، من خلال مخاطبة إحساس الطفل بالسيطرة. على سبيل المثال، إذا كنت تعرف أنك ستواجه مقاومة عندما يحين الوقت للمغادرة، فقم باحتواء الطفل أولًا، والتمس منه نية الحضور عندما تقول إنه قد حان وقت المغادرة: «هل ستكون مستعدًّا لارتداء حذائك عندما نحتاج إلى الذهاب؟». وإذ نعترف بأن الأمر قد يكون صعبًا على الطفل، فإن سؤاله عما إذا كان بإمكانه أن يفعل ذلك الأمر ينبغي أن يحمله على الموافقة.

إن التماس النيات الحسنة في حالة الأطفال الأكبر سنًّا يتضمن مشاركة قيمك معهم، أو البحث عن بذور قيمك بداخلهم. على سبيل المثال، قد يشارك

أحد الوالدين أهدافه فيما يتعلق بالتعامل مع الإحباط: «أنا أفخر دائمًا بنفسي عندما أشعر بالإحباط دون أن أوجه الإهانة إلى أي أحد. أعتقد أنك الآن كبير بما فيه الكفاية لتجرب ذلك. ما رأيك؟ هل أنت مستعد للتدرب على ذلك؟». وبالنسبة إلى الأطفال الذين يميلون إلى الانغماس في انفعالاتهم، قد ينطوي ذلك على لقاء احترازي قصير، قبل أن يوشك الطفل على الانخراط في نشاط يحتمل أن تحدث فيه مشكلات: «أعرف أنك عندما تكون مستمتعًا تعجز أحيانًا عن ضبط نفسك، وتذهل عن التوقف عندما يطلب منك أحدهم ذلك. هل يمكنني الاعتماد عليك للمحاولة مرة أخرى؟ أعلم أنك تحب وجود الأطفال الآخرين هنا لتلعب، وتود لو استمر الأمر أطول فترة ممكنة».

نحن لا نقول إن التماس حسن النيات سيؤدي تلقائيًا إلى السلوك المرغوب، فحتى بالنسبة إلى البالغين، لا تُترجم النيات الحسنة إلى أفعال دائمًا. ولكن لا بد أن يبدأ الطفل من نقطة ما، والسعي في الاتجاه الصحيح هو نقطة البداية.

إننا عند التماس النيات الحسنة نحاول لفت الانتباه إلى إرادة الطفل، وليس إلى إرادتنا. فبدلًا من أن تقول له: «أريدك أن...»، أو «تحتاج إلى...»، أو «عليك أن...»، أو «قلت لك إن...»، أو «يجب عليك أن...»، استنبط منه تصريحًا بالنية، أو على الأقل إيماءة تؤكدها: «هل يمكنني الاعتماد عليك في...؟». «هل ترغب في محاولة القيام بذلك؟». «هل تعتقد أنه بإمكانك أن...؟». «هل أنت مستعد لـ...؟». «هل تظن أنه يمكنك التعامل مع هذا الأمر الآن؟». «هل ستحاول أن تتذكر؟». بالطبع هناك أوقات نحتاج فيها إلى فرض إرادتنا. ومع أن ذلك قد يكون ضروريًا، فإنه لا يؤدي في حد ذاته إلى حسن النيات من ناحية الطفل. ودائمًا ما يعود فرض إرادتنا بنتائج عكسية إذا تم بشكل إجباري جدًا، أو دون تواصل جيد.

يُعَدُّ التماس النيات الحسنة ممارسة تربوية آمنة، وفعالة للغاية. إنه يغير من الأطفال قلبًا وقالبًا. وما لا يمكن تحقيقه من خلال التماس النيات الحسنة، لا يُرَجَّحُ أن يتحقق بغيره من الطرائق.

إنه لمن الضروري أن نعبر عن تقديرنا لنيات الطفل الإيجابية بدلًا من أن نخلع عليه دوافعه، أو أفعاله، أو إخفاقاته. ويجب أن يكون الوالد داعمًا ومشجعًا قدر الإمكان: «أعلم أن هذا ليس ما أردته أن يحدث». «لا بأس،

ستنجح فيما تريد». «يسعدني أنك لم تقصد ذلك، هذا أمر مهم». وما لم نخفف من وطأة الفشل المحتوم، فإن الطفل سيميل إلى الاستسلام. ولا بد من تعزيز النيات بحكمة لكي تؤتي ثمارها.

في حالة فشلنا في إحراز أي تقدم في التماس النيات الحسنة، فهذا يعني إما أن الطفل غير ناضج بما فيه الكفاية، وإما أننا لسنا مُقنعين بما فيه الكفاية، وإما أنه توجد مشكلات في علاقة الارتباط. قد يكون ارتباط الطفل بنا في حالة توقف (التَّحَصُّن ضده)، أو ليس متطورًا بالدرجة الكافية. وينبغي لعجزنا عن التماس النيات الحسنة في الطفل أن ينبهنا إلى هذه المشكلات الخفية، وأن يدفعنا إلى اتخاذ إجراءات تصحيحية. وبهذه الطريقة، يمكن حتى لإخفاقاتنا على المدى القصير أن تخدم غايةً إيجابيةً على المدى الطويل. إن الضرب باستمرار على وتر سلوك الطفل «السيئ» في الوقت الذي لا يمكننا فيه حتى التماس نيته في أن يكون مهذبًا هو أمر يشبه وضع العربة أمام الحصان.

استَدعِ المشاعر المختلطة بدلًا من محاولة إيقاف السلوك المتهور

«توقف عن الضرب». «لا تقاطعني». «لا تفعل ذلك». «دعني وشأني». «لا تتصرف كالأطفال». «لا تكن وقحًا هكذا». «تمالك نفسك». «توقف عن عصبيتك». «لا تكن سخيفًا». «توقف عن إزعاجها». «لا تكن لئيمًا هكذا». إن محاولة إيقاف السلوك المتهور تشبه الوقوف أمام قطار لنقل البضائع وتوجيه أمر له بالتوقف. عندما يكون سلوك الطفل مدفوعًا بالغريزة والعاطفة، فثمة فرصة ضئيلة لفرض النظام من خلال المواجهة والصياح بالأوامر.

لقد كانت هناك حقبة في تاريخ علم النفس حيث كان يُنظر إلى دماغ الطفل على أنه صفحة بيضاء، لوحة فارغة، خالية من القوى الداخلية التي تضطر الطفل إلى التصرف بطريقة أو بأخرى. ولو كان الأمر كذلك، لكان من السهل نسبيًا السيطرة على سلوك الطفل، إما من خلال التوجيه، وإما من خلال العواقب. وعلى الرغم من أن العديد من الآباء والمعلمين ما زالوا يتصرفون وفقًا لهذا الوهم، فقد أسس العلم الحديث لمنظور مختلف تمامًا. إن علماء النفس والأعصاب الذين يدرسون الدماغ البشري يميطون

اللثام عن الجذور الغريزية للسلوك. فالعديد من استجابات الطفل تكون مدفوعة بالغرائز والعواطف، التي تنشأ بصورة عفوية وتلقائية، وليس عن قرارات واعية. وفي معظم الظروف، يخضع الأطفال (وغيرهم من البشر غير الناضجين) بالفعل لأوامر داخلية تدفعهم إلى التصرف بطريقة معينة. فالطفل الخائف يتبع أوامر غريزية بالابتعاد. وقد يضطر الطفل غير الآمن إلى التعلق والتشبث. وغالبًا ما يدفع الإحباطُ الطفلَ إلى المطالبة بشيء، أو البكاء، أو الهجوم. والطفل الخجول يخضع لأوامر بالاختباء، أو التواري. ويقاوم الطفل العنيد إرادة الغير تلقائيًّا. فعندما يكون الطفل مندفعًا، تسود الدوافع. وهناك نظام في هذا الكون، ولكن ليس من نوعية النظام الذي قد نود أن نراه. إن الدماغ يقوم بعمله في توجيه الطفل وفقًا للعواطف والغرائز التي تم تنشيطها فحسب.

ثمة بديل للمواجهة. إن السر في ضبط النفس لا يكمن في قوة الإرادة، كما كنا نعتقد سابقًا، وإنما في المشاعر المختلطة. عندما تختلط الدوافع المتعارضة معًا، تلغي الأوامر بعضها بعضًا، وتضع الطفل في مقعد القيادة، إن جاز التعبير. وينشأ نظام جديد، حيث ينبع السلوك من النية بدلًا من الاندفاع. ومثل هذا السلوك يخضع للدوافع بشكل أقل، وبالتالي يسهل التعامل معه بشكل أكبر. إن مهمتنا تتمثل في المساعدة على استحضار المشاعر والأفكار المتعارضة الموجودة لدى الطفل في وعيه. تذكر –كما ذكرت في الفصل التاسع– أن المعنى الحقيقي للمزاج هو مزج العناصر المختلفة معًا، وهذا بالضبط هو ما نحتاج إلى القيام به! فبدلًا من محاولة معالجة السلوك، نستنبط العنصر الملطف لتخفيف الدافع الذي يوقع الطفل في المشكلات.

في حالة الطفل المشحون بمشاعر الهجوم على سبيل المثال، نريد أن نجذب إلى وعيه المشاعر والأفكار والدوافع التي تتعارض مع الهجوم. ولا يمكن تحقيق هذا الهدف عن طريق المواجهة، فالمواجهة تؤدي في أحسن الأحوال إلى امتثالٍ سطحي، أو –على الجانب الآخر– إلى موقف دفاعي. إنها لا تفعل أي شيء لتطوير السيطرة على الدوافع من الداخل. وقد تتمثل العناصر الملطفة في مشاعر الحب، أو الاهتمام، أو القلق. فقد يشعر الطفل بالقلق حيال الإيذاء، أو الخوف بشأن التورط في المشكلات. وإذا كان الطفل يتحرك

وفقًا لدوافع الإرادة المضادة، فإننا نريد أن نجذب إلى وعيه مشاعر الارتباط القوية، والرغبة في الإرضاء والارتقاء بمستواه. إن الحيلة تكمن في جذب المشاعر المختلطة إلى الوعي في آنٍ واحد.

عند استدراج المشاعر المتناقضة إلى الوعي، نحتاج إلى الخروج من نطاق الموقف الذي تحدث فيه المشكلة والتركيز على العلاقة، حيث يمكننا الأخذ بزمام المبادرة. ولا تنبغي محاولة القيام بهذه المهمة إلا بعد أن تخف حدة المشاعر إلى حد ما.

من الحكمة دائمًا تذكير الطفل أولًا بالدوافع الملطفة أكثر من الانفعالات الجارفة التي أوقعته في المتاعب. وبمجرد أن يشعر الطفل بالود والحنان، يمكننا التحدث عن الإحباط الذي أصابه سابقًا. «إننا نقضي وقتًا ممتعًا معًا الآن. أتذكر هذا الصباح حينما كنتَ غير راضٍ عني. في الواقع، لقد كنتَ غاضبًا جدًّا، وصرختَ في وجهي بصوتٍ عالٍ». ولا بد أن نفسح مجالًا لهذه المشاعر المختلطة: «أليس غريبًا أن نغضب من الأشخاص الذين نحبهم بهذه الطريقة؟». وكذلك الحال بالنسبة إلى مشاعر الإرادة المضادة: «يبدو أنه من السهل عليك القيام بما أطلبه منك الآن. لقد كنت تشعر قبل ساعتين بأنني أتحكم فيك».

إن التعامل مع مشكلة سلوكية من خلال استنباط العنصر الملطف يعد أمرًا ملائمًا للارتباط. إننا كآباء نبادر برؤية كل من «هذا» و «ذاك» في الطفل. ونرحب بوجود عناصر متناقضة، ونعبر عن قبولنا كل ما هو بداخل الطفل. إن هذا النوع من الانضباط يجذب أطفالنا إلينا بدلًا من دفعهم بعيدًا عنا.

إننا غالبًا ما نطلب من أطفالنا التوقف عن فعلٍ ما - وكأنه بإمكانهم إجراء جراحة نفسية على أنفسهم! إننا لا يمكننا أن نقتطع من مخزون سلوكيات الطفل المتأصل في الغريزة والعاطفة، فالدوافع تلازمنا ما دمنا أحياء. وما لم نصبح متبلدي الإحساس، فلا بد أن نشعر جميعًا بالدوافع المرتبطة بالخجل، وعدم الثقة بالنفس، والغيرة، والتملُّك، والخوف، والإحباط، والشعور بالذنب، والإرادة المضادة، والقلق، والغضب. إن الحل الذي تقدمه الطبيعة لا يتمثل في اقتطاع شيء ما، وإنما إضافة شيء إلى الوعي من شأنه كبح الدافع المعني إذا لزم الأمر.

عند التعامل مع طفل مندفع، حاول تلقين السلوك المطلوب بدلًا من المطالبة بالتحلي بالنضج

ليس كل الأطفال مستعدين للاستجابة لأساليب تشجيع وتعليم الانضباط المتطورة التي ناقشناها حتى الآن. فأولئك الذين لم تتطور لديهم بعد المشاعر المختلطة على سبيل المثال لا يقدرون على خوض تجربة انفعالية، بغض النظر عن مدى مهارتنا أو اجتهادنا.

إن الأطفال الذين يواجهون مشكلة في ضبط النفس يفتقرون أيضًا إلى القدرة على إدراك تأثير سلوكهم، أو توقع عواقبه. إنهم غير قادرين على التفكير جيدًا قبل التصرف، أو استيعاب مدى تأثير أفعالهم على الآخرين. إنهم يفتقرون إلى القدرة على أخذ وجهة نظر أي شخص آخر بعين الاعتبار مع وجهات نظرهم في آن واحد. وغالبًا ما يتم الحكم على هؤلاء الأطفال بأنهم عديمو الإحساس، وأنانيون، وغير متعاونين، وغير متحضرين، بل وحتى غير حنونين. ومع ذلك، فإن النظر إليهم بهذه الطريقة لا يعني سوى تهيئة أنفسنا للشعور بالغضب إزاء سلوكهم، والمطالبة بأمور لا يمكنهم الوفاء بها. إن الأطفال المحصورين في وعي أحادي البعد لا يمكنهم حتى تنفيذ مطالب بسيطةٍ، مثل: كن مهذبًا، أو لا تكن وقحًا، أو لا تقاطعني، أو كن لطيفًا، أو كن منصفًا، أو لا تكن لئيمًا، أو كن صبورًا، أو لا تنفعل بشدة، أو حاول أن تتدبر أمرك - أو غيرها من أوامر لا تعد ولا تحصى قد نصيح بها في وجوههم. إننا لا يمكننا أن نجعل أطفالنا أكثر نضجًا مما هم عليه، بغض النظر عن مدى إلحاحنا على أن «يتعَقَّلوا». وتوقُّع أن يقوموا بتحقيق المستحيل يعد أمرًا محبطًا، والأسوأ من ذلك أنه يشير إلى أنه ثمة خطب ما بهم. لا يمكن للأطفال تحمل مثل هذا الشعور بالخزي دون أن يصبحوا دفاعيين. ولكي نحافظ على علاقتنا مع طفل غير قادر بعد على التصرف بنضج، علينا أن نتخلص من المطالب والتوقعات غير الواقعية.

هناك طريقة أخرى للتعامل مع الأطفال غير الناضجين، فبدلًا من المطالبة بأن يُظهروا سلوكًا ناضجًا بشكل تلقائي، يمكننا تلقين السلوك المطلوب. إن اتباع توجيهاتنا لن يجعل الطفل أكثر نضجًا، ولكنه سيمكِّنه من التصرف في

المواقف الاجتماعية، التي لولا ذلك لما أصبح مستعدًّا لمواجهتها من الناحية النمائية.

إن تلقين الطفل السلوك يعني توفير الإرشادات حول ما يجب القيام به وكيفية القيام به. عندما يكون الأطفال غير قادرين بعد على الانسجام تلقائيًا، يجب أن تكون أفعالهم مُدبَّرةً، أو مُصمَّمةً على يد شخص يتبع الطفل نصائحه: «يمكنك أن تحمل الرضيع بهذه الطريقة». «دعنا نعطي ماثيو دورًا الآن». «إذا كنت تود أن تعانق جدتك، فهذا هو الوقت المناسب لذلك». «هكذا نداعب القطة». «لقد حان دور والدك ليتحدث الآن». «لقد آن الأوان لتتحدث بصوتٍ هادئ».

يتطلب التلقين الناجح من الشخص البالغ أن يجعل من نفسه مرشدًا للطفل. مرة أخرى، نبدأ بالأساسيات: نحتوي الطفل أولًا، لكي نكون قادرين على التعامل في إطار العلاقة. إن الأمر يشبه إلى حد كبير حال الإوزة الأم مع الإوزات الصغيرات، حيث يتم توجيه الأفراخ إلى الاصطفاف في طابور قبل توجيه السلوك إلى المسار المطلوب. وبمجرد أن يتبعنا الطفل، نصبح قادرين على الأخذ بزمام المبادرة. بطبيعة الحال، ستكون قدرتنا على تلقين الطفل السلوك جيدة فقط بقدر جودة ارتباط الطفل بنا، ولا يجب أن تكون بالغةً جدًّا، أو ضعيفةً جدًّا، ولكن فقط قوية بما يكفي لإثارة غرائز التقليد والمحاكاة.

لكي يكون التلقين ناجحًا، يجب إعطاء الإرشادات حول ما يجب القيام به وكيفية القيام به بطرائق يستطيع الطفل اتباعها. ولا يجدي إعطاء الإرشادات السلبية نفعًا، لأنه لا يخبر الطفل فعليًّا بما يجب عليه فعله. في الواقع، بالنسبة إلى غير الناضجين، والعالقين بشدة، فإن كل ما يتم استيعابه هو غالبًا جزئية الفعل من الأمر. فغالبًا ما يتم استبعاد كلمة «لا» من الوعي، مما يؤدي إلى السلوك المعاكس لما هو مطلوب. يجب أن نصرف تركيزنا بعيدًا عن السلوك الذي يسبب المشكلات، والتركيز على الأفعال المرغوبة. إن نمذجة السلوك الذي تريد أن يتبعه الطفل تعد أمرًا أكثر فاعلية بكثير. وكما يحدث مع المخرج الذي يعمل مع الممثلين، أو مصمم الرقصات مع الراقصين، فإن النتيجة النهائية تتشكَّل أولًا في أذهان البالغين.

إن تعليم الطفل التزلج يعتبر أحد الأمثلة على التلقين بهدف الحصول على السلوك المرغوب، السلوك الذي نميل أكثر إلى أن نكون حدسيين بشأنه. في هذه الحالة، نحن ندرك تمامًا أنه من غير المجدي أن نقول للطفل: «حافظ على توازنك». «لا تسقط». «تمهَّل». «تحكم في الانزلاق». «انعطف». ستكون هذه الأمور هي نتائج السلوك الذي تم تلقينه بشكل صحيح، ولكنها لا يمكن أن تكون ما نطلبه، على الأقل ليس قبل أن يتعلم الطفل التزلج. بدلًا من ذلك، قد نوضح للطفل كيفية تحريك زلاجاته على شكل شريحة البيتزا، ثم نمضي قدمًا في إعطاء الإرشادات التي يمكن للطفل اتباعها، مثل: «قم بحركة شريحة البيتزا»، و «تَنَحَّ إلى اليمين»، و «المس ركبتيك»، وما إلى ذلك. ستكون النتيجة النهائية هي تحقيق التوازن، والتثنيات، والمنعطفات. يبدو الأمر وكأن المتزلج المبتدئ يعرف كيفية التزلج، ولكن الطفل في الواقع يتبع الإرشادات فقط، إلى أن تترسخ الأفعال بداخله، ومن ثم تصبح وليدة الذات في نهاية المطاف. وعلى العكس من التزلج، فإننا في التفاعل البشري لا نكتسب القدرة على توليد الأفعال والاستجابات اللائقة من داخلنا إلى أن نصل إلى مرحلة النضج.

عندما يتعلق الأمر بالسلوك الاجتماعي، يجب ألا نركز على العلاقات بين الأطفال. إن عملية التوجيه هذه هي عبارة عن عملية يتبع فيها الطفلُ الشخصَ البالغ. ولا يهدف التلقين إلى تعليم الطفل المهارات الاجتماعية (وهي عملية لا طائل من ورائها عادةً)، وإنما تنسيق التفاعل الاجتماعي، حتى يتجلى النضج والتنشئة الاجتماعية الحقيقية. وهذا هو السبب في أن التركيز لا ينصب على العلاقة بين الأطفال، وإنما اتباع إرشادات الكبار.

لقد أخبرتني بالقصة التالية صديقة مقربة تضمَّنت مهام وظيفتها الإشراف على المعلمين. وقد حدث هذا الموقف عندما كانت تراقب معلمة للصف الثاني، التي كانت تحظى بسمعة مميزة بسبب أساليبها الملهمة مع الطلاب. لقد طلب منها طالب من ذوي الاحتياجات الخاصة مغادرة الصف للذهاب إلى الحمام. وعند عودته إلى الفصل، هتف قائلًا إنه استطاع فعل ذلك بنفسه هذه المرة. ولم يكن يدرك أن سرواله وملابسه الداخلية لا تزال عند كاحليه. وقد كان ما حدث بعد ذلك مذهلًا، فبدلًا من الضحك الساخر الذي

يتوقعه المرء في مثل هذا الموقف، التفت هؤلاء الطلاب للنظر إلى معلمتهم. فصفقت بإعجاب، وحذا جميع الطلاب حذوها.

لقد كان التفاعل متحضرًا للغاية، ولطيفًا بشكل مدهش. إن الشعور بضعف الآخر والتحرك لحمايته يتطلب كلًّا من النضج والبراعة. ومع ذلك، فقد كانت المعلمة هي التي تتمتع بالنضج والبراعة، وليس الطلاب. إن ما بدا في حالتهم وكأنه كفاءة اجتماعية لم يكن سوى اتباع الإرشادات ببساطة. لم يكمن الحل في العلاقات بين الطلاب، وإنما في علاقة كل طالب مع معلمه، أو معلمته. ولا ينبغي أن نترك الشخصيات غير الناضجة لتتدبر أمورها بنفسها فيما يتعلق بالتفاعل الاجتماعي.

يمكن تلقين أنواع عديدة من السلوك: الإنصاف، والمساعدة، والمشاركة، والتعاون، والحوار، واللطف، والاحترام، والتوافق. وعلى الرغم من أن حمل الأطفال على التصرف بشكل ناضج لن يجعلهم أكثر نضجًا، فإنه سيجنبهم المتاعب، إلى أن يمكن معالجة العوائق الكامنة في النضج، وإلى أن يرتقي نضجهم. إن مساعدة الأطفال على تجنب المتاعب من خلال التلقين يحمي الارتباط، ويعمل في كلا الاتجاهين: دعم ارتباطهم بنا، وارتباطنا بهم.

عندما لا تستطيع تغيير الطفل، حاول تغيير عالمه

كلما قل احتياج الأطفال إلى الانضباط، زادت فاعلية أي أسلوب من الأساليب. والعكس صحيح أيضًا: فكلما زاد احتياج الطفل إلى الانضباط، قلت فاعلية أساليب تحقيق الانضباط التي يتم تدريسها بشكل شائع.

إن ما يجعل أي طفل صعب التهذيب هو غياب العوامل التي توفر الأساس اللازم لقواعدنا الطبيعية في فرض النظام على السلوك. إنه لمن الصعب تهذيب الطفل الذي لا يمكن تحفيزه بسهولة على تأمل الأفكار والمشاعر التي من شأنها كبح جماح الدوافع المزعجة، الذي لا يمكن حمله على تكوين نيات حسنة، ولا يستطيع الشعور بعدم جدوى تصرف ما، ويفتقر إلى الدافع إلى أن يكون صالحًا في نظر أولئك الذين هم في موضع المسؤولية. عند التعامل مع هؤلاء الأطفال، تكون رغبتنا هي أن نصبح أكثر صرامة. ولسوء الحظ، فإن إضافة القوة عادةً ما تفضي إلى نتائج عكسية للأسباب نفسها التي

تجعل هذا الطفل أكثر صعوبةً في التهذيب في المقام الأول: فالإكراه يوقظ الإرادة المضادة، والعقاب يحفز على الانتقام، والصراخ يؤدي إلى التجاهل، والعقوبات تثير العدوانية، والوقت التأديبي المستقطع يؤدي إلى الانفصال العاطفي. عندما لا تفلح المحاولات العقلانية للتهذيب، فإن الحل لا يكون في التهذيب بشكل أكثر صرامة، وإنما في التهذيب بشكل مختلف.

بالنظر إلى أن الأساليب الإجبارية تأتي بنتائج عكسية في نهاية المطاف، فإننا ننتقل الآن إلى الوسيلة الأخيرة –التي لا تقل أهمية بأي حال من الأحوال– في مجموعة أساليب تحقيق الانضباط الطبيعي: فرض النظام على بيئة الطفل. القصد هنا ليس تغيير السلوك «السيئ»، أو استئصاله، وإنما تغيير التجارب الحياتية التي تفضي إلى هذا السلوك. وبدلًا من محاولة تغيير الطفل في هذه الحالات، فإنه سيكون من المثمر إذا استطعنا تغيير المواقف والظروف التي تؤدي إلى السلوك المُشكل.

يتطلب هذا النهج في التهذيب ثلاثة أمور من الوالد: (1) القدرة على الشعور بعدم جدوى أنماط التهذيب الأخرى، والتخلي عما لا يجدي نفعًا. (2) التبصر بشأن العوامل التي تؤدي إلى السلوك المزعج في بيئة الطفل. (3) بعض القدرة على تغيير هذه العوامل السلبية، أو السيطرة عليها. يتطلب الأمر من الوالد المتكيف بحق أن يشعر بعدم جدوى التركيز على السلوك، والتوقف عن التذمر مما لا يمكنه تغييره، وهو سلوك الطفل الاندفاعي في هذه الحالة. كما يتطلب الأمر من الوالد الحكيم التركيز على ما يتفاعل الطفل معه: الظروف والمواقف المحيطة بالطفل. بعبارة أخرى: يجب على الوالد أولًا أن يتخلى عن محاولة تغيير الطفل.

يكمن الحل في البصيرة. يحتاج المرء إلى تجاوز السلوك المُشكل لمعرفة ما يسبب ردة فعل الطفل هذه. إن كيفية رؤيتنا المشكلة سوف تحدد في نهاية المطاف ما الذي سنفعله حيالها. فإذا كان ما نراه هو أن الطفل عنيد، فإننا سنميل إلى التركيز بشكل محدود على محاولة إصلاح سلوكه الذي نكرهه ونستاء منه. وإذا أدركنا بدلًا من ذلك أن الطفل يعجز ببساطة عن ضبط نفسه بسبب دوافعه، كنا أكثر ميلًا إلى تغيير الوضع الذي أثار تلك الدوافع في المقام الأول. وإذا كان كل ما نراه هو أن الطفل يدخل في نوبة غضب،

أو يهاجم شخصًا ما، فمن المرجح أن نركز على العدوانية. من ناحية أخرى، إذا أدركنا أن الطفل غير قادر على التعامل مع الإحباط الذي يشعر به، فإننا سنحاول تغيير الظروف التي تصيبه بالإحباط. وإذا كان ما نراه هو أن الطفل يتحدى أوامرنا بالبقاء في غرفته في وقت النوم، فإننا قد نتعامل مع ذلك على أنه حالة من حالات عدم الطاعة. ولكن بدلًا من ذلك، إذا رأينا طفلًا صغيرًا استحوذ عليه الخوف من الانفصال أو الظلام، فإننا سنبذل ما في وسعنا لجعل وقت النوم أقل تخويفًا بالنسبة إليه. وإذا رأينا طفلًا يقاوم فعل ما يؤمر به، فإننا سنود استئصال هذا العصيان من جذوره. أما إذا رأينا بدلًا من ذلك أنه يتم استفزاز إرادة الطفل المضادة بسبب الضغط الذي يشعر به، فإننا سنقلل الضغط الذي نمارسه عليه. إننا قد نواجه طفلًا بشأن تصرفاته «السيئة» إذا رأينا ببساطة أنه يتصرف بوقاحة مع شخص بالغ لرفضه التواصل معه. أما إذا أدركنا أن خجل الطفل المتأصل فيه هو فقط ما يمنعه من التفاعل مع أشخاص لا يعرفهم، فإننا سنفعل كل ما في وسعنا لطمأنته. وإذا كنا ننظر إلى الطفل باعتباره كاذبًا، فمن المرجح أن نواجه أكاذيبه بطريقة انتقادية وصارمة، أما إذا كنا نتمتع بالحكمة لمعرفة أن الطفل يخفي الحقيقة فقط لأنه لا يشعر بالأمان تجاه محبتنا له، مما لا يسمح له بالمخاطرة بإغضابنا، أو تخييب آمالنا، فإننا سنفعل كل ما في وسعنا لاستعادة إحساسه بالأمان المطلق. لقد كتب فريدريك نيتشه: «من هو الشخص الوحيد الذي يمتلك سببًا وجيهًا للكذب هروبًا من الواقع؟ ذلك الذي يعاني بسببه».

في جميع هذه الحالات، لن يكون تدخلنا فعالًا إلا بقدر سلامة بصيرتنا. ولكن عندما تؤثر بيئة الطفل على سلوكه، ويكون هذا السلوك خارج نطاق كل من سيطرته وسيطرتنا، يكون من المنطقي أن نُحَوِّل تركيزنا من سلوك الطفل إلى ما يحفز هذا السلوك.

ولكن إذا سعينا باستمرار إلى تغيير وضع الطفل للحد من الإحباط أو الضغط الذي يعانيه، ألا نخاطر هكذا بإفساد تكيف الطفل مع عالمه؟ ألا نعزز الاعتمادية غير الصحية علينا؟ هذا صحيح تمامًا. في عملي الاستشاري مع أولياء الأمور، أقابل العديد من الآباء الحسَّاسين والعطوفين، الذين يؤثرون على تكيف أطفالهم عن غير قصد باستخدام هذا النهج إلى أقصى حد. ولا

يجب أن يتم استخدامه أبدًا لدرجة استبعاد أساليب تحقيق الانضباط الأخرى، مثل استدعاء مشاعر الخيبة عند مواجهة أشياء لا يمكن أو لا ينبغي تغييرها. ويجب ألا نغفل أبدًا عن مساعدة الطفل على الانتقال من الإحباط إلى الخيبة كلما أمكن ذلك، أو تعزيز المشاعر المختلطة، أو التماس النيات الحسنة. وإذا كنا نستطيع تشجيع التغيير الإيجابي في الطفل، فلا ينبغي أن نحاول تغيير عالم الطفل بدلًا من ذلك.

نعود بإيجاز إلى موضوع النظام، الذي تطرقت إليه في الفصل الأخير. إن الاستعانة بالعادات والروتين تعد طريقة قوية لفرض النظام على عالم الطفل، وبالتالي على سلوك الطفل. وكلما كان الطفل أقل تقبلًا لأساليب التهذيب الأخرى، زاد احتياجنا إلى الموازنة عن طريق تنظيم حياة الطفل. إن النظام يشكل بيئة الطفل بطريقة يمكن توقعها، مما يفرض بعض الطقوس والعادات الروتينية المطلوبة. لقد كان ذلك أحد الأدوار التقليدية للثقافة، ولكن مع تلاشي العادات والتقاليد، أصبحت الحياة أقل تنظيمًا، وأكثر فوضوية. وفي مثل هذا المناخ، يصبح الأطفال غير الناضجين مضطربين من الناحية النمائية. ويستجيب الآباء لذلك بأن يصبحوا أكثر تسلطًا وإكراهًا. إنه مزيج كارثي.

لا بد من وضع أنظمة للوجبات وأوقات النوم، ولأوقات الانفصال ولم الشمل، وللنظافة الشخصية ووضع الأشياء في مكانها، وللتفاعل والقرب الأسري، وللتَّرَيُّض والواجبات المدرسية، وللعب النشوئي المُوَجَّه ذاتيًا والعزلة الإبداعية. إن الأنظمة الجيدة لا تلفت الانتباه إليها أو إلى هدفها الأساسي، كما إنها تحد من التسلط والإكراه. فالأنظمة الجيدة ليست مجرد قيود، ولكنها تتسم بالإبداع. على سبيل المثال، هناك روتين مهم للغاية، وهو أن يكون لديك وقت ومكان محدد للقراءة مع الطفل. والغرض الأساسي من هذا النظام هو خلق فرصة للقرب والتواصل الفردي، وكذلك إشراك الطفل في الاطلاع على الأدب الراقي دون استخدام الإكراه.

تزداد أهمية النظام كلما كان الطفل عالقًا. إن الأنظمة تعطي شعورًا بالألفة، وهو شيء يتوق إليه بالفطرة الأطفال العالقون. إنها تبني عادات

جيدة. والأهم من ذلك أن الأنظمة تقلل من الحاجة إلى التسلط والإكراه من جانب البالغين، مما يمنع الصراع غير الضروري.

لقد تجنبنا في هذا الفصل الأساليب التي من شأنها أن تدفع الطفل بعيدًا عنا. ربما يكون الآباء في الماضي قد أفلتوا بمثل هذه الأساليب، ولكن إن كانوا قد فعلوا، فذلك فقط لأنهم لم يكن لديهم ما يدعو للخوف من الارتباطات المنافسة التي يواجهها آباء اليوم؛ لم يكن هناك توجه نحو الأقران يجذب الأطفال بعيدًا عن دائرة الأسرة. اليوم، ليس أمامنا أي خيار منطقي سوى اتباع نظام يحافظ على ارتباطنا بالطفل ويعزز النضج. ولا يمكن تحقيق النضج –الحل الأمثل لمشكلات الانضباط– بين عشية وضحاها، ولكن صبرنا سيلقى خير الجزاء. وحتى على المدى القصير، فمن المؤكد أننا كآباء لدينا الكثير مما يمكننا التعامل به دون استفزاز أطفالنا.

الجزء الخامس

منع التوجه نحو الأقران

16

لا تشجع على المنافسة

ينبغي أن نتوقف عن إعداد أقران أطفالنا ليحلوا محلنا - مع الأخذ في الاعتبار بالطبع أن العدو ليس أقران أطفالنا، وإنما التوجه نحو الأقران.

لقد خُدِعنا بالتوجه نحو الأقران تمامًا، كما خُدِعَ شعب طروادة القديم بحصان طروادة. فعندما تصوَّر الطرواديون أن هذا الحصان الخشبي الكبير هو هدية من الآلهة، أحضروه إلى داخل أسوار مدينتهم، ومهدوا الطريق أمام هلاكهم. وبالطريقة نفسها، ينظر الآباء والمعلمون اليوم إلى التفاعل المبكر والواسع بين الأقران نظرة إيجابية. إننا نشجعه، دون أن ندرك المخاطر التي تنشأ عندما يحدث مثل هذا التفاعل دون إشراف البالغين وتدخلهم. ونعجز عن التمييز بين العلاقات مع الأقران التي تشكلت تحت التوجيه الواعي والمعتدل للبالغين، والعلاقات مع الأقران التي تحدث في ظل وجود فجوات في الارتباط. إننا نشجع التوجه نحو الأقران على تدمير ارتباطات أطفالنا بنا عن غير قصد. ولو كان بإمكان الطرواديين رؤية أعدائهم اليونانيين يتربصون داخل ذلك الحصان الخادع لما انخدعوا. وتلك هي مشكلتنا اليوم: يُنظَر إلى حصان طروادة المتمثل في التوجه نحو الأقران على أنه هدية لا تهديد.

إن فشلنا في التنبؤ بالعواقب السيئة أمر مفهوم، لأن الثمار المبكرة جذابة ومغرية. عند الوهلة الأولى، يبدو الأطفال المتوجهون نحو الأقران أكثر استقلالية، وأقل تعلُّقًا، وأكثر قابليةً للتعلم، وأكثر اجتماعيةً وتطورًا. ولا عجب في انخداعنا، نظرًا إلى عدم إدراكنا الآليات التي ينطوي عليها الأمر، والتكاليف التي سوف نتكبدها على المدى البعيد. إذن كيف نتجنب الوقوع في الفخ؟

***

لا تنخدع بالثمار الأولى للتوجه نحو الأقران

بالنسبة إلى العديد من البالغين، تبدو قدرة الأطفال على التسكع معًا والترفيه بعضهم عن بعض وكأنها تحرر. ويبدو أن الأقران هم أفضل جلساء للأطفال. ولا سيما أن الآباء لم يعد بإمكانهم الاعتماد على الأجداد، والعائلة الممتدة، والمجتمع من حولنا للمشاركة في مهام رعاية الأطفال، فقد يبدو الأقران وكأنهم هبة من الله، مما يمنح الآباء والمعلمين المنهكين والمرهقين قسطًا من الراحة. كم منا لم يشعر بالامتنان عندما حَرَّرتنا تلك الدعوة من صديق طفلنا لقضاء يوم من الاسترخاء في عطلة نهاية الأسبوع؟ أو منحتنا متسعًا من الوقت والحرية اللازمين للعمل على مشاريع ضرورية؟ يبدو الأطفال سعداء، ويخفُّ عبء العمل عنًّا. ولا يسعنا أن نتخيل مقدار الوقت، والطاقة، والكلفة، والتربية التصحيحية الذي ستقتضيه هذه التجارب في السنوات القادمة إذا ترسَّخ التوجه نحو الأقران.

يبدو الأطفال المتوجهون نحو الأقران وكأنهم أقل احتياجًا، وأكثر نضجًا بالمقارنة مع الأطفال المتوجهين نحو البالغين. فلم يعد الأطفال المتوجهون نحو الأقران يضغطون علينا لفعل الأشياء معًا، والانخراط في حياتهم، والاستماع إلى مخاوفهم، ومساعدتهم في مشكلاتهم. وفي ظل الأهمية الكبيرة التي نُعَلِّقُها على الاستقلالية في مجتمعنا (استقلاليتنا واستقلالية أطفالنا)، يبدو التوجه نحو الأقران أمرًا جيدًا. إننا ننسى أن النضج يستغرق وقتًا. وفي ثقافتنا اللاحقة للثورة الصناعية، أصبحنا على عجلة من أمرنا في كل شيء.

وربما لم نكن لننخدع بالانطباعات الزائفة لو لم نكن ننتظر نضج أطفالنا بفارغ الصبر إلى هذا الحد.

إن هؤلاء الأطفال قادرون على التخلي عنًا قبل الأوان، لا لشيء إلا لأنهم يتمسكون بعضهم ببعض. ومن المرجح أن يصبحوا عالقين في حالة من عدم النضج النفسي على المدى الطويل، فهم لا يميلون تمامًا إلى التفكير بأنفسهم، ورسم مسارهم الخاص، واتخاذ قراراتهم الشخصية، واكتشاف معانيهم الخاصة، وأن يكونوا أشخاصًا مستقلين.

ومما يساعد في دفعنا إلى الشعور بالرضا عن النفس، حقيقة أن الأطفال المتوجهين نحو الأقران يميلون أيضًا إلى أن يكونوا أكثر قابليةً للتعلم، على الأقل في البداية. لقد تمت مناقشة ثمن هذا الانطباع الخاطئ وغياب القابلية للتعلم في الفصل الثالث عشر. يمكن للتوجه نحو الأقران أن يجعل الطفل أكثر استعدادًا للمدرسة مؤقتًا، وذلك بسبب آثار الانفصال على التعلم. إن المدرسة تُخرِجُ الأطفال من المنزل، وتفصل الأطفال المتوجهين نحو الآباء عن البالغين الذين يرتبطون بهم. وبالنسبة إلى هؤلاء الأطفال، سيكون القلق من الانفصال شديدًا، وسيتسم الشعور بالارتباك في المدرسة بالحدة. وكثير منا قادرون على تذكر أيامنا الأولى عند التحاقنا بمدرسة جديدة: الانقباض في المعدة، والشعور بالتيهان والارتباك، والبحث بيأس عن شخص أو شيء مألوف. بالنسبة إلى الأطفال الصغار، غالبًا ما يكون هذا الارتباك غير محتمل. كما إن القلق المرتفع الذي يثيره هذا الارتباك يؤثر على التعلم. إن القلق يثبط من أدائنا، ويقلل من معدل ذكائنا الوظيفي. كما إن الشعور بالذعر يؤثر على قدرتنا على التركيز والتذكر. ويُصَعِّب القلق استيعاب الإرشادات، واتباع التوجيهات. لا يستطيع الطفل ببساطة أن يتعلم بشكل جيد بينما يتملكه الشعور بالضياع والخوف.

إن الأطفال الذين يكونون متوجهين بالفعل نحو الأقران عند التحاقهم بالمدرسة لا يواجهون مثل هذه المشكلة. في أول أيام السنة الدراسية في رياض الأطفال، سيبدو الطفل المتوجه نحو الأقران أكثر ذكاءً، وثقةً، وقدرةً على الاستفادة من التجربة الدراسية. وعلى النقيض من ذلك، سيبدو الطفل المتوجه نحو الوالدين، الذي يعاني قلق الانفصال، أقل مهارةً وكفاءةً – على

الأقل حتى يتمكن من تكوين ارتباط جيد مع المعلم. يتمتع الأطفال المتوجهون نحو الأقران بجميع المزايا في المواقف التي يغيب فيها الكبار ويكثر فيها الأقران. ونظرًا إلى كثرة الأقران، وسهولة العثور عليهم، لا يضطر الطفل أبدًا إلى الشعور بالضياع، أو عدم وجود إرشادات ليتبعها. وهكذا يبدو التوجه نحو الأقران على المدى القصير وكأنه منحة إلهية. ومما لا شك فيه أن هذه الدينامية هي التي تستفيد منها البحوث عند استنباط فوائد التعليم المبكر.

بطبيعة الحال، ستعمل الآثار السلبية للتوجه نحو الأقران تدريجيًّا على المدى الطويل على إلغاء الآثار الإيجابية على التعلم، التي تتمثل في تقليل حدة القلق والارتباك. وبناءً عليه، تتوالى الأدلة البحثية التي تشير إلى أن المزايا المبكرة للتعليم قبل المدرسي ليست مستدامة بمرور الوقت.[1] إن الأطفال المتوجهين نحو الأقران يذهبون إلى المدرسة ليكونوا مع أصدقائهم، وليس للتعلم. وإذا كان هؤلاء الأصدقاء هم أيضًا غير مهتمين بالتعلم، تَدَهوَرَ الأداء الأكاديمي. وعندما يذهب الأطفال إلى المدرسة ليكونوا بعضهم مع بعض، فإنهم يكونون مهيئين فقط لتعلم القدر الكافي الذي يسمح لهم بعدم التميز، والبقاء مع من هم في مثل سنهم. وبخلاف ذلك، يكون التعلم غير مهم، بل وقد يكون عائقًا أمام العلاقات مع الأقران.

يعود القلق أيضًا لمطاردة الطلاب المتوجهين نحو الأقران. ونظرًا إلى أن الارتباطات بالأقران غير مستقرة بطبيعتها، فغالبًا ما يصبح القلق حالةً مزمنة. إن الأطفال المتوجهين نحو الأقران يُعدون من بين أكثر الأطفال شعورًا بالتوتر، والقلق الدائم، والخوف المستمر. ويستطيع المرء عندما يكون بالقرب من مجموعات من الأطفال المتوجهين نحو الأقران أن يشعر تقريبًا بفرط النشاط في الهواء. وإذ يتبلد إحساس الأطفال المتوجهين نحو الأقران بمشاعر القلق الهشة، فإنهم لا تتبقى لديهم سوى مظاهرها الفسيولوجية: الانفعال، والتململ. وسواء كان الشعور بالخوف شعورًا واعيًا أم لا، فإنه يعوق التعلم. إن التوجه نحو الأقران قد يؤدي في البداية إلى تحسين الأداء، ولكنه يدمر التحصيل الأكاديمي في نهاية المطاف. ومع تزايد ارتباط الطفل بأقرانه، ستتسع الفجوة بين ذكائه وإنجازه. وهذه الظروف نفسها التي عادةً ما تؤدي إلى التفوق في البداية، ستؤدي إلى تعثر هؤلاء الأطفال في النهاية.

من المثير للاهتمام أن الطلاب الذين يتعلمون في المنزل قد أصبحوا الآن المتقدمين المفضَّلين لدى بعض الجامعات الشهيرة.[2] ووفقًا لجون رايدر، المسؤول عن القبول في جامعة ستانفورد بكاليفورنيا، فإنهم متقدمون ملائمون لأن «الطلاب الذي يتعلمون في المنزل يتمتعون ببعض المهارات -الدافعية، والفضول، والقدرة على تحمل المسؤولية عن تعليمهم- التي لا تشجع عليها المدارس الثانوية بشكل جيد».[3] وبعبارة أخرى: قد يحظى الأطفال في الحضانات بأفضل بداية، ولكن الأطفال الذين يتعلمون في المنزل يحظون بأفضل نهاية. وذلك لأننا تجاهلنا في نظامنا التعليمي الدور الحاسم للارتباط.

إن الحضانة ليست هي المشكلة الأساسية، والتعليم في المنزل ليس هو الحل الأمثل. العامل الأهم هو دينامية الارتباط. وتعريض الأطفال لتجارب تجعل الطفل يعتمد على أقرانه هو أمر لا يجدي نفعًا، فنحن في حاجة إلى تأسيس تجربة الأطفال في التعليم على الارتباطات بالبالغين.

***

الخجل ليس مشكلة كبيرة كما نعتقد

إننا عادةً ما نفكر في الخجل باعتباره صفة سلبية، شيئًا نريد أن يتغلب الأطفال عليه. ومع ذلك، فإن هذا العائق الواضح يؤدي دورًا مفيدًا من الناحية النمائية. يعتبر الخجل قوة دافعة إلى الارتباط، ويهدف إلى انغلاق الطفل اجتماعيًا، مما يثبط أي تفاعل مع أولئك الذين هم خارج رابطة علاقاته الآمنة.

إن الطفل الخجول يشعر بالخجل أمام الأشخاص الذين لا يرتبط بهم. وليس من المتوقع إلا أن يكون الأطفال المتوجهون نحو البالغين ساذجين اجتماعيًا وغريبي الأطوار حول أقرانهم في أغلب الأحيان، على الأقل في الصفوف الأولى. وعلى النقيض من ذلك، يبدو الأطفال المتوجهون نحو الأقران ناجحين اجتماعيًا، وهذا هو موطن قوتهم. لا بد أن يعرفوا ما هو رائع وما هو غير رائع، وماذا يرتدون، وكيف يتحدثون، فهم يستخدمون معظم

ذكائهم في فهم إشارات بعضهم حول الطريقة التي يجب أن يكونوا عليها ويتصرفوا بها.

يُعزَى قدر كبير من الميل الاجتماعي الذي يتسم به الأطفال المتوجهون نحو الأقران إلى فقدان الخجل. فعندما يحل الأقران محل البالغين، ينعكس الخجل، ويصبح الطفل خجولًا مع البالغين، إلا إنه يكون اجتماعيًّا مع الأقران. إننا نرى الطفل حول أقرانه يخرج من قوقعته، وينطلق لسانه، ويقدم نفسه بثقة أكبر. إن هذا التغيير في الشخصية يثير الإعجاب، ونحن نميل إلى نسبة الفضل إلى التفاعل مع الأقران. وبالطبع نقول لأنفسنا: إن مثل هذه النتيجة المرغوبة للغاية لا يمكن أن تنبع من شيء إشكالي! ومع ذلك، فإن الاندماج الاجتماعي الصحيح، والكفاءة الاجتماعية الحقيقية -الاهتمام بالآخرين، ومراعاة مشاعر الناس الذين لا يعرفونهم- لن يكونا من سمات الطفل المتوجه نحو الأقران على المدى الطويل.

إن الأطفال المتوجهين نحو البالغين أبطأ بكثير في فقدانهم خجلهم أمام أقرانهم. والأمر الذي يجب أن يقلل من هذا الخجل في نهاية المطاف ليس هو التوجه نحو الأقران، وإنما النضج النفسي، الذي يُوَلِّد إحساسًا قويًّا بالذات، والقدرة على استيعاب المشاعر المختلطة. إن أفضل طريقة للتعامل مع الخجل هي توطيد العلاقات الدافئة مع البالغين الذين يعتنون بالطفل ويعلمونه. ومع أخذ الارتباط بعين الاعتبار، لا يكون الخجل هو ما يجب أن نقلق بشأنه، وإنما غياب الخجل لدى العديد من أطفال اليوم.

***

الضغط الناتج عن مراكز الرعاية النهارية في ظل غياب الارتباط

توضح الحالة الراهنة لمراكز الرعاية النهارية كيف أننا نشجع على المنافسة عن غير قصد. يقضي الملايين من الأطفال في جميع أنحاء العالم اليوم بعض ساعات يقظتهم -إن لم يكن معظمها- في مؤسسات الرعاية

خارج المنزل. ووفقًا للإحصاءات الأخيرة، تعود غالبية الأمهات العاملات في الولايات المتحدة إلى العمل قبل بلوغ الطفل عامه الأول.[4] إن مراكز الرعاية النهارية، وخصوصًا بالطريقة التي تتم إدارتها بها في أمريكا، تعد أمرًا محفوفًا بالمخاطر. وكما أظهرت الدراسات الحديثة، يجد الأطفال أن مراكز الرعاية النهارية ضاغطة. ويزيد مستوى هرمون التوتر «الكورتيزول» عند الأطفال في مراكز الرعاية النهارية مقارنةً بالمنزل.[5] وتزداد الآثار المجهدة لمراكز الرعاية النهارية مع شعور الطفل بالخجل. وكما رأينا، فإن الخجل يعبر عن الافتقار إلى التواصل العاطفي. لن يكون الطفل خجولًا إذا شعر وكأنه في المنزل مع مقدم الرعاية المسؤول. وفي غياب التواصل الدافئ، يواجه الطفل ضغوطًا مضاعفة، تتمثل في الانفصال عن الوالدين، وفرض أشخاص عليه ممن تدفعه غريزيته الطبيعية إلى تجنبهم.

لقد أظهر جانب آخر من الأبحاث أنه كلما زاد الوقت الذي يقضيه الأطفال في الحضانة بعضهم مع بعض، زاد تأثرهم بأقرانهم.[6] ويمكن قياس هذا التأثير خلال فترة لا تتجاوز عدة أشهر. ويعتبر الأولاد أكثر عرضةً للتوجه نحو الأقران من البنات، وهو استنتاج يتسق مع الملاحظة التي مفادها أن ارتباطات الأولاد بآبائهم غالبا ما تكون أقل تطورًا. ولذا فهم أكثر ميلًا إلى استبدال أقرانهم بوالديهم. والأهم من ذلك هو الاستنتاج الذي يقول إنه كلما زاد ارتباط الأولاد بأقرانهم، زادت مقاومتهم للتواصل مع البالغين المسؤولين.

إن بذور التوجه نحو الأقران لا تُزرع في مراكز الرعاية النهارية والحضانات فحسب، بل إن الثمرة تظهر بالفعل بحلول السنة الخامسة من العمر. لقد تتبعت إحدى أكبر الدراسات التي أُجريَت على هذا الموضوع مسيرة أكثر من ألف طفل منذ لحظة ولادتهم، وحتى مرحلة الروضة.[7] وكلما زاد الوقت الذي يقضيه الطفل في مراكز الرعاية النهارية، زادت احتمالية إظهاره سلوك العدوانية والتمرد، سواء في المنزل، أو في الحضانة. وكما ذكرنا في الفصول السابقة، فإن العدوانية والتمرد هما إرث التوجه نحو الأقران.

كلما زاد عدد الأطفال في مراكز الرعاية النهارية، أظهر هؤلاء الأطفال الإرادة المضادة، كما يتضح في الجدال، والتسلل، والرد بوقاحة على العاملين، وعدم تقبل التوجيهات. وقد كان إحباطهم الشديد يظهر في نوبات الغضب،

والشجار، والضرب، وإساءة معاملة الآخرين، وتخريب أغراضهم الشخصية. وكان سلوك الارتباط لدى هؤلاء الأطفال أيضًا يتسم بكونه أكثر استماتةً، حيث كانوا يتباهون، ويتفاخرون، ويتحدثون بلا انقطاع، ويسعون إلى جذب الانتباه، بالضبط كما نتوقع عند فشل الارتباطات.

إن التوجه نحو الأقران ليس هو السبب الوحيد للارتباطات المضطربة، ولكنه السبب الرئيسي في عالم أطفالنا. وإذا استعرضنا الأمر من منظور الارتباط، فلا يمكن أن تكون نتائج المسارات البحثية الثلاثة أوضح مما هي عليه في الإشارة إلى خطورة أن يصبح أطفالنا متوجهين نحو الأقران في كل من مراكز الرعاية اليومية والحضانات لدينا. إن الحل الأوضح هو إبقاؤهم في المنزل، خصوصًا أولئك الأكثر خجلًا وحساسية، حتى يصبحوا ناضجين بما يكفي للتعامل مع الضغوط الناتجة عن الانفصال عن الوالدين. وأمام هذه النتائج البحثية، نصح عدد من الخبراء –بمن فيهم ستانلي جرينسبان[8]، وإليانور ماكوبي[9]– الآباء بالقيام بذلك فقط إذا كانت لديهم الموارد المالية اللازمة لذلك. وفي حين أن هذه النصيحة تعد منطقية بالنظر إلى المعطيات، فإنها يجانبها الصواب. لا يحتاج الأطفال إلى أن يكونوا في المنزل، ولكنهم بالتأكيد يحتاجون إلى الشعور وكأنهم في المنزل مع أولئك المسؤولين عنهم. إن مسألة المنزل تتعلق بالارتباط، والارتباط هو أمر يمكننا بناؤه. وصلة القرابة ليست هي المشكلة في مراكز رعاية الأطفال، أما الترابط، فهو المشكلة بالتأكيد.

إن خجل الطفل في بيئة معينة يجب أن يكون علامة لنا على أن السياق الذي يكون فيه ذلك الطفل مستعدًّا لتلقي الرعاية ليس مواتيًا بعد. ونحن نخلق هذا السياق من خلال التواصل معه. إنني أجد هذا الأمر صحيحًا، حتى مع أحفادي. يكمن التحدي الذي أواجهه في احتوائهم أولًا. وبمجرد أن أفعل ذلك، يذوب الخجل، ويصبحون متقبلين لتربيتي إياهم بصفتي جدهم.

لا يجب أن تكون مراكز الرعاية النهارية والحضانات أمرًا محفوفًا بالمخاطر، ولكن للحد من المخاطر، يجب أن نكون على وعي بالارتباط. ينبغي أن يكون البالغون المعنيون على استعداد لخلق سياق من الترابط مع أطفالنا. وفي هذه الأثناء، ثمة أشياء يمكننا القيام بها كآباء، سواء في اختيار

البيئات التي ينخرط فيها أطفالنا، أو تعزيز الروابط بين أطفالنا والبالغين المسؤولين عنهم كلما أمكن ذلك. نعم، قد يكون أحد الحلول هو إبقاء الأطفال في المنزل إلى أن يتمكنوا من الحفاظ على القرب منا عاطفيًّا حتى عندما يكونون بعيدين عنا جسديًّا - أو حتى يصبحوا ناضجين بما يكفي للتصرف بشكل مستقل بعيدًا عن الارتباطات. والحل الآخر هو أن يصبحوا مرتبطين بمقدمي الرعاية والمعلمين. وذلك الأمر سيحمي أطفالنا (وهؤلاء البالغين) من التعرض للتوتر، وسيحول دون استبدال غيرنا بنا قبل الأوان. سيرد المزيد عن كيفية القيام بذلك في الفصل التالي.

***

التوافق مع الآخرين لا ينبع من التواصل مع الأقران

يتذكر أحد الآباء قائلًا: «عندما كان ابني يبلغ من العمر ثلاث سنوات، شعرت أنه من المهم جدًّا إلحاقه بمجموعات وظروف حيث يمكن أن يكون مع أطفال آخرين. وكلما كان أقل نجاحًا في كسب الأصدقاء، كنت أصبح أكثر سخطًا، لتشجيع تفاعلاته مع الأطفال الآخرين، وتهيئة مواقف تتيح له الفرصة للعب مع أقرانه، وتكوين علاقات معهم». يشعر العديد من الآباء بدافع مماثل لإدخال أطفالهم في عالم الأقران مبكرًا. وحتى أولئك الآباء الذين ترشدهم غرائزهم إلى التمسك بأطفالهم فترة أطول قبل تعريضهم لتأثيرات الأقران، قد يشعرون أنهم تحت ضغط هائل من العائلة، أو الأصدقاء، أو الاختصاصيين التربويين، لتخفيف هيمنتهم على أطفالهم.

هناك اعتقاد شبه سائد بأن الأطفال يجب أن يتعرضوا للتفاعل مع أقرانهم في وقت مبكر، حتى يتعلموا الانسجام بعضهم مع بعض، والاندماج في محيطهم. ويبحث العديد من الآباء عن مجموعات لعب من أجل أطفالهم الدارجين. وبحلول سن ما قبل المدرسة، غالبًا ما يصبح ترتيب التواصل مع الأقران لأطفالنا هاجسًا. تجسد العبارةُ التالية التعليقات التي سمعتها من العديد من أولياء أمور الأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة: «إن تعلم المرء كيف يكون صديقًا هو أهم من أي شيء آخر. ومن المهم تعلم ذلك قبل بدء

الدارسة». وأكد ذلك والد طفل يبلغ من العمر أربع سنوات، قائلًا: «إننا كآباء نحتاج إلى إجبار أطفالنا على التواصل الاجتماعي. ومن دون الحضانة، لن يختلط ابننا مع الأطفال الآخرين بما يكفي لمعرفة كيفية التعايش مع الناس». وأخبرني أحد معلمي رياض الأطفال أن «الأساس الجوهري الذي تقوم عليه الحضانات هو مساعدة الأطفال على تعلم المهارات الاجتماعية. وإذا لم يحظَ الأطفال بأصدقاء عند بلوغهم مرحلة الحضانة، واجهوا شتى أنواع المشكلات لاحقًا، ليس فقط من الناحية الاجتماعية، ولكن من ناحية احترام الذات، والتعلم». وكلما كان الأطفال أقل قدرةً على الانسجام والاندماج، زادت احتمالية التوصية بالتفاعل مع أقرانهم لحل المشكلة. ومن الشائع في مجتمعنا أن يبذل الآباء والمعلمون أقصى جهدهم لتمكين أطفالهم وطلابهم من التواصل بعضهم مع بعض.

يسود الاعتقاد بأن التواصل الاجتماعي -قضاء الأطفال الوقت بعضهم مع بعض- يؤدي إلى الاندماج في المجتمع: القدرة على التعامل اللبق والناضج مع غيرهم من البشر. ولا يوجد أي دليل يؤيد هذا الافتراض، على الرغم من شعبيته. فإذا كان التواصل الاجتماعي مع الأقران يؤدي إلى التوافق، وإلى أن يصبحوا أعضاء مسؤولين في المجتمع، فمن المفترض أنه كلما زاد الوقت الذي يقضيه الطفل مع أقرانه، كان التعاطف أفضل. ولكن في واقع الأمر، كلما زاد الوقت الذي يقضيه الأطفال بعضهم مع بعض، قلت احتمالية انسجامهم مع الآخرين، واندماجهم في المجتمع المدني. ولو أخذنا بفرضية الاندماج في المجتمع هذه في أكثر أشكالها تطرفًا (الأطفال الأيتام في الملاجئ، وأطفال الشوارع، والأطفال المتورطين في العصابات)، اتضح الخلل في التفكير. لو كان التواصل الاجتماعي هو مفتاح الاندماج في المجتمع، لأصبح أعضاء العصابات وأطفال الشوارع مواطنين صالحين.

قارن الدكتور يوري برونفنبرينر وفريقه البحثي بجامعة كورنيل في مدينة إيثاكا بنيويورك بين الأطفال الذين انجذبوا إلى أقرانهم في وقت فراغهم، والأطفال الذين انجذبوا إلى والديهم. ومن بين هؤلاء الطلاب في الصف السادس، أظهر الأطفال الذين يفضلون قضاء الوقت مع والديهم

المزيد من سمات التواصل الاجتماعي الإيجابي. أما الأطفال الذين يقضون معظم الوقت بعضهم مع بعض، فهم الأكثر عرضةً للوقوع في المشكلات.[10]

إن هذه النتائج لا تثير الدهشة. وبوسعنا أن نتوقع حدوثها بمجرد أن نفهم النظام الطبيعي للتطور الإنساني. إن الارتباط والتفرُّد ضروريان للنضج، والنضج ضروري للاندماج الحقيقي في المجتمع. والاندماج الاجتماعي يحمل معنًى أكبر بكثير من مجرد الاندماج أو الانسجام، فالاندماج الاجتماعي الحقيقي لا يتطلب الاختلاط بالآخرين فحسب، بل يتطلب أيضًا الاختلاط دون أن يفقد المرء تَفَرُّدَه أو هويته.

مما لا شك فيه أن التواصل الاجتماعي يؤدي دورًا في جعل الطفل قادرًا على الاندماج الاجتماعي الحقيقي، ولكنه يعتبر مجرد لمسة نهائية. يجب أن يكون الطفل أولًا وقبل أي شيء قادرًا على التمسك بشخصيته عند التفاعل مع الآخرين، وأن ينظر إلى الآخرين على أنهم أشخاص مستقلين. وهذه ليست بالمهمة السهلة، حتى بالنسبة إلى البالغين. عندما يعرف الطفل ما يريد، ويقدِّر اختلاف رغبات الآخرين، فعندئذٍ –وعندئذٍ فقط– يكون مستعدًّا للتمسك بإحساسه بالذات، مع احترام إحساس الآخرين بذواتهم. وبمجرد بلوغ هذه المرحلة التطورية، سيعمل التفاعل الاجتماعي على صقل شخصية الطفل، وكذلك صقل مهاراته في بناء العلاقات.

يتمثل التحدي الحقيقي في مساعدة الأطفال على النمو إلى الحد الذي يمكنهم فيه الاستفادة من تجاربهم الاجتماعية. ولا يلزم سوى القليل جدًّا من التواصل الاجتماعي لصقل الجوهر الخالص بمجرد أن يكون في حالة الاستعداد. إن هذا الجوهر الخالص هو الأمر الثمين والنادر - تلك الشخصية القوية بما فيه الكفاية لتصمد في وجه الضغوط الهائلة للتفاعل مع الأقران. والاختلاط العشوائي والمبكر، دون مشاركة الكبار بصفتهم الشخصيات الرئيسية التي يرتبط بها الطفل، سيؤدي إما إلى الصراع، حيث يسعى كل طفل إلى الهيمنة على الآخر، أو يضطر إلى مقاومة الهيمنة، وإما إلى الاستنساخ، حيث يقمع الطفل إحساسه بذاته من أجل نيل قبول الآخرين إياه. يقول روبرت، وهو أب لولدين، وقد صارا كلاهما مراهقين الآن: «لقد اعتقدنا أن اللعب مع أطفال آخرين كان مهمًّا للغاية لطفلينا عندما كانا صغيرين

جدًّا. بالنسبة إلى فرانكي، ابننا الأكبر، فقد دفع رفقاءه في اللعب إلى الجنون بسبب مَطَالِبه بأن تسير كل لعبة على طريقته. وكانت تعتريه نوبات غضب إن لم يتبعوا خطته. وفي النهاية، بات من الصعب ترتيب مَوَاعِد اللعب له. أما ابننا الأصغر، ريكي، فقد أصبح تابعًا. لقد كان يقلد كل شيء يقوم به الأطفال الآخرون. إنه لم يتعلم قط كيف يكون قائدًا، أو حتى أن يلعب بمفرده».

أستطيع أن أتخيل أن العديد من القراء يتساءلون في هذه اللحظة: «ولكن ماذا عن أهمية تعلم كيفية التوافق؟». إنني لا أشكك في إيجابيات التوافق، ولكن ما أقوله هو أننا إذا جعلناه هو الأولوية، فإننا بذلك نضع العربة أمام الحصان. وبوضع التوافق على رأس الخطة المُعَدَّة للأشخاص غير الناضجين، فإننا ندفعهم حقًّا إلى أنماط الطاعة، والتقليد، والخضوع. إذا كانت احتياجات الارتباط عند الطفل قوية، ومتوجهة نحو الأقران، فإنه قد يقلل من شأنه من أجل إنجاح العلاقات. وسيفقد شخصيته. إن الكثيرين من بيننا يواجهون خطرًا مماثلًا، حتى البالغين، عندما نستميت بشدة لإنجاح العلاقة مع شخص آخر: نسيان أنفسنا مع الآخرين، والرضوخ بسرعة كبيرة، والابتعاد عن الخلاف، وتجنب أي شجار. ويواجه الأطفال صعوبة أكبر في التمسك بشخصيتهم عند التفاعل مع الآخرين. إن ما يتم الإشادة به على أنه توافق في حالة الأطفال، سوف يطلق عليه في حياة البالغين: التضحية بالذات، أو التقليل من قدر النفس، أو عدم الصدق مع النفس.

إننا لو كنا متسقين حقًّا مع المخطط النمائي، لما شعرنا بالقلق إزاء توافق الأطفال بعضهم مع بعض. كما كنا سنولي قدرة الأطفال على التمسك بشخصيتهم عند التفاعل مع الآخرين أهميةً أكبر. إن كل التواصل الاجتماعي في العالم لا يمكنه أن يصل بالطفل إلى هذه المرحلة. ولا يمكن أن تتحقق الاستقلالية الحقيقية والتفرُّد، وهما الصفتان اللتان نصبو إليهما جميعًا كآباء من أجل أطفالنا، إلا بإقامة علاقة قابلة للاستمرار مع البالغين القائمين بالرعاية. وفي ذلك السياق فقط يمكن أن تتجلى الشخصية مكتملة النمو، أي الإنسان القادر على احترام نفسه وتقدير شخصية الآخرين.

***

ليس الأصدقاء هم من يحتاج إليهم الأطفال

ولكن أليست لدى الأطفال احتياجات اجتماعية؟ إن أحد أكثر المخاوف والأسئلة إلحاحًا عند الوالدين والمعلمين الذين أقابلهم يتعلق بحاجة الطفل المتصورة إلى الأصدقاء. ربما تكون عبارة «لا بد أن يكون للأطفال أصدقاء» هي الحجة الأكثر شيوعًا التي أسمعها دفاعًا عن وضع الأطفال الصغار في مواقف مع الأقران.

إن مفهوم الصداقة في حد ذاته يفقد معناه عندما ينطبق على الأشخاص غير الناضجين. إننا كأشخاص بالغين لن نعتبر الشخص صديقًا حقيقيًا ما لم يعاملنا باهتمام، ويقدِّر حدودنا، ويحترمنا كأفراد. إن الصديق الحقيقي يدعم تطورنا وازدهارنا، بغض النظر عن كيفية تأثير ذلك على العلاقة. ويقوم مفهوم الصداقة هذا على أساس متين من التفرُّد، والاحترام المتبادل. وبناءً عليه، فإن الصداقة الحقيقية غير ممكنة ما لم يتم إدراك مستوى معين من النضج، وما لم تتحقق القدرة على الاندماج الاجتماعي. والعديد من الأطفال لا يقدرون على تكوين مثل هذه الصداقات ولو من بعيد.

ما لم يكن الأطفال قادرين على تكوين صداقة حقيقية، فإنهم لا يحتاجون حقًّا إلى الأصدقاء، وإنما يحتاجون فقط إلى الارتباطات. والارتباطات الوحيدة التي يحتاج إليها الطفل هي تلك التي تكون مع الأسرة، وأولئك الذين يتقاسمون المسؤولية عن الطفل. إن ما يحتاج إليه الطفل حقًّا هو أن يصبح قادرًا على تكوين صداقة حقيقية، وتلك ثمرة النضج، التي تنمو فقط في علاقة قابلة للاستمرار مع شخصٍ بالغٍ عطوف. إننا نقضي وقتنا بحكمة أكبر عند استغلاله في تعزيز العلاقات مع البالغين في حياة طفلنا بدلًا من القلق بشأن علاقاتهم بعضهم مع بعض.

بطبيعة الحال، من الـمُحَقَّق أنه عندما يستبدل الطفل أقرانه بالوالدين، يصبح الأصدقاء أهم من العائلة. إننا نعتبر أن هذا ينبغي أن يكون أمرًا عاديًا، ثم نقفز قفزة غير منطقية، بافتراض أن هذا لا بد أن يكون طبيعيًا أيضًا. ثم نبذل قصارى جهدنا لنحرص على أن يكون لدى أطفالنا «أصدقاء»، الأمر

الذي يهدد العلاقات مع الأسرة. ويحل الأقران محل الوالدين أكثر من أي وقت مضى، وتستمر هذه الحلقة المفرغة.

كلمة أخرى عن الصداقة. من ناحية نمائية، يحتاج الأطفال إلى علاقة مع أنفسهم أكثر بكثير من العلاقات مع أقرانهم. ويجب أن ينشأ فاصل بين الإحساس بالذات والتجربة الداخلية. (راجع الفصل التاسع). ينبغي أن يكتسب الشخص القدرة على التفكير في أفكاره ومشاعره، وأكرر: هذه القدرة هي ثمرة النضج. وعندما يحظى المرء بعلاقة مع نفسه، فإنه يمكنه أن يستمتع بصحبة نفسه، ويتفق مع نفسه، ويختلف معها، ويتقبل نفسه، ويرفضها، وهلم جَرًّا. إن العلاقات مع الآخرين غالبًا ما تحول دون العلاقة مع الذات، أو تكون محاولاتٍ لملء الفراغ الذي ينبغي أن تحل فيه علاقة قوية مع الذات. وعندما لا يرتاح المرء في صحبة نفسه، فمن المرجح أن يسعى إلى صحبة الآخرين، أو أن يرتبط بوسائل الترفيه التكنولوجية، مثل التلفزيون، أو ألعاب الفيديو. إن العلاقات المتوجهة نحو الأقران –شأنها شأن مشاهدة التلفزيون فترات طويلة– تتعارض مع تطوير علاقة مع الذات. وما لم يُظهِر الطفل وجود علاقة مع نفسه، فإنه لن يكون مستعدًّا لتطوير علاقات حقيقية مع الأطفال الآخرين. وسيكون من الأفضل بكثير بالنسبة إليه قضاء الوقت في التفاعل مع البالغين القائمين بالرعاية، أو في اللعب الإبداعي بمفرده.

***

الأقران ليسوا هم الحل للملل

في عالمنا المهووس بالأقران، أصبح الأقران تقريبًا هم الدواء الشافي لأي عِلَّةٍ تصيب الطفل. وغالبًا ما يتم الترويج لهم باعتبارهم الحل للملل، وغرابة الأطوار، ومشكلات احترام الذات. وبالنسبة إلى الآباء الذين لديهم طفل وحيد، قد يبدو الأقران مثل بديل للإخوة والأخوات. وهنا أيضًا نبدو كمن ينقب عن ذهبٍ زائف.

إن عبارات مثل: «أنا أشعر بالملل»، أو «هذا ممل» هي لازمات طفولية معتادة للغاية. ويجد العديد من الآباء أنفسهم يحاولون التخفيف من الملل الذي يشعر به أطفالهم من خلال تسهيل التفاعل مع الأقران بشكلٍ أو بآخر. قد ينجح هذا الحل مؤقتًا، ولكنه يزيد من حدة الدينامية الأساسية، تمامًا كما يشعر الرضيع الجائع بجوع أكبر عند إعطائه اللهَّاية، أو كما يشعر السِّكِّيرُ الذي يحاول نسيان همومه بشرب الخمر بتعاسة أكبر في النهاية. والأسوأ من ذلك هو أنه باستعانتنا بالأقران للتخفيف من الملل، فإننا نشجع التوجه نحو الأقران.

ما هي الأسباب الحقيقية للملل؟ إن الفراغ الذي نشعر به في حالة الملل لا يعد نقصًا في التحفيز أو النشاط الاجتماعي كما هو مفترض عادةً. يشعر الأطفال بالملل عندما لا تنشط غرائز الارتباط لديهم بشكلٍ كافٍ، وعندما لا يتجلى إحساسهم بالذات لملء هذا الفراغ. يبدو الأمر كما لو كنت على الحياد، مُعَلَّقًا، تنتظر أن تبدأ الحياة. من المرجح أن يتحدث الأطفال القادرون على الشعور بهذه الفجوة عن مشاعر الوحدة، والافتقاد، والانفصال. أو بدلًا من ذلك، فإن كلماتهم ستتحدث عن الافتقار إلى النبوغ: «لا أستطيع التفكير في أي شيء لأفعله». «ليس ثمة ما يثير اهتمامي الآن». «لقد نفدت أفكاري». «لا أشعر كثيرًا بروح الإبداع». أما الأطفال الذين لا يدركون هذا الفراغ بطريقة منفتحة، فإنهم يشعرون بالكسل، وشرود الذهن، ويتحدثون عن الشعور بالملل.

وبعبارة أخرى: إن الفجوة التي عادةً ما يتم الشعور بها كأنها ملل تكون نتيجة لفراغ مضاعف من الارتباط والنبوغ، فالطفل ليس مع شخص يمكن أن يرتبط به ويشعر بالراحة معه. ومن ناحية أخرى، يفتقر إلى الفضول والخيال الكافيين لقضاء الوقت بشكل إبداعي بمفرده. إن الطفل الذي يشعر بالملل في الفصل الدراسي، على سبيل المثال، لا يبذل جهده في إنجاح العلاقة مع المعلم، ولا يهتم بما يتم شرحه. إنه يفتقر إلى كل من: الارتباط بالمعلم، وتجلي الدهشة والفضول النابعين من دوافع ذاتية. إن دفاعات الطفل النفسية ضد الضعف تمنعه من إدراك هذا الفراغ على حقيقته: شعور بالخواء في نفسه. وهو يعتقد أن الملل ينشأ خارج نفسه، وأنه طابع أو سمة من سمات وضعه

وظروفه. يقول وهو في المنزل: «المدرسة مملة للغاية»، أو «أشعر بالملل الشديد، لا يوجد شيء لأفعله».

من الناحية المثالية، يمتلئ هذا الفراغ بذات الطفل النامية: روح المبادرة، والاهتمامات، والعزلة الإبداعية، واللعب، والأفكار المبتكرة، والخيال، والتأمل، والاندفاع الحر. وعندما لا يحدث ذلك، يكون هناك دافع مُلِحٌّ لملء هذا الفراغ بشيء آخر. إن الملل هو الشعور الذي يعتري الطفل أو البالغ الذي لا يدرك الأسباب الحقيقية وراء الخواء الذي بداخله. ولأن الشعور بالفراغ يكون بطريقة غير مباشرة، فإن الحل يكون غامضًا بالقدر نفسه. وبدلًا من النظر إلى إمكاناتنا الداخلية، نسعى إلى حلٍّ خارجي: شيء نأكله، أو شيء يشتت انتباهنا، أو شخص نتفاعل معه. وهنا عادةً يتغذى دماغ الطفل على التحفيز أو النشاط الاجتماعي، باعتبارهما حلًّا. ومن الممكن للتلفزيون، أو الألعاب الإلكترونية، أو التحفيز الخارجي تغطية هذا الفراغ مؤقتًا، ولكنهم لن يملؤوه أبدًا. وبمجرد توقف النشاط المشتت للانتباه، يعود الملل.

تزداد حدة هذه الدينامية بالأخص في مرحلة المراهقة المبكرة، وخصوصًا إذا لم تتعمق الارتباطات بالبالغين بما فيه الكفاية، ولم تتطور الذات النامية. ولكن سواء كان الطفل يبلغ من العمر ثلاث سنوات أو ثلاث عشرة سنة، فإننا كوالدين نميل إلى جلب أقران الطفل إلى هذا الفراغ. فقد نقوم بترتيب موعد لعب للأطفال الأصغر سنًّا، أو نشجعهم على ملاحقة أقرانهم. نقول لهم: «لِمَ لا ترى ما إذا كان بوسع فلان اللعب؟». ومع ذلك، فتحديدًا عندما يشعر الأطفال بالملل، يكونون أيضًا أكثر استعدادًا لتكوين ارتباطات تتنافس معنا. إن ما نقوله في الحقيقة هو: «اذهب بتعطشك إلى الارتباط هذا إلى أصدقائك وانظر ما إذا كان بإمكانهم المساعدة». أو «إذا كنت لا تستطيع تحمل إحساسك بالوحدة، فاذهب إلى أقرانك للحصول على جرعة من الارتباط». أو «لِمَ لا ترى ما إذا كان بوسع أحدهم أن يحل محل الشعور بالذات الذي يبدو أنك تفتقر إليه؟». إذا فهمنا حقًّا الأسباب الجذرية للملل، كان علامة لنا على أن أطفالنا ليسوا مستعدين للتفاعل مع الآخرين.

كلما كان الأطفال أكثر عرضةً للملل، زادت حاجتهم إلينا، وزاد احتياج ذواتهم إلى الظهور. وكلما زاد شعورهم بالملل، كانوا أقل استعدادًا للتفاعل

مع الأقران. وبالنسبة إلى مثل هذا الطفل، ليس التفاعل مع الأقران هو ما يجب أن نيسِّره، وإنما التواصل مع البالغين، أو قضاء الوقت بمفرده.

في الواقع، يؤدي التوجه نحو الأقران إلى تفاقم مشكلة الملل. إن الأطفال المرتبطين ببعضهم بشدة يشعرون بأن الحياة مملة للغاية حينما لا يكونون معًا. وسيواجه العديد من الأطفال بعد مرور فترة طويلة من البقاء معًا – كما في حفلات المبيت، أو المخيمات– مللًا رهيبًا عند عودتهم، وسيسعون إلى معاودة التواصل فورًا مع أقرانهم. ومن خلال عرقلة التوجه نحو الأقران لعملية النضج، وتحفيز الهروب من الضعف، فإنه يمنع أيضًا تجلي الذات التي تتسم بالحيوية والفضول والاستغراق عند الطفل. إذا كانت للوالدين أي سيطرة على الوضع على الإطلاق، فإن وقت الملل يعد التوقيت المناسب لكبح جماح الطفل، وسد الفجوة في الارتباط بأولئك الذين يحتاج الطفل حقًّا إلى الارتباط بهم - بأنفسنا.

***

متى يكون التواصل مع الأقران مقبولًا؟ وإلى أي مدى ينبغي أن نسمح به؟

على الرغم من التنويهات التي أشرت إليها سابقًا في هذا الكتاب، فربما يكون بعض القراء قد أخذ انطباعًا بأنني ضد لعب الأطفال بعضهم مع بعض، أو أن يكون لديهم أصدقاء، حتى لو كانوا غير ناضجين. وهذا أشبه بالمستحيل، كما إنه لن يكون طبيعيًّا على الإطلاق. لطالما كان لدى الأطفال أصدقاء في مثل عمرهم في جميع المجتمعات على مر التاريخ. ولكن في معظم تلك المجتمعات لم يكن هناك خطر من تحول العلاقات مع الأقران إلى توجه نحو الأقران. وقد كانت تحدث تفاعلات الأطفال في سياق الارتباطات القوية بالبالغين. كما لا يمكن أن نتوقع من الآباء اليوم عزل أطفالهم عن أقرانهم، ولكنهم يجب أن يكونوا على دراية بالمخاطر.

متى ينبغي أن نشجع الأطفال على الوجود معًا؟ أو أن نسمح لهم بذلك؟ وتحت أي ظروف؟ من المتوقع تمامًا أن يوجد الأطفال معًا في مراكز الرعاية النهارية، وفي رياض الأطفال، وفي الملاعب، وفي المدرسة. ولكن إذا تأكدنا من ارتباط أطفالنا بنا ارتباطًا عميقًا، فلا ينبغي أن نقلق من قضائهم بعض الوقت معًا، على الرغم من أنه يتعين علينا الحد من مثل هذه الأوقات، كما يجب أن نتأكد من وجود مُرَبٍّ بالغ بجوارهم، ومشاركته إياهم. وليس المقصود هنا أنه يجب أن نمنع التفاعل مع الأقران تمامًا، ولكن يجب أن تكون لدينا توقعات متواضعة: أوقات اللعب مع الأطفال الآخرين ممتعة، وهذا كل شيء. وبعد كل تجربة لعب، يجب أن نحرص على احتواء أطفالنا. ومن المؤكد أنه عندما يقضي الطفل معظم الأسبوع ومعظم اليوم برفقة أقرانه، فإننا سنشجع على المنافسة إن رتبنا بعد ذلك لقاءات للعب بعد المدرسة، وكذلك في عطلة نهاية الأسبوع.

ما هي نوعية الصداقات المناسبة في مرحلة الطفولة؟ على الرغم من أن الصداقة بمعناها الحقيقي -كما أوضحتُ سابقًا- ليست هي الكلمة التي أستخدمها لوصف معظم العلاقات في مرحلة الطفولة، فإنه من الطبيعي أن يرغب الأطفال في أن يكون لهم أصدقاء. إن الصداقات التي يمكننا الترحيب بها بالنسبة إلى أطفالنا هي الصداقات التي لا تجذبهم بعيدًا عنا - من الناحية المثالية، ستكون هذه الصداقات مع الأطفال الآخرين الذين يشاركنا آباؤهم قيمنا، ويدركون أيضًا أهمية الارتباطات بالبالغين. إن هؤلاء الأطفال من غير المحتمل أن يصبحوا منافسين لنا عن غير قصد. وبوسعنا أن نكون إيجابيين هنا؛ يمكننا أن نشجع أصدقاء أطفالنا على بناء علاقات معنا. وسأذكر المزيد عن هذا الأمر في فصلنا الأخير.

وأي نوع من اللعب؟ إنني لا أشجع الاعتماد على التكنولوجيا عندما يتعلق الأمر باللعب، لأنه يحول دون القدرة على الابتكار والإبداع. ولكن ليس علينا أن نملي على أطفالنا كيفية اللعب؛ الأطفال يعرفون دائمًا كيف يلعبون. علينا فقط أن نتأكد من أن ارتباطاتهم بنا قوية بما يكفي، حيث لا تنغلق ذواتهم النامية الفضولية المتحمسة الخيالية بسبب التوجه نحو الأقران.

وأخيرًا، كما أوضح باستمرار في هذا الفصل، فإن المشكلة في مجتمعنا لا تتمثل ببساطة في أن أطفالنا يقضون الوقت معًا، ولكن المشكلة هي أننا في الواقع نشجع على التواصل المكثف بين الأقران، وننظر إليه كأنه الحل لمشكلات مثل الاندماج في المجتمع، أو الملل، أو احترام الذات، كما سأشرح بعد قليل.

***

الأقران ليسوا هم الحل لـ «غرابة الأطوار»

يُنصَحُ بالتفاعل مع الأقران بشكل روتيني لهدف آخر: تخفيف حدة طباع الأطفال الذين قد يكونون غريبي الأطوار بعض الشيء لينالوا استحساننا. يبدو أن لدينا هوس في أمريكا الشمالية بأن يكون المرء «عاديًّا» ومندمجًا في المجتمع. وربما أصبحنا نحن البالغين متوجهين نحو الأقران لدرجة أننا بدلًا من السعي إلى التعبير عن شخصيتنا المتفردة، فإننا نقتدي بعضنا ببعض في الطريقة التي يجب أن نكون عليها ونتصرف بها. ربما نتذكر من طفولتنا تعصب الأطفال القاسي إزاء أولئك المختلفين، ونريد إنقاذ أطفالنا من مثل هذا المصير. ربما نشعر على مستوى ما بالتهديد من قبل مظاهر التفرُّد والاستقلالية. وأيًّا كان السبب، فإن التفرُّد والغرابة غير مُستَحسَنَين. أن تكون رائعًا يعني أن تتوافق مع نطاق ضيق للغاية من الصور المقبولة للمظهر والسلوك. إننا نلتمس السلامة من الاستهزاء عن طريق عدم التميز، وليس من المُستَغرَبِ أن يفكر الأطفال بهذه الطريقة أيضًا. الأمر المؤسف هو أننا كبالغين يجب أن نحترم هذه الدينامية المُنَمَّطة، من خلال احترامها وامتثالها.

كلما زاد اعتماد الطفل على البالغين المُتقبِّلين، اتسع المجال للتميز والتفرُّد، وزادت الحماية من تعصب الأقران. وعندما نُلقي بأطفالنا إلى أقرانهم، فإننا نتسبب في فقدانهم الدرع الواقي، المتمثل في الارتباطات بالبالغين. إنهم يصبحون أكثر عرضةً للتعصب الذي يمارسه أقرانهم. وكلما أصبحوا أكثر انفصالًا عنا، كان عليهم الاندماج مع أقرانهم بشكل أكبر، وبالتالي استماتوا أكثر لتجنب الاختلاف. وفي حين أنهم قد يفقدون «غرابة

أطوارهم» على هذا النحو، فإن ما يبدو لنا وكأنه تقدم نمائي مستحب ينبع في الواقع من إحساس مُحبِط بعدم الثقة في النفس.

***

لا تعتمد على الأقران لتعزيز احترام الطفل ذَاتَه

ثمة أسطورة أخرى منتشرة -وخبيثة- تقول إن التفاعلات مع الأقران تعزز احترام الطفل ذاته. إننا جميعًا نريد أن يشعر أطفالنا بالرضا عن أنفسهم. من منا لا يريد أن يتمتع أطفالنا بالإحساس بالأهمية؟ أن يعرفوا أنهم مهمون، وأن يصدقوا أنهم مرغوبون، وأن يعتقدوا أنهم محبوبون. إن الكتب الرائجة تجعلنا نعتقد أن الأقران يلعبون دورًا محوريًا في تشكيل احترام الطفل ذاته. ويبدو أن الرسالة الأساسية التي تحاول توصيلها هي أن الأطفال في حاجة إلى دائرة من الأصدقاء الذين يحبونهم من أجل أن يتكون لديهم إحساس بقيمة الذات. وبالمثل، أُخبِرنَا أن نبذ الطفل أو رفضه من قبل الأقران يسجنه في شكوك ذاتية مدمرة. ولا تعوزنا التقارير الإعلامية، أو المقالات الصحفية الشهيرة التي توضح الضرر الذي لحق بحياة الأطفال الذين لم يتقبلهم أقرانهم. لقد خلُصت إحدى المُؤلِّفات السابقات للمقررات الدراسية في علم نفس النمو إلى أن احترام الطفل ذاته لا يرتبط كثيرًا بالكيفية التي يراه بها الوالد، ولكنه يرتبط تمامًا بمكانة الطفل بين جماعة أقرانه.[11]

بالنظر إلى أهمية احترام الذات، والأهمية المفترضة للأقران في تشكيله، فإنه يبدو من الصواب أن نبذل كل ما في وسعنا لمساعدة أطفالنا على بناء الصداقات، والتنافس بشكلٍ إيجابي مع أقرانهم من أجل جعلهم محبوبين بعضهم من بعض قدر الإمكان. إن الآباء اليوم يسيطر عليهم القلق من تعرض أطفالهم للنبذ. ويجد العديد من الآباء أنفسهم يشترون الملابس، ويدعمون الأنشطة، ويسهلون التفاعل الذي يُعتَقَدُ أنه ضروري لتمكين أطفالهم من كسب الأصدقاء والتمسك بهم. إن مثل هذه الأساليب تبدو صحيحة، إلا إنها «تبدو» صحيحة فحسب.

يؤدي الأقران بالفعل دورًا محوريًا في احترام الذات لدى العديد من الأطفال. وهذا هو بالضبط ما يعنيه التوجه نحو الأقران. إن أحد الأدوار المهمة لوجود التوجهات في العالم يتمثل في إحساس المرء بقيمته وأهميته كشخص. وبحلول الأقران محل الوالدين، يصبحون هم الذين يؤثرون على إحساس الأطفال بما يقدِّرونه في أنفسهم وفي الآخرين. ولذلك لا ينبغي أن ندهش عندما نجد أن الأقران يؤثرون على احترام الطفل ذاته. ومع ذلك، لم تكن هذه هي الحال دائمًا، أو كيف ينبغي لها أن تكون، أو كيف يلزم أن تكون. أضف إلى ذلك أن نوعية احترام الذات التي تستمد جذورها من التفاعل مع الأقران ليست صحية أصلًا.[12]

إننا نواجه في المقام الأول فهمًا سطحيًا لمفهوم احترام الذات بحد ذاته. إن الأمر الجوهري في احترام الذات ليس هو كيفية شعور المرء تجاه نفسه، وإنما استقلال تقييمه لذاته عن أحكام الآخرين. ويكمن التحدي في احترام الذات في تقدير كينونة المرء عندما لا يقدرها الآخرون، والإيمان بنفسه عندما يشكك فيه الآخرون، وقبول نفسه عندما يحكم عليه الآخرون. إن احترام الذات –الذي يستحق كل غالٍ ونفيس– هو ثمرة النضج: يجب أن يحظى المرء بعلاقة مع نفسه، وأن يكون قادرًا على إدراك المشاعر المختلطة، وأن يؤمن بحقيقة الأمور على الرغم من المشاعر المتضاربة. في الواقع، يتمثل جوهر احترام الذات الصحي في الشعور بالقدرة على النجاح كشخص مستقل. ويمكننا أن نرى بوضوح الفخر الذي يبدو على الطفل عندما يستطيع فهم شيء ما بنفسه، أو الدفاع عن نفسه، أو معرفة أنه يمكنه التعامل مع شيء ما بمفرده. ولذلك، فإن المسائل الحقيقية المتعلقة باحترام الذات تشمل الاستنتاجات حول حقيقة كينونة المرء وقيمتها. إن احترام الذات الحقيقي يتطلب نضجًا نفسيًا لا يمكن تطويره إلا في علاقات دافئة وحنونة مع البالغين المسؤولين.

نظرًا إلى أن الأطفال المتوجهين نحو الأقران يواجهون صعوبات في النمو، فمن غير المرجح أن يطوروا إحساسًا بالاستقلالية الذاتية من خلال الطريقة التي يراهم بها الآخرون. إن احترامهم ذواتهم لن ينبع من داخلهم أبدًا، ولن يستمد جذوره أبدًا من التقييم الذاتي. إنه سيكون مشروطًا بمصالح الآخرين، ومتوقفًا عليها. وبالتالي سيعتمد على عوامل خارجية ومؤقتة، مثل

الإنجازات الاجتماعية، أو المظاهر، أو الدخل. وليست هذه هي معايير احترام الذات. إن احترام الذات الحقيقي لا يعني أنني جدير بالاهتمام لأنني أستطيع القيام بهذا الأمر أو ذاك، وإنما يعني أنني جدير بالاهتمام، سواء كان بإمكاني القيام بهذا الأمر أو ذاك أم لا.

إذا كان هذا المفهوم عن احترام الذات يبدو غريبًا هنا بالنسبة إلى بعض الناس، فهذا فقط لأننا نعيش في ثقافة تُلَقِّن فكرة احترام الذات بناءً على الكيفية التي نبدو بها في أعين الآخرين. إننا جميعًا نريد مجاراة الآخرين، وكلنا نتوق إلى التباهي بسيارتنا الجديدة، أو حبيبنا، أو شريكنا المميز، وكلنا نشعر بدَفعةٍ من الفخر الغامر عندما يعترف الآخرون بإنجازاتنا، أو يحسدوننا عليها. ولكن هل نحن نحترم ذواتنا حقًّا؟ لا. ما نحترمه هو ما يعتقده الآخرون عنا. هل هذا النوع من احترام الذات هو الذي نريد أن ينميه أطفالنا؟

إن الافتقار إلى أساس مستقل يقوم عليه احترام الذات يخلق فراغًا يجب ملؤه من الخارج. ومحاولة سد هذا الفراغ من احترام الذات المستقل بأمور بديلة، مثل التأكيدات، والمكانة المرموقة، والإنجازات هي أمر لا طائل من ورائه. ومهما كانت التجارب إيجابية، لن يستقر أي شيء في نفس الطفل على الإطلاق: فكلما تلقَّى المرء المزيد من الثناء، أصبح أكثر تعطشًا إليه، وكلما اتسعت شهرته، ازداد سعيًا إليها، وكلما فاز بمنافسات أكثر، أصبح أكثر تنافسية. نحن جميعًا نعرف هذا بالفطرة. إن التحدي الذي نواجهه هو استخدام تأثيرنا على أطفالنا لإنهاء اعتمادهم على الشهرة، أو المظهر، أو العلامات، أو الإنجازات لتحديد الطريقة التي يفكرون ويشعرون بها حيال أنفسهم.

إن احترام الذات المستقل عن هذه الأمور هو وحده الذي سينفع الطفل حقًّا. وقد يكون اعتماده على أقرانه في شيء خطير كإحساسه بالأهمية كارِثِيًّا، فكلما زاد احترام الطفل ذاته القائم على مثل هذه الأسس الهشة، زاد هوسه، وشعوره بعدم الثقة في النفس. ومن المعروف عن الأطفال أنهم متقلبون في علاقاتهم، فهم يفتقرون إلى أي شعور بالمسؤولية عن التحكم في حالاتهم المزاجية، أو أي التزام تجاه سعادة بعضهم. إن جعل الطفل

معتمدًا على مثل هذه التقييمات المتقلبة يعني الحكم عليه بانعدام الثقة في النفس إلى الأبد. ولا يمكن لغير القبول الحنون غير المشروط أن يحرر الطفل من الهوس بعلامات الإعجاب والانتماء.

إلى أن يصبح الأطفال قادرين على ممارسة التقييم الذاتي المستقل، فإن واجبنا هو منحهم تأكيدات قوية، حتى لا يضطروا إلى البحث عنها في مكان آخر. إن تأثير هذه التأكيدات يكون أعمق بكثير من عبارات الحب والثناء الإيجابية - لا بد أن تنبع من أعماقنا، وتتغلغل في قلب الطفل، مما يسمح له بمعرفة أنه محبوب، ومرحب به، ومُحتَفًى به لوجوده في حد ذاته، بغض النظر عن «الإيجابيات» أو «السلبيات» التي قد يبديها لنا في أي لحظة. وليس من مصلحة الطفل تحت أي ظرف من الظروف التركيز على جعله محبوبًا من أقرانه. إن الطريقة الوحيدة للتقليل من أهمية الأقران هي زيادة أهميتنا.

***

الأقران ليسوا بدلاء للأشقاء

هناك مشكلة مُتَصَوَّرَة أخرى يُعتَقَدُ أن الأقران هم الحل المفضل لها، وهي مشكلة الطفل الوحيد. لقد ترسخت خرافة مفادها أن الأطفال يجب أن يختلطوا بأطفال آخرين حتى يكونوا على ما يُرام. وغالبًا ما يشعر الآباء الذين لديهم طفل واحد بالقلق الشديد بسبب وضعهم الصعب، ويحاولون تعويض هذا الحرمان المفترض بأن يعملوا كمُنَظِّمين اجتماعيين لطفلهم، إذ يهيئون مَوَاعِدَ اللعب ويرتبون اللقاءات مع الأطفال الآخرين. إنهم يتساءلون: كيف يمكن للأطفال أن يلعبوا دون رفاق؟ أو أن يتعلموا التعايش دون أصدقاء؟

يجب أن نفهم أولًا أن الأقران ليسوا كالأشقاء، وأن الأشقاء ليسوا مجرد رفاق لعب. إن الأشقاء يتشاركون وجهة البوصلة الأساسية نفسها. والارتباط الفريد بالأشقاء هو النتاج الطبيعي للارتباط بالوالدين. وعلى الرغم من وجود بعض الاستثناءات، فإنه يجب أن توجد الارتباطات بالأشقاء –دون تضارب جوهري– مع الارتباطات بالوالدين. ويجب أن تكون العلاقات بين الإخوة

كالعلاقات بين الكواكب التي تدور حول شمس واحدة، ثانوية في طبيعتها مقارنةً بعلاقة كل كوكب بالشمس. والبدلاء الأنسب للأشقاء هم أبناء الأقارب، وليس الأقران. وإذا كان أبناء الأقارب قليلين، أو يتعذر الوصول إليهم، أو ذوي تأثير سيئ، كان من الأنسب بناء أنواع من الصداقات العائلية التي يكون فيها البالغون الآخرون على استعداد لتولي دور العم البديل، أو الخالة البديلة لأطفال كلٍّ منهم. ويجب أن تكون العلاقات مع البالغين هي الارتباطات الأساسية للطفل.

وللتوضيح مرة أخرى، إن المشكلة ليست في لعب الأطفال بعضهم مع بعض، وإنما في تركهم بعضهم لبعض في الوقت الذي لا يلبي فيه البالغون المسؤولون احتياجاتهم الأساسية من الارتباط. إن هذا هو الوقت الذي يكون فيه أطفالنا أكثر عرضةً لخطر بناء ارتباطات تتنافس معنا. وكلما زاد ارتباط أطفالنا بالبالغين الذين يعتنون بهم، قلت حاجتنا إلى القلق بشأن تقييد لعبهم الاجتماعي.

ولكن ألا يحتاج الأطفال إلى اللعب بعضهم مع بعض؟ علينا أن ندرك الفرق هنا بين ما يريده الأطفال وما يحتاجون إليه. فاللعب الذي يحتاج إليه الأطفال للنمو السليم هو اللعب النشوئي، وليس اللعب الاجتماعي. إن اللعب النشوئي (أو العزلة الإبداعية) لا ينطوي على التفاعل مع الآخرين. وبالنسبة إلى الأطفال الصغار، يجب أن يكون القرب والتواصل مع الشخص الذي يرتبطون به آمنًا بما يكفي ليكون أمرًا مسلمًا به. ويسمح هذا الشعور بالأمان للطفل بالمغامرة في عالم من الخيال، أو الإبداع. وإذا تم إشراك رفاق اللعب، فإنهم سينبعون من خيال الطفل، مثل شخصية هوبز بالنسبة إلى كالفن، أو بو والأصدقاء بالنسبة إلى كرستوفر روبن. ودائمًا ما يكون الوالد هو الخيار الأفضل لهذا النوع من اللعب، حيث يكون مثل مرساة للارتباط - رغم أنه لا يجب على الوالد أن يبالغ في ذلك، خشية أن يضمحل اللعب النشوئي ليتحول إلى لعب اجتماعي، وهو أقل فائدةً بكثير. إن الأطفال لا يمكنهم القيام بدور مرساة الارتباط بعضهم مع بعض، لذلك، دائمًا ما يحول التفاعل الاجتماعي دون لعبهم النشوئي. ونظرًا إلى التركيز الشديد على التواصل الاجتماعي بين

الأقران، أصبح اللعب النشوئي –اللعب الذي ينشأ عن إبداع الطفل وخياله وفضوله حيال العالم– مُعَرَّضًا للخطر.

مجددًا، أنا لا أقول إن بعضًا من اللعب الاجتماعي في حد ذاته سيضر نمو الطفل، ولكنه لن يعززه أيضًا. لذا أكرر: لا يعني هذا أنه لا ينبغي للأطفال أن يقضوا الوقت بعضهم مع بعض، ولكن لا ينبغي أن نتوقع أن يلبي مثل هذا اللعب احتياجاتهم العميقة. إن البالغين القائمين بالرعاية هم فقط من يمكنهم فعل ذلك. وفي ظل إصرارنا على اختلاط أطفالنا بالآخرين، لا نترك لهم وقتًا يُذكَر ليكونوا بصحبتنا، أو للانخراط في اللعب الانفرادي الإبداعي، الذي أسميته اللعب النشوئي. إننا نملأ أوقات فراغهم بمَوَاعِد اللعب، أو بمقاطع الفيديو، والتلفزيون، والألعاب الإلكترونية. وينبغي لنا إفساح مجال أكبر بكثير حتى تتجلى الذات.

وهذا يعيدنا إلى مسألة الأقران بوصفهم بدلاء للأشقاء. إن الأطفال يحتاجون إلى البالغين أكثر بكثير مما يحتاجون إلى أطفال آخرين. ولا يوجد أي سبب يدفع الوالدين إلى الشعور بالذنب تجاه الأطفال الذين ليس لديهم أشقاء، ولا ينبغي لهم أن يشعروا بأنهم مضطرون إلى ملء هذا الفراغ بأقرانهم.

إننا إذا شهدنا أولًا الإرث الحقيقي للتوجه نحو الأقران (الإرادة المضادة المتزايدة، وغياب احترام وتقدير السلطة، وعدم النضج المستمر، وزيادة العدوانية، والجمود العاطفي، وعدم تقبل الخضوع للتربية أو التعليم)، تحركنا بسرعة لمعالجة المشكلة، وشرعنا فورًا في العمل على استعادة مكاننا الصحيح في حياة أطفالنا. ولكن لأن الثمار الأولى للتوجه نحو الأقران تبدو طيبةً للغاية، فإننا لا نملك أي فكرة عما ينتظرنا. ونعتقد أن الأقران هم الحل للعديد من المشكلات التي ستُلقي بها تربية الأطفال في طريقنا. إننا سندفع الثمن غاليًا. ويجب علينا أن نقاوم الرغبة في الترحيب بحصان طروادة داخل أسوارنا.

17

أعِد بناء قرية الارتباط

إن العديد من البالغين الآن في سن الأربعينات أو ما بعد ذلك يتذكرون طفولتهم التي كانت فيها قرية الارتباطات حقيقة واقعة. كان الجيران يعرفون بعضهم بعضًا، ويزورون بعضهم منازل بعض. ويستطيع والدو الأصدقاء التصرف كوالدين بديلين للأطفال الآخرين. وكان الأطفال يلعبون في الشوارع تحت نظر البالغين الودودين والحريصين. وكانت هناك متاجر محلية، حيث يشترى المرء البقالة، أو الأدوات، أو المخبوزات، والعديد من الأغراض الأخرى. وكان التجار في هذه المتاجر أكثر من مجرد مُوَرِّدين مجهولي الهوية للمنتجات المصنعة بالجملة في إطار متاجر متعددة الفروع. لقد كانوا أفرادًا يعرفهم المرء، بل ويُقدِّرهم، على غرار العم جرجس في «عالم سمسم». وكان أفراد العائلة الممتدة –الأعمام والعمات والأصهار– على تواصل دائم فيما بينهم، بل ومن شأنهم أيضًا أن ينوبوا عن الوالدين في مهمة رعاية الأطفال إذا لزم الأمر. لم تكن الأحوال مثالية –نادرًا ما كانت كذلك في الحياة الإنسانية– ولكن كان هناك إحساس بالأصالة، والانتماء، والترابط، الذي كان مثل الرحم الخفية، التي ينضج فيها الأطفال ويكتسبون فكرتهم عن العالم. لقد كانت

قرية الارتباط مكانًا للتوجه نحو البالغين، حيث تنتقل الثقافة والقيم رأسيًا من جيل إلى آخر، وحيث يتبع الأطفال خطى الكبار، سلبًا وإيجابًا.

لم تعد قرية الارتباط هذه قائمةً بالنسبة إلى الكثيرين منا. لقد تلاشت الأسس الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تدعم الثقافات التقليدية، واختفت المجتمعات المتماسكة، حيث كانت العائلات الممتدة تعيش على مقربة من بعضها، وحيث كان الأطفال يترعرعون بين البالغين المرشدين، الذين يقومون بعملهم بالقرب من المنزل، وحيث كانت الأنشطة الثقافية تعمل على لم شمل الأجيال. إن معظمنا يتحتم عليه تقاسم مهمة تربية أطفالنا مع أفراد بالغين لم نلتقيهم نحن ولا أطفالنا من قبل. وغالبية الأطفال في أمريكا الشمالية يغادرون منازلهم كل يوم تقريبًا، للذهاب إلى أماكن يتحمل فيها مسؤوليتهم أفرادٌ لا تربطهم بهم أي صلة. إن إبقاء أطفالنا في المنزل لن يكون أمرًا عمليًّا بالنسبة إلى معظمنا. إذا كنا نريد استعادة أطفالنا من التوجه نحو الأقران، أو منعهم من أن يصبحوا متوجهين نحو الأقران، فليس أمامنا سوى خيار واحد آخر: إعادة بناء قرى ارتباط مؤثرة، لنربي أطفالنا في إطارها. إننا قد لا نكون قادرين على إصلاح ما انكسر مرة أخرى، كما حدث مع الشخصية الكرتونية هامبتي دامبتي، وبالتأكيد لا يمكننا إعادة تشكيل الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية التي عفا عليها الزمان، ولكن هناك الكثير مما يمكننا القيام به لتسهيل الأمور على أنفسنا وعلى أطفالنا.

إن المنزل -كما يُقال- ليس هو البيت. والمشكلة مع الأطفال المتوجهين نحو الأقران هي أنهم لا يزالون في منازلنا، ولكنهم لم يعودوا يوجدون معنا في بيوتنا. إنهم يغادرون منازلنا للذهاب إلى «البيت»، ليكونوا بعضهم مع بعض. ويستخدمون هواتفنا للاتصال بـ «البيت». ويذهبون إلى المدرسة ليكونوا في «البيت» مع أصدقائهم. ويشعرون «بالحنين إلى البيت» عندما لا يتواصلون بعضهم مع بعض. لقد انحرفت غرائز التوجيه لديهم لتقربهم بعضهم من بعض. وبدلًا من أن يفضل المراهقون المتوجهون نحو الأقران الوجود في منازل الآباء، أصبحوا مثل الرحَّالة، يتنقلون معًا في مجموعات، أو يقضون أوقاتهم في مراكز التسوق. إن البيت هو المكان الذي ينتمون إليه، ولكنهم لم يعودوا يشعرون بيننا بالإحساس بالراحة.

إننا لا نستطيع أن ننشئ بيوتًا لأطفالنا بالمعنى الحقيقي إلا في إطار قرية الارتباط. إن الارتباط هو الذي يبني كلًّا من البيت والقرية. والأمر الذي يجعل القرية قريةً هو الروابط بين الناس. والروابط تؤسس البيوت أيضًا، سواء كانت بالبيت نفسه، أو بالأشخاص الذين يعيشون فيه. إننا نشعر حقًّا وكأننا «في البيت» فقط مع أولئك الذين نرتبط بهم.

إن إمكانات الطفل النمائية لا يمكن أن تتحقق بشكل كامل إلا عند وجوده في البيت بصحبة أولئك المسؤولين عنه. ومساعدة الأطفال على الشعور وكأنهم في البيت مع البالغين الذين نأتمنهم عليهم لا تختلف عن مهمة بناء قرية من الارتباطات لهم ليكبروا فيها. وفي المجتمعات الترابطية التقليدية، لم يضطر الطفل قط إلى مغادرة البيت؛ لقد كان وكأنه في بيته أينما ذهب. ولا يجب أن يضطر الأطفال اليوم أيضًا إلى مغادرة البيت، أو على الأقل، فقد الشعور بأنهم في البيت مع البالغين الذين يرعونهم، وذلك إلى أن يصبحوا ناضجين بما يكفي للشعور بالارتياح مع ذواتهم الحقيقية.

إننا نستطيع بناء قرى الارتباط إذا كنا نمتلك الرؤية والدافع إلى ذلك. ويجب أن يصبح بناء القرية نشاطًا واعيًا، شأنه في ذلك شأن الارتباط. ولا يوجد أي سبب يدعونا إلى التحسر على ما لم يعد له وجود، ولكن هناك أسبابًا كثيرة تدعونا إلى استعادة ما افتقدناه.

***

أسِّس فريقًا داعمًا

نحن في حاجة إلى تقدير أصدقائنا البالغين الذين يظهرون اهتمامًا بأطفالنا، وإيجاد طرائق لتعزيز علاقاتهم معهم. كما نحتاج أيضًا إلى إيلاء خلق العادات والتقاليد التي تربط أطفالنا بالعائلة الممتدة أهميةً كبيرة. إن صلة القرابة ليست كافية؛ لا بد من وجود علاقة حقيقية. ولكن من المؤسف أن العديد من الأجداد أصبحوا هم أيضًا متوجهين نحو الأقران، لدرجة لا تسمح لهم بالقيام بدورهم في التسلسل الهرمي للارتباط. يفضل الكثيرون

أن يكونوا مع أصدقائهم بدلًا من أحفادهم، وفي مجتمعنا المتقلِّب والمفكك، يعيش الكثيرون أيضًا في أماكن بعيدة. وإذا كان الاتصال بعائلاتنا الممتدة أمرًا مستحيلًا، أو ليس في مصلحة طفلنا لسبب ما، فإننا نحتاج إلى تعزيز العلاقات مع البالغين المستعدين لأن يحلوا محل العائلة.

إن الطريقة التي نختلط بها مع الناس تحتاج إلى التغيير أيضًا. يميل التواصل الاجتماعي إلى أن يكون موجهًا نحو الأقران في أمريكا الشمالية، حيث ينقسم على أساس الأجيال. وحتى عند اجتماع الأفراد من عدة أجيال معًا، فإن الأنشطة تبدو معتمدةً على الأقران: يمضي البالغون الوقت مع البالغين، والأطفال مع الأطفال. ولبناء قرى الارتباط، لا بد أن يعمل تواصلنا الاجتماعي على تعزيز الروابط الهرمية. لقد رأينا خلال فترة إقامتنا في بروفنس أن التواصل الاجتماعي غالبًا ما يشمل الأطفال. لقد كان يتم إعداد وجبات الطعام، واختيار الأنشطة، والتخطيط للنزهات بناءً على هذا الأمر. وكان البالغون يبادرون باحتواء الأطفال. إننا فوجئنا بهذا النوع من التواصل الاجتماعي الأسري في البداية، ولكنه بدا منطقيًّا تمامًا من منظور الارتباط، فكلما زاد عدد البالغين الذين يقدمون الرعاية في حياة الطفل، ازدادت مناعته ضد التوجه نحو الأقران. وينبغي لنا قدر الإمكان أن نشارك مع أطفالنا في الأنشطة الشبيهة بحال القرية، التي تربط الأطفال بالبالغين، سواء من خلال المراكز الدينية، أو القومية، أو الأنشطة الرياضية، أو الفعاليات الثقافية، أو في المجتمع بوجه عام.

في شارع قريب من منزل المؤلف المشارك لي، انضم الآباء إلى ما يسمونه «الحي الصغير الذي يستطيع». ويتم هنالك تعزيز العلاقات الاجتماعية عن قصد بين الأسر التي تعيش في هذا الحي. هناك مقاعد وطاولات للنزهات أمام العديد من المنازل، حيث يجتمع الآباء والأطفال من جميع الأعمار. وقد تعلم الأطفال الارتباط بجميع البالغين في هذا الشارع كأشخاص مقربين، وأعمام بديلين، وخالات بديلات. ويتم إغلاق الشارع مرةً في كل عام أمام حركة المرور من أجل ما يعد في واقع الأمر مهرجانًا قرويًّا. وفي هذا اليوم، توجد الألعاب، ويُقدَّم الطعام، ويتم تشغيل الموسيقى عبر مكبرات الصوت.

وتأتي إدارة مكافحة الحرائق المحلية بسيارة الإطفاء، ويمرح الأطفال تحت رذاذ خرطوم إطفاء الحرائق.

إن كل والد يحتاج إلى فريق داعم، وكلما قل وجود هذا الفريق بشكل طبيعي، زادت الحاجة إلى تأسيسه عن عمد. ونحن جميعًا في حاجة إلى شخص ما ليحل محلنا من وقت إلى آخر، ومعظمنا يحتاج إلى مشاركة مسؤولياته الوالدية مع الآخرين. ينبغي أن تكون أولويتنا هي اختيار هؤلاء البدلاء بعناية، وتعزيز ارتباط أطفالنا بهؤلاء البالغين. ولا يكفي أن تكون المربية أو جليسة الأطفال موجودةً، وجديرةً بالثقة، ومجتازةً الدورات المطلوبة. إن نجاح هذا الأمر يتوقف على قبول الطفل الشخص البديل عن الوالدين كوجهة أساسية للبوصلة، وشعوره بالارتياح مع هذا الشخص. وهذا النوع من العلاقات يحتاج إلى أن يتم تحفيزه ورعايته. إن ضمَّ المرشح المحتمل في بعض الأنشطة العائلية ودعوته إلى عشاء عائلي قد يكون هو بالضبط نوع النظام المطلوب لتحفيز الروابط.

في ظل الظروف الحالية، يحتاج كلا الوالدين في العديد من الأسر إلى العمل - ناهيك بالعدد المتزايد من الأسر ذات العائل الواحد. ولا يمكننا أن نعود بالزمن إلى الماضي المثالي، حين كان أحد الوالدين –وعادةً ما يكون الأم– يبقى في المنزل حتى يكبر الأطفال، أو على الأقل حتى يلتحقوا بالمدرسة. لقد وصلنا إلى مرحلة مختلفة على الصعيدين: الاقتصادي، والثقافي. ولكن ينبغي لنا التأكد من أن أطفالنا يقيمون علاقات قوية مع البالغين الذين نعهد إليهم بأخذ مكاننا، كما سأشرح في السطور التالية.

لقد زار جابور –المؤلف المشارك لي– المكسيك أول مرة مؤخرًا، وأعرب عن إعجابه بالسعادة الغامرة التي بدت على الأطفال الذين رآهم في قرى المايا المحرومة اقتصاديًّا على طول طريقه. وعن ذلك يقول: «لقد كانت البهجة تشع من وجوه هؤلاء الأطفال، ولم نلاحظ أيًّا من العدوانية أو الإحساس بالعزلة اللذين يشهدهما المرء بين الأطفال في أمريكا الشمالية. لقد كانوا يتسمون بالانفتاح الساذج والبراءة، على الرغم من حياة آبائهم القاسية». ويمارس شعب المايا «التربية القائمة على الارتباط» دون أي وعي بها، شأنهم في ذلك شأن جماعات السكان الأصليين في أي مكان، فهم يحملون أطفالهم معهم

في كل مكان خلال السنوات القليلة الأولى، ويربونهم بصفة عامة في قرى الارتباط التقليدية. إن فكرة انفصال الوالدين عن الرضع أو الأطفال الصغار ستبدو غريبةً في نظرهم. وعلى نحو مماثل، وبحسب تقرير صحفي صدر مؤخرًا في نيروبي بكينيا، أوضحت رائدة أعمال كانت قد فتحت متجرًا لبيع عربات الأطفال للأمهات الشابات سبب الركود في حركة البيع. وقالت: «إن النساء هنا لا يرين سببًا لحاجتهن إلى أداة غريبة لدفع أطفالهن، فهُن يحملنهم معهن فقط أينما ذهبن». وكذلك لا يسع أي زائر لإفريقيا إلا أن يلاحظ العفوية المبهجة، والابتسامات الطبيعية، والحركات الجسدية المرنة التي يقوم بها الطفل الإفريقي. وهذا ينشأ عن اتصال وثيق بالبالغين العطوفين في قرية الارتباط. ولكن للأسف يتم تدمير هذه الثقافة الآن بفعل الحروب والمجاعات في العديد من المناطق.

إنني لا أطرح هذه الأمثلة بهدف إلقاء اللوم على ثقافتنا، ولكن لأوضح ما فقدناه من قبيل التربية الفطرية القائمة على الارتباط. إننا قد لا نتمكن من العودة إلى مثل هذه الممارسات، ولكن لا بد من تعويض خسارتها بأي طريقة ممكنة. ومن هنا أصر على أن نبذل قصارى جهدنا لإعادة بناء قرية الارتباط بكل طاقتنا، وبقدر ما تسمح به ظروفنا.

غالبًا ما يسألني الناس عن العمر الذي يكون الطفل فيه مستعدًا لتحمل الانفصال عن أحد الوالدين بسبب رجوعه إلى العمل، أو ربما ترك الطفل للذهاب في عطلة. ودائمًا ما تكون إجابتي في صورة سؤالٍ حول طبيعة فريقهم الداعم. إن الارتباط وحده هو القادر على خلق بديلٍ للوالد، وبالتالي نحتاج إلى تعزيز تلك الارتباطات. إن ثقافتنا الاجتماعية لم تعد تؤدي هذا الدور. وتأتي الآن مسؤولية تشكيل فريق داعم خاص بنا جنبًا إلى جنب مع إنجاب طفل في هذا العالم. وإذا أصبحنا على وعي بالارتباط، وتولينا هذا الدور، فقد نسمع محادثات كالتالية:

«كيف تتدبرين أمر العثور على جليسة أطفال جيدة لسامانثا؟».

«أعتقد أننا وجدنا جليسةً تبدو واعدة. إنهما في المطبخ الآن معًا، يطبخان الكثير من الطعام بحماسة. يبدو أنها تمتلك رقم هاتف سامانثا. إنني أريدهما

أن تقضيا بعض الوقت معًا، وأن تكون ساماننثا مرتبطةً بها تمامًا قبل أن أتركهما بمفردهما. وينبغي أن يكون الأمر سهلًا للغاية بعد ذلك».

إن الارتباطات بالبالغين تعتبر مهمةً، وخصوصًا في مرحلة المراهقة. فعند الابتعاد عن الوالدين، كما يميل المراهقون الذين هم في طور النضج إلى ذلك، يمكن لوجود شخص بالغ بديل يلجأ إليه المراهق أن يمنعه من التحول إلى أقرانه. ومع ذلك، فإذا أُريد لهذه العلاقات أن تؤدي هذا الدور، وجب تعزيزها قبل وصول الطفل إلى مرحلة المراهقة بوقتٍ طويل. وإذا أردنا أن يتم استبدال غيرنا بنا، كان من الأفضل بكثير أن يتم ذلك عن طريق البدلاء الذين سبق أن اخترناهم نحن بعناية.

***

اصنع الوفاق مع المسؤولين

في القرية التقليدية، كانت ارتباطات الأطفال وليدة ارتباطات الوالدين. وفي أغلب الأحوال اليوم، لا نجد أمامنا سوى القليل من الخيارات بشأن البالغين –كالمعلمين– الذين ينبغي لنا أن نأتمنهم على أطفالنا. وفي هذه الحالات، يتمثل التحدي الأكبر في صنع الوفاق بين أطفالنا والمسؤولين عنهم. إن صنع الوفاق يتطلب تهيئة شخصين، بطريقةٍ تجعلهما أكثر ارتباطًا ببعضهما. إننا غالبًا ما نتوسط لصنع الوفاق بشكل غريزي، لتعزيز الروابط العاطفية بين الأشقاء، أو بين أطفالنا وأجدادهم على سبيل المثال. ونحن في حاجة إلى الاستعانة برقصة الارتباط الغريزية هذه في بناء قرية الارتباط.

في بعض الأحيان، يرتبط الأطفال تلقائيًا بالمسؤولين عنهم: مقدمي الرعاية النهارية، والمعلمين، وجليسات الأطفال، والأجداد. ولكن إذا لم يحدث ذلك، فلا ينبغي أن نقف مكتوفي الأيدي. هناك الكثير مما يمكننا فعله لتسهيل وجود علاقة ناجحة بين الطفل والشخص الذي يحل محلنا. وعادةً ما تكون هناك بعض الحيل في جعبة صانعي الوفاق. وبمجرد أن يكون الهدف واضحًا أمامنا، سنُفاجأ بمدى سهولة تتابع بقية الأمور.

إن إحدى أهم الوسائل هي التعارف. يعتبر التعارف فرصةً لخلق انطباعات أولية لطيفة. أضف إلى ذلك أنه يعد طريقة طبيعية لإبداء موافقتنا على هذا الارتباط. وينبغي أن يشاهدنا طفلنا نتفاعل بشكل ودود مع الشخص الذي نحن على وشك تسليم الراية إليه، سواء كان ذلك الشخص معلمًا في الحضانة، أو مقدم الرعاية النهارية، أو معلم البيانو، أو مدرب التزلج، أو مدير المدرسة، أو معلم الصف. إن الحيلة هنا هي التقدم بسرعة للتعرف على الشخص البالغ الذي نعهد إليه بطفلنا، ومن ثم تولي زمام الأمور فيما يتعلق بالتعارف بينهما. إنها فرصةٌ ذهبيةٌ للتوفيق بين الطرفين.

لو كنا نعيش في عالم متناغم مع مخطط النمو، فإن الآباء والمعلمين كانوا سيقيمون أولًا علاقات ودية بعضهم مع بعض، ثم يضطلع الآباء بدورهم الملائم في تهيئة التعارف. إن الحفلات المدرسية من شأنها أن تيسِّر التفاعل بين أعضاء فريق الارتباط البالغين، بدلًا من الجمع بين الأطفال وأقرانهم. وستكون هناك أنظمة لتمهيد انتقال أطفالنا بسلاسة من شخص بالغ إلى آخر. ومع ذلك، ما هو الواقع اليوم؟ لقد دُعينا مؤخرًا أنا والمؤلف المشارك لي لإدارة ندوة للمتخصصين في مدينة كولومبيا البريطانية. وفوجئنا بمعرفة أن المدرسة الثانوية المحلية كانت تخطط لإقامة حفل تخرج دون حضور أولياء الأمور هذا العام، بحجة أن التسجيل قد وصل إلى أعداد هائلة، حيث لم تكن هناك مساحة كبيرة بما يكفي لاستيعاب جميع الطلاب وأقاربهم في الوقت نفسه. وذلك على الرغم من وجود العديد من المرافق الكبيرة في المدينة، بما في ذلك حلبة الهوكي. إن المشكلة ليست في نقص المساحة، وإنما في نقص الوعي.

ثمة وسيلة أخرى مهمة لصنع الوفاق، تتمثل في غرس المحبة بين الطرفين غير المرتبطين. وسواء كان ذلك من خلال سرد كلمات المديح، أو التعبير عن علامات التقدير، فإن هدف صانع الوفاق هو تسهيل إعجاب كلٍّ من الطرفين بالآخر. وفي كثير من الأحيان، نتخطى نحن الآباء هذه الخطوة، ونمضي في التحدث عن شواغلنا، والأمور التي سارت على نحوٍ خاطئ. إن العلاقة هي السياق المناسب للتعامل مع الطفل، وبالتالي فهي تحظى بالأولوية. لا بد من تأسيس العلاقة أولًا قبل أن نتعامل مع الأمور التي لا تجدي نفعًا. ومن الواجب

علينا كآباء أن نأخذ بزمام المبادرة. إن كل ما يتطلبه الأمر هو أن نصبح على وعي بهذا الهدف، وستأتي بقية الأمور بشكل طبيعي تمامًا. على سبيل المثال، قد نجد أنفسنا نقول للمعلم أشياء من قبيل: «لقد أحدثت تأثيرًا قويًّا على ابنتنا». «يمكننا أن نقول إن ابننا يحبك للغاية، ويحرص على أَلَّا يُخَيِّب ظنك». «كان ابننا يسأل عنك عندما كنت غائبًا. لقد افتقدك حقًّا». وقد نقول لطفلنا أشياء من قبيل: «لقد قال معلمك بعض الأمور اللطيفة عنك». «ما كان ليهتم بك إن لم تكن مهمًّا بالنسبة إليه». «لقد قال معلمك إنه افتقدك، وأعرب عن أمله في أن تتعافى قريبًا». وبإمكان المرء عادةً أن يجد شيئًا يمكن تفسيره بطريقةٍ إيجابية لتحفيز العلاقة بين الطفل والشخص البالغ المسؤول عنه.

يحتاج جميع الأطفال إلى علاقات بالبالغين، حتى لا نفقدهم في فجوات الارتباط. فعندما يحظى الطفل بوجود ما يكفي من البالغين للاعتماد عليهم في أثناء تنقله بين المنزل، والمدرسة، ومركز الرعاية النهارية، والملعب، لا يكون هناك خطر كبير من ترسُّخ التوجه نحو الأقران. وتتمثل مهمتنا في التأكد من أن الطفل مشمول بارتباط ناجح بشخص بالغ في جميع الأوقات، وأننا نعمل معًا كفريق تتابع للارتباط. ويجب علينا التأكد من أننا نجحنا في تسليم راية الارتباط قبل أن نفلتها من أيدينا. وفي الوقت الذي نُسقِطُ فيه الراية، يكون أطفالنا معرضين لخطر احتوائهم من قبل شخص آخر.

ليست هناك نهاية لطرائق صنع الوفاق التي يمكننا القيام بها. لقد بدأ برنامجٌ مَدرَسِيٌّ أطلقه الدكتور ميل شيبمان في الثمانينات بالتوفيق بين كبار السن وأطفال المدارس الابتدائية في الجانب الشرقي من مدينة تورنتو. واقتصر البرنامج على ساعةٍ واحدةٍ فقط من التواصل في الأسبوع، إلا إن التأثير الإيجابي للتفاعلات بين الأجيال كان له تأثيرات متلاحقة على المدرسة بأكملها. اعتبر العديد من الطلاب أن هذه العلاقات غيرت حياتهم، وكذلك العديد من كبار السن المشاركين. وأدى نجاح «مشروع مدينة ريفرديل المشترك بين الأجيال» إلى ظهور حركة على مستوى المقاطعة، تضم الآن مئات المؤسسات المعنية بتعزيز الروابط القائمة على الرعاية والاهتمام بين الأجيال.[1] وانتشر هذا البرنامج الشهير أيضًا في عدد من الولايات على الساحل الشرقي. الأمر المثير للاهتمام هو أن المشجعين على هذه المبادرة الرائعة،

الذين لم يكونوا على دراية بالتوجه نحو الأقران، لم يتمكنوا من إظهار نجاح برنامجهم بشكلٍ كافٍ. وبمجرد أن نأخذ التوجه نحو الأقران بعين الاعتبار، سيمكننا بسهولة فهم الآثار المفيدة للتواصل بين الأجيال. إنه يشبع حاجة عميقة لدى كلٍّ من الصغار والكبار.

إن المعلم الذي يقيم علاقةً ناجحةً مع الطالب يتمتع بالقدرة على صنع الوفاق لتسهيل العلاقات مع المعلمين والموظفين الآخرين المسؤولين عن الطفل: أمين المكتبة، والمشرف على الملعب، ومدير المدرسة، والمرشد المدرسي، ولكن خصوصًا معلم العام المقبل. ويا له من فارق ذلك الذي سيحدث إذا استخدم المعلمون قوة ارتباطاتهم الحالية لخلق علاقات ناجحة مع البالغين الآخرين الذين يحتاج الطالب إلى الاعتماد عليهم! لقد كانت معلمتي العزيزة السيدة أكربرج أفضل شيء كان من الممكن أن يحدث لي في الصف الأول، ولكن لو كانت قامت بدور صانع الوفاق مع معلمي في الصف الثاني، وسَلَّمَت إليه راية الارتباط، لما اضطررتُ إلى الانتظار حتى الصف الخامس حتى يترسَّخ الارتباط بمعلمٍ آخر.

***

انزع فتيل المنافسة

نحن نعيش في عالم ملآن بالمنافسة على الارتباط. وهناك احتمالات قائمة للصراع في كل مرة يُكَوِّن فيها طفلنا ارتباطًا جديدًا مع شخص لا تربطنا علاقة به. إن المدارس تُوَلِّد ارتباطاتٍ منافسة، وتنتج عن الطلاق والزواج من جديد ارتباطاتٌ منافسة. وغالبًا ما تتفكك قرى الارتباط القائمة على إثر الارتباطات المنافسة، مما يجعل الأطفال أكثر عرضةً للتوجه نحو الأقران. ويجب علينا نزع فتيل أكبر قدرٍ ممكنٍ من هذه المنافسات بشكلٍ واعٍ، سواء كانت هذه الارتباطات المنافسة مع أشخاص بالغين مختلفين في حياة الطفل، أو بين الوالدين والأقران.

قد يكون الارتباط المنافس أحيانًا مع ولي أمر آخر: الوالد المطلق، أو زوج الأم/ زوجة الأب، أو الوالد بالتبني. من المهم أن نخبر الطفل قدر الإمكان بأن القرب من أحد الوالدين لا يعني الابتعاد عن الآخر. إننا في حاجة إلى تغيير ما قد يبدو أنه «إما هذه العلاقات وإما تلك» إلى «هذه العلاقات وتلك». قد نفعل ذلك من خلال التحدث عن الوالد الآخر بطريقة لطيفة، وتسهيل التواصل مع الوالد الغائب. وفي بعض الأحيان، ستتلاشى المنافسة بالنسبة إلى الطفل عندما يتمكن من رؤية والديه يتواصلان معًا بطريقة ودودة، كالجلوس جنبًا إلى جنب في حفلٍ مدرسي، والهتاف معًا في مباراة البيسبول التي يشارك فيها الطفل، ودعم الطفل في حفلٍ موسيقي. ورغم صعوبة تجاوز البالغين خلافاتهم، فإن الأمر يستحق العناء. ولن يكون من الممكن الحفاظ على قرية الارتباط فحسب عندما لا يتطلب القرب من أحد الوالدين الابتعاد عن الآخر، بل ويمكن توسيع نطاقها.

إن الأمر الأكثر شيوعًا هو أن المنافسة، الفعلية أو المحتملة، لا تكون مع البالغين الآخرين، بل مع أقران الطفل. وهناك المئات من الطرائق لنزع فتيل هذه الحالة من الانقسام. في المقام الأول، يمكننا تنمية العلاقات مع أصدقاء طفلنا بأنفسنا، مما يضمن بقاءنا في الصورة، وأن علاقاته تشملنا أيضًا. قد يستلزم ذلك على سبيل المثال الرد على الهاتف، وتحية المتصلين بطفلك بأسمائهم، بل وحتى خوض بعض المحادثات. إن الأطفال بمجرد أن يكونوا متوجهين نحو الأقران بشكلٍ كافٍ، فإنهم غالبًا ما يفضِّلون التظاهر بأننا غير موجودين أصلًا. وأملنا الوحيد لمواجهة ذلك هو الإصرار على أن نكون حاضرين - بطريقةٍ ودودةٍ طبعًا. ينطبق الشيء نفسه على المجيء إلى المنزل. إن السماح لأصدقاء أطفالنا بالدخول من الباب الخلفي أو الباب الجانبي يُمَكِّنُهم من الهروب من طقوس الارتباط العادية، المتمثلة في تحية أفراد الأسرة والتعرف إليهم. وبالمثل، فإن تخصيص منطقة منفصلة في المنزل حيث يمكن للأطفال عزل أنفسهم عنا هو آخر ما نودُّ فعله. إننا نريد أن نجذبهم إلى مساحات المعيشة المشتركة، حيث يمكننا الحفاظ على التواصل، وتحطيم عقلية «إما هذا وإما ذاك». فعندما يتعلق الأمر بالارتباط، يُرَجَّح أن يصبح أولئك الذين ليسوا على علاقة بنا منافسين لنا. والأمر الذي أحيانًا ما يكسر الحواجز ويُدخِلهم في علاقة معنا هو تقديم الطعام لهم في جوٍّ أُسَري.

إنني أدرك أن هذا النوع من التدخل ليس سهلًا، ولكنني أتحدث عن تجربةٍ شخصيةٍ عندما أقول إنه يستحق العناء، وكذلك الحرج الذي قد تشعر به عندما تجربه أول مرة.

عندما يصل الأطفال إلى مرحلة المراهقة، عادةً ما يكون هناك ضغط على الآباء لتسهيل الحفلات واللقاءات بين الأقران. وإذا كان التوجه نحو الأقران يسود الأجواء، فإن الرسالة الضمنية أو الصريحة الموجهة إلى الآباء هي أن يختفوا عن الأنظار خلال هذا الوقت. وأكرر مرةً أخرى: من المهم بالنسبة إلى الوالدين الإمساك بزمام المبادرة، وإحباط محاولات الاستقطاب، وخلق العادات. إنه بحلول الوقت الذي وصلت فيه بريا، ابنتنا الثالثة، إلى هذا العمر، كنا قد أتقنا ممارسة هذه الحيلة. وعندما جاء الطلب الحتمي مصحوبًا بالمناشدة بأن نختفي عن الأنظار، أخذنا بزمام المبادرة. نعم، بالطبع يمكنها إقامة الحفلة. لا، بالطبع لن نختفي عن الأنظار. في الواقع، لقد كنا مُضِيفَين نشيطين للغاية، وقدمنا وليمةً لا يمكن لأيٍّ من أصدقائها أن يرفضها. وقررتُ أن أقوم بالشواء، حتى أتمكن من سؤال كل ضيفٍ عما يريده، وكيف يريده. وفي هذه الأثناء، كانت خطتي غير المعلنة هي اقتحام مساحتهم بطريقة ودودة، والنظر إلى أعينهم إن أمكن ذلك، والتماس الابتسامات والإيماءات، ومعرفة أسمائهم، ومحاولة تذكرها، وتقديم نفسي أيضًا. لقد جَنَّدتُ إخوة بريا الصغار ليعملوا نادلين. وقد كانت الرسالة واضحة: الارتباط ببريا يعني الارتباط بأسرتها. لقد كانت بريا مثل صفقةٍ واحدة. وعندما طرحنا خطتنا لأن نكون مضيفين نشيطين وظاهرين، كان أول رد فعلٍ لبريا هو الشعور بالإحراج! لقد انتابها الشك حيال إمكانية نجاح هذا الأمر. وكانت تخشى ألا يأتي أيٌّ من أصدقائها، وأنهم إنْ جاؤوا فلن يتحدثوا معها بعد ذلك مرةً أخرى. ولم يكن لمخاوفها أي أساس من الصحة. إنني بالتأكيد لم أتمكن من تحقيق تقدم في التعارف على الجميع، ولكنني أشك في أن الذين فشلت معهم كانوا سيميلون إلى الحضور مرةً أخرى على أي حال. وكان الأطفال الذين نجح الأمر معهم أكثر ميلًا إلى إقامة علاقة مع ابنتنا من نوعية العلاقات التي لا تتنافس معنا.

هناك طريقة أخرى لنزع فتيل المنافسة المحتملة، وهي تعزيز العلاقات مع أولياء أمور أصدقاء أطفالنا. إننا لو كنا في إحدى قرى الارتباط التي كانت

موجودة سابقًا، لكنا على تواصل بالفعل مع آباء الأطفال الذين يتفاعل معهم أطفالنا. وبما أننا لا نعيش في مثل هذا العالم، فالخيار الوحيد أمامنا هو بناء القرية من البداية: من أقران أطفالنا، وصولًا إلى آبائهم. وإذا فشلنا في القيام بذلك، ظَلَّ عالم الارتباط الخاص بأطفالنا منقسمًا ومفككًا، ومجبولًا على المنافسة المتأصلة. إننا قد لا نكون قادرين على اختيار أصدقاء أطفالنا، ولكن إذا تمكنا من إقامة علاقات ودية مع الآباء، حققنا بعض الانسجام والوحدة في عالم الارتباط الخاص بهم. هل يمكننا النجاح دائمًا في القيام بذلك؟ بالطبع لا. قد تكون الاختلافات كبيرةً جدًا، حيث لا يمكن سد الفجوات بينها. ولكن على الأقل ينبغي أن نحاول، فالمخاطر أشد من أن نتجاهل أي فرصة.

لقد كنت أنا وزوجتي محظوظين فيما يتعلق بهذا الأمر مع بريا. كان والدا اثنتين من صديقاتها المقربات أكثر تقبلًا لفكرة تعزيز العلاقات الهادفة إلى دمج عوالم الفتيات معًا. لقد طورنا بالفعل علاقات جيدة مع صديقات بريا، وقام الآباء الآخرون أيضًا بأدوارهم. وكانت خطتي هي نزع فتيل المنافسة المحتملة، وخلق عالم لا يكون فيه القرب من الأقران على حساب القرب من الوالدين. لقد سار بناء القرية بشكل أفضل مما كنت أتخيله. وكانت ليلة رأس السنة هي ما زادت الأمر روعة. قبل وقتٍ من الحدث، شارك كل واحد منا في الأسرة أمانيه حول ما يود أن يحدث في هذا المساء المميز، وما أردنا أن يعنيه لنا. لم يكن حلم بريا أن تجتمع مع أصدقائها المقربين فحسب، ولكن مع أسرهم أيضًا، بما في ذلك ضيوفهم. وقد دعوناهم جميعًا إلى منزلنا، وقضينا المساء ونحن مستمتعون بعضنا بصحبة بعض. وشربنا نخب الشابات اللواتي ألهمننا لبناء قرية من العدم، وخلق روابط لم تكن لتوجد لولا ذلك. لقد كان هذا الحدث دليلًا على حقيقة أنه عندما لا يتنافس الأقران والآباء، يمكن لأطفالنا أن يحظوا بهم جميعًا.

إن الأقران والآباء لا يعيشون في عوالم مختلفة إلا عندما ينقسم عالم الارتباط الخاص بالأطفال. ويتمثل التحدي الذي نواجهه في بناء كل من: علاقات ارتباط مع أطفالنا، وقرية ارتباط يعيشون فيها، من النوع الذي يمكن فيه احتواء الأقران دون استبعاد الوالدين.

نظرًا إلى أن الطفولة تعتمد على عدم النضج، فإن مدة مرحلة الطفولة تتزايد في مجتمعنا. وفي الوقت نفسه، نظرًا إلى أن الوالدية الحقيقية هي مسألة تدور حول العلاقة، ولا تحدث إلا في إطار ارتباط الطفل بنا بقوة، فإن مدة ممارسة الوالدية المباشرة تتناقص بسرعة. وهنا يظهر التوجه نحو الأقران: عندما تنحرف الارتباطات، نفقد أدوارنا الوالدية. إن غياب الوالدية قبل نهاية مرحلة الطفولة يعد أمرًا كارثيًّا بالنسبة إلى الوالدين والطفل على حد سواء. فعندما يتم تجريدنا من أدوارنا الوالدية، يفقد أطفالنا السمات الإيجابية للطفولة. فهم يبقون غير ناضجين، ولكنهم يُحرَمون البراءة، والضعف، والانفتاح الطفولي اللازم للنمو، والاستمتاع المطلق بما تقدمه الحياة. إنهم يُحرَمون كامل ميراثهم كبشر.

من سيربي أطفالنا؟ الإجابة الواضحة، والإجابة الوحيدة المتوافقة مع الطبيعة، هي أننا –الآباء وغيرهم من البالغين المعنيين برعاية الأطفال– يجب أن نكون مرشديهم، ومُرَبِّيهم، وقدواتهم. إننا نحتاج إلى التمسك بأطفالنا إلى أن تنتهي مهمتنا. ونحن في حاجة إلى التمسك بهم، ليس لأسباب أنانية، ولكن لكي يتمكنوا من المضي قدمًا، وليس لإعاقتهم، ولكن لكي يتمكنوا من تحقيق مصائرهم النمائية. إننا في حاجة إلى التمسك بهم إلى أن يتمكنوا هم من التمسك بذواتهم.

الجزء السادس

الملحق الإضافي عن العصر الرقمي (كيف نتمسك بالأطفال في عصر الإنترنت والهواتف المحمولة وألعاب الفيديو)

18

انحراف الثورة الرقمية عن مسارها

لقد طرأ أمرٌ مهمٌّ حقًّا بعد إصدار النسخة الأولى من كتاب «تمسك بأطفالك». بالنظر إلى الوراء، يمكننا القول إن هذا الكتاب قد تنبأ بوضوح بتأثير الثورة الرقمية، التي أصبحت تهيمن على عالمنا وعالم أطفالنا خلال تلك السنوات. ولكن لم يكن بإمكانه أن يتصور هذا التأثير بشكل كامل. وأقل ما يمكن أن يُقال عن هذا التأثير إنه كان مأساويًّا. إن التطورات التكنولوجية التي كانت –ولا تزال– تمتلك قدرة هائلة على تحقيق النفع، تسببت بدلًا من ذلك في انتكاسة ثقافية كبرى. وما لم نعد إلى رشدنا، فستعمل انعكاسات التحول الرقمي على إعاقة النمو السليم لأطفالنا أجيالًا قادمة.

ما الذي حدث؟ كيف نفهم الاتجاه الذي دفعتنا إليه الثورة الرقمية؟ ما هي الانعكاسات المترتبة على التربية في العصر الرقمي؟

بحلول عام 2010، كانت نسبة 73% من المراهقين أعضاء في شبكة اجتماعية واحدة على الأقل على الإنترنت، وبحلول عام 2012، أصبح هناك مليار مشترك في «فيسبوك» على مستوى العالم. لقد أظهرت الدراسات أن الملايين من المراهقين هم بالفعل أعضاء في فيسبوك، على الرغم من أن

الموقع ينص على أنه لا يفترض بأي شخص دون سن الثالثة عشرة إنشاء حساب عليه. ويرسل المراهق العادي أكثر من ثلاثة آلاف رسالةٍ نصيةٍ شهريًّا![1]

لقد أشارت مجلة «طب الأطفال» (The Journal of Pediatrics) في عام 2011 إلى أنه خلال السنوات الخمس الماضية، زاد عدد الأطفال قبيل سن المراهقة والمراهقين الذين يستخدمون مواقع «التواصل الاجتماعي» بشكل كبير.

وحسب ما جاء في إحدى النشرات: «أفاد استطلاع حديث أن نسبة 22٪ من المراهقين يقومون بتسجيل الدخول إلى موقع التواصل الاجتماعي المفضل لديهم أكثر من 10 مرات يوميًّا، ويقوم أكثر من نصف المراهقين بتسجيل الدخول في أحد مواقع التواصل الاجتماعي أكثر من مرةٍ واحدةٍ يوميًّا. ويمتلك 75٪ من المراهقين الآن هواتف محمولة، ويقوم 25٪ باستخدامها في الدخول إلى مواقع التواصل الاجتماعي، ويستخدمها 54٪ في إرسال الرسائل النصية، ويستخدمها 24٪ في تبادل الرسائل الفورية». إن النتائج التي تستنتجها هذه النشرة المهمة تنذر بوضع سيئ: «وبناءً عليه، يحدث جانب كبير من التطور الاجتماعي والنفسي لهذا الجيل خلال استخدامهم الإنترنت والهواتف المحمولة».[2]

أضف إلى ذلك الإحصائيات المُقلِقَة المتعلقة بالمواد الإباحية على الإنترنت، ووجود التنمر عبر الإنترنت، وشيوع الألعاب. ونحن نرى الكثير من الأسباب التي تدعونا للقلق إزاء قضاء الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 8 و18 عامًا في المتوسط أكثر من عشر ساعات يوميًّا في التعامل مع وسائل التكنولوجيا المختلفة.

كثيرًا ما يتواصل معنا، نحن مؤلفي هذا الكتاب، الآباء الذين يشعرون بالقلق حيال تأثير وسائل الإعلام الإلكترونية على الأطفال، ويريدون معرفة كيفية التحكم في استخدام أطفالهم أجهزة الحاسوب، والألعاب، والأجهزة الإلكترونية الأخرى، ومتى يتيحون استخدام هذه التكنولوجيا للأطفال. وقد كُتِبَت هذه الفصول بهدف تناول هذه الشواغل. ومع ذلك، وكما هي الحال مع التربية بشكل عام، فإن الأمر لا يتعلق بممارسات أو نصائح محددة. لقد أكدنا

طوال الوقت على أن التربية ليست مجموعة من المهارات والسلوكيات، ولكنها علاقة في المقام الأول. وكما تقول العبارة المقتبسة في بداية هذا الكتاب، فإنه من دون فهم العلاقات، فإن أي خطة عمل لن تُوَلِّدَ إلا صراعًا. إن ما نقدمه هنا ليس وصفةً دقيقة، وإنما هو فهم وتفسير، إلى جانب بعض الإرشادات العامة. كما إن كيفية تطبيق ذلك على كل طفل وكل أسرة تعتمد على قدرة الوالدين على تعزيز العلاقة الضرورية مع أولادهم. ولا توجد توصيات محددة يمكن تقديمها حسب العمر؛ تُملي علاقة الطفل بالوالدين ومستوى نضجه النفسي ما يجب القيام به. ولذلك، فإنه من العبث اقتراح قواعد صارمة تنطبق على الجميع.

إذن كيف نفهم تأثير التحول الرقمي على حياة أطفالنا؟ إن تمييز ملامح ظاهرة كبيرة جدًّا، التي ما زلنا في خضمها، يشبه محاولة تحديد شكل سحابة قد أظلتنا. فمن دون معرفةٍ عمليةٍ بأبرز دافع إنساني (الارتباط)، يستحيل تفسير ما حدث.

إن الارتباط هو المفتاح لتفسير المنحى الذي اتخذته الثورة الرقمية. كما إن فهم التوجه نحو الأقران على وجه الخصوص يعد ضروريًّا لمراعاة الحقائق والأرقام المعنية. ومن دون هذا الفهم، تصبح الحقائق والأرقام مُحَيِّرة. كما إنه لا يمكننا من دون تقدير مركزية الارتباط في حياة الإنسان أن نفسر الانتشار الواسع لوسائل التواصل الاجتماعي، أو ديناميات التنمر عبر الإنترنت، أو الجاذبية المغرية لألعاب الفيديو والمواد الإباحية عبر الإنترنت - كل القضايا التي سنتعمق في بحثها في هذين الفصلين حول العصر الرقمي.

لقد اتسم الوسط الثقافي الذي كُتِبَ فيه كتابنا بالفعل بتوجه متزايد لصغارنا نحو الأقران، ولكن كان ذلك قبل إطلاق فيسبوك، وظهور تويتر على الساحة، وقبل أن تستحوذ ألعاب الفيديو على انتباه شبابنا، وقبل أن تُشَكِّلَ المواقع الإباحية عبر الإنترنت نسبة 30 في المئة من النشاط على الإنترنت، وقبل أن يخطر على بال أي شخص أنه في غضون سنوات قليلة ستكون نسبة 90 في المئة من الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 8 و16 عامًا قد شاهدوا المواد الإباحية على الإنترنت. ولم يعرب الأطباء بعد عن قلقهم إزاء

الآثار الضارة لقضاء الوقت أمام الشاشات على صحة الأطفال، كما إنهم لم يُصدِروا بعد تحذيراتهم بشأن الإدمان المتزايد للإنترنت.

وبغض النظر عن المواد الإباحية، قد يتساءل البعض: «ما الخطأ في قضاء الصغار الكثير من الوقت على الإنترنت بحثًا عن المعلومات؟ أو من أجل التسلية؟ هل هناك حقًا مشكلة في ذلك؟».

عندما ظهرت الأجهزة الرقمية أول مرة لإدارة المعلومات، كان من المفترض أنها ستستخدم إما في العمل، وإما في التعليم، وإما في الترفيه. لقد طَوَّر العلماء شبكة الإنترنت كوسيلة لنقل البيانات المعقدة بسرعة وكفاءة. وكانت الفئة الأولى المستهدفة لاستخدام الهواتف الخلوية هي مجتمع رجال الأعمال، أما الحواسيب، فكانت تستهدف المجتمع التعليمي. وعلى كل حال، فإننا نحتاج إلى المعلومات من أجل البحث العلمي أو إدارة الأعمال، والتعليم يتمحور حول إيصال المعلومات إلى الطلاب. وفي عام 2004، أعلنت «جوجل» عن رسالتها، المتمثلة في تنظيم المعلومات حول العالم، وجعلها مفيدة ومتاحة للجميع. لقد وصل عصر المعلومات رسميًّا. وقد كان هذا هو السياق الذي وضعنا فيه الأجهزة الرقمية في أيدي أطفالنا.

***

الخلل الأساسي: تجاهل الارتباط

لقد كان هناك خلل أساسي في الافتراضات المحركة للثورة الرقمية. في صميم جوهرنا، ليست المعلومات عن العالم هي التي يسعى إليها البشر، ولا حتى الترفيه. وعندما يتعلق الأمر بإشراك آليات الانتباه في أدمغتنا، لا تحظى المعلومات ولا الترفيه بالأولوية. في الواقع، تحتل المعلومات مرتبةً منخفضةً للغاية في التسلسل الهرمي للأهمية في أدمغتنا، فمن المرجح أن يتم تجاهلها بدلًا من الانتباه إليها. إن الدماغ يتجاهل معظم المعطيات الحسية والإدراكية التي تصل إليه، خشية أن يغفل عما هو ضروري في أية لحظة.

كما رأينا خلال هذا الكتاب، إن حاجتنا الأساسية والغالبة هي التآلف. يعتبر الترابط هو الأمر الذي نسعى إليه، وليس المعلومات الواقعية عن العالم. ويتوق البشر –البالغون عادةً، ولكن خصوصًا الصغار غير الناضجين– إلى الحصول على معلومات. ليست عن العالم، وإنما عن حالة الارتباط. إننا نرغب في التيقن من أننا ننتمي إلى أولئك الذين نهتم بأمرهم، فنحن نهتم بأن يُنظَرَ إلينا كأننا مشابهين لأولئك الذين نُقَدِّرُهم، وأن نكون مهمين بالنسبة إليهم، وأن ننال إعجابهم، وأن نكون مرغوبين ومفهومين من جانبهم، وأن نكون فارقين. إننا مدفوعون إلى معرفة ما إذا كنا مدعوِّين إلى القرب من الآخرين أم لا، ونقدم أنفسنا على أمل أن تُوجَّه إلينا هذه الدعوة في وقتٍ قريب.

إن العمل ليس هو أهم أولوياتنا، ولا التعلم، ولا الترفيه. الأمر الذي يشكِّل تفاعلاتنا أكثر من أي عامل آخر هو الارتباط، سواءً كنا نتفاعل وجهًا لوجه، أو عن طريق البريد، أو الهاتف، أو عبر الإنترنت. وقد تكون التكنولوجيا مستحدثة، ولكن الديناميات قديمة قدم البشرية.

ليس من المستغرب، بل ومما يتماشى مع المنظور المبين في هذا الكتاب، أن التكنولوجيا المذهلة المُصَمَّمة في الأصل من أجل المعلومات قد تم استغلالها في البحث عن التواصل. ومن خلال الإلهاء والتسلية، أصبحت أيضًا مثل تعويضٍ عن احتياجات أطفالنا الـمُحبَطة من الارتباط. ولكن التعويض عن مطلب أساسي لن يحل الأزمة أبدًا، ولا يمكنه سوى أن يؤدي إلى تفاقمها. إن وسائل الإعلام الرقمية تسبب الإدمان لأولئك الضعفاء. ويستخدم أطفالنا هذه الوسائل بشكل أكبر من أجل تكوين العلاقات والحفاظ عليها بدلًا من التعلم، ومن أجل الهروب من المشكلات بدلًا من حَلِّها.

بمجرد أن يفهم المرءُ الحاجةَ إلى التآلف، تتضح المعضلة الإنسانية الأساسية: كيف يكون قريبًا عند الافتراق. هناك عدة جوانب لهذه المشكلة: كيفية شعور المرء بالارتباط بالأشخاص الذين ينفصل عنهم جسديًّا، وكيفية شعور المرء بالقرب عندما لا يشعر حقًّا بأنه مرغوب فيه، وكيفية الشعور بالحظوة، وكيفية الشعور بالأهمية عندما لا نبدو مهمين بالنسبة إلى أولئك الذين نهتم بأمرهم.

يمكننا حل المشكلة من خلال إضافة العشرات أو المئات من «الأصدقاء» على تطبيق الفيسبوك، الذين سيبدون «الإعجاب» بنا في غياب أية علاقة حميمية حقيقية. وتعد هذه السيناريوهات جذابة إلى أبعد حد، لأنها تمنحنا الأحاسيس العابرة التي نرغب فيها بشدة. إنها نَدَّاهات العصر الحديث. إنها تأخذنا إلى حيث نريد أن نذهب، دون أي إشارة للمخاطرة التي ينطوي عليها الأمر، ولا أي تلميح إلى ما يقبع على ذلك الطريق. يمكن أن تصبح هذه الحلول للارتباط أكثر جاذبيةً من الحياة الحقيقية، وهي كذلك بالنسبة إلى العديد من الصغار. وليس من النادر –على سبيل المثال– رؤية الآباء صغار السن يتجاهلون أطفالهم في أثناء الانشغال بتبادل الرسائل النصية، وغيرها من الاتصالات الإلكترونية.

إذن هل لا توجد أي طريقة آمنة أو فعالة لتعريف شبابنا بمزايا هذا العصر الرقمي؟ كما سنوضح في الفصل التالي، إنها مسألة توقيت. إذ يمكن السماح للأطفال والمراهقين باستخدام التكنولوجيا بطريقة آمنة، ولكن فقط عندما يكونون مستعدين لذلك، أي عندما يكونون قد تطوروا بما فيه الكفاية، حيث يؤدي استخدام التكنولوجيا إلى تعزيز نموهم بدلًا من تقويضه. وتكون مهمتنا في هذه الأثناء هي عدم وضع الإغراءات في طريقهم.

وإلى أن يصبح الصغار مستعدين، فإن ما يقدمه العالم الرقمي لهم ليس هو ما يحتاجون إليه. في الواقع، إنه يتعارض مع ما يحتاجون إليه، كما سيتبيَّن لنا في السطور التالية.

***

الاتصالات الرقمية تسمح للأطفال المتوجهين نحو الأقران بالبقاء معًا حتى عند افتراقهم

لقد كان المجتمع التقليدي يتمحور حول الارتباطات الهرمية بين الأجيال، وليس حول الارتباطات بالأقران. وكان البيت مثل وعاء للأسرة، وكانت القرية توفر فريق الارتباط الداعم. أتذكر أنني سألت الناس في قرية رونيه، حيث

استمتعنا بعطلة مطولة في بروفنس، عن سبب انخراط عددٍ قليلٍ منهم في شبكات التواصل الاجتماعي الرقمية.[1]* كانت الإجابة عادةً تأتي في عبارات على غرار: «ولِمَ قد نرغب في ذلك؟ إننا جميعًا هنا». ليست هناك حاجة إلى الاستعاضة بالتواصل الرقمي عندما تكون بالفعل مع أولئك الذين يهمونك أكثر من أي أحد. لقد مررنا بتجربة مشابهة في بالي مؤخرًا.

على الرغم من ذلك، فمع ترسخ التوجه نحو الأقران في الحضارة الغربية، بدأت تظهر مشكلة ما. لقد أصبحت المدرسة تربةً خصبةً للتوجه نحو الأقران، كما صارت مثل ملتقى الأطفال المتوجهين نحو الأقران. وباتت فترة الفُسحة، وساعة الغداء، وأنشطة ما بعد المدرسة مع الأقران هي عادات الارتباط التي حلَّت محل الوجبات العائلية، والنزهات العائلية، ووقت اللعب العائلي، ووقت القراءة العائلي. ويذهب معظم الأطفال المتوجهين نحو الأقران إلى المدرسة ليكونوا مع أصدقائهم، وليس للتعرف على عالمهم.

كيف يحافظ الأطفال المتوجهون نحو الأقران على قربهم من أقرانهم في المساء؟ وفي عطلات نهاية الأسبوع؟ والإجازات؟ وماذا سيحدث عندما يتركون المدرسة؟ كما نعلم جميعًا، وكما شهدنا من قبل، لا يوجد شيء أكثر تأثيرًا من الناحية النفسية من مواجهة الانفصال عن أولئك الذين نرتبط بهم. إن الخوف الناشئ عن ذلك يكون شديدًا، ويصبح السعي وراء القرب مستميتًا. كما يستحوذ الدافع إلى سد الفجوة على كل الاهتمام.

أعتقد أن هذه هي القوة التي حَوَّلت الثورة الرقمية إلى الشكل الذي نراه الآن. تَذَكَّر أن الارتباط هو أقوى قوة في الكون. وقد أصبحت الأجهزة الرقمية المصممة لخدمة التعليم وإدارة الأعمال موجهةً لربط الأقران بعضهم ببعض. لقد باتت الثورة الرقمية ظاهرة للترابط الاجتماعي بكل معنى الكلمة.

إن الإحصائيات هي خير دليلٍ على ذلك. تشير التقارير إلى أن استخدام الإنترنت وصل الآن إلى نسبة 100 في المئة بين الأفراد الذين تتراوح أعمارهم بين 12 و24 عامًا، مع قضاء 25 في المئة من الوقت المستغرق في التفاعل على وسائل التواصل الاجتماعي. ويعتبر هذا قدرًا كبيرًا من الوقت عندما تضع

---

(1) كما سبق في الأجزاء السابقة من هذا الكتاب، تُشير صيغة المتكلم دائمًا إلى جوردون نيوفيلد.

في اعتبارك -كما ذكرنا سابقًا- أن الأطفال العاديين الذين تتراوح أعمارهم بين ثمانية أعوام وثمانية عشر عامًا يقضون عشر ساعات وخمسًا وأربعين دقيقة يوميًّا في استخدام الأجهزة الرقمية.

في الواقع، لقد أتاح تطبيقا فيسبوك وريترن (الفيسبوك الصيني) أن تستمر فترة الفسحة إلى الأبد؛ يمكن للأطفال الآن قضاء الوقت بعضهم مع بعض طوال اليوم. إن مواقع التواصل الاجتماعي هذه كانت قد انطلقت من الكليات لخدمة طلابها المتوجهين نحو الأقران، وقد أصبحت الآن هي وسائل التواصل بالنسبة إلى أولئك المتوجهين نحو الأقران في جميع أنحاء العالم.

غالبًا ما أتساءل عما كان سيحدث لو حدثت الثورة الرقمية قبل أن يترسخ التوجه نحو الأقران، ولكن بعد زيادة التنقل، وندرة الوظائف، وبعد أن فَرَّقت معدلات الطلاق المرتفعة بيننا وبين أولئك الذين نحبهم. ولولا التوجه نحو الأقران، فلربما نشأت ثقافة لربط الأطفال رقميًّا بآبائهم، ومدرسيهم، وأعمامهم، وعَمَّاتهم، وأخوالهم، وخالاتهم، وأجدادهم، وجداتهم. قد يقرأ الآباء قصص ما قبل النوم لأطفالهم من خلال هذه الأدوات الرقمية عندما يكونون بعيدين عن المنزل، ويخلق المعلمون والطلاب سياقًا من التواصل لتسهيل التعلم، ويتواصل الأجداد مع أحفادهم عندما يكونون بعيدين عنهم.

وعلى ذكر هذه النقطة الأخيرة، فعندما كنت أنا وزوجتي في بالي في عطلة قصيرة، استخدمنا شبكة الإنترنت الضعيفة التي استطعنا الوصول إليها للتواصل مع أحفادنا عبر تطبيق «سكايب» كل بضعة أيام أو نحو ذلك. ولم يكن الأمر سهلًا، إذ إن الهوائي الذي كان في مُجَمَّعنا السكني، الذي جعلنا على اتصال بشبكة الإنترنت في القرية، كان غالبًا ما يتم تعطيله بسبب الطيور التي كانت تقف عليه. لقد أصبحتُ بارعًا في رمي الحجارة، حيث كنت متحفزًا للتواصل مع أحفادنا على الجانب الآخر من العالم. وحتى يومنا هذا، أحظى بأروع رد فعلٍ شَرطيٍّ مُسببٍ للقشعريرة كلما سمعت نغمة تطبيق السكايب، حيث أتطلع إلى قضاء وقت ممتع في التواصل مع أحبائي البعيدين. هناك الكثير ممن يستخدمون الأجهزة الرقمية ووسائل التواصل الاجتماعي لهذا الغرض، وهو أمر جدير بالثناء. ولكن الحقائق والأرقام تشير إلى أن أولئك

الذين يستخدمون شبكات التواصل الاجتماعي بهذه الطريقة ليسوا هم الذين يشكلون هذه الظاهرة. إن الأقران هم الذين يتحكمون في موجات الإنترنت.

***

الثورة الرقمية تدعم التوجه نحو الأقران وتعززه

إذا كان التوجه نحو الأقران قد شكَّل الثورة الرقمية، فإن الثورة الرقمية تدعم التوجه نحو الأقران وتعززه.

أولًا: من المرجح أن يتواصل أولئك الذين يمتلكون أجهزةً رقميةً ويتمتعون بالكفاءة التقنية لاستخدامها بعضهم مع بعض. وكما يمكن لأي شخص بالغ غير بارع في التكنولوجيا عبث من قبل بجهاز مُعَقَّد للتحكم عن بعد أن يشهد، فإن هذه الديناامية تدعم الصغار وعلاقاتهم بعضهم مع بعض بلا شك. وبالمقارنة، فإن الاجتماع لمشاركة وجبة طعام عادةً ما يكون داعمًا للارتباطات بين الأجيال.

ثانيًا: تُملي مواقع التواصل الاجتماعي -بالإضافة إلى التكنولوجيا الرقمية في حد ذاتها- طبيعة التواصل. إنها تُحَبِّذ الاتصال السطحي على الحميمية العاطفية والنفسية. إن الأجهزة الرقمية بصفة خاصة، ووسائل التواصل الاجتماعي بصفة عامة لا تجعل من السهل مشاركة مشاعر المرء مع الآخرين، ناهيك بكل ما يكمن في قلبه. وما يتم مشاركته غالبًا ما يكون مصطنعًا وسطحيًّا. فمن الصعب عند تبادل الرسائل النصية التعبير عن سعادة المرء بالآخر، أو فرحته به. ومن الصعب التعبير عن بريق العينين، والصوت الدافئ الجذاب. وفي المقابل، يتم التأكيد على الديناميات السطحية للتشابه -هل نحب الأشياء نفسها والأشخاص أنفسهم؟- بدلًا من التأكيد على ما نحن عليه في جوهرنا وصميمنا. ولا يوجد إفصاح حقيقي عن الذات من شأنه أن يؤدي إلى معرفة المرء فعلًا. وتصبح الأهمية -أن يكون المرء مهمًّا بالنسبة إلى أولئك الذين يسعى إلى التواصل معهم- مقتصرة على ترك انطباعٍ إيجابيٍّ بدلًا من السعي إلى الحصول على دعوة مفتوحة لنكون على طبيعتنا حقًّا

بالقرب من الآخرين. وعلى هذا النحو، تجذب التكنولوجيا وتكافئ أولئك الذين يحظون بارتباطات سطحية: غير الناضجين، وغير المتطورين، والمتوجهين نحو الأقران.

أجرت عالمة النفس شيري توركل في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا مقابلات مع مئات الشباب حول حياتهم المعتمدة على الإنترنت من أجل كتابها «وحيدون ونحن معًا». وحسب تقرير في مجلة «نيوزويك»: «يخبرها الناس أن هواتفهم وحواسيبهم المحمولة هي «منبع الأمل» في حياتهم، و«المصدر الذي تأتي منه السعادة»».

ثالثًا: العادات، والتقاليد، والمحظورات التي تطورت عبر التاريخ لحماية الأسرة والارتباطات بين الأجيال لا تحكم العالم الرقمي. إن الثقافات التقليدية، تلك الثقافات التي لا تزال العلاقات بين الأجيال فيها تحظى بالاحترام، ملآنة بالعادات التي تحكم أمورًا مثل مَنْ يمكنه التحدث إلى مَنْ، وما نوع اللمس المسموح به، ومَنْ يمكنه أن يأكل مع مَنْ، ومع مَنْ تتم مشاركة الأسرار، وما إلى ذلك. إن هذه الأنشطة تعزز الارتباط، وبالتالي يجب التحكم فيها. ولكي تعيد الثقافة فرض نفسها، ولكي تكون تربية الأطفال ممكنة وناجحة، لا بد من الحفاظ على الارتباطات الهرمية. إن العالم الرقمي يخلو نسبيًّا من أي عادات، أو تقاليد، أو محظورات من شأنها حماية الارتباطات العائلية والعلاقات الهرمية. إن المعلومات نفسها ليست مُرَتَّبة هرميًّا من حيث الأهمية أو القيمة. وكل شيء يقع على خط مستقيم: المساواة هي القاعدة. حتى الأحرف الكبيرة تفقد مكانتها.

وبناءً عليه، فإن التوجه نحو الأقران لم يصبح القوة المحركة للثورة الرقمية وأدواتها فحسب، بل هو أيضًا محصلتها النهائية. ونحن ربما نكون قد وضعنا الأجهزة الرقمية بين أيدي أطفالنا لأسباب منطقية، ولكنهم بدورهم أعادوا توظيف هذه الأجهزة للتواصل بعضهم مع بعض، سواء على المستوى الفردي، أو الجماعي. والنتيجة هي المزيد من الانهيار الكارثي للأسس اللازمة للتطور الإنساني السليم.

***

لماذا ينبغي أن نشعر بالقلق الشديد تجاه أطفالنا وشبابنا الذين يتواصلون بعضهم مع بعض من خلال الأجهزة الرقمية؟ وحتى لو لم يكن هذا هو ما يحتاجون إليه، فما داموا يحصلون على ما يحتاجون إليه حقًّا من البالغين في حياتهم، ألا ينبغي أن يكون هذا أمرًا مقبولًا؟ ألا يمكن أن تكون هناك أنواع مختلفة من نشاط الارتباط، على أن يكون التواصل الاجتماعي الرقمي مجرد نوع واحد من بينها؟

يبدو هذا الأسلوب في التفكير منطقيًا للغاية - لو كان الأمر على هذا النحو. المشكلة هي أن نشاط الارتباط التكنولوجي الذي ينخرط فيه أطفالنا يعمل مثل الأعشاب الضارة المستديمة والمنتشرة، التي تسيطر في النهاية على الحديقة، وتزاحم جميع النباتات الأخرى المتجذرة هناك. ومما يثير القلق، أن العلاقات الاجتماعية المعتمدة على الوسائل الرقمية تتعارض مع ما يحتاج إليه الأطفال حقًّا.

إن الهدف الأساسي من الارتباط هو التحرر، أن يكون المرء قادرًا على أن يستريح من الحاجة المُلِحَّة إلى البحث عن الارتباط. وينبع النمو من حالة الطمأنينة هذه. وعندما يتعذر الشعور بالطمأنينة، يتوقف النمو. وإذا كان نشاط الارتباط لا يؤدي إلى الإشباع، فإنه سيعجز عن تعزيز النضج، فالقلق شديدٌ جدًّا، والضعف لا يُحتَمَل. فمن أجل النمو العاطفي، يحتاج الأطفال إلى البقاء في حالة من الضعف، ولكي يكونوا قادرين على البقاء في حالة من الضعف، يحتاجون إلى الشعور بالأمان.

في ظل المساعي غير المثمرة، والعلاقات الجوفاء، تزداد الرغبات الشديدة قوةً، وتصبح المخاوف أكثر إلحاحًا، وأشد هوسًا. فنحن عندما نأكل طعامًا بلا قيمة غذائية، يزداد استهلاكنا الطعام. أعتقد أن هذا يوضح قصة التواصل الاجتماعي. ومن المفارقات أن نجاح تطبيق فيسبوك لا يعود إلى كونه فَعَّالًا للغاية، وإنما السبب المعاكس تمامًا: فهو لا يجدي نفعًا. فالارتباط لا يستقر أبدًا، ولا يتم الاكتفاء من السعي إلى القرب إطلاقًا. لقد صدق الطبيب والباحث فنسنت فيليتي حين قال: «من الصعب الاكتفاء من شيءٍ يكاد أن يجدي نفعًا».

إن الجوع إلى الارتباط لدى شبابنا العاكفين على الإنترنت لا يمكن إشباعه، وبالتالي، يسبب الإدمان. وفي أدمغة مدمني الإنترنت، وجد الباحثون تغيرات في المواد الكيميائية الحيوية وفي المادة البيضاء مماثلة لتلك الموجودة في أدمغة الأشخاص الذين يعانون إدمان المخدرات أو الكحول.[3]

يعود أصل هذه المشكلة إلى أن الحميمية الرقمية لا تفي بالغرض. إنها تفتقر أساسًا إلى المقومات اللازمة لكي تؤتي ثمارها المرجوة. يشبه ذلك البسكويت الخالي من العناصر الغذائية التي يحتاج إليها الجسم، فهو ليس طعامًا بلا قيمة غذائية فحسب، ولكنه يفسد الشهية إلى الطعام الذي يحتاج إليه الجسم.

***

ستة أسباب تجعل الحميمية الرقمية بلا قيمة

الدعوة إلى الارتباط لا تصل في ظل التفاعل الرقمي

يتضح خواء الحميمية الرقمية بشكل فريد من خلال دراسةٍ تقارن الآثار الفسيولوجية للاتصال الصوتي المباشر بالمقارنة مع الرسائل النصية على الفتيات الصغيرات وأمهاتهن.[4] لقد تم وضع الفتيات تحت ضغط من خلال اختبار، ثم دُعين إلى إجراء اتصال مع أمهاتهن، إما عن طريق مكالمة صوتية، وإما عن طريق الرسائل النصية. كانت المكالمات الصوتية هي فقط التي أسهمت في انخفاض هرمونات التوتر لدى هؤلاء الفتيات، بل وتولدت عنها هرمونات ارتباط مُطَمئنة.

لماذا يعد التواصل الرقمي غير فعال تمامًا؟ يتعلق الأمر بما نبحث عنه جميعًا: التأكيد على أننا مدعوون للوجود بالقرب من الآخرين. وتكتسي هذه الرسالة أهمية خاصة عند مواجهة الفشل، أو الضعف. كيف يتم التعبير عن هذه الرسالة عادةً؟ إن الكلمات ما هي إلا جزء منها، وربما لا تكون كافيةً تمامًا في حد ذاتها، ولا سيما في المحادثات المختصرة، التي تتميز بها الرسائل النصية. إننا عادةً ما نُقَيِّم هذه الدعوة من خلال الدفء في صوت

الآخرين، والابتسامة التي نراها في أعينهم. وبمجرد أن نجد ما نبحث عنه، يمكننا العودة لمواجهة عالمنا ونحن نشعر بالاطمئنان، إذ نعرف أنه بغض النظر عما يحدث، فإن الدعوة تظل قائمة. وهكذا، يتبدد الخوف، وينخفض الأدرينالين والكورتيزول، ويغمر هرمون الحب، الأوكسيتوسين، دوائرَ الارتباط لدينا. إن معظم العلاقات التي تعتمد على الوسائل الرقمية لا يمكنها أن توفر لنا ذلك الدفء في التواصل، وبالتالي لا يمكن أن تفي بالغرض. وكما سبق أن ذكرنا، وكما سنوضح أدناه، يمكن لبعض أشكال الاتصال الرقمي (كتطبيق سكايب) أن تدعم الارتباطات الصحية أيضًا. إن الأمر يتعلق بالشخص الذي يستخدمها، وما هو غرضه منها. ومع ذلك، تعد الاتصالات الرقمية بشكل عام بديلًا غير مُرضٍ عن الارتباطات الحقيقية.

التحصينات المطلوبة للانخراط في التفاعل الاجتماعي غير الآمن تجعل هذا التفاعل غير مُرضٍ

لا يمكن أن يحدث الاكتفاء إلا عند استيعاب الدعوة للوجود بالقرب من الشخص الآخر فعليًا. إن الشعور بالرضا على المستوى العاطفي هو في الأساس تجربة تنطوي على مخاطرة. فالجهة التي يمكننا من خلالها أن نشعر بالرضا هي بالضبط الجهة نفسها التي يمكننا من خلالها أن نشعر بجروحنا. لذلك، إذا كان هناك أي تحصُّن ضد إمكانية الإصابة بالجروح العاطفية، فإن القدرة على الشعور بالإشباع تتلاشى هي الأخرى.

هذه هي قصة الحميمية الرقمية. إنها غير آمنة في الأساس (غير آمنة لأنها تفتقر إلى الطمأنينة التي تمنحها العلاقات الداعمة مع البالغين)، وبالتالي، تثير حالة من الضعف لا يمكن تحملها. ولا يوجد أمام الدماغ أي خيار سوى الاستعداد للتعامل مع تفاعل جارح.

عندما يكون الهدف هو الحميمية النفسية (أن يكون المرء معروفًا ومفهومًا)، فإن احتمالية التعرض للجرح تكون كبيرة جدًا، لدرجة أنه يجب بذل كل الجهود للتأكد من أنه من الآمن المضي قدمًا. إن القرب النفسي يشبه العلاقة الحميمية الجنسية في هذا الصدد، فحتى في إطار علاقة آمنة وجدية، لن يفكر معظمنا في الانخراط في تفاعل جنسي بارد. وعادةً ما نمر بعملية

جمع واختبار، حتى لو لم نكن على دراية بما نقوم به. فإذا لم نتمكن من رؤية الدعوة في الأعين، وفي بعض الابتسامات والإيماءات، فنحن نعلم أنه من غير الآمن أن نمضي قدمًا. وحتى في التفاعلات اليومية، سنلتقط النظرات، وبعض الابتسامات والإيماءات قبل الاستمرار. إن هذا يُشرك غرائز الارتباط لدى الآخر، مما يزيد بشكل كبير من احتمالية أن يكون لطيفًا معنا، وأن يعتني بنا، وأن يعمل على إنجاح علاقتنا، وأن يوافقنا الرأي، وأن يقف بجانبنا، وأن يحفظ أسرارنا، وأن يكون جيدًا بالنسبة إلينا. ويعد المضي قدمًا دون هذه الطقوس التي تبعث على الدفء مثل بحث عن المشكلات: الوقاحة، واللؤم، والبغض، والجرح، والاستهزاء، وبالطبع التنمر بجميع أشكاله وصوره.

المشكلة الأساسية هي أن الحميمية الرقمية تُمارس بكل برود. إنها حميمية زائفة، فلا توجد ملاطفة قبل الارتباط لتحفيز التفاعل، ولا يوجد اختبار للتأكد من أنه من الآمن المضي قدمًا. وهذا يحدث كل يوم عند إرسال الرسائل النصية ورسائل البريد الإلكتروني، ناهيك بتقديم الذات، الذي هو مادة وسائل التواصل الاجتماعي.

عند إضافة إخفاء الهوية إلى هذه المعادلة، فليس ثمة ما يمكن فعله لاحتواء الجانب المظلم من الارتباط. تذكر أن معظم الأطفال لا يكونون غير لطفاء بطبيعتهم إلا إذا كانوا يشعرون بعدم الأمان لدرجة تجعلهم على خلاف ذلك. إنهم يصبحون لطفاء بشكل عام في سياق الارتباط المشترك. والإنترنت هو مكان يفتقر بشدة إلى آداب الارتباط، أو قواعد المشاركة الإنسانية. ولا ينبغي أن نُفاجأ بما يمكن أن ينجم عن ذلك من أمور قبيحة. إنه يستطيع أن يجعل أروقة المدرسة الثانوية تبدو منضبطة بالمقارنة.

كيف يتكيف أطفالنا مع هذه البيئات المحيطة بهم؟ تقوم أدمغتهم بلا وعي بإعدادهم للتعامل مع البيئات الجارحة من خلال الدفاعات المعتادة، المتمثلة في الانغلاق العاطفي، أو الانفصال. والمشكلة تكمن في الكُلفة: فنحن عندما ننغلق أو ننفصل عاطفيًا، لا يمكننا أن نشعر بالرضا في الوقت نفسه. إن أدمغة أطفالنا لا تستطيع حمايتهم بينما تحافظ على قدرتهم على الاكتفاء في آن واحد. والنتيجة النهائية هي أن أي قدر من التواصل لا يكون كافيًا، فلا يوجد اكتمالٌ، ولا تَسَامٍ، ولا تحرر. لقد أصبح أطفالنا المتوجهون

نحو الأقران مثل رهائن بسبب مطارداتهم الرقمية بعضهم بعضًا، وأسرى لجوعهم الذي لا يشبع. فكلما زاد سعيهم، قل ما يجدونه.

كما سنرى قريبًا، قد تؤدي هذه التحصينات ضد الضعف أيضًا إلى التنمر عبر الإنترنت، وإدمان ألعاب الفيديو، والبحث عن المواد الإباحية.

تقديم الذات لا ينجح إلا بين فردين

يتمحور تطبيق الفيسبوك حول تقديم أنفسنا على أمل إعجاب أولئك المهمين بالنسبة إلينا بما يرونه. إنها أقصى درجات البراعة، حيث إنه لا يلزم سوى إجراء تقديم واحد فقط؛ نرسل المعلومات نفسها إلى العديد من الأشخاص في الوقت نفسه. ومن ثم تُترَك حرية التفاعل للمتابعين. وهذه البراعة الرائعة هي جوهر المشكلة، فالحميمية النفسية لا تسير على هذا النحو.

إن شعور المرء بأنه معروف لا يمكن أن يحدث إلا في سياق علاقة شخصية قوية. ولا يشعر المرء بأنه معروف من خلال عرض دواخله في كتاب، أو في محاضرة، أو حتى على «اليوتيوب». كما لا يشعر المتلقون لتقديمنا أنفسنا أو إفصاحنا عن ذواتنا بأدنى قدر من التميز تجاه ما نقوم به من بوحٍ موجهٍ إلى الجميع. يجب أن يشعر الشريك في الحميمية النفسية –كما هي الحال عند ممارسة الحب– بأنه تم اختياره على وجه التحديد، وأننا وهبنا ذاتنا له هو بالتحديد. أما أي شيء آخر، فمن شأنه أن يقلل من قدر التفاعل. وتقديم الذات لا يكون له معنى –لكُلٍّ من المُقَدِّم والمتلقي– إلا إذا كان موجهًا بصفة شخصية. وعندما يتم إخراجه من سياق العلاقة الشخصية القوية، ومن عملية اتخاذ القرار بالبوح عن الذات للآخر، فإن الإفصاح عن الذات لا يؤتي ثماره تمامًا.

لهذا السبب، لا يمكن للعديد منا، نحن الذين نُقَدِّر الحميمية النفسية الحقيقية، الاشتراك في الفيسبوك. أنا شخصيًّا لن أرغب أبدًا في قراءة منشورات أبنائي البالغين، أو التعرف إليهم بهذه الطريقة. إنني أريد أن أعرفهم حقًّا، لا أن أعرف عنهم، هناك فرق شاسع. إن معرفتي بهم تتطلب الإفصاح عن الذات بإرادتهم، وأن يكون هذا الإفصاح موجهًا بشكلٍ شخصي

إلى والدهم. إنني لا أرغب في شيء أقل من ذلك، ولا أتوقعه. إن أي شيء آخر سيجعل كلًّا منا يشعر بالخواء.

الرضا لا يتحقق عند التلاعب

بالنسبة إلى معظم الأطفال والشباب، تقتضي وسائل التواصل الاجتماعي تحسين صورتهم، بهدف ترك انطباع جيد، وتعزيز مكانتهم بين أقرانهم.

النتيجة لذلك هي ما أسماه الكاتب توني دوكوبيل في مجلة نيوزويك «تبخُّر الذات الحقيقية»، وذلك في معرض الحديث عن أعمال شيري توركل. قال أحد المراهقين للدكتورة توركل: «لقد كان ما تعلمته في المدرسة الثانوية هو الكثير والكثير من الملفات الشخصية؛ كيف أصنع شخصيتي».

نحن جميعًا نريد أن ننال الإعجاب بطبيعة الحال. ولكن كلما بذلنا جهدًا أكبر للتأثير على الآراء، باتت هذه الآراء أقل إرضاءً. وإذا نجحنا في الحصول على آراء جيدة، فقد كان ما فعلناه فقط هو الذي نال الإعجاب، أو الانطباع الذي خلقناه هو الذي نال الإعجاب، وليس أنفسنا الحقيقية. ولذلك يتفاقم شعورنا بانعدام الثقة في النفس، وكذلك هوسنا بتحسين صورتنا. إنها حلقة مفرغة. لماذا قد نود أن نعاقب أطفالنا بهذا الاضطراب العصبي؟

إنهم سيصلون إلى هذه الأمور عاجلًا وليس آجلًا، ولكن مع التمتع ببعض النضج، سيكونون قادرين على مقاومة رغبة السير في طرق مختصرة نحو المجهول. ورغم ما تحمله مسألة تحسين الصورة من وعود، ورغم الجاذبية التي تتمتع بها، فإنها لعبة للخاسرين بكل ما تحمله الكلمة من معنى. إن طبيعة المطاردة في حد ذاتها تستبعد النتيجة.

ليس من المستغرب أن نجد أن الشباب الأكثر انشغالًا بالإنترنت هم أيضًا أكثر عرضةً لمعاناة المشكلات النفسية. وجد الدكتور لاري روزين، الرئيس السابق والأستاذ بقسم علم النفس في جامعة ولاية كاليفورنيا، دومينغيز هيلز، في بحثه أن هناك «صلة قوية بين استخدام الإنترنت، وتبادل الرسائل الفورية والبريد الإلكتروني، والدردشة، والإصابة بالاكتئاب بين المراهقين»، وكذلك وجود «روابط قوية بين ألعاب الفيديو والاكتئاب».

إن أطفالنا يحتاجون إلى براءتهم أطول فترة يمكننا فيها أن نمنحهم إياها. والتطور الاجتماعي -تقديم صور عن الذات مع عدم الاهتمام بالنتائج، الأمر الذي يمكن أن نسميه «مرض اللامبالاة»- سيحرم أطفالنا التغذية العاطفية اللازمة للنضج.

لا يتحقق الرضا ما لم يكن العطاء أكبر من الطلب

كما ذكرنا سابقًا، إن أحد المقومات الرئيسية التي تعزز تفاعلات الارتباط هو وجوب أن يكون العطاء أكبر من الطلب. ولا يتعلق الرضا بالمساواة، أو المعاملة بالمثل، أو التواصل عند الطلب. إن التفاعل يكون ناقصًا وغير مثمر ما لم يُقابَل العناق بعناق أكبر، أو ما لم يتم الرد على عبارة «أحبك» بعبارة أجمل منها، أو ما لم تكن الرغبة في نيل الرضا أكبر. ومع ذلك، فإن هذا لا يمثل طبيعة التفاعل الموجه نحو الأقران بشكل عام، أو التواصل الرقمي أو عبر الإنترنت بشكل خاص، حيث تميل التفاعلات إلى أن تكون متكافئة، ومحايدة، وباردة. وتلك الدعوة الحارة إلى الوجود بالقرب من الآخر هي من اختصاص البالغين المسؤولين عن الأطفال. إنها لا تناسب التواصل الاجتماعي الرقمي.

الحميمية الرقمية تفسد الشهية إلى ما يحتاج إليه الطفل حقًا

كما ذكرنا آنفًا، إن الخواء الذي تتسم به الحميمية الرقمية تزداد وطأته بسبب أنها تفسد الشهية إلى نوعية التواصل الذي من شأنه أن يكون بَنَّاءً فعلًا. ومن خلال تعزيز الحميمية الرقمية التوجُّهَ نحو الأقران، والمساعي المسببة للإدمان، فإنها تحل محل الروابط الصحية بالبالغين، وبالتالي تحرم الأطفال حاجتهم الأساسية إلى ممارسة التواصل الإنساني.

إن الفئران التي يتم تحفيز دوائر المكافأة لديها كهربيًّا باستمرار تموت من الجوع، لأنها لا تبحث عن الطعام. وبالمثل، فإن تحفيز أدمغة أطفالنا بالتكنولوجيا الرقمية سيشتت انتباههم عن الأمر الذي سيعزز نموهم حقًا.

هذه الديناميكية هي السبب في الآثار السلبية والخبيثة المترتبة على ألعاب الفيديو، والمواد الإباحية، والتواصل الاجتماعي الذي يعتمد على الوسائل

الرقمية. إن هذه الأنشطة تحفز مباشرةً مراكز المكافأة المتعلقة بالارتباط في أدمغة أطفالنا، مما يجعلهم غير مهتمين بنوعية التفاعل الذي يمكن أن يؤدي إلى الرضا والإشباع الحقيقيين. وحتى نوعية تقديم الذات الذي يقومون به على الفيسبوك تحفز دوائر المكافأة المتعلقة بالارتباط نفسها.[5] إن هذه الرغبة الشديدة في الارتباط تفسد الشهية إلى التفاعلات التي من شأنها أن تكون مُثريةً ومشبعةً حقًّا.

ليس من المُستَغرَب أن ينخفض معدل قضاء الوقت العائلي بمقدار الثلث في العقد الماضي، على الرغم من أنه كان ثابتًا عقودًا قبل ذلك،[6] أو أن يتمتع أولئك الذين يقضون المزيد من الوقت في لعب ألعاب الفيديو بموقف أقل إيجابية تجاه والديهم.[7] وقد وجدت دراسة أسترالية أن مستخدمي الفيسبوك شعروا أنهم أقل قربًا من أسرهم. ولم تُجِب الدراسة عن سؤال ما الذي حدث أولًا، ولكنها تشير إلى الطبيعة المتنافسة للارتباط.[8]

يمكن لمعظمنا أن يشعر بأن الشاشات تأخذ أطفالنا بعيدًا عنا. ولسنا في حاجة إلى بحث ليخبرنا بذلك. ما نحتاج إلى معرفته هو أنهم لا يمكنهم الحصول على ما يحتاجون إليه حقًّا من خلال الشاشات. إننا ما زلنا نمثل أفضل خيار أمامهم.

يستشهد جون كاسيوبو، الخبير العالمي الرائد في مجال الشعور بالوحدة، بتجربة في كتابه بعنوان «الوحدة»، الصادر في عام 2008، حيث تمت مقارنة تأثيرات أنواع مختلفة من التواصل من حيث قدرتها على الحد من الشعور بالوحدة. وقد كانت النتائج واضحة لا لبس فيها. إن أولئك الذين يزداد معدل تفاعلاتهم عبر الإنترنت كانوا هم الأكثر شعورًا بالوحدة على الإطلاق. أما أولئك الذين يتمتعون بنسبة أكبر من التفاعل وجهًا لوجه، فقد كانوا هم الأقل شعورًا بالوحدة.

تعبر شيري توركل عن خواء الحميمية الرقمية في كتابها «وحيدون ونحن معًا». إن العنوان يخبرنا بالقصة. وتوضح توركل بثقة جوهر المشكلة بشكل عفوي: «في هذه الأيام، بينما نشعر بعدم الأمان في علاقاتنا، وينتابنا القلق بشأن الحميمية، نتطلع إلى التكنولوجيا، لإيجاد طرق تسمح لنا بالدخول

في علاقات وحماية أنفسنا منها في الوقت نفسه». وأضافت: «إن الروابط التي نبنيها من خلال الإنترنت ليست هي الروابط التي تربط بيننا في نهاية المطاف. غير أنها هي الروابط التي تشغل بالنا».

إن نقصان الحميمية هو ما يدفع إلى السعي الهوسي. وخير دليل على هذا الإلحاح المضني هو أن ما يقترب من نصف مستخدمي الفيسبوك الذين تتراوح أعمارهم بين ثمانية عشر عامًا وأربعة وثلاثين عامًا يسجلون الدخول بعد دقائق من الاستيقاظ، بل حتى قبل الاستيقاظ.[9] وليس من المستغرب إذن أن نجد أن الحميمية الرقمية يمكن أن تكون مسببةً للإدمان أكثر من السجائر أو الكحول.[10]

لذلك تبقى المفارقة الأكبر فيما يلي: قد تكون الأجهزة الرقمية بالفعل الحل الواضح لمشكلتنا الإنسانية الأساسية (كيف نكون قريبين عندما نفترق)، ولكنها ليست حلًّا كافيًا لتحريرنا من سعينا الحثيث وراء الشعور بالقرب. بالنسبة إلى المتوجهين نحو الأقران، أصبح التواصل الرقمي للأسف هو الطريقة الوحيدة للبقاء بالقرب من أولئك الذين يهمونهم، والطريقة الوحيدة للتواصل دون الحاجة إلى أن يشعروا بالضعف.

***

الألعاب الإلكترونية والتنمر عبر الإنترنت والمواد الإباحية كظواهر للارتباط

قد تبدو ألعاب الفيديو وكأنها نشاط بريء. ولكن بما أنها توفر إرضاءً زائفًا لاحتياجات الارتباط غير المُلَبَّاة، فإنها لهذا السبب بالتحديد قد تكون مسببةً للإدمان بصورة استثنائية.

إن الشعور بأننا مهمون، والشعور بأننا مؤثرون، وتكوين صورة عن الذات تتسم بالبراعة الحقيقية، كل ذلك لا يمكن أن يتطور إلا في إطار علاقات مثرية، مع الأشخاص الذين يهتمون بأمرنا. إنه نتاج للارتباطات الصحية.

وعندما لا تتم تلبية هذه الاحتياجات، كما هي ليست مُلَبَّاة في حالة الأطفال المتوجهين نحو الأقران، يمكننا تعويض ذلك من خلال الخيال والتظاهر. وعلى العكس من الخيال الإبداعي، أو الكتب مثلًا، فإن الألعاب تعد آسرة للغاية، إذ تتميز بمكافآت فورية، وجاذبية حقيقية تسبب الإدمان. ويمكننا أن نصبح «سادة مصيرنا»، و «الفائزين» في واقع افتراضي، الذي يصبح أيضًا المكان الذي يمكننا فيه التنفيس عن بعضٍ من عدوانيتنا المكبوتة، وهو ما يعد أيضًا نتيجةً لعدم تلبية غرائز الارتباط.

كما ناقشنا في الفصل الحادي عشر، إن التنمر يعد ظاهرة منحرفة أخرى تتعلق بالارتباط. إن غرائزنا القيادية -الرغبة في الهيمنة على العلاقات- يجب أن تشجع على تولي المسؤولية من أجل رعاية الضعفاء. ومع ذلك، عندما يصبح الشخص القيادي محصنًا ضد الضعف، فإنه يتجه إلى استغلال ومهاجمة الضعفاء بدلًا من ذلك. لقد أطلقتُ على هذا الانحراف بالتحديد «القيادة غير السوية». فبدلًا من أن يتحرك المرء لحماية المعرضين للخطر، ورعاية الضعفاء، والدفاع عن الأبرياء، فإنه يتجه بدلًا من ذلك إلى تعريضهم للخطر، وإحراجهم، وتأكيد أفضليته، من خلال الحط من قدرهم. إن هذا هو ما نشاهده، خصوصًا في ظل الحماية التي تمنحها خاصية إخفاء الهوية، التي يوفرها الإنترنت للمتنمرين المحتملين.

لسوء الحظ، ينتشر التنمر -بما في ذلك التشهير الجنسي- على مواقع التواصل الاجتماعي والمراسلات الإلكترونية.

نحن نرى أن معظم التفاعلات في مرحلة الطفولة تعكس ديناميات الارتباط: السعي إلى القرب. ويتعلق الجنس أيضًا بالقرب. إن نشاطنا الجنسي لن يكون أكثر تطورًا من قدرتنا على الشعور بالحميمية. فعندما تكون هناك مشكلات في تطور الارتباط، تكون هناك مشكلات مماثلة في حياتنا الجنسية. ومن الناحية المثالية، يجب أن تكون ممارسة الحب تلبيةً لدعوة إلى الحميمية، التي لا تتسم بالحصرية فحسب، وإنما بالأمان أيضًا. وبخلاف ذلك، تكون احتمالية الإصابة بالجروح العاطفية أكثر مما يمكن تحمُّله.

بالنظر إلى الساحة الافتراضية التي يتعرض فيها الأطفال للخطر (وغالبًا ما يعرضون هم أنفسهم للخطر)، فإننا نشهد الآن اجتماع مشكلات التنمر. بالنسبة إلى فئة المتنمرين، تكون من الصعب مقاومة فرصة استغلال الضعفاء.

وبعد أن خسرنا أطفالنا لصالح عالم الإنترنت، لم يعد بإمكاننا حمايتهم من الذئاب.

19

مسألة توقيت

هل هناك شيء ضار بطبيعته بخصوص الأجهزة الرقمية؟ هل يجب أن نمنع أطفالنا من التعامل معها؟ بالتأكيد لا، ولن نستطيع، حتى لو حاولنا. إن الثورة الرقمية هي واقع محتوم لا رجعة فيه. ولا يوجد أي شيء سيئ بطبيعته بخصوص هذه الأجهزة، فمصدر القلق هو كيفية استخدامها، ولا سيما عندما تكون في أيدي أطفالنا. والسؤال هنا هو: متى يجب السماح بهذا الاستخدام؟ ومتى يجب منعه؟

يستغرق المجتمع وقتًا طويلًا للتكيف مع التطورات التكنولوجية الكبيرة، وخلق الطقوس والعادات والقيود التي تزيد من فوائدها وتقلل من مخاطرها. إننا حتى لم نتدارك أنفسنا فيما يتعلق بالأفلام والتلفزيون، ناهيك بالهاتف المحمول، والحاسوب، وجوجل، ووسائل التواصل الاجتماعي. وبالنظر إلى الضرر الواقع بالفعل، فإننا لا نمتلك وقتًا طويلًا للتدبر في الأمر.

نحن لدينا العديد من السوابق في التعامل مع أشياء حتمية، بل وحتى جيدة، ولكنها ذات آثار جانبية قد تكون ضارة بالأطفال. لنأخذ الجنس على

سبيل المثال. فالجنس أمر جيد، ولكنه لا يناسب الأطفال. إنه يمثل تجربة تقارب عاطفي تام، التي من شأنها أن تُطلِق مواد كيميائية معززة للروابط في الدماغ، حيث تربط بيننا من أجل التكاثر، وتحمل المسؤوليات التربوية التي تأتي بعد ذلك. ولا ينبغي تجربته على سبيل اللعب، ولا سيما من قبل الأطفال.

قد يكون الكحول مثل مشروب اجتماعي احتفالي، وجزءًا من الطقوس والولائم، ولكنه أيضًا ليس مناسبًا للأطفال. إنه يُخَدِّر نظام الإنذار المسؤول عن إبعادنا عن المتاعب. والكحول موجود في كل مكان، إلا إننا نحاول كآباء التحكم في الوصول إليه.

إن الكعك لذيذ. وكمعظم الحلويات، يمكن أن يكون مغريًا للغاية. إن عالم الطفل ملآن بالحلويات، والكعك، والسكريات. ونحن في أغلب الأحيان نقوم بعمل جيد إلى حد ما في التحكم في تناولها. إننا لا نحظر الحلويات، على الرغم من أنها خالية نسبيًّا من العناصر الغذائية. نحن نتحكم في التوقيت. والقاعدة هي تناول الحلوى بعد العشاء، على الأقل حتى ينضج الطفل بما يكفي ليكون قادرًا على تكوين أهداف صحية، والسيطرة على الرغبات الشديدة. وبعبارة أخرى: إنه لا بأس بتناول الكعك ما دام الطفل قد ملأ معدته بالأطعمة المفيدة. وكلما قل شعور الطفل بالحاجة إلى تناول الكعك، كان الطعام الخالي من القيم الغذائية أقل ضررًا.

يعتبر التوقيت دائمًا هو العامل الأهم في النمو السليم. لكل شيء أوان. والسر في التعامل مع التجارب التي قد تكون مؤذية ليس هو الحظر، الذي قد يكون ضربًا من العبث، بل ومحفزًا قويًّا للإرادة المضادة.[1]*

إن السر في تقليل الضرر يكمن في تحديد التوقيت المناسب للأمور. نريد أن يتم إشباع الأطفال بما يحتاجون إليه حقًّا قبل أن يتمكنوا من الوصول إلى الأمور التي من شأنها أن تفسد شهيتهم إلى ما يحتاجون إليه حقًّا.

وبالنسبة إلى الجنس، فإن التوقيت المناسب لا يحين قطعًا قبل أن تتطور القدرة على إقامة العلاقات بشكل كامل، ولا قبل أن تتشكل علاقة حصرية

(1) يرد شرح دينامية الإرادة المضادة في الفصل السادس.

تُستَشعَر فيها الحميمية النفسية والعاطفية، ولا قبل أن تتطور القدرة على التعهد بالالتزامات والحفاظ عليها. إن التفاعل الجنسي السابق لأوانه، شأنه شأن تناول الكعك قبل التوقيت المحدد له، يفسد الشهية إلى الشيء المهم: الحب الخالص العميق.

هناك قاعدتان أساسيتان للتعامل مع هذه المخاطر، ولتعريض الصغار للإغراءات المحتملة على الدرب إلى الكمال: يجب أن يحدث هذا التعرض بعد أن يكون المرء مُتشبِّعًا بما يحتاج إليه، وفقط عندما يكون ناضجًا بما يكفي للتعامل مع القرارات التي يقتضيها الأمر. إننا نؤدي هذه الرقصة مع الكعك وغيره من الحلويات منذ آلاف السنين. ولكن بعد ذلك، أصبحت لدينا خبرة في التعامل مع الحلويات على مدى آلاف السنين. وليس لدينا ما يكفي من الوقت لإعادة اختراع العجلة هنا؛ علينا أن نطبق ما تعلمناه على التحديات الجديدة التي تواجهنا.

نحن في حاجة إلى الإشراف على دخول أطفالنا إلى العالم الرقمي بينما لا يزال بإمكاننا فعل ذلك، حتى يتسنى لنا التحكم في تحديد توقيت الأشياء. نحن في حاجة إلى إبعاد الإغراءات المثيرة عن الطريق، وإبقاء النَّدَّاهات بعيدًا. نحن في حاجة إلى أن نكون مثل حاجزٍ قويٍّ أمام العالم الرقمي، لإعطاء مجال ووقت للتفاعل الـمُرضي الذي يحتاج إليه الطفل، ولكي يصبح الطفل ناضجًا بما فيه الكفاية للتعامل مع القرارات المتعلقة بتفاعله مع العالم. نحن في حاجة إلى إبطاء الأمور وتأجيلها إلى حد ما.

إن هذا الوعي غير موجود في مجتمع الآباء، أو المعلمين. ووفقًا لاستطلاع رأي أجرته جامعة جنوب كاليفورنيا، ثبت أن 89 في المئة من أولياء الأمور اليوم لا يرون مشكلة في عدد الساعات التي يقضيها أطفالهم على الإنترنت.[1]

لقد قال جان جاك روسو: إن إحدى أهم مسؤوليات الوالدين تتمثل في العمل حاجزًا بين الطفل والمجتمع. وإذا كان هذا ينطبق على القرن الثامن عشر، فكيف به اليوم؟ لقد أصبح آباء اليوم ممثلين للمجتمع، بدلًا من أن يكونوا مثل حواجز أمام المجتمع. يفترض معظم الآباء أن الأطفال يحتاجون إلى التواصل مع أقرانهم، ويحتاجون إلى الترفيه للتخلص من الملل، ويحتاجون إلى الوصول الفوري إلى المعلومات. كما أعرب 10 في المئة من

أولياء الأمور الذين أُجريت معهم المقابلات عن قلقهم من كون أطفالهم لا يقضون وقتًا كافيًا على الإنترنت.[2] لقد كانوا يخشون أن يتعرض أطفالهم للنبذ. إن الآباء اليوم أكثر استعدادًا لأن يَكِلوا أطفالهم إلى مجتمع رقمي بدلًا من الخطة النمائية التي تُمليها الطبيعة.

بعد أن فقدنا دورنا كحاجز وقائي، وأصبحنا الآن نعمل ممثلين للمجتمع، فمن المرجح أن نضع الإغراءات في طريق أطفالنا. ماذا سيحدث إذا وضعنا البسكويت في كل مكان على المنضدة؟ وأخرجنا الكحول من الخزانة؟ وأزلنا القيود المتعلقة بالاتصال الجنسي؟ وبالإضافة إلى ذلك، نضع أجهزة التلفزيون في غرف نومهم، والهواتف المحمولة في جيوبهم، ونتيح لهم استخدام الأجهزة الرقمية الشخصية بلا حدود.

هناك القليل من البالغين ممن يمكنهم التحكم في علاقتهم بالإنترنت، فلماذا نتوقع أن يكون أطفالنا قادرين على التحكم فيها؟

كشف تقرير كتبه جوين شورجن أوكيف في عام 2010 أنه حتى الأسر التي تكافح من أجل توفير الطعام «ستشتري جهازًا رقميًا لأطفالها، لأنها تريد لهم أن يكونوا جزءًا من المجتمع».[3]

يشعر جميع الآباء بالقلق الشديد من أن أطفالهم سيكونون غريبي الأطوار إذا لم يستخدموا وسائل التواصل الإلكتروني. إننا ينبغي أن نكون أكثر انشغالًا بمساعدة أطفالنا على تحقيق إمكاناتهم كبشر.

إن الجهل بهذه التكنولوجيا الرقمية يشبه إلى حد كبير الجهل بظاهرة التوجه نحو الأقران. فالأمر الذي يعتبر عاديًا يُقاس بما هو نَمَطِي، وليس بما هو طبيعيٌّ أو صِحِّي. وقد تفاقم هذا الجهل بسبب تَعَلُّقِنا بالتكنولوجيا، والافتراض الساذج بأن ما يصلُح للبالغين لا بد أن يكون صالحًا للأطفال أيضًا.

إذن فكيف يمكن للمرء أن يُوَصِّل رسالته؟ يبدو أن الكثيرين يظنون أنه إذا قام أحدهم بتوضيح عيوب الوسائل الرقمية، فلا بد أن يكون هذا الشخص إما معارضًا للتكنولوجيا، وإما رجعيًا. وغالبًا ما يتم تجاهل النُّقَّاد باعتبارهم مُهَوِّلين. إذن فكيف للمرء أن يقنع مجتمع الآباء والمعلمين بالمساحة التي يحتاج إليها الطفل من أجل النضج؟ إن مجتمع اليوم لن يفعل ذلك لنا. إن

الأمر يقع على عاتقنا. ولهذا السبب نحتاج إلى وعي جمعي، ولغة يمكننا من خلالها أن نتكلم بعضنا مع بعض.

***

هناك وقت وأوان مناسبان للتواصل الاجتماعي الرقمي

هذا الوقت يحين بعد أن يشعر الأطفال بالإشباع من خلال التواصل مع البالغين.

بمجرد أن تمتلئ معدة الطفل بالطعام المفيد، تصبح الحلويات متعةً غير ضارة نسبيًّا. وفي ذلك الوقت يمكننا أن نكون أكثر مرونة في تحكمنا. وكذا الحال مع الجوع إلى الارتباط. أسوأ شيء يمكننا فعله هو إبعاد الطفل عنا وهو يشعر بالجوع. إن فعل ذلك لا يؤدي سوى إلى تمهيد الطريق أمام التوجه نحو الأقران، ثم الاستخدام المفرط للأجهزة الرقمية، التي تساعد الصغار غير الناضجين في البقاء على اتصال مع أقرانهم.

نعود إلى ضرورة وجود طقوس، وروتين، وأنشطة، حيث يمكننا أن نجذب أعينهم، وابتساماتهم، وإيماءاتهم، ليس لأي غرض سوى إشباعهم، والمساعدة في تحصينهم ضد إدمان الارتباط الذي يعانيه أصدقاؤهم. إنهم في حاجة إلى هذه الجرعة من التواصل المُشبِع في الصباح قبل الذهاب إلى المدرسة. ويحتاجون إليها بعد المدرسة، عند عودتهم إلى المنزل. ويحتاجون إليها عند تناول الوجبات العائلية، وعند قضاء الأوقات العائلية المميزة. ويحتاجون إليها قبل الذهاب إلى النوم. إن مهمتنا هي توجيه دعوتنا إليهم للوجود بقربنا، حتى لا تكون هناك حاجة إلى البحث عن هذا القرب في مكان آخر. إن أفضل تحصين ضد استخدام الأجهزة الرقمية للتواصل الاجتماعي هو تنشئة طفل راضٍ ومُشبَعٍ تمامًا.

يحين الأوان المناسب للتواصل الرقمي عندما يكون الطفل مكتمل النمو وناضجًا بما يكفي للحفاظ على شخصيته. ولا يمكن تحديد التوقيت الذي

يحدث فيه ذلك بصورة نموذجية، ولكنه يعتمد على أفضل معرفة حدسية يمتلكها الوالدان عن طفلهما.

إننا كلما تعمقنا في تعزيز العلاقة مع أطفالنا، كانوا هم أكثر قدرةً على التمسك بنا عندما يفترقون عنا جسديًا. فلا توجد حاجة إلى التواصل الرقمي إذا كانوا قادرين على التمسك بطرائق أعمق. وهذا يجعل التواصل الاجتماعي غير ضروري إلى حد كبير. ويمكننا تقليل الحاجة إلى التواصل الرقمي من خلال تعزيز الحل الطبيعي لمشكلة التمسك في حالة الافتراق. ولعلنا نتذكر أن الطبيعة لديها بالفعل حلول حول كيفية الحفاظ على القرب في حالة الافتراق. وكما أشرنا سابقًا، هذه الحلول هي: الشعور بالإعجاب، والانتماء، والوقوف على الجانب نفسه، والإحساس بالحب، والأهمية، والارتباط العميق، وأخيرًا، شعور المرء بأنه معروف. ومع ذلك، فإن أساليب الارتباط الطبيعية هذه تستغرق وقتًا، وكذلك الظروف المناسبة للنمو. إنه ينبغي لنا أن نتحلى بالصبر إلى أن يحدث ذلك. وبمجرد أن يستطيع الطفل التمسك بنا في حالة عدم وجوده بالقرب منا، فليس ثمة ما يدعو إلى القلق.

ينطبق الشيء نفسه على أطفالنا مع أصدقائهم. فبمجرد أن يتطور الأطفال بشكل كامل فيما يتعلق بقدرتهم على إقامة العلاقات، فإنهم سيميلون أيضًا إلى اختيار الأصدقاء ذاتيًا على المستوى نفسه من الحميمية. إن الأطفال الذين يستطيعون الارتباط بعمق سوف ينجذبون أكثر إلى الأصدقاء الذين يعاملونهم بالمثل. ويميل الأطفال الذين يرغبون في أن يكونوا معروفين إلى اختيار الأصدقاء الذين طوروا أيضًا هذه القدرة على التقارب. وعندما يتمتع الأطفال بارتباطات أعمق بعضهم مع بعض، فإنهم يستطيعون التمسك بعضهم ببعض عندما يفترقون. وهذا يجعل التواصل الاجتماعي أقل إغراءً وإدمانًا.

لقد تجلَّى هذا الارتباط العكسي بين القدرة على الحميمية واستخدام الفيسبوك من خلال دراسة أجرتها جامعتا: بوفالو، وجورجيا. كان الاستنتاج الأساسي هو أنه كلما كانت العلاقات العاطفية لدى الناس أعمق، كان الوقت الذي يقضونه على الفيسبوك أقل.[4] يعتبر هذا منطقيًا تمامًا عندما تفهم الوظيفة الأساسية لشبكات التواصل الاجتماعي. لن يكون من الضروري إقامة

علاقات سطحية بقدر أكبر. كما إن هذه العلاقات ستكون أقل جاذبية. وكلما كان الطفل أكثر تطورًا، كان أكثر تحصُّنًا ضد الرغبة الشديدة في التواصل الرقمي. لذلك، فإن أفضل وسيلة على الإطلاق للوقاية من الانشغال القهري بالحميمية الرقمية هي تطوير العلاقات الصحية. هناك أوان مناسب للتواصل الرقمي، ولكنه يحين غالبًا في وقت لاحق، وعادةً بعد أن تكون الطبيعة قادرة على أن تأخذ مجراها مع أطفالنا. إن مهمتنا هي أن نكون مساهمين في هذه العملية، لكي نسهل ارتباط أطفالنا بنا قدر الإمكان.

إن الحل النهائي للانشغال بالارتباط هو عدم الاعتماد كثيرًا على الارتباطات من أجل التعايش في الحياة. والطريقة الوحيدة لبلوغ هذه الغاية تكون من خلال أن يصبح المرء قادرًا على الحياة ككائن مستقل. هذا هو الهدف الأساسي للنمو، ولكنه –مجددًا– يتطلب قدرًا كبيرًا من الوقت والظروف المواتية. وكلما كان الطفل أكثر تفرُّدًا، وأكثر اعتمادًا على ذاته عاطفيًا، كان أقل احتياجًا إلى الحلول الرقمية التي اخترعها مجتمعٌ في طريقه إلى الانهيار.

ليس هنالك طريق مختصر إلى التفرُّد. لا بد من تنمية الشخصية. إن أولئك المراهقين الذين يريدون أن يكونوا على طبيعتهم ويمكنهم التمسك بشخصيتهم حقًا عندما يكونون بصحبة أقرانهم لا يحتاجون إلى مواقع التواصل الاجتماعي من أجل التعايش في الحياة. وكلما قل احتياج الأطفال إلى مواقع التواصل الاجتماعي، قلت إمكانية تضررهم منها. ولكن لنصل بالمراهقين إلى هذه المرحلة في النمو، نحتاج أولًا إلى التمسك بهم. ونؤكد هنا على نقطة سبق أن أشرنا إليها: من أجل تعزيز الاستقلالية، يجب أن نرحب بالاعتمادية.

***

اقتراحات للتحكم في استخدام الوسائل الرقمية في الوقت الراهن

من أجل خلق مساحة لتعزيز التفاعل الذي سيحدث، ومن أجل كسب الوقت لبلوغ الأوان الذي لا يعود فيه الأطفال يشعرون بالحاجة إلى التواصل الرقمي، يجب أن نحاول إبعاد الإغراءات عن طريقهم.

من الأفضل أن تبدأ بهذا الأمر في وقتٍ مبكر إن أمكنك ذلك. وكما هي الحال مع مشاهدة التلفزيون، الذي كان يقتصر وقت مشاهدته بالنسبة إلى أطفالي على نصف ساعة يوميًّا، فهكذا يجب أن نبني الأنظمة والطقوس لإبقاء استخدام الوسائل الرقمية تحت السيطرة.

أنا لا أعرف إنْ كانت هناك أي حلول سهلة. يبدو أنه ينبغي لكل والدٍ أن يشق دربه في هذه المرحلة. ومع ذلك، فإننا كآباء أمامنا مجال كبير للتحسين، حتى فيما يتعلق بالتلفزيون. إن الإحصائيات تشير إلى أننا لا نبلي بلاءً حسنًا للغاية. تشير الإحصائيات إلى أنه في 64 في المئة من المنازل، يتم تشغيل التلفزيون في أثناء تناول الوجبات. وفي 45 في المئة من المنازل، يتم تشغيل التلفزيون في معظم الأوقات. وأفاد 71 في المئة من الأطفال أنهم يمتلكون تلفازًا في غرفة نومهم، بينما يمتلك 50 في المئة من الأطفال جهاز تشغيل ألعاب الفيديو. ويشير 28 إلى 30 في المئة فقط من الأطفال إلى أن والديهم لديهم قواعد بشأن مشاهدة التلفزيون واستخدام ألعاب الفيديو. ويقوم 30 في المئة فقط من الآباء بتحديد الوقت المسموح لاستخدام الحاسوب للأطفال.[5]

ولكن مجددًا، يعتبر أفضل توقيت للسماح بالتواصل من خلال الوسائل الرقمية هو الوقت الذي يلي لحظات التواصل الدافئ المُرضي. ولا ينبغي للمرء أن يفرض القيود ببساطة، دون تلبية الحاجة الدفينة كما ينبغي. ومن أجل حماية هذه اللحظات، التي تتسم بالتواصل المُرضي، نحتاج إلى خلق مساحات خالية من التكنولوجيا الرقمية في بيوتنا، وفي جداول عملنا. وتعتبر أوقات تناول الوجبات، والأوقات العائلية، والأمسيات، وأوقات النوم، هي أهم الأمور التي يجب إبقاؤها بمنأى عن الأنشطة الرقمية، سواء من أجل خلق

مساحة لإتاحة التواصل الذي يحتاج إليه أطفالنا حقًا، أو من أجل تخفيف الهوس.

عند التعامل مع الأطفال الأكبر سنًا، من المهم استمالتهم من خلال النيات الحسنة إلى احترام الحدود والأنظمة التي وضعناها، التي نعتقد أنها الأفضل بالنسبة إليهم. (تذكر أننا تناولنا استدعاء نيات الطفل في الفصل السادس عشر). ونظرًا إلى طبيعة الإنترنت، ومدى قدرة معظم الأطفال على استخدامه، فإننا نحتاج إلى تعاونهم في هذه الأمور. ينبغي القيام بمحاولات استمالتهم عندما تكون العلاقة بين الوالدين والطفل في أفضل حالاتها، وعندما يبلغ التأثير حده الأقصى، وليس في خضم الإحباط والمتاعب. وإذا كان الوالد يستدعي نية الطفل الحسنة بشكلٍ فعال، فالمشكلة ليست بهذه الخطورة، على الأقل حتى الآن.

إذا لم يتمكن الطفل من الوفاء بنياته، أو كان مخادعًا بشأن هذه المسألة، فإن المشكلة تكمن بشكل أعمق في العلاقة بين الوالد والطفل، ولا بد من معالجتها. لا ينبغي أن نُفاجأ كثيرًا. إن مثل هذا الإدمان على الارتباط يخبرنا بأن الطفل خارج عن السيطرة، ويحتاج إلى مساعدتنا، وليس إلى المزيد من الصراخ.

عندما يكون الطفل خارجًا عن السيطرة، فإن استخدام الإكراه و «العواقب» لن يؤدي إلا إلى تضخيم المشكلة، مما يضيف مستويات أعقد من الإرادة المضادة والإحباط إلى الدينامية. إننا لا نستطيع السيطرة على طفلٍ لا يستطيع السيطرة على نفسه. ويجب التعامل مع هذه المشكلة من خلال استبدال الأنشطة التي ستربط الطفل بنا بالأنشطة الرقمية. وبقدر الإمكان، يجب أن نحدَّ من استخدام الأجهزة الرقمية بشكل غير مباشر، من خلال توفير أشياء يمكن أن يقوم الطفل بها، ولا تحتاج إلى استخدام الشاشات والأجهزة. وتهدف هذه التدابير إلى كسب بعض الوقت، والسماح لنا بأخذ خطوة أولى في العلاقة. إن ارتباط أطفالنا بنا هو الذي يحتاج إلى التمهيد والرعاية. ولا يمكن لرغبتهم الشديدة في التواصل الرقمي أن تخفُت إلا عندما نُشبِع جوعهم إلى الارتباط.

عند مواجهة سلوك الارتباط الإدماني، يجب ألا يتورط المرء في معركة ضد الأعراض، بل يجب أن يتراجع لمعالجة أصل المشكلة. وكما هي الحال دائمًا، فإن الاعتبار الأول يكون للعلاقة: تأتي الأساليب والطرائق بعد ذلك. سنتناول المزيد عن هذا الأمر فيما يلي.

***

متى تنبغي إتاحة ألعاب الفيديو للأطفال؟

على الرغم من الحجج القائلة بأن ألعاب الفيديو يمكن أن تؤدي إلى تحسينات في مهارات حركية ومعرفية محددة، فإنه لا يوجد دليل على أن هذه التحسينات المتفرِّقة تعد حصريةً لألعاب الفيديو، أو أنها لن تحدث على أية حال نتيجةً للنمو الطبيعي. والأهم من ذلك أنه لا يوجد أي دليل على زيادة الذكاء، أو نضج الدماغ، أو النضج النفسي. ومع ذلك، هناك الكثير من المخاوف بشأن الآثار الجانبية الفسيولوجية، والتبعات النمائية المترتبة على قضاء الوقت أمام الشاشات. وترد أدلة جديدة بصورة شبه شهرية على الآثار السلبية على أمور مثل دورات النوم، وتطور حاسة البصر، والنمو البدني، وهَلُمَّ جَرًّا.

حسب ما ذكرنا، تمثل ألعاب الفيديو نشاطًا ارتباطيًّا. إن مراكز المكافأة المرتبطة بالألعاب هي بالضبط تلك المُصَمَّمة لتوجيه الأطفال إلى العلاقات. لقد كان تأسيس البنية الأساسية للارتباط أمرًا منوطًا بالثقافة. ومع ذلك، فإن ثقافة الألعاب لم تتطور وهي تأخذ التربية بعين الاعتبار. ولذلك، تعتبر ألعاب الفيديو بطبيعتها نشاطًا ارتباطيًّا منافسًا. يفشل الأطفال في السعي إلى القرب من أسرهم عند لعب ألعاب الفيديو، والأسوأ من ذلك أن هذا النشاط بحد ذاته يفسد الرغبة في التواصل الأسري.

لطالما كانت الألعاب مهمة للنمو. ولكن ثمة أنواعًا معينة من الألعاب هي التي تعتبر ذات أهمية محورية: الألعاب التي تُمَرِّن الجسم، والألعاب التي تؤدي إلى التمكُّن من مهارات الحياة، والألعاب التي تربط بين الأجيال،

والألعاب التي تعزز التعاون. ويجد المرء صعوبةً في البرهنة على أن معظم ألعاب الفيديو اليوم ستخدم هذه الأهداف.

يتمثل أحد الأهداف المهمة للألعاب في مساعدة الأطفال على تطوير المرونة النفسية عند مواجهة تجارب الخسارة والهزيمة والعجز. إن الحياة ملآنة بالعقبات، والألعاب تمنح الأطفال فرصة للتكيف مع مثل هذه التجارب المشابهة. وسواء كان الأمر يتعلق بالخسارة في لعب الورق، أو الخسارة في لعبة الكلمات، أو الخسارة في مباراة لكرة القدم، أو الخسارة في لعبة البولينج، فإن الأمر كله يتعلق بالاستعداد للتعامل مع الخسارة والعجز في الحياة وفي العلاقات.

وللتدرُّب على الخسائر والهزائم المحتومة التي ستُلقيها الحياة في طريقنا (أي للتكيف)، علينا أن نختبر ونتقبل الحزن الناجم عن الخسارة، وكذلك عدم الجدوى من تمني لو أنها لم تحدث. إن ألعاب الفيديو اليوم تفتقر بشكل ملحوظ إلى هذه الأمور، فمواجهة الخيبة لا تستمر فترةً طويلةً بما يكفي للشعور بها، وبالتالي لا يمكن لها أن تحثَّ على التكيف والمرونة النفسية الضروريين. وبدلًا من ذلك، ينتقل الطفل إلى الجولة التالية، والمستوى التالي، والتحدي التالي. وتعتبر الألعاب في المقام الأول نشاطًا لا يدفع إلى البكاء، وبالتالي فهي لا تنفع في إعداد الطفل للعبة الحياة، فليست هناك خسارة لا يمكن التغلب عليها، وليس ثمة فشلٌ لا يمكن التراجع عنه، وبالتالي لا يوجد تعلم، ولا تكيف.

ولكن ألا تعتبر ألعاب الفيديو لعبًا؟ وألا يحتاج الأطفال إلى اللعب؟ يحتاج الأطفال بالتأكيد إلى اللعب. وتتزايد باستمرار الأدلة حول الدور المحوري الذي يؤديه اللعب في النمو الصحي. إن جميع الثدييات الصغيرة لا تلعب فحسب، بل إنه من المهم أن تلعب. ويعتقد علماء التطور الآن أن اللعب هو المحرك الأساسي لنمو الدماغ، وأنه يشكل الجوانب المتنامية لعملية النضج. وفي اللعب يظهر حس الإرادة أول مرة، وتتم مواجهة الصراع الداخلي أول مرة، ويتم تحفيز التكيف أول مرة. ولذلك، نعم، يعتبر اللعب أمرًا مهمًّا للغاية من أجل النمو الصحي.

هنا تكمن المشكلة. إن ألعاب الفيديو، على الرغم من اسمها وحقيقة أنه يتم لَعِبُها، فإن أدمغتنا لا تعتبرها ألعابًا. يعتبر النشاط لعبًا حقيقيًا عندما لا يكون قائمًا على النتيجة. وفي اللعب الحقيقي، تكون المتعة في النشاط، لا في النتيجة النهائية. كما يكون الغرض من اللعب الحقيقي هو مجرد اللعب، وليس الفوز، أو إحراز النقاط. ويتحقق ذلك في بعض ألعاب الفيديو، ولكنها ليست كثيرة. ربما تكون لعبة الفيديو «ميست» (Myst)، التي تغمس المشارك في رحلة بحث ساحرة دون السعي إلى هزيمة شخص آخر، مثالًا جيدًا على ألعاب الفيديو التي يمكن اعتبار لعبها لعبًا حقيقيًا.

إن ألعاب الفيديو تحل محل نوع اللعب الذي ينبغي أن يحدث في حياة الطفل. ويعتبر أهم نوع من اللعب من منظور نمائي هو اللعب النشوئي - عندما تظهر ذات الطفل الحقيقية الإبداعية الفضولية الواثقة. إنه يعتبر نوعًا رائعًا ومغامرًا من اللعب، الذي لا يحدث إلا في أعقاب نشاط الارتباط المُشبِع. ويحتاج الأطفال -بما في ذلك الشباب- إلى قدر كبير من اللعب النشوئي، وبالتالي الكثير من الأوقات التي يحدث فيها نشاط الارتباط الـمُشبِع.

نظرًا إلى التأثير المترتب على ألعاب الفيديو، فإن أفضل وقت لهذا النشاط يكون بعد أن يحظى الطفل بنوع اللعب المفيد له. وبقدر ما يتعلق الأمر بالألعاب واللعب، فلا يجب أن تكون ألعاب الفيديو هي الأساس أبدًا. إذا كان الأمر كذلك، فهذا يعني أن الطفل في مأزق. وكلما كان الطفل أقل اندفاعًا نحو لعب ألعاب الفيديو، قل قدر القلق الذي نحتاج إلى الشعور به حيال توازنه ونموه العقليين.

هناك متسع للهروب من الواقع، ولكن بشرط أن يؤهِّلنا هذا الهروب لتَقَبُّل الواقع عند عودتنا. ينخرط العديد من الأطفال في ألعاب الفيديو قبل أن يُفَضِّلوا أن يكونوا على طبيعتهم، أو يرحبوا بالواقع كحالة مثالية للوجود. وفي الأزمنة التي سبقت الأفلام والثورة الرقمية، كان الخيال هو كل ما يحتاج إليه الأطفال للهروب من الواقع من وقتٍ إلى آخر. كان الدماغ يستطيع بسهولة معرفة الفرق بين ما هو حقيقي وما هو غير حقيقي. وقد أصبحت هذه الحدود غير واضحة بفضل الثورة الرقمية. والآن، أصبح من الممكن جعل كل شيء يبدو وكأنه حقيقي. لقد باتت الشركات التجارية هي التي تمارس

التخيل نيابةً عن الأطفال، وليست هناك حاجة إلى العودة إلى الواقع، على الأقل ليس فترةً طويلة، لأن الهروب التالي يقع على بُعد نقرةٍ واحدةٍ فقط. ويبدو أن حاجتنا إلى الهروب من الواقع تتناسب طرديًّا مع فشلنا في التكيف مع الحياة الحقيقية.

إلى أن ينضج الطفل بما يكفي ليُفَضِّل أن يكون على طبيعته، وإلى أن يكون مستعدًّا لتَقَبُّل الواقع، وقادرًا على ممارسة ضبط النفس، فمن الأفضل ألا نساير طلبات الطفل بأن ينغمس في ألعاب الفيديو والترفيه الرقمي. يجب أن يكون الواقع هو الأساس دائمًا، ويجب أن يكون الدرس الأهم هو عدم جدوى الهروب من الواقع. ولا بد أن يكون الطفل قادرًا على البكاء بسبب عدم جدوى محاولة إخضاع الواقع لتوقعاته. وبمجرد أن يتم استيعاب هذا الشعور بعدم الجدوى، يصبح الهروب من الواقع من وقتٍ إلى آخر متعةً كبيرة، وغير مؤذيةٍ تمامًا.

ولكن بعض الآباء يتساءلون: ماذا عن المضايقة أو النبذ اللذين قد يمارسهما الأقران إذا كان لا يُسمَحُ للطفل بلعب ألعاب الفيديو أو الدخول إلى الإنترنت على غير المعتاد؟ قد يكون هذا مزعجًا للطفل بالتأكيد. ومع ذلك، نؤكد مجددًا على أن هنالك أشياء أسوأ من التعرض للسخرية من قِبَلِ الأقران غير الناضجين. ويمكن للطفل الذي يحظى بروابط جيدة مع البالغين أن يتحمل مثل هذه المضايقات دون أن يتضرر، وذلك لأنه يتمتع بالأمان العاطفي الذي لا يعتمد على آراء الأقران. إن الهدف طويل الأجل، المتمثل في النمو الصحي، يجب أن يتفوق دائمًا على الألم قصير الأجل، المتمثل في الرفض من الأقران.

***

هناك وقتٌ وأوانٌ لإتاحة الوصول إلى المعلومات عبر الإنترنت بلا قيود

ثمة مفارقة عميقة ومثيرة للقلق في عصر المعلومات. فالبشر -وبالطبع الأطفال- ليسوا مُهيئين للتعامل مع كم المعلومات التي يتعرضون لها، حتى فيما قبل الثورة الرقمية. والطريقة الوحيدة التي يمكن بها لأدمغتنا معالجة المعلومات في المقام الأول هي تجاهل 95 إلى 98 في المئة من المدخلات الحسية. إن مشكلة البشر ليست أننا لا نملك معلومات كافية، وإنما امتلاكنا معلومات أكثر بكثير مما يمكننا الاستفادة منه. ويعتبر التأثير النهائي والمتناقض لزيادة إمكانية الوصول إلى المعلومات هو استحضار المزيد من الدفاعات ضدها.

إنني لا أعتقد أنه من قبيل الصدفة البحتة أن يتوازى انتشار مشكلات الانتباه التي يعانيها أطفالنا اليوم مع سيل المعلومات التي يتعرضون لها. إن آليات الانتباه لدينا -خصوصًا عندما تكون غير ناضجة- غير مُصَمَّمة ببساطة للتعامل مع هذا الكم الهائل من المعلومات. ومن المعروف جيدًا أن هذا الكم الهائل يتسبب في مشكلات في التركيز، ومشكلات في الذاكرة، ومشكلات في الاسترجاع، بالإضافة إلى مشكلات تشتت الانتباه. ولا يمكن أن تتطور أنظمة الانتباه بشكل صحيح في أثناء التعامل مع سيلٍ مستمرٍ من المعلومات المُتَلَقَّاة. إن الدراسات تُظهر أننا في حاجة إلى وقت للراحة، والابتعاد فترة عن المحفزات، من أجل دمج المعلومات التي نتلقاها. فالتعرض المستمر لوسائل الإعلام يقلل من قدرتنا على استيعاب المعلومات بدلًا من أن يعززها.

هناك طريقة أخرى للنظر إلى هذا الأمر، وهي أنه يجب على المرء ألا يبتلع أكثر مما يستطيع هضمه. هذه قاعدة أساسية بالنسبة إلى جميع الرُّضَّع عندما يتعلق الأمر بالطعام. ومع تطور القدرة على هضم الطعام، يمكننا تخفيف سيطرتنا. حتى أنا، كشخص بالغ، يمكنني رغم ذلك أن أشعر بالسُمِّية التي تَنتُج عندما أتناول كمًّا أكبر مما يمكن لجسمي أن يمتصه بسهولة. وينطبق المبدأ نفسه على المعلومات. إذا كان الأطفال يتلقون معلومات أكثر مما يمكنهم استيعابه، فإن آليات الانتباه لديهم تصبح مُجهَدة، وتعجز نتيجةً لذلك

عن النمو بشكل صحيح. وتعتبر المشكلات التي تتعلق بالتركيز والذاكرة والاسترجاع والتشتت من الأعراض التي تدل على أنظمة الانتباه المُجهَدة، وغير الناضجة. إن معظمنا يعاني هذا النوع من الخلل في الانتباه عندما تكون المعلومات أكثر مما يمكننا معالجته. وفي هذه الأيام، أجد نفسي أتوق إلى حالة لا أتعرض فيها لمزيدٍ من المعلومات أكثر مما يمكنني استيعابه. ومن المفارقات أنه عندما لا نتمكن من معالجة المعلومات واستخدامها، فإننا لا نكون في حاجة إلى معلومات أكثر، بل أقل.

يلزم توافر قدر كبير من الاستعداد النمائي من أجل الاستفادة من المعلومات الـمُتلقَّاة. وتعتبر الطفولة هي الوقت الذي يجب أن يتطور فيه ذلك الاستعداد. وحتى لو كان هذا هو عصر المعلومات الخاص بنا كبالغين، فلا ينبغي أن يكون عصر المعلومات الخاص بهم كأطفال. ولا توجد طرق مختصرة للاستعداد لاستيعاب العالم، كما إنه هناك ثمن باهظ يجب دفعه لكوننا على عجلة من أمرنا. يجب أن تتمحور الطفولة في المقام الأول حول النشوء كطفل، وليس حول الاستيعاب. إن تدفق المعلومات إلى الداخل يعرقل تدفق الأفكار الناشئة إلى الخارج، وهو ما كان من المفترض أن يحدث في المقام الأول. فأولًا يأتي الفضول، تلك الرغبة في التعلم والتلقي، ومن ثم المعلومات.

إن إحدى أهم العلامات على عدم وجود تدفق خارجي ناشئ في الطفل هي الشعور بالملل. وكلمة «الملل» في حد ذاتها تعني وجود فراغ. فعندما يكون هناك نقص في التدفق الخارجي الناشئ في نظام الطفل (أي الافتقار إلى الاهتمام، والفضول، وروح المبادرة، والتطلعات)، يُستَشعَرُ الفراغ الناتج عن ذلك على أنه ملل. ومن المفارقات أن معظم الناس يرون أن حل الملل يكمن في زيادة التحفيز. وهذا لا يؤدي إلا إلى تعقيد المشكلة الأساسية، وتفاقم هذه الحلقة المفرغة. وفي عصر المعلومات والترفيه الذي لم يسبق له مثيل، توجد علامات ومؤشرات على تزايد الشعور بالملل بين أطفالنا. ويعتبر الملل علامة على خلو الطفل من العمليات الداخلية النشوئية، والسعة اللازمة لاستيعاب العالم.

ولذلك، فإن أفضل وقت يستوعب فيه الأطفال عالمهم هو بعد أن يصبحوا ملآنين بأفكارهم، ومعتقداتهم، ومعانيهم، وتأملاتهم. وهذا يحترم النظام النمائي الطبيعي للأشياء: التدفق الخارجي قبل التدفق الداخلي.

***

التحدي المتمثل في الحفاظ على دورنا كمصدر للمعلومات

ثمة جانب من جوانب عصر المعلومات يعد هو الأكثر إثارة للقلق بالنسبة إلى الوالدية والطفولة. لقد كانت مسؤولية إطلاع الأطفال على المعلومات دائمًا ما تقع على عاتق الكبار. وليس فقط مضمون المعلومات هو المهم، ولكن أيضًا السياق، والتوقيت، والصياغة.

إن إعطاء الأطفال الإجابات قبل تَكَوُّن الأسئلة يضفي عليهم صلابةً ضد التأثير المفيد للمعلومات. وإطلاعهم على المخاوف الوجودية –أي كونهم يمكن أن يموتوا، أو كون الأم أو الأب يمكن أن يموتا– قبل أن يتكوَّن لديهم شعور بأن مثل هذه العلاقات تدوم إلى الأبد هو أمرٌ قاسٍ جدًّا. وتقديم معلومات عن الحياة الجنسية قبل الأوان يعني إلحاق الضرر بنموهم.

لطالما كانت المعلومات واحدة من الأدوات الأساسية في تربية أطفالنا. فنحن نخبر أطفالنا بما يحتاجون إلى معرفته، وفقط بالقدر الذي يحتاجون إلى معرفته، وحينما يحتاجون إلى معرفته، وعندما نقتنع بأنهم مستعدون للتعامل معه. ويمكن للمرء أن يزعم أن قدرًا كبيرًا من أسلوبنا في التربية والتعليم ينطوي على إخفاء الأسرار، حتى نقرر أن المعرفة بالأمور أفضل من الجهل بها. ولطالما كان اتخاذ القرارات حول ماذا ومتى وكيف يعرف الطفل عن شيء ما من اختصاصنا، آباء ومعلمين. وهذه هي الحال، حتى الآن.

لقد غَيَّر عصر المعلومات كل ذلك، فلم يعد بإمكاننا اتخاذ تلك القرارات الحاسمة فيما يتعلق بالسياق، والمحتوى، والتوقيت. وإذا قررنا تحريف

الحقيقة من أجل مصلحة الطفل، أمكن إثبات خطئنا في بضع ثوانٍ. فما هي الانعكاسات على التربية؟ وعلى التعليم؟ وعلى الطفولة؟

يتمثل جزء من دورنا القيادي كمصدر للمعلومات أيضًا في إعطاء المعلومات متى وأينما كانت هناك حاجة إلى ذلك. وغالبًا ما يعرف أطفالنا أكثر مما نعرفه عن العديد من الأشياء، ويمكنهم العثور على المعلومات عن معظم الأشياء بسرعة أكبر منا. كما إنهم لم يعودوا ينظرون إلينا كمصدر للمعلومات التي يحتاجون إليها. ويمكن لذلك أن يشكل تهديدًا كبيرًا على دورنا كوجهة للبوصلة في حياتهم. وإذا كانوا لا يعتمدون علينا كوجهة للبوصلة، فهم أيضًا لا يعتمدون علينا في الإرشاد والتوجيه لمعرفة طريقهم، ولتشكيل قيمهم، وللتمييز بين الصواب والخطأ. وإذا لم نعد نمثل وجهة البوصلة بالنسبة إليهم، فإنهم سيفقدون الكثير مما نقدمه كبالغين مسؤولين عنهم. إن النمو الصحي معرض للخطر. ويزعم نيل بوستمان أن الطفولة نفسها تكون معرضةً للخطر عندما لا تكون لدى البالغين أي أسرار يحجبونها عن الأطفال.

من هذا المنطلق، قال بوستمان: «إذا كان الوالدان يرغبان في الحفاظ على الطفولة من أجل أطفالهما، وَجَبَ أن يتصورا التربية كفعلٍ من أفعال التمرد ضد الثقافة».[6] وأقول مرة أخرى: ينبغي أن يصبح الوالدان مثل حاجز أمام المجتمع، وليس مُمَثِّلين للمجتمع. وكلما استطعنا القيام بذلك الدور الوقائي فيما يتعلق بإمكانية وصول أطفالنا إلى المعلومات، كان ذلك أفضل. ولكن حتى لو لم نتمكن من ذلك، فما زال هناك أمل.

قد لا نتمكن من التنافس مع جوجل كناقلين للمعلومات، ولكننا لحسن الحظ لسنا في حاجة إلى ذلك. إن أكثر ما يحتاج أطفالنا إلى أن يكونوا على علمٍ به ليس هو عالمهم، وإنما أنفسهم. إنهم في حاجة إلى رؤية قيمتهم وأهميتهم تنعكس في أعيننا، وتتأكّد من خلال تعبيراتنا، وتظهر في إيماءاتنا. ولا يمكن لجوجل أن يمنحهم ذلك. إن الأمر الذي هم في أمس الحاجة إليه، الذي لا يمكن للإنترنت أن يقدمه لهم، هو المعلومات التي تتعلق بدعوتهم إلى الوجود بقربنا. ولهذا السبب، يجب أن نتمسك بأطفالنا.

سيتطلع الأطفال المتوجهون نحو الأقران إلى أقرانهم للحصول على هذه المعلومات، التي يمكنهم الآن الوصول إليها على الفور من خلال الرسائل

النصية، ووسائل التواصل الاجتماعي. أعتقد أننا يمكننا النجاة من هذه الضربة الموجهة إلى دورنا كمصدر للمعلومات. وإذا لم نتمكن من التنافس في منحهم الإجابات، وجب أن نتعمق في البحث لنصبح نحن الإجابات بالنسبة إلى أطفالنا. وعلى الرغم من قدرتهم على الوصول الكامل والفوري إلى المعلومات، فلا تزال هناك معلومات لا ينبغي أن تصل إليهم إلا من خلالنا.

هناك طرائق أخرى يمكننا من خلالها التعويض عن حقيقة أننا نفقد دورنا كمصدر للمعلومات. في الماضي، كان هذا الدور سببًا أساسيًّا للاعتمادية. ونحن في حاجة إلى إيجاد مجالات أخرى يمكننا فيها دعوة أطفالنا للاعتماد علينا. يمتلك العديد منا مهارات وهوايات يمكن لأطفالنا الاستفادة منها. ويتمثل جزء من الرقصة بين القائد والتابع في تمرير هذه الأنشطة. إن الكثير منا يعهد بتعليم هذه المهارات إلى الآخرين: ركوب الدراجة، وتطيير طائرة ورقية، والأشغال الخشبية، والحياكة، والسباحة، ورمي الكرة. إننا نرسل أطفالنا إلى المراكز المجتمعية، والمخيمات النهارية، والمخيمات الصيفية، لتعلم هذه المهارات. بل يجب علينا أن نغتنم هذه الفرص لندعو أطفالنا إلى الاعتماد علينا. إن العلاقة التي تتطور من خلال مثل هذه التفاعلات تعتبر أهم بكثير من المهارات التي ينبغي إتقانها. وبالنظر إلى أننا لم نعد مقدمي المعلومات الطبيعيين وكاتمي الأسرار، فلا يسعنا أن نخسر أكثر من ذلك.

***

استعادة الطفل «الضائع»

لقد فقد كثيرٌ منا الأمل في التغلب على المنافسة على جذب انتباه أطفالنا، التي تفرضها الأجهزة الرقمية والإنترنت. وكثيرًا ما يُشَكِّل هذا تحديًا كبيرًا، ويكاد يكون مستعصيًا على آباء الشباب المتوجهين نحو الأقران.

ليس هناك أي مخرج من ذلك سوى العبور من خلاله. علينا أن نواجه المشكلة في صميمها، ويجب أن نفعل ذلك بصبر، ومثابرة، وثقة. وكما ذكرنا آنفًا، قد نحتاج إلى استعادة أطفالنا أولًا. إننا لن نقدر على رعايتهم إلا إذا

كانوا يتغذون على مائدتنا. وإذا أصبح عالم أطفالنا يتمثل في أقرانهم، فإن الرسائل النصية ستكون هي شغلهم الشاغل، والفيسبوك سيكون هو المكان الذي يعيشون فيه. ربما يكون قد فات الأوان لمعالجة مشكلات التواصل الرقمي هذه، ولكن لم يفُتِ الأوان قط لمعالجة التوجه الدفين نحو الأقران، الذي يحرك هذه المشكلات. هذه مسألة تدور حول العلاقة، وأي تقدم يُحرَزُ في هذا المجال سيقلل من الدافع المقابل للتواصل الاجتماعي. تذكر أن الفيسبوك ما كان ليوجد لولا التوجه نحو الأقران، لذا يجب معالجة ذلك أولًا.

أقول مرة أخرى: إذا أظهر الطفل هوسًا أو خداعًا، فمن الضروري التراجع عن محاولة السيطرة عليه. وتُظهِرُ مثل هذه العلامات أن اللهو، أو ألعاب الفيديو، أو الاتصالات الرقمية يؤدون دورًا في حياة الطفل لا ينبغي لهم أن يؤدوه. إن مثل هذا الطفل يحتاج إلى مساعدتنا، وليس إلى المزيد من التفاعل المُحبِط. ولا ينبغي لنا أن نتحدى صراحةً طفلًا يعاني الإدمان بالفعل من خلال محاولة السيطرة على السلوك.

ليس هناك حل للتهديد الرقمي سوى علاقتنا مع أطفالنا - ستفشل جميع محاولات التحكم في الوصول إليه، أو حظره، أو منعه في ظل غياب ما أطلقنا عليه «قوة العلاقة». ومن الأفضل أن نلوذ بالصمت، وأن نتقبل حزننا، وأن نُقِرَّ ونعترف بعدم جدوى الأساليب القسرية التي من شأنها أن تنغص العلاقة بين الوالدين والأطفال بشكل أكبر. ومن الصعب أن نفعل ذلك بينما يدفعنا إحباطنا وقلقنا إلى التدخل بقوة أكبر، وعندما يدعو العديد ممن يُسَمَّون الخبراء إلى التَّسَلُّط. ليس هناك بديل في مثل هذه الحالات يُغني عن النَّهْجِ الصبور واللطيف الذي أوصينا به.

لقد أشار مارشال ماكلوهان إلى أنه ينبغي فهم الابتكارات التكنولوجية، ليس من حيث مضمونها، وإنما من حيث كيفية تغييرها المجتمع. فنحن عندما نبتكر تكنولوجيا جديدة، فإننا نغير أنفسنا بصورة جوهرية. وكل توسُّعٍ دائمًا ما يقابله بَترٌ.

لقد وسَّعت الأجهزة الرقمية نطاق وصول أطفالنا بعضهم إلى بعض، ولكن ما يتم بتره هو تواصلهم الحيوي معنا. وفي حين أن التكنولوجيا قد وَسَّعت نطاق وصولنا، فإنها مَزَّقت جذورنا.

إن التواصل الاجتماعي بين شبابنا يتوفر في كل مكان تقريبًا، حيث يتواصل أكثر من ثلاثة أرباع طلاب المدارس الثانوية والجامعات بعضهم مع بعض من خلال شبكة التواصل الاجتماعي المفضلة لديهم عبر هواتفهم المحمولة. وهذا هو الرابط الذي يجمعهم معًا، ولكنه أيضًا الحاجز الذي يقف بينهم وبين أولئك الذين يمكن لاتصالهم المُحِب أن يخفف جوعهم إلى الارتباط، ويعزز نضجهم.

لقد عانى الكثيرون منا الاضطرابات في التواصل الأسري، حيث يُمسِك أبناؤنا وبناتنا (وحتى أزواجنا) هواتفهم المحمولة عندما يكونون معنا، أو يُسرعون في تناول وجباتهم، أو قضاء الأوقات العائلية المميزة، للعودة إلى مطالعة رسائلهم النصية، والبريد الإلكتروني، والشبكات الاجتماعية، خوفًا من السقوط في فجوات الارتباط. ولم يعد يكفي بعد الآن أن نكون معًا لكي يحدث التواصل. في الماضي، اعتدنا على الأقل اصطحاب أطفالنا بعد المدرسة، أو بعد الرعاية النهارية، عندما لم يكن أقرانهم مُتاحين أو يمكن الوصول إليهم. وكانت لدينا فرصة لنعود بهم إلى كنفنا مرة أخرى، ولاستعادة التواصل الذي يمكننا من خلاله ممارسة التربية. وبفضل التكنولوجيا، أصبح الأقران حاضرين في كل مكان في حياة أطفالنا الآن.

إن التحدي الذي نواجهه أكثر من أي وقت مضى هو التمسك بأطفالنا. فإذا استطعنا التمسك بهم، استطعنا أن نُحَصِّنَهم ضد الجانب المظلم من الثورة الرقمية. وينبغي لنا أن نعطيهم فرصة للنضوج، حتى يصبحوا هم المتحكِّمين في هذه الأدوات الجديدة، لا عبيدًا لها.

***

مسرد المصطلحات

عملية التكيف

تشير عملية التكيف إلى قوة النمو الطبيعية التي يتغير بها الطفل -أن يتطور عاطفيًّا، أو يتعلم حقائق جديدة- نتيجة للتعايش مع شيء لا يمكن تغييره. هذه هي العملية التي يمكن للأطفال من خلالها التعلم من أخطائهم والاستفادة من الفشل. وهي أيضًا العملية التي يتغير من خلالها الطفل إلى الأفضل بفضل الشدائد.

المراهقة

إنني أستخدم مصطلح المراهقة للإشارة إلى الجسر الذي يصل بين مرحلة الطفولة ومرحلة الرشد. وهو يشير عمومًا إلى ذلك الوقت منذ بداية سن البلوغ، وحتى تولي أدوار الكبار في المجتمع.

العلاقة الغرامية

انظر علاقة الارتباط الغرامية.

الإنذار

انظر إنذار الارتباط.

الارتباط

يشير الارتباط من الناحية العلمية إلى الدافع، أو العلاقة التي تتميز بالسعي إلى القرب، والحفاظ عليه. ويتضمن الارتباط بين البشر -بمفهومه الأوسع- السعي نحو القرب بكل أشكاله: الجسدي، والعاطفي، والنفسي.

علاقة الارتباط الغرامية

استبعد الدلالة الجنسية لهذا المصطلح، وسيكون هذا التشبيه مناسبًا للتوجه نحو الأقران. إن جوهر العلاقة الغرامية في إطار الزواج يتمثل عندما ينافس ارتباطٌ خارجيٌّ على التواصل مع الشريك والقرب منه، أو يقلل منهما. إن الارتباطات بالأقران تضر نمو الطفل عندما تجذبه بعيدًا عن الوالدين.

إنذار الارتباط

إن الأدمغة البشرية مبرمجة على تنبيه أصحابها عند مواجهة الانفصال عن أولئك الذين يرتبطون بهم. يعمل إنذار الارتباط على عدة المستويات: الغريزة، والعاطفة، والسلوك، والكيمياء، والشعور. إذا شعر الطفل بالإنذار، فإنه قد يختبره في صورة خوف، أو قلق، أو وعي، أو توتر، أو ذعر، وسيدفعه بشكل عام إلى الحذر. وإذا لم يتم الشعور بهذا الإنذار بشكلٍ واعٍ، فإنه قد يظهر في صورة انزعاجٍ أو انفعال.

دماغ الارتباط

مصطلح يشير إلى أجزاء الدماغ والجهاز العصبي التي تعزز الارتباط. وهو لا يشير إلى مكان محدد بعينه، وإنما وظيفة معينة من وظائف الدماغ، التي تتشارك فيها عدة مناطق دماغية. تتمتع العديد من المخلوقات الأخرى بهذا الارتباط، حيث يعمل مثل جزءٍ من أجهزتها الدماغية، ولكن البشر وحدهم هم من يتمتعون بالقدرة على إدراك عملية الارتباط.

ضمير الارتباط

يشير إلى المشاعر السيئة التي تتكوَّن لدى المرء –وخصوصًا الطفل– عندما يفكر في شيء، أو يفعل شيئًا، أو ينوي فعل شيء من شأنه أن يثير الرفض، أو التجنب، أو خيبة الأمل لدى أولئك الذين يرتبط بهم. ويساعد ضمير الارتباط على إبقاء الأطفال قريبين من الشخصيات التي يرتبطون بها - نظريًّا، والديهم. وعندما يصبح الطفل متوجهًا نحو الأقران، فإن ضمير الارتباط يعزز العلاقات مع الأقران.

رقصة الارتباط

انظر رقصة الاحتواء.

هيمنة الارتباط

من أجل تسهيل الاعتمادية، يضع الارتباط المرء تلقائيًّا إما في موقف التابع طالب الرعاية، وإما في موقف المهيمن مقدم الرعاية. وينطبق هذا بصفة خاصة

على الشخصيات غير الناضجة، مثل الأطفال، أو البالغين غير الناضجين في هذه الحالة. من المفترض أن يكون الأطفال في موقف التابع الطالب للرعاية مع البالغين المسؤولين عنهم.

الإحباط المتعلق بالارتباط

الإحباط الذي يحدث عندما تفشل الارتباطات: عندما يفشل التواصل، أو عندما يُفتَقَدُ الشعور بالترابط.

تعارض الارتباطات

تكون الارتباطات متعارضة عندما لا يستطيع الطفل الحفاظ على القرب أو الشعور بالترابط في علاقتين في آنٍ واحد. وينشأ التعارض عندما يحصل الطفل مثلًا على مجموعة من الإرشادات حول الطريقة التي يجب أن يكون عليها ويتصرف بها من والديه، ومجموعة مختلفة تمامًا من أقرانه. وكلما كانت الارتباطات الأساسية أكثر تعارضًا، زادت احتمالية أن تتسم بالاستقطاب.

الاستجابة الارتباطية

هناك العديد من الاستجابات الارتباطية البدائية المصممة للحفاظ على القرب من خلال الحواس. ومن الأمثلة على ذلك الرضيع الذي يمسك بإصبع الوالد الذي يضغط على راحة يده.

قرية الارتباط

شبكة الارتباطات التي توفر السياق الذي يتم فيه تربية الطفل. في المجتمعات التقليدية، كانت قرية الارتباط تتوافق مع القرية الفعلية التي عاش فيها الناس وترعرعوا. أما في مجتمعنا، فيجب علينا بناء قرية الارتباط.

فجوة الارتباط

غياب الشعور بالتواصل أو الترابط مع أولئك الذين ينبغي أن يرتبط المرء بهم.

دعم الارتباطات

توطيد التشابه أو الترابط مع شخص ما من خلال إبعاد الآخرين وإقصائهم. على سبيل المثال، سيقترب طفلان من بعضهما عن طريق إهانة طفلٍ ثالث أو التقليل من شأنه.

الطبيعة ثنائية القطب للارتباط

مثل المغناطيسية، يتسم الارتباط بالاستقطاب. فكلما تم السعي إلى القرب من شخص محدد أو مجموعة ما، تمت مقاومة التواصل مع الآخرين والقرب منهم. سيقاوم الطفل بصفة خاصة أولئك الذين يعتبرهم منافسين لأولئك الذين يسعى بجد إلى الارتباط بهم. وعندما يصبح الطفل متوجهًا نحو الأقران، يكون هؤلاء الآخرين هم الآباء، وغيرهم من البالغين الراعين.

رقصة الاحتواء

مصطلح يشير إلى غرائز التودد البشرية، التي تهدف إلى ربط الآخرين بنا. لقد اخترت مصطلح الاحتواء للتخلص من الدلالات الجنسية المرتبطة بالمغازلة والتودد. وتشير كلمة «الرقصة» إلى الجانب التفاعلي من هذه العملية.

وجهة البوصلة

تستخدم هنا للإشارة إلى الوجهة المرجعية البشرية التي تأسست عن طريق الارتباط، التي يستطيع الطفل من خلالها معرفة طريقه، وتلقي توجيهاته. ويحتاج جميع الأطفال إلى وجهة بوصلة بشرية.

الارتباطات المتنافسة

راجع تعارض الارتباطات.

الإرادة المضادة

يشير هذا المصطلح إلى الغريزة البشرية الدافعة إلى مقاومة الضغط والإكراه. إن هذه الغريزة تدعم الارتباط من خلال منع الأطفال من التأثر أكثر من اللازم بأولئك الذين لا يرتبطون بهم. وتدعم الإرادة المضادة النمو أيضًا، ما لم تتزايد حدتها من خلال التوجه نحو الأقران، أو غيره من العوامل، من خلال إفساح المجال لتشكيل إرادة الطفل من خلال مدافعة إرادة الآخرين.

التَّحَصُّن ضد الضعف

إن الدماغ البشري مُصَمَّم حيث يمكنه توفير الحماية من الشعور بالضعف غير المحتمل. وعندما تكون هذه الآليات الوقائية دائمة ومتغلغلة، فإنها تؤدي إلى حالة من التحصُّن ضد الضعف. تتضمن هذه الآليات الوقائية مُرَشِّحات (فلاتر) عاطفية وإدراكية، تتجاهل المعلومات التي سيراها المرء جارحة ومؤلمة.

الانفصال الدفاعي

انظر الانفصال.

الانفصال

يشير هذا المصطلح إلى مقاومة القرب، وهذه المقاومة تمثل أحد الدفاعات ضد الضعف. في معظم الأحيان، تتم مقاومة التواصل والقرب من أجل تجنب الجرح الناتج عن الانفصال. وتعتبر هذه الاستجابة الغريزية آلية دفاعية شائعة، ولكنها تدمر سياق التربية والنمو الصحي إذا أصبحت مُلازمة ومتغلغلة.

التمايز

يشير إلى عملية النمو المتمثلة في الاستقلال أو التفرُّد. إذا كان الارتباط بالبالغين الراعين يمثل المرحلة الأولى من النمو، فإن التمايز هو المرحلة الثانية. يجب أولًا أن تكون الكينونات أو الشخصيات متمايزة بما فيه الكفاية قبل أن يتسنى دمجها بنجاح. ولهذا السبب، فإن التمايز الصحي يجب أن يسبق الاندماج في المجتمع، وإلا فلن يتمكن المرء من الشعور بالتآلف دون أن يفقد إحساسه بذاته.

الهيمنة

انظر هيمنة الارتباط.

النشوء

انظر العملية النشوئية.

الطاقة النشوئية

انظر العملية النشوئية.

العملية النشوئية

عملية التمايز الحيوية، التي تهدف إلى تمكين الطفل من العيش ككائن مستقل. تتميز هذه العملية بنوع من الطاقة الدافعة المُغامِرة، التي تنشأ تلقائيًّا من داخل الطفل النامي. ويتجلى هذا في الأطفال الدارجين. إن هذه العملية تلقائية، ولكنها ليست حتمية على الإطلاق، فهي تعتمد على تلبية احتياجات الطفل من الارتباط. وتؤدي العملية النشوئية إلى العديد من الصفات التي نجدها مرغوبةً في الطفل: الإحساس بالمسؤولية، والاستعداد للمساءلة، والفضول، والشغف، ووضع الحدود، واحترام الآخرين، والتفرُّد، والهوية الذاتية.

العاطفة

يحمل المصطلح معنيين أساسيين: «التحفيز» و «التحرك». إن العاطفة هي التي تحرك الطفل، على الأقل إلى أن تصبح الأهداف قوية بما يكفي لتحديد السلوك. وأي مخلوق يتمتع بالجهاز الحوفي، ذلك الجزء العاطفي من الدماغ، تكون لديه عاطفة، ولكن البشر وحدهم هم القادرون على إدراك عواطفهم. إننا نسمي الجزء الواعي من هذه العاطفة المشاعر. وتتسم العاطفة بعدة جوانب: كيميائية، وفسيولوجية، وتحفيزية. ولا يلزم الشعور بالعواطف لكي تحركنا - إننا غالبًا ما نكون مدفوعين بالعواطف اللاواعية.

الحميمية العاطفية

الإحساس بالقرب والترابط الذي يتم الشعور به عاطفيًا.

انهيار الثقافة

فقدان الانتقال الرأسي التقليدي للثقافة التي تنتقل فيها العادات والتقاليد من جيل إلى جيل.

الهروب من الضعف

انظر التحصن ضد الضعف.

التماهي

أحد أشكال الارتباط الذي يتشابه فيه المرء مع الشخص أو الشيء الذي يرتبط به. على سبيل المثال، الارتباط بدور تمثيلي يعني التماهي مع هذا الدور.

مبدأ الفورية

مبدأ في نظرية التعلم ينص على أنه من أجل الحصول على تغيير في السلوك، يجب على المرء أن يتدخل على الفور عندما يتجاوز الطفل حدوده. وقد استُمِدَّ هذا المبدأ من الدراسات التي أُجريت على الحمام والفئران.

الفردانية

غالبًا ما يتم الخلط بين هذا المصطلح ومصطلح التَّفرُّد، مما يضفي على هذا الأخير سمعة سيئة. تشير الفردانية إلى فكرة مفادها أن احتياجات الفرد تحظى بالأولوية على احتياجات الجماعة أو المجتمع. وغالبًا ما يدفع هذا الخلطُ الناسَ

إلى الاعتقاد بأن التفرد يتعارض مع المجتمع، بدلًا من كونه شرطًا أساسيًّا لتحقق المجتمع المثالي.

التَّفَرُّد

ذلك الجانب من الشخصية الذي لا يتجزأ ولا يشترك فيه أي شخص آخر. إن التفرد هو ثمرة عملية التحول إلى شخصية مستقلة نفسيًّا، التي تُتَوَّجُ بالازدهار التام لتميز المرء. وكون المرء فردًا، يعني أنه يمتلك تصوراتٍ وأفكارًا وحدودًا شخصية. ويعني أن يُقَدِّر المرء تفضيلاته، ومبادئه، ومقاصده، ووجهات نظره، وأهدافه. ويعني أن يحتل المرء مساحة لا يشغلها أحد غيره.

التميز الفردي

عملية التحول إلى فرد مختلف ومتمايز عن الآخرين، وقادر على العيش ككائن مستقل. وعادةً ما يتم الخلط بين هذا المفهوم ومفهوم الفردانية المُعَرَّفِ أعلاه.

الغريزة

يُراد بالغريزة الدوافع أو البواعث العميقة للأفعال، التي يشترك فيها جميع البشر. وبما أن الارتباط يعتبر هو الدافع الأبرز، فإن معظم غرائزنا تخدم الارتباط. يكمن مصدر هذه الدوافع للأفعال عميقًا داخل الجهاز الحوفي في الدماغ البشري. ومع ذلك، فإن الغرائز البشرية، شأنها شأن غرائز المخلوقات الأخرى، تحتاج إلى المحفزات المناسبة من البيئة ليتم تفعيلها بشكل صحيح. إنها ليست تلقائية بالضرورة.

عملية التكامل

قوة النمو الطبيعية، التي تتعلق بدمج الكيانات المنفصلة. في هذا الكتاب، نستخدم هذه العبارة للإشارة إلى العملية النمائية التي تحدث عندما تجتمع عناصر مختلفة من الشخصية معًا لخلق كُلٍّ جديدٍ - على سبيل المثال، يمكن دمج المشاعر العدائية مع المشاعر التي من شأنها أن تكبح جماحها، مثل التعاطف، أو القلق. إن هذا الدمج هو الذي يحقق بُعدَ النظر، والتوازن، والنضج العاطفي والاجتماعي. إن جوهر التكامل في المجال الاجتماعي هو الاختلاط دون الامتزاج، أو التآلف دون فقدان الاستقلال. وهذا يتطلب قدرًا كافيًا من التمايز المسبق.

العقل التكاملي

عندما تنشط العملية التكاملية، يستوعب العقلُ الفكرةَ أو الشعور الذي يتعارض مع الأمر الذي يقع في بؤرة التركيز. وهذا يخلق التوازن وبُعدَ النظر.

الأداء التكاملي

انظر عملية التكامل.

الحدس

عندما أستخدم هذا المصطلح، عادةً ما أشير إلى المعرفة المحسوسة لا المعلومة، اللاواعية، وليست الواعية. ولكن حدسنا لن يكون جيدًا إلا بقدر جودة بصيرتنا. وكلما كنا أدق في إدراكاتنا، استطعنا أن نثق أكثر في حدسنا.

النضج

تلك العملية التي يحقق من خلالها الطفل إمكاناته البشرية. وعلى الرغم من أن النمو النفسي يكون تلقائيًا، فإنه لا يعد أمرًا حتميًا. وإذا لم تكن الظروف مواتية، فإن الطفل قد يكبر دون أن ينضج حقًا. إن العمليات الأساسية الثلاث التي ينضج الأطفال من خلالها هي: النشوء، والتكيف، والتكامل.

التوجه

يعني التوجه أن يعرف المرء طريقه. وبالنسبة إلينا كبشر، فإن هذا لا ينطوي فقط على معرفة المرء بمكانه الحالي، ولكنه ينطوي أيضًا على معرفته بهويته ومدى أهميته. كما إنه يستتبع إضفاء معنى على البيئة المحيطة بالمرء. يتمثل جانبٌ كبيرٌ من التوجه في حصول المرء على إرشادات حول الطريقة التي يجب أن يكون عليها، ويتصرف بها، وحول ما هو مهم، وما هو متوقع. وما دام الأطفال غير قادرين بعد على توجيه أنفسهم، فإنهم يتوجهون من خلال أولئك الذين يرتبطون بهم. يتطلع الأطفال المتوجهون نحو الأقران إلى أقرانهم، وليس البالغين، لمعرفة طريقهم، وللاسترشاد بهم في كيفية التصرف، وكيفية رؤيتهم أنفسهم، وفي القيم التي ينبغي السعي إلى امتثالها.

فقدان التوجه

نظرًا إلى أن الأطفال يتوجهون من خلال أولئك الذين يرتبطون بهم، فإنهم يشعرون بالضياع والتشوُّش عندما يختفي الشعور بالارتباط. إن هذا الفقدان للإرشادات والدلالات يعتبر أمرًا غير محتمل بالنسبة إلى الأطفال، وعادةً ما يجبرهم على إعادة الارتباط بشخص أو شيء ما – وفي ثقافتنا، غالبًا ما يكون هذا الارتباط بالأقران.

عجز الوالدين

إنني أستخدم هذا المصطلح بالمعنى الحرفي للكلمة: الافتقار إلى القوة الكافية. إن الآباء يحتاجون إلى التمكين من خلال ارتباط أطفالهم بهم من أجل الوفاء بمسؤولياتهم الوالدية. وكلما كانت هذه الرابطة أضعف، أصبح الوالد أكثر عجزًا.

الوالدية

أعني بالوالدية «وظيفة» التربية، وذلك على النحو الذي استخدم به الرومان القدماء كلمة الوظيفة، بمعنى واجب، أو مسؤولية، أو منصب خاص يُكَلَّفُ به أحد الأفراد. بالنسبة إلى الرومان، فقد كان يتم تكليفهم بهذه الوظيفة الخاصة من قبل حكومتهم. وبالنسبة إلى الوالدين، فلا يمكن تولي هذه الوظيفة الخاصة إلا من خلال ارتباط الطفل بهما. إن كون المرء هو الوالد البيولوجي، أو الوالد بالتبني، أو زوج الأم، أو زوجة الأب، لا يعني تلقائيًا الوالدية بهذا المفهوم، فلا يمكن للوالد أن يتقلَّد مهامه ويتجهَّز للخدمة إلا من خلال ارتباط الطفل به.

القدرة على التربية

كثير من الناس يخلطون بين القوة والتسلُّط. ولا أقصد بالقوة الإكراه أو العقوبات، وإنما السلطة الطبيعية التي يتمتع بها الآباء عندما يتواصل أطفالهم معهم بنشاط، ويتطلعون إليهم لتلقي التوجيهات حول الكيفية التي يجب أن يكونوا عليها ويتصرفوا بها، والقيم التي ينبغي السعي إلى امتثالها. في الواقع، كلما تمتعنا بقوةٍ أكبر، قلت حاجتنا إلى اللجوء إلى التسلط، والعكس صحيح.

متلازمة مرحلة ما قبل المدرسة

إنني أستخدم هذا المصطلح لوصف مجموعة من السمات والمشكلات التي تنتج عن افتقار الأطفال إلى الأداء التكاملي. ولكون ذلك طبيعيًا في مرحلة ما قبل المدرسة، فأنا أطلق على هذه السمات والمشكلات متلازمة ما قبل المدرسة، عندما يتسم بها الأطفال والمراهقون الذين لم يعودوا في مرحلة ما قبل المدرسة، ولكنهم لم يتخلصوا من هذا القصور النمائي. وفي ثقافتنا، يعد التوجه نحو الأقران هو السبب الأكثر شيوعًا لمثل هذا التأخر في النمو.

النضج النفسي

انظر النضج.

الحميمية النفسية

الشعور بالقرب أو الترابط، الذي يأتي من كون المرء مرئيًّا أو مسموعًا، بمعنى أن يكون معروفًا أو مفهومًا.

التلقين

لقد تمت استعارة تشبيه التلقين هذا من مهنة التمثيل، حيث يجب تمثيل السلوك لأنه لا ينبع من الممثل. وهذه هي الحال مع النضج. تتطلب المواقف الاجتماعية قدرًا من النضج ربما لم يبلغه أطفالنا بعد. ولا يمكننا أن نجعلهم ينضجون بالأمر، ولكن ربما نستطيع أن نجعلهم يتصرفون بنضج في مواقف معينة من خلال تقديم الإرشادات حول ما يجب القيام به، وكيفية القيام به. ولكي يتقبل الطفل هذا التوجيه، يجب أن يكون الشخص البالغ هو مصدر التوجيه في حياة الطفل، ويعتبر هذا ثمرة ارتباط الطفل بالوالد. إن التلقين الجيد يركز على ما يجب فعله، وليس ما لا يجب فعله، ويوفر إرشادات يمكن أن يتبعها الطفل بسهولة.

حس الإرادة

يشبه الأمر قيادة عربة الخيل. إن امتلاك المرء حِسَّ الإرادة يعني الشعور وكأنه يجلس في مقعد السائق في حياته - المكان الذي تظهر فيه الخيارات، وتُتَّخَذُ فيه القرارات. ولا يولد حِسُّ الإرادة مع الأطفال، بل هو ثمرة عملية النضج، التي تتمثل في النشوء أو التميز الفردي.

الاندماج في المجتمع

عملية التأهُّل للتواؤم مع المجتمع. وقد كان ينظر إلى هذه العملية عادةً على أنها عملية منفردة ومنفصلة ومستقلة عن العمليتين النمائيتين المهمتين الأخريين: الارتباط، والتميز الفردي. ومع ذلك، عند النظر من كثب، نجد أن القدر الأكبر من عملية الاندماج في المجتمع يحدث من خلال الارتباط والعمليات التي تدعمه: التماهي، والمحاكاة، والسعي إلى الشعور بالأهمية، والحفاظ على القرب. يحظى الارتباط بالمرتبة الأولى بين هذه العمليات النمائية الثلاث، ثم يليه التميز الفردي. وعندما تسير هاتان العمليتان بشكل جيد، يمكن للاندماج الحقيقي في المجتمع أن يحدث بصورة تلقائية.

القابلية للتعلم

أن يكون المرء قابلًا للتعلم يعني أن يكون متقبلًا التعلم ومُتَحَفِّزًا للتعلم. ويشير عامل القابلية للتعلم إلى الجوانب النفسية والعاطفية والعلائقية في معادلة التعلم.

وتختلف القابلية للتعلم عن الذكاء، فقد يكون الطفل ذكيًا جدًّا، ومع ذلك غير قابل للتعلم تمامًا، والعكس صحيح.

دموع الخيبة

يعتبر البكاء عند تغلغل الشعور بالخيبة رد فعل بشريًا، وخصوصًا إذا كان الإحباط شديدًا. وتعتبر مشاعر الحزن والاستياء هي المشاعر المقابلة للبكاء. إن الخيبة هي الشعور الذي نختبره عندما نعلم بأن شيئًا ما لن ينجح، أو لا يمكن أن ينجح. وعندما يتم استيعاب الخيبة عاطفيًا، تُرسل الإشارات إلى الغدد الدمعية، مما يؤدي إلى البكاء. هذه الدموع تختلف عن دموع الإحباط. تعد تجربة استيعاب عدم جدوى شيء ما ومشاعر الحزن والاستسلام المصاحبة لذلك مهمةً لنمو الطفل. ويفتقر الأطفال المتوجهون نحو الأقران بشكل ملحوظ إلى دموع الخيبة.

المِزاج

أستخدم هذا المصطلح بمعناه الجذري، الذي يشير إلى الخلط. فالمِزاج هو خليط من السمات. لقد استخدم الرومان هذا المصطلح (temper) لوصف الخليط الصحيح من المكونات لصنع طين الفخار. إن السر في السلوك المتحضر وضبط النفس يكمن في المشاعر المختلطة. وبالتالي، فإن فقدان المرء أعصابه يعني فقدان خليط الدوافع والمشاعر المتضاربة التي تساعد على ضبط النفس.

العنصر المُلَطِّف

الأفكار، أو المشاعر، أو النيات التي من شأنها أن تكبح جماح الدوافع الباعثة على التصرف بطرائق غير لائقة. على سبيل المثال، يمكن للحب أن يلطِّف من حدة الرغبة في الأذى، ويمكن للخوف من العواقب أن يلطِّف من الدافع الباعث على التصرف بطريقة مدمرة، ويمكن للقدرة على تَفَهُّم وجهات نظر الآخرين أن تلطِّف من الميل إلى الجمود الفكري. مثل هذا التلطيف يضفي الاتزان على الشخصية، أو يضفي بُعدَ النظر على الإدراك.

التطرف

إن التطرف هو الافتقار إلى أي شعور بالحوار الداخلي، أو الصراع، أو التعارض على مستوى الوعي. وتعتبر العلامة الأولى لعدم النضج العاطفي والاجتماعي هي الشعور والتعبير اللذان يتسمان بالتطرف. ولا يمتلك الشخص المتطرف أي مشاعر مختلطة تجاه أي شيء. انظر أيضًا المِزاج.

الضعف

إن الضعف يعني القابلية للإصابة بالجروح. ونحن كبشر لا نستطيع الشعور بجروحنا فحسب، ولكننا نستطيع أيضًا الشعور بضعفنا. إن الدماغ البشري مُصَمَّم حيث يمكنه توفير الحماية من الشعور بالضعف غير المحتمل. راجع أيضًا التَّحَصُّن ضد الضعف.

الملاحظات

الفصل الأول: لماذا أصبح الآباء أهمَّ من ذي قبل

1. Judith Harris, The Nuture Assumption (New York: Simon & Schuster, 1999).
2. Michael Rutter and David J. Smith, eds., Psychosocial Disorders in Young People: Time Trends and Their Causes (New York: John Wiley and Sons, Inc., 1995).
3. كان هذا هو استنتاج البروفيسور ديفيد شافر، الباحث الرائد، ومؤلف المقررات الدراسية في علم نفس النمو، بعد مراجعة الدراسات حول تأثير الأقران. وهو يقول مُعَلِّقًا على البحث الحالي: «من الإنصاف القول إن الأقران هم المجموعة المرجعية الأساسية للأسئلة الواردة في استمارة «من أنا؟»».

(David R. Shaffer, Developmental Psychology: Childhood and Adolescence, 2nd ed. [Pacific Grove, Calif.: Brooks/Cole Publishers, 1989], p. 65).

4. إحصائيات الانتحار مستمدة من «المركز الوطني للوقاية من الإصابات ومكافحتها» في الولايات المتحدة، ومن «جمعية مركز ماكريري» في كندا. وتعتبر الإحصائيات المتعلقة بمحاولات الانتحار أكثر إثارةً للقلق. ويستشهد يوري برونفنبرينر بإحصائيات تشير إلى أن محاولات انتحار المراهقين تضاعفت ثلاث مرات تقريبًا خلال فترة الأعوام العشرين الواقعة بين عامي 1955 و1975.

(Urie Bronfenbrenner, "The Challenges of Social Change to Public Policy and Development Research". Paper presented at the biennial meeting of the Society for Research and Child Development, Denver, Colorado, April 1975).

5. Harper's, December 2003.

6. نشر البروفيسور جيمس كولمان النتائج التي توصَّل إليها في كتاب بعنوان «مجتمع المراهقين».

***

الفصل الثالث: لماذا فشلنا

1. John Bowlby, Attachment, 2nd ed. (New York: Basic Books, 1982), p. 46.

2. Robert Bly, The Sibling Society (New York: Vintage Books, 1977), p. 132.

3. كانت هذه هي الاستنتاجات التي توصَّل إليها اثنان من العلماء عندما قاما بدراسة نتائج اثنتين وتسعين دراسة، شملت ثلاثة عشر ألف طفل. وإلى جانب المزيد من المشكلات الدراسية والسلوكية، عانوا أيضًا تصورات أكثر سلبية عن أنفسهم، وواجهوا المزيد من المشكلات في التواصل مع الآباء. نُشِرَت النتائج التي توصلوا إليها في العدد 110 من مجلة «النشرة السيكولوجية» (Psychological Bulletin)، في عام 1991: صـ 26 - 46. ويأتي المقال بعنوان: «طلاق الوالدين ورفاه الأطفال: تحليل شمولي». ويتصل بذلك بصورة غير مباشرة مسحٌ أجرته هيئة الإحصاء الكندية في عام 1996، الذي خلص إلى أن الأطفال الذين يعيشون مع أحد الوالدين أكثر عرضةً إلى إعادة السنة الدراسية، أو تشخيصهم باضطراب سلوكي، أو مواجهة مشكلات تتعلق بالقلق، والاكتئاب، والعدوانية.

4. تُبرِزُ البحوث التي أجراها الطبيب النفسي البريطاني السير مايكل راتر هذه النقطة. لقد وجد أن المشكلات السلوكية تشيع بشكل أكبر في الأطفال الذين يعيشون في زواجٍ قائم ولكن تسوده الخلافات مقارنةً بأطفال الوالدين المطلقين الذين كانوا يعيشون في منازل خالية نسبيًّا من الصراع.

(Michael Rutter, "Parent-Child Separation: Psychological Effects on the Children," Journal of Child Psychology and Psychiatry 12 [1971]: 233–256).

5. Bly, The Sibling Society, p. 36.
6. Erik Erikson, Childhood and Society (New York: W.W. Norton, 1985).

***

الفصل الخامس: من الإعانة إلى الإعاقة: عندما ينقلب الارتباط علينا

1. John Bowlby, Attachment, 2nd ed. (New York: Basic Books, 1982), p. 377.

***

الفصل السادس: الإرادة المضادة: لماذا يتمرد الأطفال

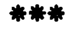
1. M. R. Lepper, D. Greene, and R. E. Nisbett, "Undermining Children's Intrinsic Interest with Extrinsic Rewards: A Test of the Over-justification Hypothesis," Journal of Personality and Social Psychology 28 (1973):129–137.
2. Edward Deci, Why We Do What We Do: Understanding Self-Motivation (New York: Penguin Books, 1995), pp. 18 and 25.

***

الفصل السابع: انهيار الثقافة

1. Howard Gardner, Developmental Psychology, 2nd ed. (New York: Little, Brown & Company, 1982).
2. The Globe and Mail, April 12, 2004.
3. Vancouver Sun, August 30, 2003.

***



1. تشمل عينة من هذه الدراسات ما يلي:

- J. D. Coie and A. N. Gillessen, "Peer Rejection: Origins and Effects on Children's Development," Current Directions in Psychological Science 2 (1993):89 - 92.
- P. L. East, L. E. Hess, and R. M. Lerner, "Peer Social Support and Adjustment of Early Adolescent Peer Groups," Journal of Early Adolescence 7 (1987):153 - 163.
- K. A. Dodge, G. S. Pettit, C. L. McClaskey, and M. M. Brown, "Social Competence in Children," Monographs of the Society for Research in Child Development 51 (1986).

2. كانت الدراسة الأكثر شمولًا هي الدراسة الطولية الوطنية لصحة المراهقين في الولايات المتحدة، التي شملت نحو تسعين ألف مراهق أمريكي. وكان عنوان الدراسة التي أعدها عالم النفس مايكل ريسنيك وعدد من زملائه هو «حماية المراهقين من الأذى: النتائج المستخلصة من الدراسة الطولية الوطنية عن صحة المراهقين». ونُشِرَت في مجلة الجمعية الطبية الأمريكية في أيلول (سبتمبر) 1997. ويعد هذا أيضًا هو استنتاج الراحل يوليوس سيجال، أحد رواد أبحاث المرونة النفسية، بالإضافة إلى روبرت بروكس، وسام جولدشتاين، مؤلّفي كتاب «تربية الأطفال المرنين نفسيًّا».

(R. Brooks and S. Goldstein, Raising Resilient Children [New York: Contemporary Books, 2001].)

3. Segal is quoted by Robert Brooks, Ph.D., of Harvard Medical School in his article "Self-worth, Resilience and Hope: The Search for Islands of Competence." This article can be found in the electronic reading room of the Center for Development & Learning. The url address is: www.cdl.org/resources/reading_room/self_worth.html.

4. John Bowlby, Loss (New York: Basic Books, 1980), p. 20.

***

الفصل التاسع: عاجزون عن النضج

1. Robert Bly, The Sibling Society (New York:Vintage Books, 1977), p. vii.

2. للاطلاع على مناقشة كاملة حول الجوانب الفسيولوجية لتطور الدماغ البشري وعلاقتها بالنمو النفسي، راجع كتاب «السلوك البشري والدماغ النامي» (Human Behavior and the Developing Brain) لكلٍّ من: جيرالدين داوسون، وكورت فيشر، وخصوصًا الفصل العاشر.

3. Carl Rogers, On Becoming a Person (New York: Houghton Mifflin, 1995), p. 283.

***

الفصل العاشر: إرث من العدوانية

1. استشهدت ليندا كلارك بهذه الإحصائيات من «مجلس التعليم بمدينة نيويورك»، وذلك في خطاب ألقته في الاجتماع السنوي الرابع بعد المئة لـ «الجمعية الأمريكية لعلم النفس».

2. استشهدت ميشيل بوربا، مؤلفة كتاب «بناء الذكاء الأخلاقي» (Building Moral Intelligence)، بهذه الإحصائيات في خطاب ألقته في مؤتمر وطني عن المدارس الآمنة، الذي عُقِدَ في برنابي، بكولومبيا البريطانية، في 19 من شباط (فبراير) 2001.

3. يأتي تقرير باربرا كوتريل تحت عنوان: (Parent Abuse: The Abuse of Parents by Their Teenage Children). وقد نشرته وزارة الصحة الكندية في عام 2001.

4. أجرى هذا الاستطلاع كلٌّ من: ديفيد ليون، وكيفن دوجلاس، من جامعة سيمون فريزر، في كولومبيا البريطانية، وصدر في تشرين الأول (أكتوبر) 1999.

5. إحصائيات الانتحار مستمدة من «المركز الوطني للوقاية من الإصابات ومكافحتها» في الولايات المتحدة، ومن «جمعية مركز ماكريري» في كندا.

6. W. Craig and D. Pepler, Naturalistic Observations of Bullying and Victimization on the Playground (1997), LaMarsh Centre for Research on Violence and Conflict Resolution, York

University, quoted in Barbara Coloroso, The Bully, the Bullied, and the Bystander (Toronto: HarperCollins, 2002), p. 66.

7. وفقًا لإحصائيات حكومة الولايات المتحدة، فإن الكحول مرتبط بنسبة 68 في المئة من جرائم القتل الخطأ، و62 في المئة من الاعتداءات، و54 في المئة من جرائم القتل، أو الشروع في القتل، و48 في المئة من عمليات السرقة، و44 في المئة من عمليات السطو، و42 في المئة من حالات الاغتصاب. وثمة مرجع على الإنترنت لهذه الإحصائيات الحكومية، وهو: www.health.org/govpubs/m1002.

***

الفصل الحادي عشر: صناعة المتنمرين والضحايا

1. Natalie Angier, "When Push Comes to Shove," New York Times, May 20, 2001.
2. S. H. Verhovek, "Can Bullying Be Outlawed," New York Times, March 11, 2001.
3. W. Craig and D. Pepler, Naturalistic Observations of Bullying and Victimization on the Playground (1997), LaMarsh Centre for Research on Violence and Conflict Resolution, York University, quoted in Barbara Coloroso, The Bully, the Bullied, and the Bystander (Toronto: HarperCollins, 2002), p. 66.
4. ستيفن سوومي هو اختصاصيٌّ علم الرئيسيات في «المعهد الوطني لصحة الطفل والتنمية البشرية» في ماريلاند. لقد درس هناك تأثيرات بيئات التربية على سلوك قرود المكاك. وقد نُشِرَت النتائج التي توصل إليها في:

S. J. Suomie, "Early Determinants of Behaviour. Evidence from Primate Studies," British Medical Bulletin 53 (1997):170–184. His work is also reviewed by Karen Wright in "Babies, Bonds and Brains" in Discover Magazine, October 1997.

واستعرضت كارين رايت أعماله في مقالة بعنوان: «الأطفال والروابط والأدمغة» (Babies, Bonds, and Brains) في مجلة «ديسكفر» (Discover)، في أكتوبر 1997.

5. Natalie Armstrong, "Study Finds Boys Get Rewards for Poor Behaviour," Vancouver Sun, January 17, 2000.
6. Angier, "When Push Comes to Shove."

***

الفصل الثاني عشر: طلاب غير قابلين للتعلم

1. أحد الأمثلة على ذلك هو مسقط رأس المؤلِّفين في مقاطعة كولومبيا البريطانية، حيث كان المعلمون وأمناء المدارس في حيرة من أمرهم إزاء دراسة أُجريت عام 2003 أظهرت هذا التراجع.
2. إن تعزيز هذا النموذج للتعلم من الأقران في الأوساط التعليمية يعتبر سوء فهم مؤسف لأفكار جان بياجيه، عالِم التطور الإنساني السويسري العظيم، بشأن التعلم التعاوني. لقد ذكر بياجيه بالفعل أن الأطفال يتعلمون بشكل أفضل عند التفاعل بعضهم مع بعض. ولكن لم يُراعَ المنظور النمائي الذي كان يُنَظِّر من خلاله: فكرة أن الإحساس القوي بالذات يحتاج إلى الظهور قبل أن يتمكن التفاعل مع الأقران من تيسير التعلم الحقيقي. ووفقًا لبياجيه، فإن تفاعل الأطفال بعضهم مع بعض لن يشحذ ويعمِّق إدراكاتهم إلا بعد أن يصبح الأطفال على معرفة بأنفسهم. وكان يرى أن المعلمين المتسلطين لديهم تأثير مُثَبِّط على عملية التميز الإدراكي الفردي هذه، على الأقل بالمقارنة مع العلاقة بالأقران القائمة على المساواة بقدر أكبر. وتمت صياغة نظريات بياجيه قبل أربعين عامًا في أوروبا القارية، حيث كان الطلاب متوجهين بشكلٍ كبيرٍ نحو البالغين، وكان النظام التعليمي هرميًا. وفي أمريكا الشمالية، اقتُطِعَت فكرة بياجيه من السياق النمائي، وطُبِّقَت في بيئةٍ اجتماعيةٍ مختلفةٍ تمامًا. لقد أصبح نموذج التعلم من الأقران، المنفصل تمامًا عن ركائزه الأصلية في إطار الارتباط بالكبار، هو الرائج بين واضعي النظريات التربوية.

ليس هناك خلل في فكرة بياجيه في البيئة المناسبة، فالتعلم التعاوني يحفز التفكير، ولكن فقط مع أولئك الأطفال الذين كوَّنوا تصوراتهم حول موضوع ما في المقام الأول، والقادرين على التصرف انطلاقًا من وِجهَتَي نظر في آنٍ واحد. وإلا، فإن التفاعل سيعمل على كبت التفرُّد الناشئ، وتثبيط الإبداع، وتسهيل الاعتماد على الأقران.

***

الفصل الثالث عشر: احتواء أطفالنا

1. Allan Schore, Affect Regulation, and the Origin of the Self: The Neurobiology of Emotional Development (Hillsdale, N.J.: Lawrence Erlbaum Associates, 1994), pp. 199 - 200.
2. Stanley Greenspan, The Growth of the Mind (Reading, Mass.: Addison-Wesley, 1996).

***

الفصل السادس عشر: لا تشجع على المنافسة

1. لقد كان هذا استنتاجًا ثابتًا بين العديد من الدراسات. ومن الأمثلة على هذه الدراسات: "Moving Up the Grades: Relationship Between Preschool Model and Later School Success," Early Childhood Research & Practice 4, no. 1 (Spring 2002).
2. هذا وفقًا لمقالة خاصة حول التعليم المنزلي في مجلة «تايم» (27 من أغسطس 2001). هناك سبب وجيه لذلك على ما يبدو، حيث إن الطلاب الذين يتعلمون في المنزل ينالون أعلى الدرجات في الاختبارات القياسية، ويتفوقون على الطلاب الآخرين في امتحانات القبول بالجامعات، بما في ذلك اختبار الكفاءة الدراسية (SAT).
3. Jon Reider was quoted in G. A. Clowes, "Home-Educated Students Rack Up Honours," School Reform News, July 2000.
4. Bureau of Labor Statistics, U.S. Department of Labor, Washington, D.C., 2000.
5. Sarah E. Watamura, Bonny Donzella, Jan Alwin, and Megan R. Gunnar, "Morningto-Afternoon Increases in Cortisol Concentrations for Infants and Toddlers at Child Care: Age Differences and Behavioral Correlates," Child Development 74 (2003): 1006–1021.
6. Carol Lynn Martin and Richard A. Fabes, "The Stability and Consequences of Young Children's Same-Sex Peer

Interactions," Developmental Psychology 37 (2001): 431–446.

7. Early Child Care Research Network, National Institute of Child Health and Human Development, "Does Amount of Time Spent in Child Care Predict Socioemotional Adjustment During the Transition of Kindergarten?" Child Development 74 (2003):976–1005.
8. Stanley I. Greenspan, "Child Care Research: A Clinical Perspective," Child Development 74 (2003):1064–1068.

9. أجرت سوزان جيلبرت من صحيفة نيويورك تايمز مقابلة مع إليانور ماكوبي، الأستاذة الفخرية المتقاعدة لعلم نفس النمو في جامعة ستانفورد، بسبب مقالتها بعنوان "Turning a Mass of Data on Child Care into Advice for Parents"، التي نُشِرَت في 22 من تموز (يوليه) 2003.

10. نُوقِشَت هذه الدراسة في كتاب الأستاذ يوري برونفنبرينر بجامعة كورنيل، بعنوان «عالمان من الطفولة» (Two Worlds of Childhood).

11. مؤلفة المقررات الدراسية السابقة هي جوديث هاريس، وهي تطرح هذا الادعاء مرارًا وتكرارًا في كتابها «نظرية التربية» (The Nuture Assumption).

12. كانت أولى الدراسات المتعلقة باحترام الذات واضحة تمامًا فيما يتعلق بدور الوالد. اعتبر كل من: كارل روجرز، ودوروثي بريجز –من بين آخرين كُثُر– أن وجهة نظر أحد الوالدين عن الطفل كانت تحظى بأكبر تأثير على نظرة الطفل إلى نفسه. وللأسف، جرى الآن الاستعاضة عن الآباء بوصفهم مرايا يسعى الأطفال إلى رؤية انعكاس أنفسهم فيها.

إن الدراسات والبحوث المعاصرة تعكس الواقع فحسب، وليس ما ينبغي أن يكون أو ما يمكن أن يكون. وفي محاولاتنا لاكتشاف المزيد عن الأطفال، يطرح الباحثون أسئلة حول المصدر الذي يكتسبون منه إحساسهم بالأهمية، وحول الأشخاص الأهم بالنسبة إليهم. إنه كلما أصبح الأطفال أكثر توجهًا نحو الأقران، زادت إشارتهم إلى أقرانهم على أنهم هم المهمون. عندما يتم نشر هذا البحث، يتم تقديم النتائج المُتحصَّل عليها من الأطفال المشاركين المتوجهين نحو الأقران على أنها طبيعية، دون أي محاولة لوضعها في سياق تاريخي أو نمائي. ولزيادة تعقيد المشكلة، يتم وضع

اختبارات احترام الذات باستخدام أسئلة تركز على العلاقات مع الأقران، مما يغلق دائرة اللامنطقية. وبناءً عليه، فإن علماء النفس ينخدعون بغرائز الأطفال المنحرفة التي يدرسونها. إن الاستنتاجات والتوصيات المستمدة من هذا البحث تشوبها دينامية التوجه نحو الأقران، التي خلقت المشكلات ذاتها التي كان الباحثون اليائسون يحاولون معالجتها!

***

الفصل السابع عشر: أعِد بناء قرية الارتباط

1. The Historical Chronology of Intergeneration Programming in Ontario is published on the Internet by United Generations.

***

الفصل الثامن عشر: انحراف الثورة الرقمية عن مساراها

1. الحقائق والأرقام في هذا الفصل والفصل التالي مستمدة في المقام الأول من مركز «يو إس سي أنينبيرج» (USC Annenberg) للمستقبل الرقمي، ومؤسسة «كايزر فاميلي» (Kaiser Family Foundation). وتشمل المصادر الأخرى استطلاعات الدخول إلى مواقع التواصل الاجتماعي في «ويكيبيديا» و «نيلسن»، وإحصائيات استخدام وسائل الإعلام.

2. Gwenn Schurgin O'Keeffe, MD, Kathleen Clarke-Pearson, MD, Council on Communications and Media, "The Impact of Social Media on Children, Adolescents, and Families," Pediatrics 124, no. 4 (2011): 800 - 804.

3. Lin F, Zhou Y, Du Y, Qin L, Zhao Z, et al., "Abnormal White Matter Integrity in Adolescents with Internet Addiction Disorder: A Tract-Based Spatial Statistics Study," PLoS ONE

7, no. 1 (2012): www.plosone.org/article/info:doi/10.1371/journal.pone.0030253

Haifeng Hou, Shaowe Jia, Shu Hu, et al., "Reduced Striatal Dopamine Transporters in People with Internet Addiction Disorder," Journal of Biomedicine and Biotechnology, 2012: www.hindawi.com/journals/bmri/2012/854524/

4. Leslie J. Seltzer, Ashley R. Prososki, Toni E. Ziegler, and Seth D. Pollak, "Instant messages vs. speech: hormones and why we still need to hear each other," Evolution & Human Behavior 33, no. 1 (January 2012): 42–45.
5. Diana I. Tamir and Jason P. Mitchell, "Disclosing information about the self is intrinsically rewarding," PNAS 109, no. 21 (May 2012): 8038–8043.

6. أكدت الدراسات الاستقصائية التي أُجريت مؤخرًا تقرير مركز يو إس سي أنينبيرج للمستقبل الرقمي في وقت سابق عن حدوث انخفاض حاد في اللقاءات العائلية في المنازل المتصلة بالإنترنت، وذلك بدءًا من عام 2007. وانخفض وقت اللقاءات العائلية من متوسطٍ قدره 26 ساعة في الأسبوع خلال النصف الأول من العقد، إلى أقل من 18 ساعة في الأسبوع بحلول عام 2010. وذكر الدكتور جيفري كول، مدير مركز أنينبيرج، أن وقت اللقاءات العائلية كان ثابتًا منذ عقود.

7. Linda A. Jackson, Alexander von Eye, Hiram E. Fitzgerald, Edward A. Witt, and Yong Zhao, "Internet use, videogame playing and cell phone use as predictors of children's body mass index (BMI), body weight, academic performance, and social and overall self-esteem," Computers in Human Behavior 27, no. 1 (2011): 599 - 604.

8. تألفت العينة من 1324 من مستخدمي الإنترنت الأستراليين، الذين تطوعوا للمشاركة بأنفسهم (1158 من مستخدمي فيسبوك، و166 من غير مستخدمي فيسبوك). وتتراوح أعمارهم بين 18 و44 سنة. ووفقًا للمؤلفين، كانت لدى مستخدمي الفيسبوك مستويات أعلى بكثير من الشعور بالوحدة في الأسرة مقارنة بغير مستخدمي الفيسبوك.

Tracii Ryan and Sophia Xenos, "Who uses Facebook? An investigation into the relationship between the Big Five, shyness, narcissism, loneliness, and Facebook usage," Computers in Human Behavior 27, no. 5 (2011): 1658 - 1664.

9. تُستَمَدُّ هذه الأرقام من مقال بقلم ستيفن مارش، بعنوان: «هل يجعلنا فيسبوك وحيدين؟»، الذي نُشِرَ في عدد مايو 2012 من مجلة «ذا أتلانتيك».

10. Wilhelm Hofmann, Kathleen D. Vohs, and Roy F. Baumeister, "What People Desire, Feel Conflicted About, and Try to Resist in Everyday Life," Psychological Science 23, no. 6 (2012): 582 - 588.

***

الفصل التاسع عشر: مسألة توقيت

1. الاستطلاع السنوي التاسع (2009) الذي أجراه مركز «يو إس سي أنينبرج» للمستقبل الرقمي.

2. هذه الأرقام مستمدة من دراسة دونالد شيفرين، التي أُجريت في عام 2010 للأكاديمية الأمريكية لطب الأطفال (AAP). والدكتور شيفرين هو طبيب أطفال في ولاية واشنطن.

3. Gwenn Schurgin O'Keeffe discusses the report in an article by Doug Brunk, "Social Media Confuses, Concerns Parents," Pediatric News 45, no. 2 (February 2011).
4. Michael A. Stefanone, Derek Lackaff, and Devan Rosen, "Contingencies of SelfWorth and Social-Networking-Site Behavior," Cyberpsychology, Behavior, and Social Networking 14, no. 1-2 (January/February 2011): 41–49.
5. Victoria J. Rideout, Ulla G. Foehr, and Donald F. Roberts, Generation M2: Media in the Lives of 8- to 18-Year-Olds: A Kaiser Family Foundation Study (January 2010).
6. Neil Postman, Building a Bridge to the 18th Century: How the Past Can Improve Our Future (New York: Alfred A. Knopf, 1999).

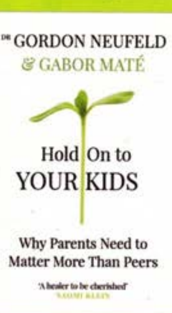
***

شكر وتقدير

قدم سبعة أشخاص مساعدة عملية مباشرة ولا غنى عنها في صياغة وإعداد هذا الكتاب: جيل كارني، وكرستين ديرينج، وشيلدون كلاين، وجوي نيوفيلد، وكيت تاشيرو، وسوزان ووكر، وإلين وين. وقد صاروا معًا معروفين باسم «مجموعة مساء الثلاثاء». كانوا يلتقوننا أسبوعيًّا، منذ بداية الكتابة، وحتى تقديم مسودة الكتاب بشكلها النهائي. لقد بحثوا، وناقشوا، وانتقدوا أولًا المفاهيم التي ستُطرَح، واستمر ذلك فصلًا بفصل في العمل قيد التنفيذ، الذي تحول إلى كتاب «تمسك بأطفالك». لقد كانت المجموعة متمسكةً بنشر رسالتنا بطريقة تحترم الهدف من الكتاب، وكذلك احتياجات القارئ وإدراكاته في الوقت نفسه. وصرنا، نحن المؤلفان، نتطلع إلى هذه الاجتماعات الحماسية والمثمرة، وانتابنا شعور بالخسارة والأسف عندما انتهت اجتماعاتنا المنتظمة بانتهاء مسودة الكتاب. إننا نُقِرُّ بفضل «مجموعة مساء الثلاثاء» علينا بكل امتنان، فلولا دعمهم المتفاني، لكانت مهمتنا أصعب، ولكانت محصلة عملنا أقل إرضاءً.



يتكاتف عالم النفس المعروف بقدرته على اختراق صميم قضايا التربية المعقدة مع الطبيب والمؤلف صاحب الكتب الأكثر مبيعًا، لمعالجة أحد أكثر الاتجاهات المقلقة وغير المفهومة في عصرنا- الأصدقاء الذين يحلُّون محلَّ الآباء في حياة أطفالنا. وقد أطلق د. نيوفيلد على هذه الظاهرة اسم «التوجه نحو الأقران»، الذي يشير إلى نزوع الأطفال والشباب إلى التطلع إلى أصدقائهم بحثًا عن التوجيه: للتمييز بين الصواب والخطأ، ولاستقاء القيم والهوية وقواعد السلوك. لكن التوجُّه نحو الأقران ينال من التماسُك الأسري، ويعكِّر المناخ المدرسي، ويعزز ثقافة الشباب ذات الطابع العدواني. إن هذا التوجُّه يطرح تفسيرًا قويًّا للتنمر في الوسط المدرسي والعنف بين الشباب، وتتجلى آثاره بصورة مؤلمة في سياق عصابات المراهقين، والأنشطة الإجرامية، والحوادث المأسوية كما هو الحال في ليتلتون، وكولورادو، وتابور، وألبرتا، وفيكتوريا، وكولومبيا البريطانية. وهو اتجاه متصاعد لم ينل قسطًا كافيًا من الشرح أو التفنيد حتى صدور كتاب «تمسّك بأطفالك». وبمجرد استيعاب هذا التوجُّه، يصبح غنيًّا عن البيان، شأنه في ذلك شأنُ الحلول.



هذا الكتاب سيعيد التربية إلى أصلها الفطري الطبيعي، وكذلك العلاقة بين الوالدين والطفل إلى مكانتها الصحيحة. إن المفاهيم والمبادئ والنصائح العملية الواردة في كتاب «تمسّك بأطفالك» ستُمكِّن الآباء من تلبية حاجة أطفالهم الفطرية لالتماس التوجيه، وذلك من خلال تحول هؤلاء الآباء ليكونوا مصدر السلطة والاتصال والدفء.

غلاف: عبد الرحمن الصواف







aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
AseerAlkotb
AseerAlkotb
AseerAlkotb